
كون إيغلدن
CONN IGGULDEN
صقر إسبارطة
FALCON OF SPARTA
رواية
مكتبة
Telegram Network
2020
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

صقر

إسبارطة

FALCON

OF SPARTA

كون إيغلدن

CONN IGGULDEN

صقر

إسبارطة

FALCON

OF SPARTA

رواية

ترجمة

ماجد حامد

مراجعة وتحرير

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

FALCON OF SPARTA

حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من المؤلف عبر

A.M. Heath & Co. Ltd., 6 Warwick Crt, London WC1R 5DJ, UK

بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى: كانون الثاني/يناير 2020 م - 1441 هـ

ردمك 978-614-02-3825-1



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران – بيروت 2050-1102 – لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

تصميم الغلاف: علي القهوجي

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف (9611+) 785107

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف (9611+) 786233

تمهيد



في بابل، وقفت طيور الزرزور في اللهيب فاغرة أفواهها، ومدت ألسنتها السوداء خارجها، وهناك خلف أسوار المدينة الشاسعة سطعت الشمس على العمال الكادحين في الحقول، فشعروا بمزيد من التعب. بينما كان يسير في وسط الطريق، لمعت بشرة الملك العظيم تحت أشعة الشمس، ولمعت لحيته السوداء المجعدة. هل كان زيتًا أم عرقًا؟ لم يستطع ولده التمييز. وفاحت رائحة الورد، ولم يعرف أيضًا أكانت من اللحية أم من العباءة الطويلة التي كان يرتديها.

امتلأ الهواء برائحة الصخور الساخنة وأشجار السرو، واشرأبت رؤوس الرماح نحو السماء، وقد أُجلي سكان الشوارع المحيطة بالكامل. لم يُترك ولدٌ، لا امرأة عجوز، ولا حتى دجاجة تجوب سطح الأرض، بعد أن أخلى الحرس الملكي الطرقاتِ من أجل جولة الملك.

خيّم صمت مطبِق حتى أن الولد سمع زقزقة العصافير الآتية من بعيد.

افترشت سعف النخيل الخضراء، طرية المداس، شوارع نينغال. لم يجرؤ جندي على مقاطعة محادثتهم أو تشتيت تركيز الرجل العجوز في لحظة توجيهه التعليمات.

كان يسعى للحفاظ على استمرارية عرشه، ولم يسمح لأي من محظياته أو الجواسيس بالاقتراب مسافة تكفي لسماع الحديث. ظن قادته أن نزوة ملكية هي التي دفعته لإخلاء الضواحي على كلا الجانبين قبل بزوغ الشمس بوقت طويل هذا الصباح، لكن الأمر كان مختلفًا؛ فما سيقال يجب ألا يسمعه أحد. هو يعلم أن جواسيس الحكام الذين سحق عروشهم يملؤون بلاطه، وهم يراقبون حركاته وسكناته، حتى إنهم يحصون عليه أنفاسه. إن تدابير الحماية والحراسة جعلت من نزهة يقوم بها مع ابنه كأي راعٍ بسيط، رفاهيةً لا تُقدر بثمن. بل هي أثمن من العملات الذهبية السميكة التي نُقشت عليها صورةً الملك داريوس، التي يتم تداولها عبر الإمبراطورية بأكملها. بينما كانا يسيران، اختلس الفتى نظرات خاطفة إلى والده، ممتلئًا بالإعجاب والثقة به في شتى الأمور، حاول أرتحششتا مجاراة خطوات الملك، بالرغم من أن الملك اضطره إلى إضافة نصف خطوة بين الفينة والأخرى للحفاظ على التوافق. بدا داريوس مشتت الذهن، ولكن أرتحششتا كان يعلم أن والده

يتابع كل شاردة وواردة، ففترة حكمه الطويلة ما كانت لتستمر لولا ذلك. لقد كان الولد معجبًا بأبيه الذي لا يظن أنه أخطأ يومًا.

في أيام البلاط، كان يمثل بين يديه أكثر الرجال سلطة في مملكته؛ رجال يفوق عدد جنود جيوشهم عشرات الآلاف، يحكمون أراضي تحوي من اليشم والعاج ما لا يُحصى. بدا داريوس مستمتعًا وهو يمرر أصابعه عبر لحيته، التي أخذت تلمع، كان يفرك إبهامه وسبابته معًا أو يلتقط حبة عنب من وعاء ذهبي يحمله عبد راكع أسفل قدميه. بهذه الطريقة، كان داريوس يسبر غور المشكلة في حين لا يزال مستشاروه يتحاورون ويتجادلون.

أراد أرتحششتا الحصول على هذه البصيرة، لذا استمع وتعلم جيدًا. كانت المدينة ساكنة، وما كانت لتحظى بهذا لو أن ألفًا من الجنود وجهوا حرابهم إلى حناجر الناس. وكان الجنود وقادتهم، يعلمون أن الملك سيصب جام غضبه عليهم إن أزعجه أحد، في مثل هذه السكينة سار الأب وابنه وكأنهما الوحيدان على ظهر البسيطة، فما من شيء حولهما سوى ذرات الغبار الدافئة والمتطايرة في ظل أشعة الشمس الآخذة بالغروب.

قال داريوس: "كانت بابل عاصمة إحدى أعظم الإمبراطوريات". كان صوته اللطيف صوت معلم أكثر مما هو صوت محارب. نظر إليه ابنه وقال وعيناه تلمعان: "ولكن مملكة فارس أعظم".

فابتسم والده بفخر وسعادة: "بالطبع، فلا مجال للمقارنة، فمساحتها تفوق مساحة بابل وهي في عز سطوتها بعشرة أضعاف، وقد يحتاج المرء إلى أن يجول حول حدود إمبراطوريتي عمره كله وربما ضعف هذا الوقت، ولكن مع ذلك فهي لم تُمنح لي يا ولدي، عندما قُتل والدي استلم أخي العرش، لقد حكم لمدة شهر قبل أن يُقتل".

فقال أرتحششتا: "وانتقمت من قتلَته سعيًا لتحقيق السلام". توقف الملك وأدار وجهه نحو الشمس، وأغمض عينيه، ليتمكن من استحضار الذكريات بصورة أفضل وقال: "صحيح، مع شروق شمس ذلك اليوم كنا ثلاثة إخوة، وعندما حل المساء لم يبقَ سواي. كنت مضرجًا بالدماء ولكني كنت الملك".

شهق داريوس، فاتسع صدره، وأصدرت صفائح درعه صوتًا عندما احتكت ببعضها، فما كان من أرتحششتا إلا أن قلّد والده بحركة إرادية. لم يدرِ أرتحششتا سبب استدعاء والده له في ذلك اليوم، ولا سبب اختفاء الحراس الخالدين المشهورين. لم يكن والده يثق بأحد، هكذا يُقال، ومع ذلك سار وحده مع ابنه البكر ووريثه الشرعي ذي الأربعة عشر ربيعًا، وهذا ما جعل أرتحششتا يمتلئ فخرًا وغبطة.

استأنف والده الحديث: "يحتاج الملك إلى أكثر من ولد واحد، فالموت يأتي على حين غرّة، كما تعصف رياح الصحراء دون سابق إنذار، قد يأتي جرّاء تعثر حصان أو طعنة خنجر، ويمكن أن يحصل بسبب السم أو تناول اللحم الفاسد، وقد يأتي بسبب الحمى أو الجن الذين يملؤون الهواء ولا

يجب إغفال الخيانة. في عالم كهذا، يمثل الملك الذي لا يمتلك سوى ابن واحد تحديًا للآلهة، ولأعدائه أيضًا".

تابع داريوس سيره شابكًا يدَيه خلف ظهره مما جعل ابنه يندفع للّحاق به. أخذ أرتحششتا نفسًا عميقًا أما والده فتابع: "ولكن إذا تمكن ذلك الابن البكر، الأحبُّ إلى قلب والده، من النجاة ليصبح رجلًا، عندها ستبدأ لعبة أخرى، فإذا كان لهذا الولد إخوة فسيصبحون وحدهم القادرين على تجريده من كل ما يملك".

سأل أرتحششتا فجأة: "سايروس؟". بالرغم من حذره وذعره من والده، فإن فكرة أن أخاه الأصغر سيكون في يوم من الأيام عدوه جعلت عينيه تبرقان دهشةً: "أبي، لا يمكن لسايروس أن يؤذيني على الإطلاق".

استدار والده على عقبه، وارتفعت طيات عباءته كأجنحة الخنفساء التي توشك على الطيران.

"أنت ولدي وولي عهدي، إذا قُتلت فسيؤول العرش لسايروس وهذه هي... غايته". جثا الملك على ركبته، وأمسك راحتَي ولده بين يديه. "عهدًا عليّ أنني سأجعلك ولي عهدي، ولكن سايروس محارب بالفطرة، إنه لا يزال في الثالثة عشرة من العمر، ولكنه يمتطي الحصان ببراعة حراسي الشخصيين. هل تنبهت إلى الطريقة التي ينظرون بها إليه؟ في الشهر الماضي، حملوه على أكتافهم في أرجاء القصر عندما أطلق سهمًا على عصفورٍ طائرٍ فأسقطه".

أخذ الملك نفَسًا عميقًا، لقد أراد من أرتحششتا أن يفهم: "يا ولدي، أنا أحبكما، ولكني عندما ألفظ أنفاسي الأخيرة، عندما يخيم الحزن والأسى على الإمبراطورية بأكملها، في يومي الأخير سأستدعيه إلى غرفتي، وعليك أن تقتله. لأنك إذا تركته حيًا فسيقتلك حتمًا".

رأى أرتحششتا الدموع تملأ عينيّ والده، وتتلألأ فيهما، كانت تلك المرة الأولى التي يُظهر فيها مشاعره، وقد صدمه ذلك.

"أعتقد أنك مخطئ يا أبي، ولكنني لن أنسى ما قلته".

انتصب الملك واقفًا على قدميه، وطقطق درعه. لقد احمر وجهه، وكان من الصعب معرفة سبب ذلك؛ أكان من الغضب أم من مشاعر أخرى.

قال: "حسنًا، ولا تنسَ ما سأقوله الآن، إن أخبرت أخاك بكلمة مما سمعت، فستحفر قبرك بيدك، فهو من سينحرك. بالطبع ليس اليوم وليس هذا العام، فأنتما ستلعبان وتمرحان، ولكن عندما يعلم أن السلطة ستكون من نصيبك، ولن يكون إلا أميرًا. إن حصل هذا وكنتُ على قيد الحياة، إن أتى إليّ مضرجًا بدمائك، فكن على ثقة بأنه لن يكون لديّ سواه، وسأسلمه العرش. هل تفهم يا أرتحششتا؟"

قال الابن حانقًا: "نعم. ولكن إذا كنت معجبًا به إلى هذا الحد يا أبتاه، لماذا لا تقتلني هنا في منتصف الطريق وتدع سايروس يتولى العرش؟". قبل أن يتمكن والده من الإجابة، تابع أرتحششتا حديثه قائلًا: "ألأنك عندها لن يكون لديك أولاد سواه، لذا فإنك لن تخاطر بفقدان السلطة. هل أنت قاسٍ إلى هذا الحد فعلًا؟ ألا يعنيك من منا سيصبح ملكًا؟".

"لو لم يكن يعنيني الأمر، لما كنت سأخلي نصف المدينة كي أتنزه معك وحدنا. هل ترى سايروس هنا؟ أنت كنت الولد الذي تمنيناه يا ولدي الشجاع. أنا لا أشك بذكائك أو حكمتك يا أرتحششتا، فدمائي تجري في عروقك، وستصبح ملكًا عظيمًا". مد داريوس يده ملامسًا خد ولده: "لقد شاهدت أبي محطمًا عندما عاد من اليونان. لقد تغلب الملك زيركسيس على الإسبارطيين في موقعة ثيرموبيلاي، ولكن بعدها حوصرت جيوشه في بلاتيه، كما حصل مع والده عندما تم تمزيقه إلى أشلاء قبل عشرة أعوام. حسنًا، كفى! لقد أقسمت على ذلك عندما أصبحت ملكًا. لقد سفكنا بما فيه الكفاية من دمائنا في اليونان، دماء تكفي لألف عام. وبدلًا من الحرب سأحافظ في حكمي على السلام، وأجعل الحدائق والنبيذ والذهب والعلم المتميز لنا. هناك أشياء أصبحت شائعة اليوم وكانت هرطقة في عهد آخر، ومعك أنت سنزدهر أكثر. سنصبح أعظم إمبراطورية عرفها العالم. ليس لدي أدنى شك في ذلك، إن سايروس يشبهني ويشبهه جده جدًا".

قال أرتحششتا بأسى: "أنا يمكنني القتال، أعلم أنك لا تعتقد أنه يمكنني ذلك، ولكنني أستطيع".

ضحك الملك وربّت على ظهره. كان يحب ولده، ولا يريد أن يقول له ما يؤذي مشاعره: "بالطبع، ولكن حارس أي رجل غني يمكنه القتال أيضًا. أنت أمير يا أرتحششتا! وستصبح ملكًا، لذا فأنت بحاجة إلى أكثر من ابتسامة لطيفة وسيف بتار، أنت بحاجة إلى قوة من نوع مختلف، أنت لم تعد صغيرًا على هذا".

نظر الملك إلى الشارع الخالي، لم يظهر وجه مخلوق على أي نافذة من النوافذ. "تذكر، في يوم من الأيام ستصبح ملكًا، وعليك أن تضع حدًا لهذا. حتى يحين ذلك اليوم، تعلم من معلّميك، امتطِ الأحصنة، استمتع بصحبة النساء، والنبيذ الأحمر. لا تتحدث عن هذا اليوم على الإطلاق لأي كان، هل تفهمني؟".

قال أرتحششتا بإيجاز: "أجل يا أبي". جعلت ملامحه الجادة الملكَ يبتسم، لقد تغير سلوكه بالكامل، ثم اقترب وداعب شعر ولده قائلًا: "أنا أشعر بالغبطة حقًا".

القسم الأول



الفصل الأول



احتضن الجبل المدينة كما تحتضن الأم وليدها. قبل الصعود إلى الهضبة العظيمة، قرر سايروس قيادة حرسه الشخصي نحو النهر. ترك الإسبارطيون دروعهم وأسلحتهم على الضفة، وقفزوا إلى الماء، يزيلون عن أنفسهم ببهجة وعثاءَ سفر أربعمئة ميل.

وهو على صهوة حصانه، ابتسم الأمير عندما رآهم يغتسلون ويمررون أصابعهم في شعورهم ولحاهم. لقد جعل الزحف شرقًا أجسامَ رجاله خالية من الدهون، أشبه بكلاب الصيد، أكسبهم سمرةً، وشد أوتار عضلاتهم. وبالرغم من ذلك لم يثبط ذلك من عزيمتهم، بالرغم من أن دماء بعضهم سالت على الطريق

سأل تيسافيرنيس بلطف: "مولاي، ألن تغير رأيك؟".

رمق سايروس صديقه القديم ومعلمه الذي كان يمتطي حصانًا مكسوًا بالفرو، وقد صهل وهز رأسه. كان حصانًا يتحدر من سلالة أصيلة من أفضل السلالات في بلاد فارس. بقي الأمير يحدق إلى الجنود الإسبارطيين، وبدا على ملامحه الامتعاض.

"هل عليّ التسلق وحدي؟ إنهم حراسي. إنهم النخبة".

حرك تيسافيرنيس لسانه كأنه يتحسس سنًا يؤلمه. كان الأمير سايروس في العشرينيات من العمر، ولم يعد غرًا ساذجًا. لقد عبّر معلمه عن تحفظه تجاه الأمر، وبرغم ذلك ها هما الآن على ضفاف نهر بولفار بصحبة جنود إسبارطيين يستحمون كالأحصنة في الماء، وينشرون رذاذه في الهواء. لقد أحضر الأمير عدوًا لدودًا إلى أعتاب مملكة فارس.

تجهّم وجه تيسافيرنيس من الفكرة. كان قد شاهد خرائط يونانية تصف العالم الذي يعرف القليل عن الإمبراطورية العظيمة في الشرق. لم يكن يرغب في مساعدة الإسبارطيين على احتلال

موقع بيرسيبوليس، ولكن القبور الملكية إلى جانب النهر كانت على بعد مسير نصف يوم.

"قد يعتبرها بعضهم إهانة، سموّك، إحضار نفس الرجال الذين حاربوا أسلافك، الذين نفوهم من البر والبحر. إسبارطيون! بالقرب من أرواح الطبيعة. هنا، في قلب العالم! لو كان والدك أصغر سنًا وبصحة جيدة...".

انفجر سايروس غضبًا، وأجاب بصوت متعب: "لكان سيهنئني يا تيسافيرنيس، لقد سار هؤلاء الرجال إلى جانبي، لم يتلكؤوا أو يطلبوا التوقف، إنهم مخلصون لي".

تمتم تيسافيرنيس بصوت غير مسموع: "إنهم مخلصون للذهب والفضة".

صرّ سايروس أسنانه حتى برزت عضلات حنكه.

"إنهم لا يملكون شيئًا، حتى أسلحتهم ورثوها عن آبائهم وأعمامهم، أو أعطيت لهم لقاء بسالتهم. انتهينا من الأمر، يكفي الآن أيها الأسد العجوز".

تقبّل تيسافيرنيس التوبيخ، وطأطأ رأسه احترامًا.

أنعشت المياه اليونانيين، وخرجوا بسرعة لتجفيف أنفسهم في ضوء الشمس الغاربة قبيل المساء.

هتفت عاملات الغسيل المحليات، وصحنَ عندما رأين كل هذا العدد من الرجال العراة، ابتسم لهن واحد أو اثنان من المحاربين، ولكن البقية استمروا بتأدية تمارينهم، لم يُجبلوا على الضحك والأحاديث المرحة.

مستاءً من رفيقه، ترجل سايروس، نزع خوذته، ودرعه، وسرواله وعباءته، ثم خلع خفيه، كل ذلك بحركة أنيقة متناغمة. لم يكن العري مشكلة بالنسبة إلى الأمير الذي نزل إلى الماء بيسر واكتفى بإيماءة من رأسه للضابط الإسبارطي أناكسيس، الذي راقب من الضفة.

أوقفت العاملات هتافاتهن عند رؤيتهن الشاب ذا اللحية الجعداء مثل الفُرس، والذي ترك خلفه خوذة وعباءة مزركشتَين بالريش الذهبي. ربما لم يعرفن اسمه، ولكنهن لم يجرؤن على ندائه. اغتسل سايروس بالماء بحركة بطيئة أشبه بتأدية طقس، طقس تطهير لما هو أكثر من العرق ورائحة الأحصنة. صمت الجنود الإسبارطيون على الضفة تعبيرًا عن احترامهم، فالأمير عاد إلى موطنه للحداد على والده.

كانت الرسالة قد وصلت سايروس قبل أربعة عشر يومًا فدفع جنوده الإسبارطيين أبعد من قدرتهم على التحمل للوصول إلى هنا في الموعد المحدد. لقد بدّل الأمير الأحصنة في الخانات الملكية على الطريق الملكي العظيم، أو اخترق البلاد عابرًا الحقول المزروعة بالقمح والشعير، ولكنهم واصلوا حث الخطا، يجرون إلى جانبه يومًا بعد يوم، وكأن شيئًا لم يكن. لقد كانوا استثنائيين، وكان فخورًا بدروعهم الحمراء وردود فعل بقية الناس عندما اكتشفوا من هم.

لقد استحقوا سمعتهم، مرة تلو الأخرى.

في ذلك المكان، عندما خيّم المساء اللطيف عليهم، أثلج قلب سايروس. بدت مدينة بيرسيبوليس ساكنة، ولكن ليس بسبب آلام حزن الشعب. لم تكن الشوارع مرصوفة بالجند، ولا غارقة بثياب الحداد، ولم تكن أخشاب الصندل مشتعلة في الأجران، ولم يكن متأكدًا من أن والده لا يزال على قيد الحياة إلا بعد عبوره أبواب الهضبة التي تعلو المدينة. استوقفته الفكرة، فتأمل الجبل الذي قام والده وجده بترميمه، والسهل الإمبراطوري الذي كان يبدو خطًا أخضر رماديًا ممتدًا في الأفق.

حلقت النسور البرية بكسل في الهواء الساخن، تراقب الحمام السمين على أشجار الفاكهة. احتوت الأرض الملكية قصورًا، وثكنات، ومسارح، ومكتبات، وكان جناح والده يقبع في مركز الحديقة الغناء التي كانوا يسمونها "فردوسًا"؛ قلب إمبراطورية أخضر سري.

على ضفاف النهر، تداخلت الشجيرات الصغيرة، وتشابكت جذورها ببنية متناسقة، وتفتحت أزهار الياسمين البيضاء على الأغصان اليافعة، مالئة الهواء بعبقها الشذي. تنفس الأمير بعمق، ووقف في الماء الذي غمره حتى وسطه مغمض العينين.

لقد كان في دياره.

جفف الجنود الإسبارطيون أنفسهم بسرعة عبر التربيت على دروعهم وتمرير أصابع أيديهم بين شعورهم، مما أشعرهم بالبرودة بالرغم من حرارة الشمس. شعر الأمير بالانتعاش أيضًا، وارتدى ملابسه بعناية، وثبت درعه الواقي فوق سترته القصيرة، والدروع الإسبارطية البرونزية على ساقيه، كانت تلائمه بشكل مثالي لدرجة أن عضلاته وانحناءات ركبتيه كانت محفورة على المعدن المصقول.

كانت تستخدم عادة من قبل المقاتلين حملةِ الدروع وليس الفرسان، ولكن سايروس أراد تكريم جنوده بهذه الطريقة التي اعتبرها تيسافيرنيس تأثرًا بالأجانب، وأدنى من مستواه، بالطبع.

لو لم يكن الأمير الشاب عائدًا إلى موطنه لرؤية أبيه المحتضر، لكان سعد بالطريقة التي تجمع بها أهل المدينة لمشاهدة الغرباء. أتى التجار من سوق الفواكه، وقد بدت الدهشة عليهم لِمَا رأوا، في حين حدق أولئك الذي دفعوا إليهم لحمايتهم مشدوهين. كان اليونانيون أصحاب الدروع الحمراء مشهورين هنا، بالرغم من أن أمة كاملة وامتداد البحر المفتوح يفصلان بين بيرسيبوليس ووادي نهر يوروتاس؛ إنه على بعد مسير ثلاثة أشهر ويفصل بينهما عالم بأكمله. إضافة إلى الدروع الحمراء، ارتدى الإسبارطيون دروع الساق التي تغطي أرجلهم من الكاحل حتى الركبة، إنهم جاهزون للحرب، حتى عند مرافقة الأمير في عودته إلى الديار.

كدسوا دروعهم في أكوام بغير حراسة عندما غاصوا في المياه، يبدو أنه لم يخطر في بالهم أن أحدًا قد يسرقها. كل منها كان معلَّمًا من الداخل بنقش يحمل اسم صاحبه، في حين يظهر حرف

واحد يدل العدو على موقع إسبارطة في اليونان؛ اللمبدا وهو الحرف الأول من اسم إقليم لاسيداميون.

كل الأحرف كانت مصقولة بإتقان ويُعتنى بها كالحبيب.

بينما كان سايروس يتقدم صعودًا، كان يفكر فيما إذا كان أي من أولئك المحدقين يعرف إسبارطة كما يعرفها هو. أما الأمهات فكنّ يُشِرن لأطفالهن إلى المحاربين الأجانب الذين أذلوا الجنود الفُرس الخالدين في السابق مرارًا وتكرارًا، جاعلين من أنفسهم أسطورة. أولئك الرجال اليونانيون هم الذين سحقوا جيش داريوس العظيم في الماراثون. كان الإسبارطيون هم من قادوا الجنود اليونانيين في معركتهم ضد الملك الفارسي زيركسيس في ثيرموبيلاي وبلاتيه وميكال. لقد غزت الإمبراطورية الفارسية ما يقارب ثلاثين أمة، ولكن اليونانيين هزموهم، خصوصًا المحاربين ذوي الدروع الحمراء.

لقد ولّت تلك الأيام، ولكن الذكريات باقية. أشاح سايروس بنظره، في حين قام رجاله بتشكيل صفين مزدوجين بانتظار أوامره. لقد عاد الإسبارطيون في النهاية لفتح أثينا وحكم اليونان بأكملها، ولكنهم يقاتلون لصالحه لأنه يدفع لهم ولأن كان بينهما ميثاق، هو الذهب والفضة اللذان منحهم إياهما فأرسلوهما إلى الوطن لبناء المعابد والثكنات ومستودعات الأسلحة.

لم يحتفظوا بشيء لأنفسهم، وكانوا أكثر الرجال مدعاة للاحترام بالنسبة إليه وليس إلى أبيه وأخيه.

قال لتيسافيرنيس: "هيا بنا أيها الأسد العجوز، لقد تأخرت بما فيه الكفاية، لا ينبغي لهذا أن يضعفني، بالرغم من أنني حتى الآن بالكاد أستطيع التصديق أن هذا ليس خطأً، فأبي أقوى من أن يموت، أليس كذلك؟".

ابتسم بالرغم من ألمه الواضح. بالمقابل، مدّ تيسافيرنيس يده وأمسك كتفه مواسيًا الشاب الصغير:

"لقد كنتُ خادم أبيك منذ ثلاثين عامًا، وقتها لم تكن قد وُلدت بعد. كان يحكم قبضته على العالم، ولكن حتى الملوك يموتون، بالرغم من أن صديقك الفيلسوف سيشكك في ذلك، إلا أنني متأكد".

"أتمنى لو أنك تعلمت اليونانية بما يكفي لتفهم ما يقولونه".

أصدر تيسافيرنيس صوت امتعاض.

"إنها لغة الرعاة. لماذا سأهتم بما يقوله العبيد؟ أنا فارسي".

قال ذلك بصوت مسموع للإسبارطيين، بالرغم من أن أحدًا منهم لم يبدِ أية إشارة إلى أنه قد سمع ذلك. نظر سايروس إلى قائدهم؛ ذلك الذي يحمل اسم أناكسيس. لطلاقته في تحدث اللغتين، لم

يكن يفوّت أناكسيس شيئًا، وذلك بالرغم من أنه تجاهل تيسافيرنيس منذ زمن بعيد واعتبره من الحثالة الفارسية. تلاقت نظرات أناكسيس وسايروس، فغمز له بطرف عينه.

شاهد تيسافيرنيس تغير ملامح الأمير، فالتفت، وهو على صهوة حصانه، محاولًا معرفة ما الذي تسبب بتغير مزاجه، من الذي تجرأ على السخرية من كرامته. لم يرَ سوى الجنود الإسبارطيين المستعدين للسير مرة أخرى فهز رأسه، متمتمًا بكلام عن الفلاحين والأجانب.

ارتدى الإسبارطيون الدروع على ظهورهم استعدادًا للمسير الطويل، وبالرغم من أنهم لم يكونوا في أي خطر إلا أن سايروس أصدر الأوامر لاتخاذ تشكيلة الاستعراض. كانوا يسيرون عبر واحدة من المدن الرئيسة الثلاث للإمبراطورية الفارسية، وكانوا يحملون دروعًا من البرونز بأياديهم اليسرى، ورماحًا طويلة بأياديهم اليمنى، وتدلت سيوف قصيرة من خصورهم، مع الأسلحة اليونانية الشهيرة على ظهورهم. تلك النصال الثقيلة المعقوفة كانت أسلحة مهيبة، وقد اعتبرها أعداؤهم عبئًا ثقيلًا. كان الإسبارطيون يسخرون من هذه الشكاوى.

غطَّت الخوذ البرونزية التي كانوا يعتمرونها ذقونهم إلى جانب جدائل شعورهم السميكة المتدلية على أكتافهم. كانت الخوذ تخفي إعياء الرجال وضعفَهم، مما يخلف انطباعًا بجمود حالتهم. إن امتلاكهم لهذه المزايا في الخفاء كان فقط أحد الأسباب التي جعلت الجميع يخشونهم. السمعة كانت تضيف معنىً آخر، أضف إلى ذلك ما يعنيه حمل أسلحة الآباء والأجداد ودروعهم.

بعد أن تركوا النهر خلفهم، امتطى كل من سايروس وتيسافيرنيس حصانيهما عبر الشوارع، ابتعدت الحشود لإخلاء الطريق أمامهما، وخيّم صمت مطبق على كل من سكان المدينة والرجلين اللذين يعبرانها.

قال تيسافيرنيس متذمرًا: "يا صاحب السمو، لا أزال عند رأي وجوب ذهابك من دون مرتزقتك، فماذا سيقول أخوك عندما يرى أنك فضّلت اليونانيين على الفُرس؟".

"أنا أمير جيوش أبي وقائدها. إذا قال أخي أي شيء، فإنه بذلك سيهين كرامتي؛ أي شرف منزلنا. الإسبارطيون هم الأفضل في العالم، من سواهم كان سيتمكن من مجاراتنا خلال الأسابيع الفائتة؟ هل ترى أيًا من الخالدين هنا؟ خدمي؟ أحد عبيدي مات على الطريق محاولًا البقاء معي، أما البقية فقد تخلفوا عنا. لا، لقد استحق هؤلاء الرجال مكانتهم، من خلال بقائهم إلى جانبي".

أحنى تيسافيرنيس رأسه كما لو أنه أذعن بالرغم من أنه كان غاضبًا. لقد عامل سايروس الإسبارطيين بمثابة رجال حقيقيين، وليس على أنهم كلاب مسعورة وفقًا لما هم عليه حقيقة. كان الضابط الفارسي يعلم من دون أن يضطر للالتفات أنهم كانوا يراقبونهما في أثناء سيرهما. لم يكونوا يثقون بأحد يقف إلى جانب سيدهم، كما تزمجر الكلاب الشرسة مهددة. مع ذلك لن يطول الأمر. قاد الفارسان الإسبارطيين إلى أعلى التل، يتبعان الطريق نحو الأدراج العظيمة التي ستأخذهم صعودًا نحو أعلى تلة الملك الفارسي.

بُنيت الأدراج العظيمة لتكون عريضة وقليلة الارتفاع مما يسمح للملك بالبقاء على صهوة حصانه عند عودته من الصيد.

قاد سايروس وتيسافيرنيس حصانيهما إلى الأمام، فتبعهما الإسبارطيون في صفوف منتظمة. كان بإمكان سايروس الشعور بنظرات الخالدين الذي يحرسون والده في أثناء اقترابه من البوابة الضيقة للسور الخارجي. لقد أنفق والده كنوز الأمة على تلته، وذلك بتحويل سفح التل إلى درج، وغير ذلك من رفاهيات في الحديقة. بالرغم من أنها كانت حديقة إمبراطورية، إلا أنها كانت حِصنًا في الوقت عينه، يحميها بشكل دائم ألفا رجل.

انتهت الدرجة الأخيرة أمام الباب، لذا لم يكن هناك متسع لأي عدو للتجمع والهجوم. شعر سايروس بتغير سطوع الضوء في حين تجمع الضباط الفُرس الذي حجبوا أشعة الشمس أمامه، محدقين إلى الأسفل صوب قواته - وبالأخص إلى الإسبارطيين الموجودين خلفه تمامًا وقد حمل كل واحد منهم أربعة أنواع من الأسلحة-. نظر سايروس إلى الأعلى صوب الأسوار التي لمعت بلون ذهبي تحت أشعة الشمس الحارقة.

"أنا الأمير سايروس، ابن الملك داريوس، أخو الأمير أرتحشَشتا، قائد جيوش فارس. باسمِ أبي افتحوا هذا الباب كي أتمكن من رؤيته".

تركوه واقفًا أكثر مما توقع، وبدا عليه الغضب. هدأت حدة انفعاله عندما سمع السلاسل والألواح تُزاح لينزلق الباب عند انفتاحه، كاشفًا عن الباحة الطويلة خلفه. ازدرد لعابه، وقرر ألا يُظهر أي خوف. بهذا توافق مع رجاله الإسبارطيين تمامًا.

دون أن يترجلا، قاد كل من سايروس وتيسافيرنيس حصانيهما عبر الساحة التي تنيرها أشعة الشمس. كان الضوء أخف حدة في تلك الساعة من النهار، وبدأ يخبو تدريجيًا مع اقتراب حلول المساء الصيفي. علم سايروس أنه أصبح أخيرًا في الديار، وعليه التخفيف من توتره وملاقاة والده، ولم يكن يعلم ما سيكون رأي والده بما أقدم عليه، لم يكن واثقًا بنفسه في مواجهة هذه الخسارة التي مُني بها.

لم تكن قوة جميع أسلحة العالم ستُبقي والده في هذه الحال يومًا إضافيًا واحدًا إذا كان أوانه قد حان. هذا العجز هو ما جعل سايروس ينهار؛ وليس المقبرة التي دخلها لتوه.

لم تقتصر دفاعات الهضبة على الرجال الواقفين خلف الأسوار الخارجية، بل أيضًا المتاهات التي سيمر عبرها المهاجمون. فإذا وصلوا بطريقة ما إلى الأدراج واخترقوا البوابات، فكل جانب من الحصن مفصول عن الآخر. لن تتمكن قوات العدو من الاتحاد ثانية حتى عبورها باحتين طويلتين وضيقتين، مفتوحتين على السماء.

لم يتردد سايروس وتيسافيرنيس، وتابعا التقدم عبر أرض الموت تلك. تبعتهما بانتظام شديد خمسة صفوف من الإسبارطيين، استقرت أعقاب الرماح على الأرض المغبرة عند وصولهم إلى فسحة للتوقف المؤقت تسبق بابًا أكبر أمامهم.

أغلقت البوابة الخارجية خلفهم وأوصدت. تجهّمت وجوه بعض الإسبارطيين لأنهم احتُجزوا في مكان لا يمكنهم المناورة فيه. كانت هناك رفوف من الحجارة تمتد على مدى تلك الباحة، وكانت تعلو عن الأرض بارتفاع رجلين يقف أحدهما فوق الآخر. لم يكن الهدف منها واضحًا، الأمر الذي جعل القائد الإسبارطي يُحكم قبضته على رمحه.

في الأمام، تبادل كل من سايروس وتيسافيرنيس النظرات وترجلا عن صهوتَي حصانيهما. حاول أناكسيس ألا يمط عنقه لرؤية من الذي أتى لتحيتهما بالرغم من أن المحادثة كانت محجوبة عنه لأن الحصانين أعاقا الرؤية. لم يعجبه ذلك، فقد كان واجبه حماية سايروس، وربما الرجل العجوز السمين أيضًا. ولكن لم تصدر أية أوامر بالبقاء متأهبًا أو الحذر من التهديد. علم أناكسيس أنه في عاصمة بلد عدو سابق، ولكنه كان أيضًا الحارس الشخصي لأحد أمرائه، رجل أُعجب به لنزاهته وقلّة تكلّفه.

بكل تأكيد، كعادة الفرس، كان الأمير شخصًا ذا مكانة. لم يُظهر سايروس أي خوف أو أي شيء آخر سوى قلقه على والده. لكن أناكسيس وجد نفسه ينظر إلى الأعلى نحو الرفوف الحجرية المحيطة بهم، كانت تشبه تقريبًا المقاعد الطويلة في المسارح الأثينية. وكان يعلم أن الفُرس رماة ماهرون. لم يحب الإسبارطيون أن يكونوا مراقبَين، لا سيما في هذا المكان.

لم تظهر أي من هذه الأفكار على ملامحه التي بقيت مخفية في ظل خوذته. وقف أناكسيس مثل تمثال برونزي، أما سايروس وتيسافيرنيس فقد تحدثا بصوت منخفض، ولكن مع ذلك كان أناكسيس مسرورًا لأن أحد الأحصنة تحرك من مكانه، الأمر الذي أتاح له رؤية الأمير.

التفت سايروس إلى الإسبارطيين الواقفين خلفه بوجوه حازمة وجادة. وقال لهم:

"أمرني أخي بدخول الحدائق الملكية من دون حراس". بدا سايروس أنه على وشك التحدث مجددًا، وهز رأسه. بالكاد كانت تلك إشارة، ولكن أناكسيس شعر بغصة في قلبه.

قال أناكسيس: "ربما لن يمانع أخوك إذا رافقتك".

ابتسم سايروس له: "يا صديقي، إذا كانت هناك نية غدر فلن يُحدث رجل واحد فرقًا".

فقال أناكسيس بجدية: "أنا دائمًا أُحدث فرقًا".

"هذا صحيح، ولكن عليّ أن أثق بأخي، إنه ولي العهد ولم أعطه سببًا واحدًا كي يشك بي".

جثا أناكسيس على ركبة واحدة وقال: "سننتظر هنا إلى حين عودتك". تحدث بطريقة القسم، فأحنى سايروس رأسه قبل أن ينهض الرجل للوقوف على قدميه.

"شكرًا لك. أنت تشرفني بخدمتك".

التفت سايروس ليجد تيسافيرنيس يراقب بنظرة احتقار تعلو وجهه، مشيرًا إلى البوابة التي تؤدي إلى داخل الهضبة الملكية. خلف تلك الباحة الطويلة تقع الحدائق الأولى التي زُرعت بتربة جُلبت من السهول، لقد أنيطت مهمة جلب الأتربة بأكثر من ألف عبد، بعد ذلك زُرعت أشجارًا، فكانت النتيجة مسارات ظليلة، وتقافزت القِرَدة الصغيرة بين الأشجار مطاردةً العصافير من غصن إلى آخر وعبق الهواء برائحة الأغصان الخضراء وأزهار الياسمين.

تجاهل سايروس الغلام الصغير الذي أتى للقائه، لم يكن سايروس متأكدًا مما إن كان إرساله يشير إلى إهانة. لابد أن أخاه أرتحشثتا بجانب والدهما الآن، مما يعني أنْ ما من إهانة مقصودة في إرسال الغلام لمرافقته عبر الحدائق.

بدأ تيسافيرنيس يبدي الاهتمام والانجذاب إلى مسارهما في أثناء مشيه إذ تنفس عميقًا الروائح التي كان يعرفها جيدًا، وبدا كأنه ازداد طولًا عندما مدد ظهره، وانتصب في مشيته. لقد عرف سايروس طوال حياته، وكان معلمه وصديقه خلال معظمها، ولكنهما مع ذلك سلكا نهجَين مختلفين، فكان سايروس محبًا للناس، وليست هناك كلمات أخرى لوصف الأمر، فقد كان شغوفًا، وكان يسعى وراء الصدقات بالطريقة عينها التي يسعى وفقها الرجال الآخرون خلف المال. بالمقارنة مع الأمير فإن تيسافيرنيس بالكاد كان بإمكانه إخفاء نفوره من الحشود والجنود المتعرقين.

سارا لمدة ساعة عبر ممرات ملتوية جدًا، وما من شك أن أي غريب سيتوه فيها عشرات المرات، لكن سايروس كان يعرفها كلها منذ طفولته وتبع الغلام بأدنى مقدار من التركيز. كان جناح والده يقع في الجانب البعيد من الهضبة، محاطًا بأشجار النخيل والعبيد، وكانوا جميعًا ينتظرون أن يلفظ أنفاسه الأخيرة. شعر سايروس بأن حلقه قد جف في أثناء سيره، مستمعًا إلى أصوات نحيب نساء والده.

نظر أناكسيس إلى الأعلى مع سماعه صوت الكشطة الأولى للخف على الحجارة فوقه. وقف الإسبارطيون بصمت لمدة ساعة أو ما يقارب ذلك، منتظرين الإشارة منه. شتم أناكسيس في سره عندما شاهد فرقة من الجنود الفرس يخرجون مالئين الحواف على كلا الجانبين. كانوا يرتدون دروعًا سوداء مزخرفة ويحملون أقواسًا مزينة بالحجارة الكريمة، مثل الحراس في مسرحية أو ربما على باب ماخور. في نظره، كانوا يبدون مثل أطفال عاثوا فسادًا في خزينة الملك.

ارتدى الضباط الفرس أزياء مزينة بالأرياش البيضاء والسوداء التي ترفرف مع هبوب الريح. لم تكن الحديقة تشبه أي شيء شاهده أناكسيس في موطنه. لمعت بشرةُ الرجل بالزيت ويداه بالأحجار الكريمة، لم يكن يحمل قوسًا بل مجرد سيف قصير ذهبي الغمد تساوي قيمته مدينة صغيرة بأسرها. رفع أناكسيس حاجبَيه متعجبًا من الفكرة، كان هناك سلب ونهب في ذلك المكان، وهذه أشياء تستحق أن يتذكرها المرء.

قال أناكسيس بصوت واضح: "جهزوا دروعكم".

حمل العديد من الرجال دروعهم على ظهورهم أو وضعوها على الأرض مستندة على أرجلهم. التقطوها مجددًا بوجوه عابسة تحمل نفس الكراهية، فلم يكن أي منهم مرتاحًا للرماة الواقفين

في موقع متفوق، في حين أنهم حُشروا في ساحة القتل في الأسفل.

نظر أناكسيس إلى الأسوار الحجرية ورأى كم هي ملساء. فوق رأسه تجمعت ثلاثة صفوف من الرماة الفرس إلى اليمين واليسار، ربما بنفس عدد الرجال الذي كانوا يراقبونهم بتجهم من الأسفل.

نزل الضابط المزين بالريش عبر ممر ضيق في الزاوية، ووقف مبرزًا نصف خفه عند حافة الصخور لكي يتمكن أناكسيس من رؤية الوجه السفلي لنعلِه المزين بالمسامير. لم يتحرك أحد لبعض الوقت وأصبح الهواء ثقيلًا بلا أية نسمة تخفف عنهم. اختفت الظلال بعيدًا بما أن الأمير وتيسافيرنيس قد رحلا، ولكن ضوء المساء بدا أنه لم يتغير. بالرغم من أن الطقس كان دافئًا، إلا أن أناكسيس شعر بكيس صفنه يتقلص. كان الرجال الذي ينظرون إلى الأسفل نحو الإسبارطيين يبتسمون وهم يلقمون أسلحتهم.

لاحظ أنهم شدوا أقواسهم، وبالرغم من أنهم كانوا يرتدون دروع الزي الاحتفالي للبلاط الملكي، إلا أن أقواسهم كانت مشدودة للقتل.

فرك لحيته وسأل صديقه سينيس: "كم يصعب الوصول إلى تلك الحافة برأيك؟". في الأوقات العادية، كان سينيس رجلًا ممتلئًا فخورًا بقوته، ولكن أربعة عشر يومًا من ركوب الخيل على الطرقات الرملية جعلت جسده مشدودًا أكثر وأكثر شراسة. رفع كتفيه قائلًا: "إذا حمل رجلان الدرع بشكل أفقي، هكذا..." رفع درعه مقابل الحافة... "يمكن رفع رجل ثالث فوقه بسهولة. هل تعتقد أنهم سيهاجموننا؟".

أجابه أناكسيس: "أجل أعتقد ذلك". رفع صوته مخاطبًا البقية مرجحًا أن أيًا من الرجال الواقفين في الأعلى لن يفهم كلمة يونانية واحدة. "يبدو أن أحدهم قرر التخلص منا، لذا جهّزوا دروعكم لحملها فوق رؤوسكم، قفوا في مجموعات من ثلاثة، ولا تؤاتوا بأية حركة إلا إذا تعرضنا للهجوم، ولكن إذا حصل ذلك، أريد من كل اثنين أن يقفا فوق بعضهما ويقذفا بالرجل الثالث أعلى السور. لقد أحببت هذا المكان، وأعتقد أنه يجب علينا الدفاع عنه، ريثما يعود الأمير سايروس".

تمتم سينيس: "أو القتال للوصول إلى النهر والرحيل".

لقد قطع أناكسيس وعدًا، فهو لا يريد أن يشعر بالعار أمام ساريوس ويظهر أنه تخلى عنه..

ما إن رأى سينيس أول قوس ينحني، حتى أحنى كتفَيه غاضبًا.

أخذ الضابط الفارسي في الأعلى نفَسًا عميقًا قبل إعطاء الأمر للبدء بالهجوم. رفع سينيس درعه، وسرعان ما أمسك أحدهم الحافة البعيدة منه، التقت أعينهما بغضب عارم بسبب الخيانة.

صرخ الضابط الفارسي، وانحنت الأقواس بالكامل، وأصدرت السهام المنطلقة أزيزًا. عندما بدأ الهجوم، قفز أناكسيس فوق أحد الدروع إلى جانب العشرات مثله من الإسبارطيين على

طول الباحة. قذف كل اثنين رجلًا نحو الأعلى، فشعر الرماة بالدهشة والمفاجأة. حطّ أناكسيس في منتصفهم حاملًا رمحه وأسلحته التقليدية الحادة الجاهزة للقتل، ساخرًا من ذعرهم.

الفصل الثاني



توقف سايروس عند ممر واسع بين أشجار الليمون، أما تيسافيرنيس فتابع السير لبضع خطوات قبل أن يلتفت نحوه.

سأل الرجل العجوز: "ما الأمر؟".

"ظننت... آه، لقد غبت عن الديار وقتًا طويلًا. هل كان صوت زقزقة العصافير، أم نحيب العبيد؟ الإمبراطورية في حداد أيها الأسد العجوز، قلبي يبكي في داخلي واعتقدت أنني سمعت صوته. إنها لمعجزة أن تقف على هذا الارتفاع فوق السهل، أن تشعر بهذا النسيم، أن تعرف ظلال هذه الأشجار، وأن تتذكر أن هذه الهضبة بأكملها قد اقتُطعت من خاصرة الجبل. الملوك يحققون ما لا يحققه الرجال العاديون إذا كانت لديهم بصيرة".

قال تيسافيرنيس:"لطالما كان والدك رجلًا صاحب إرادة. بالرغم من أنه لم يكن دائمًا مصيبًا، إلا أنه كان يتخذ قرارًا ويتابع في تنفيذه. معظم الرجال يعتبرون هذا السلوك مرهقًا في حين أن والدك ازداد قوة ويقينًا مع كل عام عاشه".

"وقلّت شكوكه".

"الشكوك هي للأطفال والعجزة. كنا نرى الكثير من الخيارات المحتملة حينها، وكان الوصول إلى خيار واحد من بينها أمرًا صعبًا. ولكن عندما كنا رجالًا في أوجنا، كنا نستبعد الخيارات الأضعف ونختار السيف، أو المجرفة، أو النساء".

نظر سايروس إلى الرجل الذي عرفه طوال حياته ليجده غارقًا في الذكريات.

قال سايروس بصوت حزين: "هل كنت هنا عندما آل العرش إليه؟".

نظر تيسافيرنيس إلى سماء الليل للحظة.

"أنت تسخر مني. أجل، لقد أخبرتك ذلك عشرات المرات، ولكني رأيت العظمة فيه حتى في ذلك الوقت. أخوه كان ملكًا ووالدك تقبل ذلك وأقسم له بالولاء. لقد ضغط على نفسه كثيرًا ولكن الجميع كان يعلم أنه سيخلفه".

فجأة قال سايروس الذي سئم من سماع القصة: "أنا أعرف هذه القصة". ولكن تيسافيرنيس تابع حديثه كأنه لم يسمع شيئًا.

"ولكن الأخ الآخر لم يكن يتمتع بالروح نفسها. لا، الأمير سوغديانوس لم يتمكن من تفضيل الشرف على رغبته في الحكم. وبعد ستة أسابيع فقط من التتويج تسلل سوغديانوس إلى غرفة النوم الملكية حاملًا خنجرًا نحاسيًا. ومع بزوغ الشمس وقف أمام البلاط، بالرغم من أنه كان مضرجًا بالدم الملكي، وبالرغم من أنه ترك خلفه آثارًا وأدلة تشير إلى كونه القاتل. إلا أنه أخبرهم بأنه أصبح الملك ولم ينبس أحدهم ببنت شفة معترضًا، لم يعترض إلا والدك".

"أعرف أيها الأسد العجوز. لقد كان وفيًا لأخيه الكبير، ولكنه انتقم من الثاني. اعترف أهل البلاط بشجاعته وبحقه، وبذلك آل إليه العرش".

قال تيسافيرنيس مومئًا برأسه علامة على الموافقة: "لقد أحب كليهما، ولكنه كان رجلًا يعطي الولاء أهمية".

"مثلي".

أجاب تيسافيرنيس موافقًا على الفور: "مثلك، أنت تمتلك شجاعة والدك، على ما أعتقد. بالرغم من أنه لم يكن يتحمل اليونانيين مثلك".

الآن حان دور سايروس للتحديق إلى السماء والتحدث إلى نفسه.

قال تيسافيرنيس: "لقد كسبت ولاءهم، لقد اشتريتهم"..

"لا. أنت لا تعرفهم، ليس هناك ذهب كافٍ في العالم أجمع لشراء خدمة الإسبارطيين إذا اختاروا عدم تقديمها." أصدر تيسافيرنيس صوت هسهسة.

هز الشاب رأسه وتذكر: "سايروس، يا ولدي العزيز، هناك ذهب كافٍ في العالم لشراء أي شيء". ولكنْ كلاهما شاهد جناحًا عظيمًا بين الأشجار. راقبهما الحراس من جانب الطريق وخيم عليهما الصمت، وتوقفا عن الكلام لاعتقادهما أنهما سيقابلان ملكًا عظيمًا يُحتضر.

شعر سايروس بجزء منه يرتخي عندما خرج أخوه أرتحشَشتا للقائه. أكبر منه بعام، ولكنهما كانا مختلفَين إلى أبعد الحدود، ومع ذلك فهما من الصلب نفسه. لطالما كان أرتحشَشتا صاحب العلم بينهما، فقد تدربا تحت إشراف والدهما الصارم، ولكن أرتحشَشتا هو الذي كان يتعثر

برمحه، أما سايروس فكان يرقص مع مدربي القتال ويقفز مثل سمكة السلمون مطلقًا صرخات عالية من الفرح. لم يفهم الأخ الأصغر النظراتِ القاتمةَ والمزاج السيئ الموجَّهَين ضده في البداية. حتى بعد أن أصبح سايروس كبيرًا كفاية لفهم احتقار أخيه إلا أنه لم يزعجه، لقد علم سايروس أنه وُلد وفيًا، وأيضًا كان يعلم أنه لن يصبح ملكًا أبدًا. تلك المهارة التي اكتسبها لنفسه بالكاد كانت تُقارن بعظمة عرض والدهما. حتى عندما اختار الملك سايروس لقيادة جيوشه وجهّزه ليتعلم من أعظم الضباط، كان الأمير الصغير يعلم أن هذا كله لجعله أكثر فائدة فحسب، وزيادة قيمته عند والده.

تحفز أرتحششتا من نجاح أخيه وطموحه الخاص. لقد تابع التدريب على استخدام السيف، وذلك كان واضحًا من الإطار العام والقبضة المحكمة عندما عانق أخاه مقبّلًا إياه على وجنتيه وعلى شفتيه. أمسك أرتحششتا رأس سايروس بين يديه، وتسببت الدموع المغرورقة في عينَي الأمير الكبير بانهمار الدموع من عيني الأمير الصغير.

اعترى سايروس الخوف، لذا تحدث بصوت مبحوح.

"هل هو...؟" لم يتمكن سايروس من إكمال الجملة. إن سؤاله عمّا إذا كان والده حيًا يشير إلى احتمال أنه قد لا يكون كذلك. هذا يشبه سؤاله عمّا إذا كانت الجبال قد دُمرت، أو الأنهار قد جفت في مجاريها.

"لا، بالرغم من أن هذا ليس بعيد التحقق. لقد كان ينادي باسمك يا أخي، ظننتك لن تأتي مطلقًا".

قال سايروس ناظرًا خلف كتف أخيه: "تنحَّ جانبًا إذن، دعني أره".

"بحالتك هذه؟ إن ملابسك ملطخة بالعرق، هل تريد إهانته؟".

"أحضر لي ملابس جديدة إذا كان ذلك يزعجك! لقد استحممت في النهر، وأنا نظيف تمامًا. الآن، يا أخي، سأدخل، لا تجعلني أطلب هذا مجددًا". بدت نبرة الأمير الصغير حازمة.

تردد أرتحششتا، ثم تراجع مشيرًا باتجاه الباب المفتوح. سار سايروس من دون أن يلتفت ليرى إن كان تيسافيرنيس سيتبعه.

لقد كان الجناح كبيرًا. في داخله برك وحدائق وغرف ولائم، إضافة إلى العشرات من عبيد والده المخصصين لخدمته. شباب صامتون يرتدون ستراتٍ قصيرةً عرضوا عليه أن يأخذوا عباءته منه قبل أن يخطو داخل الغرفة ولكنه لم يتوقف. لقد عاد صبيًا يركض نحو والده من جديد.

في الخلف، وقف أرتحششتا عند باب الجناح الكبير. مد يده مع اقتراب تيسافيرنيس، جثا الرجل العجوز على ركبتيه وركع في حضرة الأمير. أحنى وريث عرش الإمبراطورية رأسه في حين نهض تيسافيرنيس إلى الأعلى ليهمس في أذنه.

"هل قال شيئًا بشأن العرش؟ هل يعارضني؟". هز تيسافيرنيس رأسه وهو يقف على قدميه.

"ولا حتى كلمة واحدة، سموّك. أقسم على ذلك بشرف عائلتي." وقف أرتحششتا ساكنًا وفكّر.

"لقد كنت صديق والدي، وكنت وفيًا للملك منذ شبابك. هل ستكون وفيًا لي؟". ركع تيسافيرنيس مجددًا حتى لامست جبهته وشفتاه الأرض، انتظرَ هناك حتى لمس أرتحششتا بلطف على خده آذنًا له بالوقوف.

قال تيسافيرنيس: "إن ولائي دائمًا لعائلتك، سموك، لعرش مملكة فارس، ولسلالة داريوس العظيم، مرورًا بزيركسيس، ثم والدك، وصولًا إليك. أنا أدين بالولاء لكم حتى الموت وما بعده. نادني في العالم الآخر وسآتي إليك".

أومأ أرتحششتا مسرورًا. لم يسأم مطلقًا من التزلف الذي كان يتلقاه، فقدرة الناس على تقديم فروض الطاعة له كانت جلّ ما يتوقعه منهم.

"وأخي؟ لقد عرفته طوال حياته أيضًا". للمرة الأولى بدا التردد على تيسافيرنيس.

"سايروس شخص مثير للإعجاب وأنا أحبه كما أحب أبنائي. لكنه لن يرث عرش الإمبراطورية التي ستجعلنا عظماء، وهذا ما يهم في نهاية المطاف أكثر من حياتي أو حياته". ارتاح أرتحششتا قليلًا متأثرًا بما سمع.

"حسنًا، ادخل أيها الصديق القديم. استحم وارتدِ الحرير النظيف. إن والدي ينام الآن معظم اليوم، ولكنه سيرغب في معرفة ما آل إليه حالك. ظننتكم ستصلون بعد فوات الأوان، وأنا ممتن لأن ذلك لم يحصل".

قال تيسافيرنيس: "لقد أحضر أخوك معه ثلاثمئة من الحرس الإسبارطيين، إنهم محاربون استثنائيون"، عبس أرتحششتا ونظر إلى الطريق الذي أتى منه تيسافيرنيس.

"إنه معجب بهم، أنا أعرف ذلك".

"لقد سمعت أنه يقال إن أسطورتهم مبالغ بها، سموك، أنا لا أعتقد... أن هذه هي القضية. إنهم رجال بارعون، وأخوك أصر على إحضارهم إلى هنا، بالرغم من المشاكل التي قد يتسبب بها ذلك". توقف قليلًا لاختيار كلماته والتأكيد عليها من خلال تحدثه ببطء: "سموك، لم أكن لأدعهم يجوبون البلاد بحرية".

أمسكه أرتحششتا من ثوبه وقد علت شبه ابتسامة شفتَيه: "لن يتمكنوا من ذلك، لقد حرصت على الأمر".

ركض أناكسيس مسرعًا على طول الدرجة السفلى، يقتل كل من يعترض طريقه، أما الإسبارطيون فقد بقوا منخفضين ومحتمين بدروعهم. بالرغم من أن رِجليه كانتا قويتين ويتحرك بتوازن، إلا أن نظرته كانت مليئة بالغضب من الخيانة، لذا حلّ كملاك الموت بين الفُرس، الذين استمروا بإطلاق أسهمهم بأسرع ما يمكنهم.

رمى أناكسيس عشرة رجال عن الحافة فور وصوله إليها، واثقًا بأن مَن هم في الأسفل سيقتلونهم بسرعة أسرع مما قد يفعل هو. لقد فقدَ رمحه تحت إبط أحدهم إذ انتُزع من يده عندما أبى السقوط معه.

عبس الضابط الإسبارطي في وجه أول جندي مذعور واجهه، وأراه كيف تعمل الأسلحة اليونانية التقليدية على أرض الواقع. حتى عندما استلها لقتال الرجل الواقف على الحافة فوقه، أخذ أناكسيس خطوة نحو الأسفل لإعاقة هجوم آخر.

قطع كاحل رجل غريب عندما حاول ذلك الرجل إطلاق سهم نحو الإسبارطي الغاضب الذي قفز في الهواء نحوهم. لم يشعر أناكسيس حينها بأي خوف، بل ببعض الندم فحسب. علم أنه كان يومه الأخير في ساحات القتال، ولكنه كان هادئًا جدًا. لقد توقع الفرس مذبحة، وسيحصلون على واحدة، بالرغم من أنهم لن يستمتعوا بها كما كانوا يظنون.

حمل اليونانيون دروعهم فوق رؤوسهم في الساحة السفلى، محتجَزين في مكانهم وغير قادرين على المناورة. رمى العشرات منهم رماحهم أو استخدموها لطعن سيقان الرماة وجذبِها. تراكمت الجثث التي ترتدي اللون الأسود على الأرض ولم يكن بينها سوى بعض الإسبارطيين.

وقف اليونانيون في مجموعات متراصة، حاملين دروعهم فوق رؤوسهم يختلسون النظر من بين الفجوات، ولكنهم لم يرتعدوا مع ذلك.

رأى أناكسيس في النظرات الخاطفة التي تمكن من اختلاسها أن سينيس يُبقيهم منظمين ويحدد لهم الأهداف. بينما راوغ الرجل الواقف أمامه وجد أناكسيس نفسه يبتسم، إنه رامٍ للقوس مسعورٌ ذو لحية كبيرة ومنكبين عريضين. ترنح الرجل جانبًا لتلافي ضربة لم تُنفَّذ، وفي لحظة ضعفه سحبه أناكسيس بقوة من كمه وجره إلى الحافة ليهوي على الإسبارطيين الواقفين تحته. صرخ الرجال بغضب طالبين إلى أناكسيس الانتباه لما يقوم به، فقهقه ردًا عليهم متابعًا القتل والضرب، كدرويش راقص ينثر دم الفُرس وأشلاءهم أينما يحل.

سقط العديد من الرماة في الباحة الطويلة لدرجة أن بعض اليونانيين استولوا على أقواسهم وسهامهم. معظمهم كانوا قد اصطادوا الأرانب البرية في الصِغر، وبالكاد كانوا سيخطئون الفُرس الواقفين بلا دروع على ارتفاع رجلين منهم فحسب. بدأ سبعة أو ثمانية منهم برد ما يسقط الأمر الذي جعل الفُرس يتكتلون ويجتمعون متراجعين في مواجهة أسلحتهم الخاصة بدلًا من الاستمرار بالقتل.

جمع أناكسيس ثلاثة من رجاله إلى جانبه، في حين أنه رمى لهم الموجودون في الأسفل الدروع مما جعلهم يشعرون بالارتياح للوقوف خلفها، في الوقت الذي انهمرت فيه السهام على تلك الدروع المصنوعة من البرونز والخشب.

ما من أحد لم يُجرح، هذا ما شاهده أناكسيس، واثنان منهم كانا يحملان الريشة السوداء للسهام التي اقتلعاها من صدريهما.

لم يُظهروا أية علامة من علامات الألم، بالرغم من أنهم عانوا من صعوبة في التنفس وسالت دماؤهم وبدأت قواهم تخور. برزت قطعة كبيرة بيضاء اللون من أضلاع أحد الرجال. رفع الرجل كتفيه غير مكترث عندما أشار أناكسيس إلى جرحه.

وقال له: "سأضمده عندما ننتهي".

قال أناكسيس: "أنا سأخيطه لك".

"تذكر الآن، لا تدع سينيس يقترب من هنا أبدًا".

قال الرجل: "سأتذكر ذلك". كانا صديقين قديمين ولم يكونا بحاجة إلى قول المزيد.

صرخ أناكسيس متألمًا عندما تسلل سهم بين الدروع ووجد طريقه إلى جانبه، واخترقه حتى استقر في العضلة المخططة الموجودة هناك. كان بإمكانه رؤية الريشة، ولكنه لم يتجرأ على اقتلاعه. تسبب له هذا الجرح بالغثيان وهذا ما أقلقه.

قال أناكسيس: "أريدهم أن يتذكرونا".

"إذا تراخيتم فستكون تلك نهايتنا."

قال أحد الإسبارطيين بسخط: "ظننتك أنت من يتراخى".

ابتسم أناكسيس ابتسامة عريضة. اخترق نصل سلاحه الدرع الأسود بسرعة البرق، مما جعل الرجل الواقف أمامه يخرّ صريعًا جراء ذلك الشيء الذي قطع أحشاءه.

بتراجعهم إلى الخلف خائفين، ترك الرماة مساحة مناسبة، كانوا يحاولون بشدة عدم السماح للإسبارطيين الذين سيطروا على الأدراج بالاقتراب أكثر، ولا السماح للمزيد منهم بتسلق الحافة أو القفز للانضمام إلى رفاق سلاحهم.

دفعهم أناكسيس والبقية باستخدام الدروع.

انهمر الفرس بالسهام على تلك المجموعة الصغيرة حتى بعد أن صرخوا واخترقوا صفوفهم مرة أخرى. تحولت الدروع إلى أسلحة في المواجهات القريبة، فالحافة مفيدة كأي رمح لمن

تدرب على استخدامها. دبّ الذعر في صفوف الفرس الذين تشرذموا متراجعين. في الأسفل، بدأ الإسبارطيون الباقون على قيد الحياة بغناء ترنيمة الموت، التسابيح.

وصل أناكسيس إلى الدرجة العليا قبل أن يسقط سلاحه من قبضته. شاهد صفوفًا من المحاربين الفرس الجدد يدخلون من الأبواب من الجانبين، كانوا مثل السيل الذي لا يبدو أن له نهاية، حاملين أقواسًا أو سيوفًا ورماحًا. الرماح هي الأنسب لقتل الذين لم يتمكنوا من مغادرة الفخ، فكر في نفسه. كان ذلك الخيار هو خياره لو كان في موقع الضابط الفارسي.

إن مذبحة باستخدام الرماح تُعتبر إهانة ولم يكن هناك داعٍ لهذه التفاهة بين الرجال. شعر بنظره يغيب، واستعد لتقديم روحه إلى هاديس[1]وهيرميس[2]. سيكون شرفًا له لقاء الملك ليونايديس الذي ناضل في معركة ثيرموبيلاي، لقد عرف ذلك الرجل الكثير عن خيانة الفرس. أمل أناكسيس أن يرفع كأسه الملأى بالنبيذ الأحمر الفاخر بصحبته في ذلك المساء إذا تمكن من عبور النهر في الموعد المحدد.

في الباحة، شاهد سينيس أولئك الذين قذفوا إلى الأدراج يموتون واحدًا تلو الآخر آخذين معهم الأمل الأخير. لقد نفدت الرماح وفرغت الكنانات، ومع ذلك كان هناك كثير من أشلاء الدروع في كل مكان بين جثث الموتى.

لم يعد الرماة الفرس يخرون، عشرات الرجال ذوو الأردية السوداء يستلقون موتى في الباحة، وسال دم آخرين على الأدراج في كلا الجانبين. لكن مع ذلك فإن الإسبارطيين الذين مات نصفهم وفرصهم في الهروب كانت أفضل لم يحققوا شيئًا. استمر واحد أو اثنان منهم بمحاولة تسلق الحافة، ولكن بحلول ذلك الوقت كان الرماة قد اكتشفوا خطتهم لذا صوبوا سهامهم على أية محاولة من هذا النوع، فسقط الرجال صرعى مضرجين بدمائهم.

أصدر سينيس الأوامر بالتقاط أسلحة الموتى ورميها نحو الفرس. بينما جعلتهم الرماح يسقطون جاثين على ركبهم، نفّذ الإسبارطيون ما طُلب إليهم، وأصابوا أهدافهم بدقة. صفرت نصال أسلحتهم في أثناء تحليقها في الهواء، كذلك فعلت السيوف القصيرة. بعدها قذف درع أو اثنان، وتراجع الرجال تحت تأثير صدمتها مما أدى إلى سقوط بعض الرجال الذين أصابتهم في الحفرة، فقطعوا أشلاءً على الفور بالرغم من تزايد غزارة انهمار الأسهم.

أبقاهم سينيس في مجموعات أصغر فأصغر مستخدمين الدروع للتكتل بما يتيح لهم بعضًا من حرية الحركة عبر ساحة القتال ويسمح لهم بالتقاط الأسلحة المتساقطة ثم قذفها في الهواء لإسقاط المزيد منهم.

على الأدراج، استمرت الفيالق الفارسية بالوصول، رجال جدد يفوق عددهم أضعاف عدد القتلى. استلوا سيوفهم أو شدوا أقواسهم، وآخر شيء رآه بعضهم هو سلاح طائر يحلق في الهواء نحوهم.

قاتل الإسبارطيون حتى وقف آخر أربعة منهم معًا.

كانوا جميعًا مضرجين بالدماء وقد أثخنتهم الجراح البليغة، مرهقين بشدة لدرجة أنهم بالكاد استطاعوا حمل دروعهم في الوقت الذي لم تتوقف فيه الأسهم من الانهمار عليهم. أصبحت الدروع البرونزية تشبه لحم الطائر المنتوف بحلول ذلك الوقت مع كل تلك الندوب وأرياش السهام المكسورة، الأمر الذي زاد من صعوبة حملها.

"توقفوا!" صدر أمر من الأعلى.

كان بعض الإسبارطيين يعرفون الأوامر الفارسية، ولكنهم تجاهلوا الأمر، في حين توقف الرماة في الأعلى وتراجعوا متأهبين.

استلقى الضابط الفارسي الأول ميتًا في أرض المعركة وتقدم بديله إلى الحافة ونظر نحو الأسفل باتجاههم يهز رأسه مذهولًا من المنظر الدموي الذي رآه.

قال بلهجة يونانية ثقيلة: "أنا هازار زاوشا؛ أحد ضباط قوات الزهايادان. هل تفهمون ما أقوله؟ الخالدون. لا يمكنكم الانتصار الآن. هل ستستسلمون أيها الإسبارطيون؟ أنتم قلة ونحن كثيرون. أتعجب..." رمى سينيس

سيفًا تجاهه فمال الرجل جانبًا لتجنبه، وبصرخة ذعر قفز زاوشا في الهواء وسقط في الباحة. نظر إلى الأعلى ليجد أربعة رجال إسبارطيين يحدقون إليه بإثارة.

"اقتلوهم!" صرخ زاوشا. "اقتل..." هوى سينيس عليه بضربة قاتلة من سلاحه، ثم سقط فوقه مزمجرًا. برزت السهام على ظهره. تنفس سينيس في وجه الضابط الفارسي في الوقت الذي كانا يلفظان فيه أنفاسهما، بالرغم من أن سينيس ابتسم له لإخفاء غضبه. لقد كان الأمر سيئًا بما فيه الكفاية لكي يخونهم أعداؤهم القدامى.

ولكن الأسوأ من ذلك أن أحدًا لن ينقل الخبر إلى إسبارطة لإعلام العرافين أنهم ماتوا ميتة مشرفة خالية من العار.

بردُ الجناح بسبب النسيم الذي يهب من سفح الجبل كل ليلة، أعجوبة يستمتع بها الملك وبلاطه، والعبيد والعائلة المالكة على حد سواء. عندما تصل حرارة الصيف إلى حد لا يمكن احتماله في السهول لم يكن هناك مكان مثله. شعر سايروس بالعرق يجف على وجهه وأطلق شهيقًا، لقد بدأ الحزن يملؤه. ظن أنه اشتم رائحة القرفة في الهواء بالرغم من أنه كان من الصعب عليه التأكد من ذلك. لقد مرت سنوات لم يرَ فيها والده، ومثّل النسيم له ذكرى من طفولته بشأن وطنه.

لم يكن عليه أن يسأل أين يستلقي والده، فعدد العبيد أخذ يتزايد كلما توغل داخل الجناح.

تجمعوا حول سرير والده مثل النحل، جاهزين لتحقيق أبسط رغباته. حراس ضخام الجثة، وقفوا في الاتجاهات الأربعة المحيطة بالملك المحتضَر، جاهزين لصد أي تهديد. كان بإمكان سايروس رؤية الرجل متكئًا على المساند وامرأة تمسح جبينه وتغمس قطعة القماش في وعاء ماءٍ

تطفو على سطحه البتلات. كانت رائحة الورود جميلة جدًا لدرجة أن سايروس جثا على ركبة واحدة تحت تأثيرها.

أدار الملك العظيم رأسه عندما همس أحد الخدم الذكور في أذنه. نظر داريوس إلى ولده، وتقدم سايروس باتجاهه، ولكنه توقف عندما مد أحد الخدم يده.

"سموك، السيف من فضلك".

فك سايروس حزامه وسلمه إياه. تنحى الحارس، فأصبح على بعد ذراع واحدة من الرجل الذي تحكم بحياته منذ بدايتها.

ابتسم سايروس ابتسامة مليئة بالألم أكثر منها فرحًا.

لقد تهالك الرجل العجوز بسبب مصابه. الذراعان اللتان حملتا فيما مضى السيف الملكي أصبحتا نحيلتين بشكل محزن، التصق جلده بعظمه مُظهرًا ندباتٍ غريبة وبقعًا سوداء.

"أنا هنا يا أبي". قال سايروس وهو يجلس على كرسي وُضع إلى جانبه. "لقد أتيت حالما سمعت بالأمر، وبأسرع ما استطعت". قال والده: "لقد انتظرتك طويلًا يا سايروس". كان صوته خافتًا مما اضطر الأمير للانحناء ليسمع ما قاله. "لم أستطع الموت قبل أن أعرف أنك أتيت" رأى سايروس تعبيرًا غريبًا على وجه أبيه، هل كان ضغينةً أم بهجة؟ لم يستطع سايروس التمييز. أوشكت عينا الملك على الإغلاق، واختفت الخطوط التي كانت تعلو جبينه. مد سايروس يده ممسكًا باندفاع باليد التي احتضنته مرارًا عندما كان صبيًا، وشعر بحرارتها. راوده شعور غريب عندما فكر في الكلمات التي سيقولها.

"شكرًا لك يا أبي، على كل شيء. أردتك أن تكون فخورًا بي". لم يتلق سايروس أي رد، فأعاد اليد فوق الملاءة بعد أن مرر أصابعه على براجمها مرة أخيرة، قبل أن يعاود الجلوس.

انحنت الخادمة التي تحمل وعاء الماء المليء بالورود، ومسحت وجه والده مجددًا. هب النسيم عبر ذلك الجزء من الجناح، ولكنه لم يكن لطيفًا مثل سابقه حينها، كان أشبه برياح الخريف التي تعصف ساخنة بلا توقف وتُفقِد الرجال الجيدين صوابهم.

قال سايروس بصوت أعلى: "أبي؟" وقف وشاهد بلا حول ولا قوة اقتراب أحد الخدم للاستماع إلى تنفس الملك ونبضه، ثم أومأ برأسه.

"لن يطول الأمر، سموك، قد يتمكن من سماعنا، قد يصحو مجددًا، وقد لا يفعل. لقد نادى باسمك مرات عديدة، أنا مسرور لأنك أتيت، في النهاية". ها هي ذي مجددًا، السخرية، ومِن أحد لم يكن ليجرؤ على ذلك في الحالة العادية. كان هناك نوع من الاحتقار في ذلك الجناح تجاه ابن الملك. كان بإمكان سايروس الشعور بذلك.

في تلك اللحظة كان قد طفح به الكيل. لقد قطع عشرات الأميال في اليوم طيلة أربعة عشر يومًا ليلقى الرجل العجوز.

لم يتمكن سوى الإسبارطيين من مجاراته، حتى هم أُصيبوا بالتعب والإرهاق. لقد أقنع نفسه بأن يطمئن لكونه لم يصل متأخرًا، ولكن الأمر كان قاسيًا. لم يسمع كلمة شكر أو فرح بقدومه من الرجل العجوز، فقط نبرة غريبة من المرارة، كأن الجميع كان بانتظاره.

فجأة، شعر سايروس بالانكماش وبالخسارة عندما تراجع مبتعدًا عن السرير. لقد خشي من أن يكون قد تأخر ربما عدة أيام. تحت ذلك الضغط، فكّر في ابتسامة أبيه، في احتضان لم يعرفه من قبل. ولكن ذلك كله تحول إلى قصدير، إن جواهر مخيلته أصبحت زجاجًا لا قيمة له. لم يجعل الرجل فخورًا به من قبل، مهما بلغ إنجاز سايروس فقد كان أرتحششتا هو المهم بالنسبة إلى أبيه.

مد سايروس يده لاستعادة سيفه الذي أُخذ منه. حدق الخادم الذي كان يمسك بالسيف بعينين واسعتين، متشبثًا بالغمد المرصع بالجواهر والحزام إلى صدره.

قال سايروس بصوت هادئ: "أيها الخادم، أعطني سيفي".

ظن أن اليوم لا يمكن أن يصبح أكثر غرابة، ولكن بعدها سمع أخاه يقترب بصحبة تيسافيرنيس. بدا الرجلان مسترخيين ومرتاحَين. هذا ما رآه سايروس. فقد بدّل تيسافيرنيس بردائه ملابس حريرية فضفاضة ووجد الوقت للاستحمام فشعرُه لا يزال مبتلًا. ما أثار دهشته أكثر من ذلك هو وجود حراس مسلحين بصحبتهما، الذين بدؤوا بالانتشار في أثناء اقترابهم من الحدائق. لقد كانت نيتهم واضحة مما جعل سايروس يطأطئ رأسه مفكرًا.

قبل أن يتمكن الخادم من فعل أي شيء، انتزع الأمير السيف من قبضته وثبّته حول خصره.

وقال: "ها هو ذا، هكذا أفضل، والآن يا أخي. ما هو التهديد الذي جعلك تحضر الجنود إلى الجناح في مثل هذا الوقت؟".

"أنت". أجابه أرتحششتا مبتسمًا في حين اقترب الحراس للإحاطة بالأمير الصغير. لقد عرف أن سايروس كان يفكر في مقاومتهم، ولكن أباهما يستلقي محتضرًا على بعد خطوات وقد أثر فيه ذلك الموقف. شاهد أرتحششتا أخاه يحني رأسه مما جعله يبتسم ابتسامة عريضة تُظهر من خلالها أسنانه.

"أنت رهن الاعتقال يا سايروس، بأمر من والدنا، وستُعدم". كان سايروس على وشك الهجوم حتى إنه حدد الرجل الذي سيقتله أولًا للهروب من الحصار وكان سيتحرك لولا أنه سمع تلك الكلمات. استدار مدهوشًا ورأى والده يراقبه، وشاهد تعبيرًا يدل على الارتياح على وجهه. حتى سايروس علم أن والده العجوز كان يعرف بالأمر، فقد أغمض عينيه مرة أخرى.

كُبّلت يداه، وأخذ منه سيفه، واقتاده حراس أخيه الخاصون عبر الجناح وصولًا إلى حديقة الفردوس والممرات. سار أرتحششتا وتيسافيرنيس خلفه، وأدار سايروس رأسه للتحدث إليهما، بالرغم من دفع الحراس له نحو الأمام.

"لماذا تفعل هذا يا أخي؟ لطالما كنت وفيًا لك. لم أعطك مرة واحدة سببًا للشك بي. ولا مرة واحدة طوال حياتي!". اعتقد أن أرتحششتا أقفل فمه وعض شفته بدلًا من الإجابة. عندما استدار سايروس نحو تيسافيرنيس هز الرجل العجوز رأسه ونظر إلى حجارة الطريق غير قادر على خفض حيرته.

الفصل الثالث



جلس سايروس على سرير عسكري مخصص للجنود، بعد أن أُقفل عليه الباب. بالرغم من أنها كانت مجرد غرفة صغيرة لأحد الضباط في حرس والده، إلا أنها كانت أيضًا زنزانة. أيًا كان القاطن السابق في هذه الغرفة فقد استمتع الرجل بمجموعة كبيرةٍ من الزيوت والمساحيق، زوج من المقصات المصرية، فرشاتين سميكتين للأظافر واللحية، إضافةً إلى عيدان عاجية مزخرفة بحرفية عالية لتنظيف الأذنين والأنف، جميعها لا تزال مرتبة على منضدة في زاوية الغرفة.

كان بإمكان سايروس سماع الأصوات القادمة من الثكنات العسكرية التي تحيط به من كل جانب، إضافة إلى الأوامر الصادحة والضحكات العالية. لم يكن قد أدرك بعد ما الذي حصل، ولكنه كان يعرف أرتحششتا كفاية ليفكر في أنه سيتم اصطحابه وقطع رأسه دون أن يحظى بفرصة للتحدث. سيريد أخوه أن يشمت أو أن يخترع عذرًا؛ شيئًا ما. كان سايروس متيقنًا من ذلك يقين شابين ترعرعا معًا. كان يعرف أرتحششتا جيدًا. لقد أملَ ذلك على أية حال، فقد كان غائبًا عن المنزل لوقت طويل.

عندما حل المساء، بزغ القمر هلالًا في السماء الصافية منيرًا الهضبة. لم يعتقد سايروس أنه سيتمكن من النوم أبدًا، ولكنه استدار نحو الحائط وأغمض عينيه سارحًا في أفكاره.

استيقظ سايروس فجأة غير مدرك لمرور الوقت.

نهض من سريره، ووقف بسرعة البرق، يرمش عينيه بحِيرة في ضوء الصباح الساطع. لقد كان مرهقًا بسبب الأيام الطوال التي قضاها على الطريق وظروف اعتقاله وحزنه على والده. ولكن ما جعله يشعر بالإحراج هو أنه غطّ في نوم عميق مثل طفل صغير واستيقظ نشيطًا وأكثر حيوية. وبالرغم من أن حياته كانت على المحك، مرر يده على وجهه متلمسًا التجاعيد السميكة للحيته. كان يفضل أن يكون حليق الوجه، ولكن الأمر سيتطلب جهدًا وشفرات حادة. ولم تكن هناك

شفرة حلاقة على منضدة الضابط، لذا افترض أن الرجل كان يستخدم المقصات لتشذيب لحيته أو أنه كان يجدلها في ضفائر.

فجأة رمشت عينا سايروس عندما سمع أقفال الباب تُفتح ليدخل تيسافيرنيس، الذي وقف بطريقة غريبة بدت معها الغرفة صغيرة جدًا وممتلئة تقريبًا لوجودهما داخلها. نظر الحراس من الخارج، ولكن لم يكن بإمكانهم الانضمام إلى تيسافيرنيس حتى ولو من أجل حمايته. بالكاد تمكنوا من التحديق باهتمام في حين انتظر سايروس أن يخبره صديقه القديم عما يحصل.

قرر الرجل العجوز الجلوس على السرير العسكري، الذي أصدر صوت طقطقة عندما جلس عليه. بقي سايروس مستندًا إلى الحائط، واقترب أحد الحراس عبر الممر للمراقبة.

بالكاد رفع سايروس حاجبيه عندما نظر إليه تيسافيرنيس. لقد شعر أنه الطرف المهزوم، وأحس بأنه سيخسر أفضليته إذا تحدث أولًا.

بعد مدة من الزمن، تنهد تيسافيرنيس.

"سموك، أنا آسف لما آلت إليه الأمور، ولكن لم يكن بإمكاني الحيلولة دون ذلك، لا سيما وأن والدك هو من أصدر الأمر". بدا تيسافيرنيس مرهقًا، كأنه لم ينم على الإطلاق. "سايروس، أتيت لإخبارك أن الملك مات في الليل. أنا آسف. لقد أصبح أخوك الملكَ العظيمَ هذا الصباح، الإمبراطور الإله لبلاد فارس، فلتباركه ميثرا، أهورا مازدا وبقية الأرواح الطيبة. ولعله يجد لنفسه مكانًا بين أسلافه".

بالرغم من الخبر الصادم، شعر سايروس بالأمل في صدره.

"إذا كنت هنا بأمر من والدي فقد انتهت صلاحيته، وسيطلق أرتحشتا سراحي" قال ذلك بارتياح. "ظننت أن شبحًا أو شيطانًا قد مس والدي في النهاية، ربما تسلل إليه عندما كان في حالة ضعف أو يشعر بألم مبرح، على الأقل هو لم يعد تحت تأثيره الآن. يمكنني..." هز تيسافيرنيس رأسه.

"سموك، لقد أكد أخوك تنفيذ الأمر مساء البارحة. يحزنني هذا بالطبع ولكنك ستُعدم صباحًا" مرر الرجل الذي كان معلم طفولته، يده على لحيته ممسدًا إياها من جذورها حتى أطرافها. لاحظ سايروس أنه كان متوترًا. "عليّ اصطحابك إلى ساحة الثكنات دون أي تأخير. لن تكون هناك مراسم تأبين أو شهود باستثناء بعض الحراس. استحضر كرامتك يا ولدي. استودع روحك إلى ربها وتحضّر للحساب". حدق سايروس. لم يسأل عما حل بالإسبارطيين الذين أحضرهم إلى هذا المكان، إن معرفة مصيرهم لن تفيده في شيء، وليس بإمكانه أن يؤثر فيه أيضًا. ولكن مع ذلك فقد تعلم منهم تهدئة نفسه، وخاصة عند المحك. لذا أراح معالمه في الوقت الذي كان يفكر فيه.

لم يكن يمتلك أسلحة، بالرغم من أنه يمكنه انتزاع واحد من أحد الحراس، ولكن هذا سيعني انتهاء حياته أبكر ببضع خطوات مما لو قيد إلى الساحة وركع أمام الجلاد.

لم ير أية إشارة تدل على دعم تيسافيرنيس له، ولكن المعلم القديم لم يكن حليفه الوحيد.

قال سايروس: "أريد أن أرى أمي قبل... لأودعها". كان يراقب تيسافيرنيس عن كثب وأخفى ابتسامة نتجت عن الطريقة التي عبس بها ذلك الرجل. "ألم تخبرها؟ أنا ابنها بعد كل شيء".

قال تيسافيرنيس بحزم: "أعتقد أن هذه الأمور هي من شأن الملك العظيم".

رفع الرجلان رأسيهما عند انطلاق إنذار مفاجئ خارج الزنزانة. مشاعر مختلفة تدفقت عبر الرجلين عندما سمعا صوت امرأة يصدر الأوامر بيقين تام أنه ستتم إطاعتها.

ابتعد سايروس عن الحائط بالرغم من أن عينيه لمعتا.

قال له: "لن أنسى الدور الذي كان لك فيما حصل يا تيسافيرنيس".

كأنه معلق بخيوط، انتفض تيسافيرنيس عن السرير.

قال الرجل الذي بدا متوترًا بانتظار إطلالة الملكة باريساتيس الأولى: "سموك، كنت أنفذ أوامر أبيك وأخيك فحسب".

قال الصوت الذي يعرفونه جميعًا: "ابتعد من طريقي!" عاصفة هوجاء حلت بهم. أجفل تيسافيرنيس مترقبًا وقد صدح الصوت مرة أخرى. "أخرجوا ابني حيثما كنتم تخبئونه! سايروس؟ أين ولدي؟" التفت الحارس على الباب لمواجهتها. فكر سايروس في خنق الرجل من الخلف، أو ربما كسر عنق تيسافيرنيس ريثما يحاول الرجل العجوز الانحناء في تلك المساحة الضيقة.

في ذلك الصباح، ارتدت الملكة باريساتيس الأزرق الغامق، بالرغم من أنها أتت مسرعة عبر الثكنات إلا أن ذلك لم يمنعها من ارتداء الأساور الذهبية التي أصدرت رنينًا مع حركتها. كان شعرها مربوطًا بإحكام ومثبتًا بشبكة ذهبية على مؤخر عنقها. لا تزال تبدو جميلة في الأربعينيات من عمرها وتتحرك بخفة فتاة صغيرة. وصلت رائحتها قبلها عابقة بعطر الورود الذي جعل الرجال يقفون مشدوهين كالصبية.

"سايروس؟ هل أنت هنا؟ هل هذا تيسافيرنيس الذي بصحبتك؟ اخرجا إليّ. لن أدخل غرفة جندي قذرة! الآن يا سايروس!" وجد الأمير نفسه يقهقه بصمت مرتاحًا بعد كل ذلك الخوف الذي شعر به. بدا تيسافيرنيس مصعوقًا عندما تبع الحارس خارج الممر الصغير إلى الردهة التي تليه.

بدأ تيسافيرنيس الحديث: "سيدتي، لقد أصدر ابنك أرتحشتا أوامر تقضي..."

توجهت الملكة باريساتيس إلى الحارس ووضعت راحة يدها على يده العارية.

"إذا تحدث هذا الرجل مجددًا دون إذن، فاقطع رأسه". لم يبدِ الحارس أي رد فعل يشير إلى أنه سمع ما قيل له، ولكن تيسافيرنيس اختار الحذر على احتمال الموت المفاجئ. جثا على ركبة

واحدة بصعوبة، ثم تلاها بالأخرى، ثم انحنى راكعًا حتى لامس جبينه الأرض. لم تكن الأرضية نظيفة تمامًا فقد لاحظ سايروس مسرورًا براز الفئران عالقًا على جبين الرجل عندما نهض مجددًا.

سألته الملكة باريساتيس بحنق: "هل أذنت لك بالوقوف؟".

شعر تيسافيرنيس بذل شديد، واختار مجددًا عدم اختبار سلطة سيدة في قصرها. لقد عاش كفاية في البلاط الملكي ليعرف أن بعض المشاكل يتم حلها بالدم أولًا ثم الاعتذار. أجبر نفسه على الركوع مجددًا واضعًا جبينه على الأرض كأنه ميت.

قالت الملكة بنبرة مرحّبة: "سايروس".

أمسك الأمير يدها وركع بدوره.

رد عليها: "أماه، أنا ممتن، لأن تيسافيرنيس هنا يظن أن موتي كان قد أُقر". أشاحت الملكة بيدها كأنها تنفض غبارًا.

"سأتبين حقيقة الأمر، قد تكون محقًا ولكن ليس بين هؤلاء العامة. لن نناقش مشاكلنا الخاصة على مسامع الخدم والجنود. والآن اتبعني، إن ملابسك متيبسة من العرق. لقد احتجزوك مثل الحيوان."

قبل أن يتمكن سايروس من الرد، وضعت الملكة حذاءها على ظهر تيسافيرنيس وفركته مما جعله ينخر ألمًا.

قالت: "لقد تجاوز هؤلاء الرجال الحدود بعجرفتهم، ولكني لن أصلح ذلك، سيكون مفيدًا لنا، تعال". التفتت للذهاب في حين نظر سايروس إلى وجه قائد الحرس، بدا مطيعًا، ولكن عينيه كانتا خائفتين. لقد علم أن حياته في خطر إذا أتى الملك الجديد للسؤال عن سجينه وعلم أنه سمح له بالمغادرة. ولكنه لن يرفض أمر الملكة، فقد تصرفت وكأن الرفض غير وارد. وفي اللحظات القليلة التي كان يمكن لقائد الحرس أن يعترض بها، كانت الملكة قد غادرت بالفعل وتبعها سايروس شاعرًا بإرادة الرجل تخبو وتختفي. بينما عبر سايروس الممر وبين الثكنات مراقبًا الجنود الخالدين التابعين لوالده يقفون مذهولين، خشي من أن يسمع في أية لحظة الأمر بإيقافه.

مشت أمه بسرعة، بالرغم من أن فستانها لم يسمح لها بالسير بخطوات واسعة. بدلًا من ذلك، تسللت خلسة يتراقص ردفاها أمام ابنها. العديد من الرجال الذين خرجوا لمعرفة ما الذي يحدث أشاحوا بوجوههم خوفًا عندما رأوا الملكة. ابتسم سايروس في سره للتأثير الذي لا تزال تمتلكه.

"لن أسمح باحتجاز ابني مثل المجرمين" صرخت أمه موجهة كلامها إلى الثكنات. صدح صوتها بسخط جعل بعض الذين خرجوا لمعرفة ماذا يجري يخفضون رؤوسهم ويطأطئونها كأنه تم القبض عليهم يفعلون أمرًا مخزيًا.

فكر سايروس في أنه لو ترددت باريساتيس أو طلبت الإذن فإن خطتها ما كانت لتفلح، ربما كان أحد الضباط الكبار سيؤخر إطلاق سراحه. ولكن بطريقة ما مهدت سلطتها الطريق أمامهما وصولًا إلى الباب الخارجي.

كانت الثكنات بعيدة بعض الشيء عن طرف الهضبة.

على الرغم من وجود الملكة إلى جانبه، بقي سايروس متوترًا بانتظار أن يسمع صوتًا ينادي بإيقافه، أو يدًا تحط على كتفه. أنصت السمع مترقبًا أصوات الرجال المهرولين نحوه مرتدين الدروع، وشعر بالعرق يتقطر باردًا على أضلاعه، لقد سار كالحمل بين الذئاب، وكان يعلم أنه لم ينجُ بعد.

مكّنه الوقت الذي قضاه في الزنزانة من مراجعة كل ما شاهده وسمعه. وكانت النتيجة لا مفر منها بقدر ما كانت مؤلمة، فلم يكن هناك أي خطأ في الأوامر.

مطأطئًا رأسه، لحق بأمه عبر بوابة منزل الحرس، لينضم إلى فرقة من العبيد كانت قد تركتهم بانتظارها في الخارج.

جلسوا مسترخين على الأرض وخمّن سايروس أنهم لم يتحركوا منذ وصول أمه.

وقفوا باستعداد في الوقت الذي كانت تصعد فيه إلى هَودجها، مرتبة الوسائد إلى جانبها. صعد سايروس إليه مما جعل الأعمدة تصدر صريرًا بسبب وزنه.

"أماه" بدأ بالحديث أولًا.

هزت رأسها.

"ليس الآن يا سايروس، والدك كان رجلًا عنيدًا، وعليّ أن أتحدث إلى أخيك قبل أن ننتهي من هذه المشكلة السخيفة. هل نحن مصريان حتى يقتل أحدنا الآخر، وقبل أن يمتلك أرتحششتا وريثًا على الأقل؟ لقد تعجل والدك في اتخاذ هذا القرار وحده على الأقل". رمش سايروس بعينيه ببطء متقبلًا رأيها.

وقال: "أنا... لم يخطر في بالي أنه قد يُصدر أمرًا بقتلي".

رفعت أمه رأسها، ووضعت راحة يدها على ركبته وقد همّ العبيد بالتحرك.

"والدك كان ملكًا يا سايروس، كانت الإمبراطورية تهمه أكثر منا جميعًا. لا أتوقع منك أن تغفر له الآن، فالأمر لا يزال حديثًا، ولكن مع الوقت ستجد أنه كان رجلًا يتمتع بشرف عظيم. كان يعرف ما كنت، وما أصبحت عليه. لقد اختار التخلص منك، وبطريقته هذه فإن الأمر يعتبر تكريمًا لك".

احتج سايروس: "لقد ارتكب خطأً، لطالما كنت وفيًا. أنا أقدّر هذا في الرجال، وأفتخر به لديّ، أنا الأمير الذي لن يصبح ملكًا، لطالما علمت ذلك، لم أشكّل تهديدًا لأرتحششتا على الإطلاق".

"ولدي العزيز، الملك هو الذي يتخلص من التهديد قبل أن يدرك التهديد ذاته. الإمبراطورية توفر الأمن والعون للملايين، ماذا تساوي حياة واحدة مقابل حالة الاستقرار؟ أنا لا أعذر والدك على ما فعله يا سايروس، لن يأخذ ابني العزيز مني مع وفاته، لن أسمح بذلك، ولكنك ستسامحه مع الوقت".

شعر سايروس كأنه طفل صغير ممتعض من كلام والده. لقد قاوم رغبته الملحة في مجادلة امرأة أنقذَته من موت محقق هذا الصباح. بينما شق العتالون طريقهم عبر الهضبة، مرورًا بالبساتين المزهِرة التي يرويها العبيد والمظللة بشبكة من أشعة الشمس، أدرك أنه سيكون ميتًا في هذه اللحظة لولا قدوم أمه إلى الثكنات. كان دمه سيتغلغل عميقًا في رمل الباحة. اقشعر بدنُه من الفكرة. وبطريقة ما كان ذلك الصباح أول أيام حياته الجديدة. صمت لفترة، تاركًا حركة الهودج تهدئ من روعه.

بعد فترة من الزمن، سأل: "أين رجالي يا أمي؟".

"قُتلوا جميعًا. أمر أخوك بقتلهم" راقبته أمه عن كثب، ورأت موجة غضب تعتريه لم يتمكن من إخفائها.

"لا تلُمه يا سايروس، لقد أحضرت إسبارطيين إلى قلب عاصمة والدك. هل كان عليه أن يرسلهم إلى موطنهم ببساطة؟ من يعلم كيف يفكر أولئك الهمج؟ لا، لقد كان محقًا في ذلك بالرغم من الخسارة الفادحة. لم يتمكن أخوك من فعل ذلك دون... حسنًا، هذا لا يهم الآن، أرتحششتا ملك بالرغم من أنه بدأ بطريقة خاطئة. يصدر أمرًا بقتلك ويفشل. يرسل الرماة لقتل رجالك ويذبح نصف الفيلق في المعركة، من بينهم قريب ملكي واثنان من كبار الضباط".

ابتسم سايروس بتجهم، فقد كان يعلم أن الإسبارطيين أرادوا أن تُعرف طريقة موتهم. من بين كل الأشياء، كانوا يعتبرون طريقة الموت توازي بأهميتها أسلوبَ الحياة. تلا صلاةً قصيرة للآلهة الإغريقية من أجلهم، سائلًا إياها أن ترحب بهم في هاديس. التفتت أمه لمشاهدته.

"إذا لم يخب ظني في معرفتي بأخيك، فإنه سيقبل بتجاوز ما حصل البارحة. لقد كان مجرد يوم سيئ. من يمكنه أن يقول الآن أنه حدث؟ نحن على قيد الحياة وهذا ما يهم. أعتقد أنه يمكنني إقناعه بإلغاء أمر إعدامك، وإعادتك إلى منصبك قائدًا للجيوش. أرتحششتا بحاجة إليك يا سايروس! فما من أحد وفيّ مثلك، من يفهم جيوشنا بمقدار نصف ما تفهمها أنت؟ إن أعداءنا يخشونك. سيكون مغفلًا إذا خسرك وسأخبره بذلك". نظر سايروس إلى الأعلى بعد أن استيقظ من أفكاره ليجد أن العبيد أحضروه إلى الثكنات الخارجية، إلى حيث امتطى حصانه في اليوم السابق فحسب. التفت إلى أمه رافعًا أحد حاجبيه فتنهدت.

"دعني أكلمه بالنيابة عنك يا سايروس. لا أريدك أن تجعل أخاك يتراجع في أول يوم له بوصفه ملكًا. إذا أجبرته على التنازل من أجلك، فسيغضب من الأمر ويبقى حانقًا لمدة أشهر. ما من

شك في أن تيسافيرنيس قد وسوس له بالفعل الآن".

"سيخبره تيسافيرنيس بأنني وفي". قال سايروس بالرغم من إدراكه أنه لا يؤمن بهذه الكلمات حتى بعد أن قالها هو.

هزت أمه رأسها مشيرة بالنفي.

"تيسافيرنيس في صفه يا سايروس، لطالما كان كذلك. إنه ليس صديقك على الإطلاق". تجهّم وجه سايروس شاعرًا بألم الخيانة وكأن إحدى عضلاته قد تمزقت.

لقد كان أميرًا وفيًا. كان من السخف أن يعتقد أن لديه أصدقاءً في البلاط بل هم مجرد رجال يسعون للسلطة. افتقد رجاله الإسبارطيين مجددًا. كان أناكسيس صديقه، وسينيس أيضًا، وصعب عليه أن يصدق أن أحدًا تمكن من هزيمة هذين الاثنين، ناهيك عن بقيتهم. شعر بفرحة بدائية لمعرفته أن القضاء عليهم تطلب ذلك الثمن الباهظ. لقد صنع رجاله الإسبارطيون أسطورة لأنفسهم. كانوا سيرغبون في إضافة بعض الأسطر لها. فقد عرفوا معنى الولاء في أوقات بدا فيها أن لا أحد يفعل ذلك قط.

ترجّل من الهودج، وأمسك بيد أمه قبل أن يتمكن العبيد من الحركة. شبكت باريساتيس أصابعها بأصابعه، وسارت بصحبة ابنها إلى البوابة. كان سايروس يعرف أنه ترك أناكسيس والإسبارطيين خلفها. لم يكن متأكدًا مما عليه أن يتوقعه عندما تسلل الضوء من شق البوابة. هوت يده من يد أمه عندما شاهد الجدران الملطخة بالدماء على امتداد ستين خطوة في كلا الجانبين.

لقد أُزيلت الجثث، ولكن الهواء لا يزال مليئًا بالذباب ورائحة الموت التي لسعت عينيه. كان سايروس قد زار المسلخ عندما كان صغيرًا بصحبة والده، وشاهد الماشية تُذبح وتُقتل، أشعره ذلك بالغثيان كأن شيئًا من نفس المزيج من الدم والأوعية قد عاد إلى ذهنه.

قالت أمه: "لن أمضي أبعد من هذا بصحبتك يا ولدي، دعني أتحدث إلى أرتحششتا".

لقد شحب وجهها من الرائحة النتنة التي فاحت من ذلك المكان. راقب سايروس نظراتها تتنقل من لطخة بنية إلى أخرى، دون استقرار كأنها تحاول عدم تخيل العنف الذي عصف بهذا المكان منذ ساعات.

"أخبريه بأنني وفيّ يا أماه، بأنني لطالما كنت كذلك. لم أعطه أي سبب للشك بي. أخبري تيسافيرنيس بذلك أيضًا".

"سأفعل بالطبع" رفعت أمه ذراعيها لاحتضانه "إنه يعرف قيمتك يا ولدي، سأذكره بكل ما فعلته. عد إلى عملك الآن ولا تخشَ القتلة، سأراسلك عندما أصبح متأكدة".

أومأ سايروس برأسه، ثم قبّل شفتيها، وحثّ الخطا عبر الرمال الساخنة تحت قدميه. كان قد دخل بصحبة ثلاثمئة حارس وتيسافيرنيس إلى جانبه وعلى ظهر حصانه المفضل، وسيغادر الآن

دون أي شيء سوى حياته.

لم ينظر إلى الخلف نحو أمه أو الرجال الذين يغلقون البوابة خلفه، في حين لا يزال هناك غيرهم يفتحون البوابة الموجودة أمامه. لم يكن بإمكانه سوى الأمل بأن سلطتها ستحميه، بالرغم من أنه كان يخشى سهمًا واحدًا قد يخترق ظهره مع كل خطوة خطاها عبر الساحة المضمخة بالدماء. كانت هناك رؤوس سهام بارزة من الرمل، إلى جانب نصال الرماح وشظايا برونزية بدت مثل عملات ذهبية. لقد نعى أولئك الذين وثقوا بكلامه. لم يكن سايروس متأكدًا سوى من أمر واحد عندما فُتحت البوابة الأخيرة أمامه، ونظر إلى الأدراج الحجرية العظيمة الممتدة إلى السهول العظيمة أمامه: لقد كان وفيًا لوالده، ولأخيه. بالمقابل، لقد وجّها ضربة إليه، وبالرغم من إخفاقهما، إلا أنهما أماتا شيئًا في داخله.

بدأ ينزل الأدراج التي سبق له أن صعدها بسهولة على صهوة حصانه. امتدت مدينة بيرسيبوليس أمامه عبر السهل، ولكن العالم بأكمله موجود بعدها. كان معروفًا على امتداد الإمبراطورية بصفته القائد العام لجيوش والده. لذا سيغادر عاصمة والده لبعض الوقت وسيقصد الفيالق النائية وقادتها من الضباط؛ الضباط الذين ركعوا أمام سايروس مقسمين بالولاء له.

انفرجت أساريره، وأخذ يسرع الخطوات في أثناء نزوله الأدراج، مخلّفًا وراءه نظرات الحراس، ورائحة الدم والخيانة. سيعود، سيرى تيسافيرنيس وأخاه العزيز مجددًا، لقد أقسم على ذلك. إذا تمكن من حشد جيش فسيفعل ذلك. لقد بلغه الرسول الملكي في سوسا، حيث بدأ الطريق الملكي واتجه غربًا نحو ساردیس. ما بدا نهاية يمكن أن يصبح بداية بالسهولة نفسها، فقد كان ذلك الصباح صباحًا جديدًا في نهاية المطاف.

الفصل الرابع



ترنح سايروس في أثناء سيره نحو الحصن قادمًا من الطريق المؤدي إلى الغرب. كان مغطّىً بالتراب، وكانت عيناه حمراوين بسبب مسح الغبار والعرق عن حاجبيه. سافر على ذلك الطريق ليومين، ولم يكن معه إلا قليل من الماء ومن دون طعام على الإطلاق. لقد تعلم من الإسبارطيين كم تستطيع الإرادة وحدها أن تنقل الرجل إلى حيث يريد، إن كان لديه ما يكفي منها.

لم تكن هناك أنهار في تلك المنطقة الطبيعية المكونة من تلال بنية اللون وأرض قاحلة. الحصن ذاته شُيد من الطين المعالج أيضًا، وقد بدا وكأنه انبثق من رحم الأرض مثل هيكل عظمي متحجر. ظن سايروس أنه قد يكون أحد الأماكن التي استراح فيها مع الإسبارطيين، ولكنه لم يكن متيقنًا من ذلك. خشي من أن يجده مهجورًا وأن تكون والبئر الداخلية قد جف وهجره الجنود عائدين إلى قبائلهم. كاد أن يبكي عندما شاهد حركة على السور العالي قرب البوابة، ولكن جسده كان جافًا بالكامل فلم يتمكن من البكاء.

قال: "افتح البوابة". كان صوته أقرب إلى الهمس، وتذكر أنه وفر كمية صغيرة من الماء لترطيب فمه من أجل هذه اللحظة. فتح السدادة، ورفع القارورة إلى الأعلى، ولكنها كانت خالية تمامًا. لقد شرب حتى القطرات الأخيرة.

وقف ينظر إلى الأعلى إلى وجه الجندي العابس المحدق إليه بتجهّم.

قال الجندي: "ارحل من هنا أيها المتسول، إذا نزلت إليك فسأوسعك ضربًا، لا تجعلني أُرهق نفسي في هذا الحر، ارحل!".

قال له سايروس بصوت مبحوح: "أعطني بعض الماء".

أشاح الجندي بنظره، ولكن الجميع كان يعلمون معاناة العطش في ذلك المكان، وقيمة الماء في مكان يشح فيه. كانت الأنهار شريان الحياة، وجميع البشر كانوا يعيشون بالقرب منها، وإذا جفت

في مواسم الحر فستنضب المحاصيل، وفي النهاية، ستصيب المجاعة قرى ومدنًا بأكملها. فوق المتراس، ازدرد الجندي لعابه ونظر خلفه، ثم اختفى من دون أن يقول كلمة أخرى.

بعد بضع لحظات، فُتح باب صغير في هيكل البوابة ذاتها، وخرج منه الحارس مستلًا سيفه، ونظرةٌ حذرة تعتلي وجهه. رمى لسايروس جعبة نصف مليئة بالمياه، في الوقت الذي راقب فيه التلال حوله.

ابتلع سايروس الماء بشراهة متنعمًا بالماء المبارك الذي ملأه بالحياة والمعنى. شعر بإرادة الحياة تعود إليه، وفكّر في الأزهار التي رآها تُروى وتتفتح أمام عينيه ذات مرة. لقد كان الماء هو الحياة وشعر بامتنان لا يوصف.

قال له: "شكرًا لك، سأكافئك على كرمك مع شخص غريب".

"لا داعي لذلك". أجاب الرجل مادًا يده لاسترجاع الجعبة.

"أنا الأمير سايروس من الأسرة الإخمينية، ابن الملك داريوس. وأنا أقول إن هناك داعيًا. لقد أنقذت حياتي. ما اسمك؟ ما هو منصبك هنا؟". وقف الرجل ذاهلًا، لقد بدا ذلك ظاهرًا على وجهه.

قال الرجل مندهشًا: "أنا... لقد رأيتك من قبل، عندما مررت بنا بصحبة أولئك الرجال مسرعين ككلاب الصيد. لقد رأيتك". جثا الرجل على ركبتيه، وسجد حتى لامس وجهُه الأرض الرملية.

قال: "مولاي وأميري، سامحني، لم أعرفك".

قال سايروس: "انهض يا ساقي الماء، لم تخبرني بعد باسمك".

"أنا بارفيس، سموك، ولكن أي حظ عاثر جعلك تقف هنا بمفردك؟ حتى من دون سيف؟ هل هم قطاع الطرق؟ لدينا أربعون رجلًا هنا فقط وقائدنا غالبًا ما يكون غائبًا في البلدة. سموك، هل أتيت إلينا لعزله؟ إنه مغفل كسول، ولن يكون ذلك قرارًا خائبًا". ضحك سايروس في سره للسرعة التي بدأ بها الرجل بتقديم شكواه.

"إذا كنت تعلم من أكون، فيجب أن تعلم أنك تحت إمرتي يا بارفيس". همّ الرجل بالركوع مرة أخرى، ولكن سايروس أمسكه من يده وأوقفه.

"بالطبع، سموك".

"هل لديكم أحصنة؟".

"ستة فحول يا مولاي، ولكن أحدها بطيء بعض الشيء. المعذرة، لم نكن نعرف أنك...".

"سآخذ الخمسة التي يمكن ركوبها. عليّ أن أصل إلى مدينة سوسا، حيث يبدأ الطريق الملكي يا بارفيس. مهمتك هي مساعدتي، هل تفهم؟ هل تعرف سوسا؟".

هز الرجل رأسه نافيًا، فكبتَ سايروس تنهيدة. كان معتادًا على الركوب ليلًا على ظهر أحصنة سريعة، ولكن جميع أحصنة والده قد تنفق على بُعد مسير يوم واحد من مكان ولادتها. المستعمرات البعيدة مثل الهند، مصر، وتراس لم تكن سوى مجرد أسماء بالنسبة إليهم.

"إنها تقع باتجاه الغرب، على بعد عشرة أيام من هنا على ظهر الحصان. لذا اجمع ثلاثة من أفضل رجالك وسلّحهم. ستكون رابع المسافرين بصحبتي. أحضر لي سيفًا ورمحًا يا بارفيس".

"مولاي، ليس لدينا شيء يليق بالأمير لحمله، هذا مكان فقير".

فقال سايروس: "لا أحتاج إلى المجوهرات، أحضر لي رمح صياد، وسيف جندي. أشعر برغبة في الصيد، في ركوب الأحصنة بسرعة، وتركِ هذا المكان المقفر خلفي، سأرى الأنهار والأراضي الخضراء مجددًا".

قال بارفيس: "سمعًا وطاعة يا مولاي". فتح الباب الصغير، وتركه يتأرجح وقد هرع مسرعًا. أغمض سايروس عينيه ونظر صوب الشمس.

في سوسا، ترك سايروس بارفيس وحراسه بصحبة الأحصنة، في حين توقف عند مقرض مال للفيالق في شارع الملوك. النوافير والحدائق التي شُيدت على شرف أبيه وجده تمتد حوله، وتماثيلهما المنحوتة من الحجارة البيضاء تحدق إليه. في الداخل وقّع على طلب للتزود بمئة رامٍ من النخبة، ورمى الكيس إلى بارفيس. وقف خادمه الجديد محدقًا بعينين متسعتين لما رآه، ولم يتمكن من مقاومة اختلاس النظر داخل الجراب متلمسًا القطع الذهبية. بينما بدّل بارفيس نصفها بعملات فضية، استغل سايروس نهاره بالاستحمام والحصول على بعض التدليك لعضلاته. في القصر الملكي، أخذ الخياطون مقاساته لتفصيل الملابس له، وأحضر له المَرزُبان المحلي أفضل الأحصنة المتاحة. تناول الأمير الطعام واصطحب رجاله إلى غرفهم قرب أسوار المدينة. بعد أن قام بواجبه تجاههم، انطلق سايروس على صهوة حصانه نحو الثكنات الإمبراطورية وساحات التدريب.

مرتديًا الحرير والذهب، تعرف إليه على الفور الضباط الذين رقّاهم ودرّبهم بنفسه، وأسرعوا لتقديم فروض الطاعة له. اختفى المتسولون القذرون من الطرقات الصحراوية، وكان ممتنًا لذلك. طيلة سنوات، لم يقبل سايروس أن يمضي ليلتين على التوالي في السرير نفسه، فقد زار جميع الضباط في غرب الإمبراطورية بأكمله، من أولئك الساهرين على حماية أسوار المدينة في ساردیس، إلى حرس الجبال البعيدة الذين يحرسون ضريحًا بعينه. كان وجهه مألوفًا لهم جميعًا.

تقع الثكنات في سوسا عند أطراف المدينة، في مكان كانت الأرض فيه لا قيمة لها في السابق. تكفل الذهب الفارسي بنفقات العبيد الذين زرعوا العشب الأخضر وشيدوا الأبنية البيضاء وصانوهما، إلى جانب ألف رجل يتدربون طوال الوقت. وقفوا جميعًا باستعداد في حضرة سايروس وهو يعاينهم بوجود بارفيس الذي كان يقف إلى جانبه.

عندما كان وحده بصحبة ضباط الفيالق، كان يرتوي من المشروبات الباردة ويستريح في الظل. شاركه كل رجل هناك حديثًا بسيطًا على العشاء بالرغم من أنهم كانوا يراقبونه ويترقبون أوامره، متسائلين عمّا جاء به إلى هذا المكان.

بينما مسح فمه واتكأ إلى الخلف، حافظ الأمير على سماحة تعابيره. التفت إلى قائد المشاة؛ الضابط الأعلى رتبة إلى يساره، وقال له:

"أيها القائد بيهروز، أحتاج إلى حراس شخصيين، إن رجالك سيفون بالغرض، أعرف ذلك مما رأيته منهم، وأنا أهنئك على مستواهم. اختر لي... ثلاثمئة من أفضل الجنود لمرافقتي غدًا". انحنى إلى الأمام، في حين أومأ الرجل برأسه المنكب على شرائح لحم الضأن. تابع سايروس: "قد يرغب بعض الرجال في التخلص من الذين لا يحبونهم: الكسالى، المتذمرين، الرجال ذوي الشخصيات الضعيفة. وأنا سأعلم إذا حصل ذلك".

"لن تجد مني سوى الأفضل، سموك، أقسم بذلك. ولأنك ابن أبيك، فلا يمكنني أن أقدم أقل من ذلك".

حدق سايروس إلى الرجل غير متأكد مما إذا كان نبأ وفاة والده قد بلغ هذا المكان. لم يكن ذلك الاحتمال مرجحًا، بالرغم من أنه سيكون أكيدًا بعد وقت قليل. لقد سمع في إحدى المرات نبأ كسوف تغطت فيه الشمس بظل عظيم.

كان الرجل العجوز الذي وصف الأمر للأمير الشاب عالم فلك، تم إحضاره من منطقة تبعد مئات الأميال لتعليمهم. وقد علقت تفاصيل ما رواه الرجل في ذهن سايروس عن ظل قادم من الأفق نحوه أسرع من حصان بري، مغطيًا العالم بأكمله.

كان خبر وفاة والده مثل الظل، لا يمكن إيقافه أو التحرك أسرع منه. سيغمرهم جميعًا ويترك الإمبراطورية كلها تحت وقْعه.

بدا قائد المشاة بيهروز غير مرتاح للصمت الذي ساد على المائدة، لذا بدأ بالثرثرة في حين ارتشف سايروس رشفة من النبيذ الأحمر.

"في الحقيقة، سموك، ظننت أنك أتيت بشأن الإسبرطي المرتد. أقسم إننا سنطرده من الإمبراطورية بأكملها حال وصول التعزيزات". تجرّع سايروس رشفة كبيرة من الشراب قبل الإجابة. كان والده يفضّل دائمًا إجراء المفاوضات على موائد الطعام، لأن فرصة تشتيت ذهن الناس تكون أكبر.

أخيرًا قال: "أخبرني ما الذي تعتقد أنه الحقيقة".

احمر وجه بيهروز، ولكنه هدّأ من روعه لإجابة قائده.

"يقود هذا الرجل ألفي جندي يوناني. وعلمت أنهم كانوا جيشًا إسبارطيًا أُرسل لحماية المدن اليونانية في ثراس من الثوار الأشداء. لقد أرسل القائد طلبًا للدعم وقد جاؤوا للقائه، ليقاتلوا تحت إمرته. ولكن سموك، هذا الإسبارطي يُعرف بأنه طاغية بلا رحمة. لقد جهّزت الرسائل تحضيرًا لهذا اليوم، وطلب المزيد إلى الرجال."

سأله ساريوس: "ما اسمه؟".

"كليرشوس يا مولاي، لقد أرسل أهل ثراس بمراسيلهم الخاصة إلى اليونان، متسائلين عن سبب اختيار هذا الرجل الذي ذبح قرية بأكملها من دون سبب، لماذا تم منحه جيشًا للقيام بما هو أسوأ؟".

قال سايروس: "لقد سمعت به".

كليرشوس كان الحاكم المشهور لبيزنطة، حين عُيّن في فترة حكم مجلس الثلاثين. ولكن عندما سقط المجلس نُفي. يشاع أنه عديم الرحمة. تمنى سايروس لو أن لديه العشرات مثل هذا الرجل في تلك اللحظة. لقد شعر بالإثارة تملأ صدره ومعدته، كأن النبيذ كان تأثيره أقوى مما كان يتوقع.

"يا بيهروز، أين هو الآن هذا الطاغية الإسبارطي؟ هل عاد إلى وطنه؟".

"سموك، اعتقدت أن هذا هو سبب مجيئك إلينا. لقد خيّم على بُعد مسير أقل من ثلاثة أيام من هذه المدينة. نحن جاهزون للدفاع عن الأسوار إذا أتاها غازيًا".

سأل سايروس: "ولديه ألفا جندي إسبارطي؟".

"لقد ألقينا القبض على أحد كشافته الذي كان يحاول التسلل عبر أسوار سوسا. قال إن جيشه أكبر من ذلك، ولكن اليونانيين يكذبون دائمًا". وجد سايروس نفسه يبتسم.

"أجل، لم أعرف رجالًا يحبون الكذب مثلهم. أما زال الكشاف على قيد الحياة؟".

أومأ الضابط برأسه ونهض سايروس من مكانه، مسح فمه بقطعة قماش قبل أن يرميها أرضًا.

"جيد، أرني أين تعتقلونه وجِد لي حصانًا سريعًا".

أخذ سايروس نفَسًا عميقًا، وأجبر نفسه على الهدوء، مستحضرًا ذكرى الإسبارطيين الذين عرفهم وسائلًا إياهم بصمت أن يمنحوه البركة والمساعدة. كان أناكسيس سيوبخه على الطريقة التي كانت يداه ترتجفان بها، بالرغم من أن ذلك كان بسبب قلة النوم والقلق وليس بسبب أي شيء آخر.

بينما انتظر لأيام قدوم الضابط الإسبارطي معلنًا الهدنة، جمع سايروس حشودًا من الإمبراطورية حوله. لقد صلّى في المعابد واستحم مرتين في اليوم، وسرّح شعره وعطّره. تدرب

على استخدام السيف والدرع مثل أي جندي عادي، بالرغم من أنه لم يجد سوى بضعة رجال يمكنهم مجاراته. أما البقية فقد كانوا إما مذعورين من صيته، وإما منهكين جراء القيام بالأعمال البدنية الشاقة. التدريب المستمر والانضباط اللذان تعلمهما من الإسبارطيين جعلاه لا يكون متساهلًا مع جنود سوسا.

بدا أنهم أمضوا وقتًا طويلًا في تسيير الدوريات مرتدين الأزياء الفخمة ولم يمضوا إلا قليلًا من الوقت في التدريب. في المساء، كان سايروس يقرأ في مكتبة القصر، ولكنه لم يتمكن من الاسترخاء، لقد كان نومه قليلًا هذا إن تمكن من النوم أصلًا. مات أبوه، وحكم أخوه الإمبراطورية. لقد تغير عالمه بالكامل، ومرت عليه أوقات شعر فيها بأنه الوحيد الذي يتذكر كيف كان عليه العالم قبل ذلك.

مرّ وقتٌ كافٍ لبلوغ نبأ وفاة والده إلى سوسا. فقد رأى سايروس الخيالة يأتون من الصحراء، وبدأت المدينة فترة من الحداد في حين تفادى جميع الرجال النظر إلى عينيه. ربما تمكنت أمه من الانتصار على أرتحششتا؛ لم يكن ليعلم ذلك. نام سايروس ممسكًا بمقبض خنجره المرصع باللؤلؤ تحسبًا من ألا تكون أمه قد تمكنت من إقناع أخيه بتركه حيًا، بالرغم من أنه كان يشك في أنه سيسمع صوت قاتله إلا بعد فوات الأوان. هذه الفكرة جعلت معدته تفور من الحموضة فتجشأ. لم يكن يشعر بأنه على ما يرام تلك الليلة، لم يكن يشعر بالثقة في نفسه على غير العادة في ظل حضور ذلك الإسبارطي.

جلس القائد كليرشوس متنبهًا، وكأنه على وشك البدء بالقتال في أية لحظة. كان كليرشوس عريض الصدر تملأ الندوب ذراعيه، وكان يرتدي عباءة حمراء أسفل درع صدر برونزي وسترة جلدية إضافة إلى دروع للساقين. كان فخذاه عاريين ومكتنزين بالعضلات، مثل أولئك الذين يمارسون المصارعة. لقد استرخى مثل القط المستلقي تحت أشعة الشمس، بثقة عارمة بقوته. لم يكن كليرشوس قد فاوض على شروط الهدنة، ولكنه بالرغم من ذلك ركب حصانه إلى سوسا للقاء الأمير بصحبة مرافقين فقط، ثم ترك ذينك الرجلين خارجًا. فلم يكونوا في حالة حرب في نهاية المطاف.

شعر سايروس بتوتر مزعج، ربما لأنه كان يعلم في سرّه أن القائد كان يشكل تهديدًا ولم يكن ليغفل له جفن في حضوره. ولكن بطريقته الخاصة، كان التهديد صادقًا. كان ذلك أمرًا يقدّره سايروس لدى جنود تلك المدينة بالتحديد. إن الأثينيين قد يتجادلون مع أي كان، فقط لمجرد أنه طلب ذلك. يبدو أنهم كانوا يستمتعون بالعقد الملتوية والخيارات ذات العواقب الأخلاقية الصعبة. أما الفرس فكانوا أكثر بساطة مما اكترث معظمهم بالاعتراف به. فقد شاهد سايروس بأم عينيه تجار السوق يتجاهلون طابورًا طويلًا من المشترين لعقد صفقة مع زبون واحد حاول المجادلة بشأن السعر.

بالمقارنة، كان الإسبارطيون يفتخرون بعنفوانهم أينما حلوا، وهذا ما كان أعداؤهم يسمونه غرورًا. لقد اختاروا البساطة في كل شيء، وهذا يعني أنهم لن يكذبوا أو يخادعوا انطلاقًا من الحفاظ على شرفهم، سواء للحفاظ على مشاعر أصدقائهم أم لتشجيع الضعفاء. إذا لم يكن يريد المرء جوابًا

صادقًا من الإسبارطي فعليه ألا يطرح السؤال في المقام الأول. وجد سايروس نفسه يبتسم عندما فكر في ذلك بالرغم من أنه كان يعلم أن ملامحه تحت المراقبة والتحليل.

قال كليرشوس: "أنت تسأل كثيرًا، لا تنسَ أنك شخص خسر للتو ثلاثمئة من أبناء بلادي". شعر سايروس بالغضب يعتريه بسبب تلك الكلمات، وبسبب التلميح إلى أن ذلك كان خطأه بشكل من الأشكال. ولكنه اتكأ إلى الخلف على كرسيه مجبرًا نفسه على الاسترخاء.

"لقد وضّحت ذلك. إضافة إلى أنني أرسلت أجورهم إلى العرافين في إسبارطة، في اليوم نفسه الذي قُتلوا فيه".

قال كليرشوس بهدوء: "كنت تعتبر أناكسيس مرتزقًا إذن!".

أجاب سايروس: "لقد كان مرتزقًا، إذا ما دعاني بصديقه، أو فعلت أنا، فهذا يعبّر عن العلاقة الشخصية. لقد أديت واجبي، وأريد أن أذكرك يا كليرشوس أن دعم والدي، وذهب عائلتي هما ما ساعداك في حملاتك. هل كان مجلس الثلاثين سيعين إسبرطيًا لحكم أثينا لولاي؟".

قال كليرشوس: "أنا لا أتحدث باسم إسبارطة، وخاصة هذا العام، بعد أن اعتبرني بعض الحمقى في الوطن طاغية. لا، لكل شيء أوانه، حتى الآن، ها هم أولاء الأثينيون يصيحون في الساحات مجددًا، مدَّعين أنهم انتزعوا الديمقراطية من أيدينا الغاشمة. لقد اغتال العبيد القادة الأوفياء، وخسر الرجال الصالحون شرفهم، تم عزلهم من السلطة من قبل أولئك الذين لا يعرفون شيئًا عن القيادة". تنهد وفرك طرف أنفه. "إذا كان الأثينيون سيحكمون أثينا مرة أخرى، فلِم قاتلنا للنصر إذن؟ ما الذي تغير؟".

قال سايروس مشتبهًا بأن الرجل كان يختبره. حسنًا إذن، سيتعامل معه بالفظاظة نفسها: "هذه حجة لعدم فعل شيء، جميع الحيوات قصيرة، وإلا لماذا سنفعل أي شيء سوى النوم تحت أشعة الشمس؟ جميعنا سينتهي بنا المطاف في المكان نفسه. ولكن إذا كان لدينا كبرياء، فعندها سنقاتل حتى الرمق الأخير. أنا أعرفك جيدًا يا كليرشوس، كما تعرفني أنت. من المهم أن جيوش الإسبارطيين وقوانينهم حكمت كل اليونان لفترة من الوقت. دع الكلاب الصغيرة تنبح الآن مقنعين أنفسهم بأنهم منتصرون. بعضنا يتذكر كيف كان عليه الأمر، ثلاثون إسبارطيًا حكموا أثينا، مع ثلاثين ألف أثيني تحت إمرتهم. لقد منحتموهم لمحة عن العظمة، ولن ينسوا ذلك بسهولة".

ضحك كليرشوس وهو مسترخٍ في كرسيه.

"أرى أنك تحب الجدل، أنت تشبه اليونانيين في ذلك تقريبًا".

عبس كليرشوس لتغير ملامح الأمير.

"صدقني، إن ذلك كان مديحًا. والآن، أنا لا أنوي نكران ميثاق الشرف بيننا، سموك، لقد كنت صديقًا لي، لإسبارطة ولليونان بأكملها. أنا كنت فقط أسعى للتيقن من أنك لم تُزهق أرواح الرجال الذين كانوا معك سدى. كنت أعرف أناكسيس جيدًا، وأنا حزين لفقدانه".

قال سايروس: "ستراه مجددًا".

أومأ الإسبارطي موافقًا.

"سأفعل". قال بيقين تام، مالئًا عينيه الداكنتين ووجهه الأسمر من أشعة الشمس.

"لن يبتعد عن النهر كثيرًا مهما أبقيته منتظرًا. سأخبره بأنك أرسلت الأخبار إلى إسبارطة لكي يُنقش اسمه على الجدار الأبيض وبأنك أرسلت تعويض وفاته لإطعام الأبناء والبنات الإسبارطيين لكي يكبروا. بالطبع سأخبره بأنك أتيت إليّ طالبًا المساعدة لتثأر، وبأني لم أردك خائبًا".

قال سايروس بجدية: "سأضطر للكذب على الكثير ممن سيرافقونني، هل تفهم؟ أريدك أن تعرف حقيقة ما أنا بصدد القيام به". أجاب كليرشوس: "لقد حكمت على نفسك إذن. أنا لن أغفر لك الكذب عليّ، سموك، ستشتري خدماتي وصداقتي لك، وأنا لن أخذلك، ولكنني لن أكذب بالنيابة عنك أيضًا. إذا سألني بقية الضباط لماذا تقوم بجمع عشرات الجيوش الصغيرة لتسييرها في صحراء إمبراطورتيك الفارسية، فسأطلب إليهم أن يسألوك، وسأقول إنني مجرد جندي بسيط يقف حيث يُؤمر أن يقف، ويقتل عندما يؤمر بالقتل". رمش سايروس بعينيه لضراوة هذا الرجل الجالس قبالته. كان كليرشوس أسدًا ذا مخالب وأنياب حادة، وكان يعرف أنه كذلك.

قال سايروس، مانحًا نفسه بعض الوقت لاستجماع أفكاره: "يجب أن تدعني أبتاع لك حصانًا ليحملك. من غير اللائق أن يسير القائد بين جنوده".

قال كليرشوس، بنبرة تنم على عدم الارتياح: "إنه لائق في إسبارطة، سأسير، في الحقيقة، أنا لا أحب الأحصنة، إنها تصهل في وجهي".

سأله سايروس مذهولًا، من دون تفكير: "أنت تخاف من الأحصنة؟".

جلس القائد الإسبارطي بهدوء كبير، كأن الزمن قد توقف. ازدرد سايروس لعابه.

أجابه كليرشوس: "أنا لا أخاف من شيء، أنا لا أحب الأحصنة، وشتّان ما بين الأمرين".

اكتشف سايروس أنه كان حابسًا أنفاسه فتنفس بروية.

"أجل بالطبع، الأمران مختلفان".

كان كليرشوس يراقبه بتمعن، وبدا مسرورًا مما رآه.

قال: "ربما علينا مناقشة مسألة الدفع".

نظر سايروس إلى الأعلى وسأله: "هل ستخدمني؟".

"مقابل دينار ذهبي في الشهر لقاء كل رجل، أو ستة وعشرين درهمًا فضيًا، أجل. يرتفع هذا البدل إلى دينار ونصف في المعارك أو فترات الأعمال الشاقة غير الاعتيادية. لدي ألفا رجل إسبارطي، ونحو ثمانمئة عبد وبعض المقاتلين؛ محاربين من رتبة أدنى. أقترح دفع نصف هذا المبلغ للمقاتلين، أما العبيد بالطبع فليسوا بحاجة سوى إلى الطعام والمعدات".

"بالطبع" قال سايروس موافقًا.

الشروط كانت عادلة وليس أكثر مما دفعه سابقًا، بالرغم من أنه شعر بأن القائد اعتبرها غير مناسبة.

"سأعقد الصفقة بدفع مبلغ عشرة آلاف دينار أيها القائد. هل يكفي هذا المبلغ؟". كان المبلغ كبيرًا جدًا ولم يرد كليرشوس الاختناق بالنبيذ الذي كان يشربه. مسح ذقنه.

"إنه كافٍ سموك، أجل. ولقاء هذا المبلغ ستكرم في موطنك ويخشاك أعداؤك".

قال سايروس لمعرفة رأي الرجل: "لقد وصفت لتوك الأمرين الوحيدين المهمين في العالم أيها القائد، هل الذهب والفضة بهذه الأهمية؟" ضحك كليرشوس لدهشته.

"هذا كلام صادر عن شخص لم يضطر يومًا لطرد طفل في الشتاء عندما لم يكن هناك طعام. بالطبع إنهما مهمان. ذهبك سيدفع تكاليف تدريب الإسبارطيين، ونجاةِ أهلنا وعيشِهم في سلام في وادي يوروتاس. لم يتمكن أي جيش أجنبي منذ ستمئة عام من أن يطأ أرضنا في هولو لاسيداميون منذ أن اكتشفنا طريقتنا في العيش". توقف قليلًا، مراقبًا سايروس. "بالرغم من أن الفرس هم أكثر من اقترب". رفع سايروس رأسه متقبلًا المديح الذي كان مقصودًا.

"ولكن بالنسبة إليك، فهذا ليس ما قصدته. أنت تخدم من أجل الذهب؟" انحنى كليرشوس إلى الأمام، ساندًا ساعديه على ركبتيه.

"كل واحد من رجالي يتراوح عمره بين العشرين والستين عامًا. لقد قاتلنا وحاربنا من أجل لاسيداميون لمدة أربعين عامًا. لأنها... محفورة في أذهاننا، إنها موطننا. ولابد أن يتم تجديدها على الدوام، وإلا ستفنى كأنها لم تكن".

"ما الذي سيحدث عندما تنهي خدمتك وتعود إلى هناك؟".

"عندما نعود، سنُطعَم ويُسمح لنا بالعيش بسلام، بالرغم من أن الأطفال دائمًا ما يسخرون من الجنود العجزة عندما ينامون. لطالما كان الأمر كذلك - جميع الأطفال أغبياء" ابتسم ومسح بيده على وجهه. "لم أجد حتى الآن طريقة أفضل من طريقتنا ليعيش وفقها المرء حياته يا سمو الأمير. إن ذهبك يشتري خدماتي، أجل، ولكن علاوة على ذلك فستحظى بمتعة مشاهدة الإسبارطيين يقاتلون في أرض المعركة، إنها نعمة نادرة وهي أثمن من النقود. في نهاية المطاف، معظم الرجال يشاهدونها مرة واحدة فقط". اتكأ إلى الخلف وابتسم له سايروس، بعد أن فهم ما يرمي إليه بقوله هذا.

نادى خادمه: "أحضر مزيدًا من النبيذ، يجب أن نشرب نخب هذه النعمة النادرة" أصبحت ملامحه جادة حينما التفت إلى الإسبارطي.

"شكرًا لك أيها القائد، عندما أسمعك تتحدث أفتقد أناكسيس أكثر".

قال كليرشوس: "قاتلَ جيدًا في المعارك، ربما ستلقاه، وتخبره ذلك بنفسك في أحد الأيام".

"أنا أمير فارسي، بالرغم من أن منصبي موضع شك هذا العام".

"هناك أمراء في هاديس يا مولاي، لقد أرسلت بعضهم إلى هناك بنفسي".

قال سايروس: "الآن أنت تمتّع نفسك على حسابي".

"أجل سموك، أنا أفعل". شرب الإسبارطي كأسه وأطبق شفتيه بمتعة.

"أعرف هذا النبيذ، إنه من بلادي". ابتسم سايروس، مسرورًا لأن لفتته لم تذهب سدىً.

رفع كأسه فقلده الإسبارطي.

قال كليرشوس: "إنه من صُنع الشمس والأرض والعنب، نخب أولئك الذين رحلوا من قبلنا، علّنا نلقاهم مرة أخرى"

من دون أية كلمة أخرى، لامسا كأسيهما وأفرغاهما في جوفيهما.

الفصل الخامس



فتح زينوفون الباب الرئيسي ودخل عبره، مسندًا ظهره إليه بعدما أغلقه. كان الشاب محمر الوجه وتبدو عليه علامات الغضب، كانت سترته التقليدية وعباءته تحملان علامات داكنة. بينما تنفس بصعوبة، انهمر شيء رطب وموحل من هدبه وسقط على الأرضية الحجرية.

نظر الأثيني صاحب المنزل الصغير إلى الأعلى فوق طاولة مفروشة بعشرات الأنواع من السوق الخضراء والأوراق، كان مظهره يوحي بالقوة، إضافة إلى مجموعة مصفوفة من سمك الأسقمري التي كان يزيل العظام منها مستخدمًا سكينه.

كان الرجل قصيرًا ومكتنزًا، أشيب، وكانت فروة رأسه بنية اللون مثل الجلد العتيق. بالرغم من تقدمه في السن، إلا أن مظهره يوحي بالقوة، بتينك الذراعين القويتين والساقين العاريتين والمقوستين بعض الشيء أسفل الطاولة.

"زينوفون!" صرخ سقراط مبتهجًا، قادمًا من خلف الطاولة وهو يمسح يديه بالمئزر قبل أن يرفعهما مرحّبًا. "هل أتيت للانضمام إليّ على العشاء؟ لقد حضّرت طبقًا كريتيًا مع أوراق الغار... والتين الناضج بعد ذلك". وقبل أن يتمكن الشاب من الإجابة، شده سقراط إلى عناق مليء بالحماس، كاد أن يرفعه عن الأرض. لقد تحسّن مزاج زينوفون بالإكراه.

نادى سقراط من فوق كتفه: "زانتيب! طبق عشاء آخر!" صمت لبرهة مستمعًا. "أين هي تلك الفتاة؟ هل تحية ضيوفي هي طلب كبير؟ أنا غارق حتى أذني بين الأسماك. عباءتك رطبة، هل تمطر في الخارج؟ لا، كنت سأسمع ذلك. كنت سأشعر به - السقف يسرب من جديد، وهذا أمر أُلام عليه أنا. إذن، ليس المطر، أراك تبتسم الآن في حين أنني أسعى لكشف سرك، ولكنك لم تكن مبتسمًا منذ قليل. هل السبب عصابات السياسيين أولئك، أولئك الأطفال، بالطبع".

"ليسوا أطفالًا يا سقراط، إنهم يصبحون أكثر جرأة وأكثر قسوة كلما شاهدوني في الشارع. إنهم يعيشون ويتكاثرون مثل الجرذان".

"حري بهم أن يرموا الفواكه بدل الحجارة يا صديقي القديم".

قال زينوفون: "لقد رموا كلًا من الفواكه والحجارة". شد قبضته وأزاح عباءته المتسخة إلى الخلف ليكشف عن سيف إسبارطي على فخذه. صفّر سقراط بهدوء.

"هذا ليس سيفًا يمكنك حمله في شوارع أثينا. إذا استللت سيفًا إسبارطيًا في شوارع أكروبوليس، فماذا ستفعل به عندها؟".

صرح زينوفون معترضًا: "إنهم رعاع عنيفون! إنهم ينتظرون مروري ويتجمعون في طريقي. أنا أسمع خطواتهم في الأزقة، ثم يظهرون، صارخين في وجهي، فاتحين أفواههم الكبيرة أمامي! ويبصقون! أتريدني أن أسير أعزل وأنا أُرشق بالحجارة ويُصرخ عليّ؟" طأطأ رأسه، لقد خلا حديثه من المزاح، حتى بدا عنيدًا ومضطربًا. "عندما كنت في المجلس كان يحق لي حمل الأسلحة. لم يؤخذ مني، هل تريدني أن أبقى بلا وسيلة دفاع؟".

من دون أن يقول كلمة واحدة، أمسكه سقراط من ذراعه وأخذه عبر غرفة منفصلة في قلب المنزل، صعودًا على بعض الأدراج المتعرجة إلى غرفة نوم مفردة في الأعلى.

انخفض زينوفون فجأة متلافيًا الاصطدام بعارضة منخفضة، ضرب رأسه بها عدة مرات في السابق. قطّب جبينه في الوقت الذي ضحك فيه صديقه.

"أترى كيف أنه من الأفضل أن يكون المرء قصيرًا؟".

قال زينوفون: "لم أعانِ من هذه المشكلة في بيتك القديم، على الأقل هناك كان يمكنني الوقوف منتصبًا".

"ولكن الإيجار! تلك العجوز التي كانت تمتلكه اعتصرتني مثل حبة خوخ". التقط بعض حبات التين عن الطاولة وأشار بها، ما جعل زينوفون يغمض عينيه. فتنهد سقراط.

"عندما كنت بنّاءً، كنت أتناول الطعام وأنام مثل الملوك. وعندما كنت جنديًا أيضًا. لم تكن تعرفني حينها، عندما كانت القوة ومهارة استخدام السيف هما كل ما أملك. ثلاث حملات يا زينوفون. ثلاث مرات صعدت إلى حلبة الرقص في آريس من أجل أسيادي - وأيضًا أنقذت حياة أليسبياديس!".

سأله زينوفون بشكل جاف. "حقًا؟ لم تقل لي ذلك من قبل".

ربّت سقراط على كتفه مما جعله يترنح.

"لقد أخبرتك بذلك عدة مرات، أعرف ذلك، بالرغم من أن القصة الجيدة هي تحفة فنية، ولا تختلف عن التماثيل. إن حسن الصقل هو ما يهم، بقدر أهمية الحجر ذاته".

"الأكاذيب".

"لا، الأمر ليس ذاته. الصقل. ولكن دعنا نعود للحديث عن مشاكلك يا صديقي. أنت تتحمل كل يوم هذه السخرية وإهانة شرفك. لقد قلت إن الأمر يزداد سوءًا. أريتني سيفًا إسبارطيًا قد تستخدمه، بالرغم من أن أعداءك أصغر بكثير من أن يهاجموا شرفك. هل ستندفع بينهم وتقتل الأطفال؟".

أجابه زينوفون: "إنهم ليسوا أطفالًا".

"هل هم رجال إذن؟ ملتحون ومدربون؟ مسلحون لخوض الحرب؟".

هز زينوفون رأسه بالنفي، متذكرًا أعضاء العصابة رثاث الثياب الذين رشقوه بالحجارة. رأى أن سقراط مصرّ على سماع إجابته بصوت عالٍ فتنهد.

"لا، ليسوا رجالًا".

أومأ سقراط برأسه ورفع إصبعه في الهواء للتأكيد على وجهة نظره.

"لا تستخدم السلاح، فهو سيجعلك تبدو بمظهر الجبان، وأنت لست رجلًا جبانًا يا صديقي. هل تنوي التلويح بسيفك الحاد في وجههم وجعْلَهم يغمضون أعينهم والانحناء لك؟".

"لا"، أجاب زينوفون معترضًا. "بالرغم من أنني ظننت أنني سأفعل".

"من الجيد أننا نفكر في الأمر قبل أن تُعتقل بتهمة إصابة أحدهم أو قتلِه، لطالما ظننت ذلك. خذ، اقطع هذه من أجلي، بأفضل ما تستطيع. ليس أوراق الغار، إنها بالكاد أعشاب. يا للخضروات - إنها حقًا ترياق الحياة! قوة الطعم الحامض مع نبات القراص، القطيفة والجلبان والهندباء مع الباذنجان البري الأسود".

سأله زينوفون: "أليس هذا الأخير سمًا؟". وتناول سكينًا وبدأ بالتقطيع.

"الباذنجان البري؟! عندما يُقطف ناضجًا ويُسلق لا يكون سامًا، وهذا ما فعلته. هل سأخاطر بحياة أولادي؟ وحياة ضيوفي الكرام؟ لا. العالم عبارة عن مخزن كبير لمن يمعن النظر فيه، ويبرع باستخدام يديه لانتقاء الخضروات الجيدة وليس مجرد الأعشاب. اسألني كم يبلغ ثمن هذه الوجبة يا زينوفون؟ الوجبة التي ستطعم زوجتي، وأولادي، وضيفي، وشهيتي للطعام التي هي غالبًا ما تسيطر عليّ ولا أستطيع التحكم بها على الإطلاق؟".

نظر زينوفون إلى أسماك الإسقمري المصفوفة؛ أكثر من عشر سمكات موضوعة على الطاولة. ولكنه كان يعرف الفيلسوف جيدًا على أي حال.

فأجابه: "لم تكلفك شيئًا"..

"صحيح!" أصدر صوت سقراط صدى عندما تحدث. "يا لك من مشعوذ! لقد أعطاني أناتولي العجوز في الميناء الأسماك لقاء مساعدتي له في إصلاح شبكة صيده. كانت العقد مثيرة للاهتمام جدًا وقد تعلمت مهارات جديدة - تساوي أكثر من بضع أسماك. لقد ظن أنه يدفع لي مقابل جهدي" انحنى مقتربًا، وتحول صوته إلى نبرة تشبه الثرثرة التآمرية. "في الحقيقة، أنا من كان يجب أن أدفع له، أليس كذلك؟". ضرب الطاولة الخشبية بكفه القوية مبتهجًا، مما أصدر صوتًا تردد في أرجاء الغرفة.

نظر زينوفون إلى الأعلى نحو جلبة سمع صوتها فوقه. تمنى لو أن معلمه الكبير يقبل منه هدية أو قرضًا للعيش في حي أفضل من أثينا، ولكن سقراط لن يقبل حتى أن يسمع ذلك. بدأ شجار الجيران يُسمع عبر الجانب الآخر من الحائط، وكان مسموعًا حتى عندما تابع سقراط حديثه.

"ولكنك تشتتني يا زينوفون، بحديثك عن الأعشاب والصيادين. دعنا نعد للحديث عن مشكلتك فأنا لا أحب رؤيتك غاضبًا. إذن... إذا لم تهاجم أولئك الشبان العزّل، إذا لم تهددهم مثل امرأة عجوز، فهل ستجمعهم وتشرح لهم أنه لا يجب عليهم إهانتك ورشقك بالحجارة؟".

"لا أعتقد أنني سأفعل ذلك، لا. لا أعتقد أن كرامتي ستنجو من ذلك".

"هذا صحيح، يمكن للشباب أن يكونوا وقحين، كما لا أزال أستطيع أن أتذكر. سيسخرون من التصرف اللطيف. ولكن... أنت لن تكون قاسيًا. هل ستستخدم العصا؟ هل ستركلهم؟ هذا أفضل من استخدام سيفك الإسبارطي على ما أظن".

قال زينوفون برضىً: "قد أفعل". متخيلًا الأمر.

كان يقطع الأعشاب الخضراء في أثناء حديثه، وكانت حركاته سريعة ودقيقة في حين أنه أضاف كل حفنة إلى الوعاء وجهزه للعائلة.

سأله سقراط: "هل أحضرت النبيذ؟". فهز زينوفون رأسه نافيًا ومحرَجًا. قرفص الفيلسوف، ومد يده تحت الطاولة لجلب قارورة نبيذ قديمة ونزع عنها سدادتها. "لا عليك، لديّ القليل هنا. نحن المفكرون لا يمكننا التحدث دون شراب. هل أنا مخلوق بري؟ هل أنا معزاة لأشرب الماء؟ لا، الرجل يحتسي النبيذ، لتدفئة جسده، ومغادرة حدود ذاته والنظر إلى الأمور بطريقة مختلفة. تلك النشوة، الخروج من الجسد، إنها سر الحياة الجيدة يا صديقي. لا يمكننا أن نكون على طبيعتنا طوال الوقت. هذا أمر مرهق جدًا".

وجد زينوفون نفسه يبتسم، أما العجوز فقد وضع كوبين عتيقين أمامه وملأهما.

"عزيزتي زانتيب لا ترى القيمة التي تحملها قارورة النبيذ، ليس كما أفعل أنا. إنها..." فكّر سقراط بتمعن في ما كان سيقوله عندما صعدت زوجته السلالم. "وردتي الغالية، لقد أصر زينوفون على الانضمام إلينا لتناول الطعام هذا المساء. هل سمعتني أناديكِ؟".

"لقد سمعت" أجابت زانتيب باقتضاب. لقد بدت مستاءة فأشاح زينوفون بنظره ليمنحهما بعض الخصوصية.

"لقد تسلق الأولاد سطح الجيران مجددًا، هل كنت تعلم ذلك؟".

"يا حبيبتي، لدينا ضيف، ثم إن الأطفال يحبون اللعب والتسلق، هذه هي طبيعتهم".

قالت زانتيب: "أجل، عندما يتم تشجيعهم على ذلك. أهلًا بك في منزلنا أيها المستشار، إنه لا يزال كما هو".

انحنى زينوفون باحترام، ولامس خده خدها بالرغم من أن يدَيه كانتا مليئتين بأوراق الخضار وسوقها.

قال لها: "شكرًا لك، بالرغم من أنني لم أعد مستشارًا. لقد كان زوجك يساعدني في مشكلتي".

أجابته: "أجل، إنه بارع في حل مشاكل الآخرين".

قال سقراط: "يا حبيبتي الحلوة العزيزة، لقد فتحت الآن آخر قارورة نبيذ لدينا، هلّا ذهبت إلى متجر ديليوس العجوز وأحضرت لنا زجاجة من عنده؟".

أجابته: "سأفعل إذا أعطيتني النقود لأدفع ثمنها".

"إنه صديقي يا حبيبتي، أخبريه بأنني سأدفع له الأسبوع القادم".

"قال إنه عليك أن تدفع حساب الشهر الماضي كاملًا قبل أن يعطيك المزيد".

أصرّ سقراط: "أخبريه أن لديّ ضيفًا قديمًا على العشاء. سيتفهم الأمر".

مد زينوفون يده لالتقاط محفظته، ولكنه وجد يدًا تمسك يده بأصابع تبدو عليها علامات العمل بالمطرقة والإزميل منذ الصغر.

قال سقراط بلطف: "أنت ضيفي، لا تحاول دفع النقود في هذا المنزل".

"هذا فقط ما وجب علي تذكر إحضاره".

"نحن حيث نحن" قال سقراط وهز كتفيه. "لا تجردني من كبريائي، وغروري الأحمق. لقد جاءني ثلاثة طلاب جدد الأسبوع الماضي".

قالت زانتيب: "عليك تعليمهم نحت الصخور، على الأقل سيدفعون لك لقاء ذلك، أو كيفية استخدام الرمح والدرع. ولكن ليس لإجاباتك عن كل أسئلتك، لا أحد سيدفع لقاء شيء تقدمه

بالمجان".

سألها سقراط بنبرة أكثر جدية: "هلّا أحضرت لنا النبيذ يا برتقالتي؟".

قررت زانتيب أنها ضغطت عليه بما فيه الكفاية، وخرجت إلى الشارع، مغلقة الباب خلفها.

قال سقراط: "إنها... امرأة حيوية". نظر بملء المحبة إلى الباب "أنا لا أستحقها".

سأله زينوفون: "أحقًا لا تعود عليك الفلسفة بعائد مُجزٍ؟ يمكنني أن أدفع لك، كأحد تلامذتك إذا قبلتني. لقد قلت لك ذلك عندما انتقلت من منزلك السابق".

"والطلب إلى الناس أن يطعموني أو يكسوني! لا، أنا أعيش وفقًا لطريقتي الخاصة. لقد عشت معتمدًا على ذكائي. أنا أُطعم زوجتي وأولادي وإذا ترتّبت عليّ بعض الديون أو مررت ببعض الأشهر العجاف، فأين المشكلة في ذلك؟ نحن نعيش حياة قصيرة جدًا يا زينوفون! لماذا عليّ أن أضيع أي يوم منها بالقلق؟ قد أنام الليلة ولا أستيقظ في الغد، قد أموت من دون سابق إنذار. قد تجد عزيزتي زانتيب جثتي هامدةً صباح الغد، ستبكي عليّ وتنعيني، وسيُجبر أولادي على أن يصبحوا عبيدًا أو سيتضورون جوعًا. ولكن مع ذلك قد أموت في نومي بوصفي عامل بناء والنتيجة ستكون ذاتها.

قد أموت في ساحة المعركة وسيعانون نفس المرارة. بدلًا من ذلك، أنا أطرح أسئلتي وفي بعض الأحيان يتمكن بعض الرجال من اكتشاف حقائق لم يكونوا يعرفونها من قبل. قد يكون هذا هو المقابل بحد ذاته يا زينوفون...".

قال زينوفون بحدة: "اسألني إذن".

"أنت تعلم الحقيقة بالفعل. أنا لا أرغب سوى في إيضاحها لك لكي ترى ماهيّتها. بعض الرجال لا يستطيعون تحمل نورها، ويصبحون شديدي الغضب عندما ينظرون إلى الأمور بهذه الطريقة. كريتياس كان أحدهم، وقد قاده غضبه إلى حتفه في النهاية. فلترقد روحه بسلام" أحنى زينوفون رأسه احترامًا لذكراه، وأومأ سقراط برأسه كأنه يوافق نفسه.

"معدنك أفضل من معدنه، أفضل بكثير" تبادل الرجلان النظرات متقابلَين على طرفي الطاولة، ونسيا أمر الأسماك والخضار المقطَّعة الموجودة عليها.

"لماذا يرمي الأطفال في الشارع الحجارة والفاكهة المتعفنة عليك؟".

"لأنه يُسمح لهم بالتجول بحرية. لأن هذا ليس حيًا غنيًا من المدينة. ولا يوجد نظام هنا".

"هل يرمون الحجارة على جميع المارة في هذا الشارع؟". عمّ الصمت بعض الوقت قبل أن يهز زينوفون رأسه نافيًا.

"إذن لماذا أنت يا صديقي؟".

"أنت تعرف جيدًا لماذا".

"مع ذلك، أريد أن أسمعك تقول ذلك".

"لقد رأوني عدة مرات في ذلك المكان، إنهم يعرفون اسمي".

"هل يكرهون اسمك إذن؟ لابد أنهم سيرشقون الحجارة عليه".

"إنهم يعتبرونني خائنًا". تمتم زينوفون وقد احمرّ وجهه.

"حسنًا إنهم لا يكرهون اسمك بل أفعالك؟".

"لم أفعل شيئًا خاطئًا، لا شيء!".

"حسنًا، لماذا يعتقدون أنك خائن؟".

رفع زينوفون يديه بحيرة. "لقد أتيتك بصفتي صديقًا، وليس تلميذًا. لست في مزاج مناسب لهذا الليلة. لمَ لا نسكب ما تبقى من النبيذ، أو دعني أشتري المزيد. يمكننا التحدث عن أمر آخر. دعني أترك هذا خارجًا في الشارع، في الأزقة".

كوّم سقراط الخضار المقطعة والسمك في وعاء مع القليل من الجبن الأبيض. سكب فوقها زيت الزيتون حتى غطى الزيت كل ما في الوعاء، ثم فرك بعض كتل الملح بين أصابعه.

"من الأفضل أن أفعل هذا عندما تكون خارج المنزل. إنها تقول إنني أُكثر من استهلاك الملح وهذا صحيح، ولكن ما معنى الحياة من دونه؟ يا صديقي، أنت لم تزرني منذ شهر، بالرغم من أن المدينة ثائرة. لقد أتيت اليوم للحصول على أجوبة، أو ربما نصيحة. لذا، كما يفعل بائعو الحلزون بِمبضعهم الصغير، دعنا نبحث عن الحقيقة".

فُتح الباب ودخلت منه زوجة الفيلسوف عائدة، حدّقت مدهوشة إلى الوعاء الكبير والرجلين في حين وضعت قارورتين فخاريتين من النبيذ على الطاولة بينهما.

"يقول ديليوس، عليك أن تدفع له وإلا لن يعطيك المزيد، قال إنه ليس مرابيًا. قال إنك ستُفلسه من كثرة الشرب إذا سمح لك بذلك".

قال سقراط برضىً: "إنه صديق عزيز، وبطل بين الرجال". التقط القارورتين المصنوعتين من الفخار والجلد، وشم رائحتهما مستمتعًا.

"إنهما طازجتان وشهيتان وحديثتا الصنع يا حبي. إنهما في الأسبوع الأول من زواجهما، صديقان جديدان، حبيبان جديدان، انتصارات جديدة!". شمت زوجته الرائحة، بالرغم من أنها لم تقاوم ضمه لها بين ذراعيه. لم يحب زينوفون طريقة معاملتها لسقراط. كان يبدو أن زانتيب تعتبر

زوجها ساخطًا ومحرجًا، ولكن مع ذلك ها هما يربيان ثلاثة أولاد معًا. بالرغم من وجود أثر من المرارة في سلوكها، إلا أنه خبأ خلفه حبها للرجل الضخم الذي قبّلها بصخب في ذلك المطبخ.

قال سقراط: "نادي الأولاد يا عزيزتي، كان المستشار يوضح لي سبب غضبه".

قال زينوفون متذمرًا: "لقد حُلّ المجلس، ليس لديّ أي منصب الآن" كان معتادًا على أسئلته المندفعة ولا يزال ممتنعًا عن الاسترسال بالحديث، بالرغم من أن سقراط بدا كأنه نسي اعتراضه.

"هل يعني هذا أن المدينة لم تعد بحاجة إلى مجلس؟ ألم يعد هناك رجال جيدون للقيام بالأشغال العامة؟".

مرّر له سقراط كوبًا من النبيذ الجديد، فارتشف منه زينوفون رشفة، وجلس إلى الطاولة. نادت زانتيب أولادها ووضعت أوعية الطعام، الملاعق والسكاكين للجميع. أشعلت مصباحًا زيتيًا أنار الغرفة بلون ذهبي.

سأله زينوفون: "لماذا عليّ الإجابة عما تعرفه مسبقًا؟".

"لماذا عليك أن ترفض؟ هل تعتقد أنك كذلك؟". أطبق زينوفون فكيه بقوة، لقد ساء مزاجه مع تحسنِ إضاءة الغرفة.

"حسنًا، لقد حُلّ المجلس عندما سقطت إسبارطة. هل هذا ما تريد سماعه؟ قُبض على الباقين من الثلاثين ومعظمهم قُتلوا في الشوارع على يد العامة. تلميذك الإسبارطي ذاته، كريتاس، شُنق. لهذا السبب لم يعد هناك مجلس".

سأله سقراط بلطف: "وأنت يا صديقي؟". بينما طرح سقراط سؤاله نزل أولاده مُحدِثين جلبة على الأدراج، يصرخون ويضحكون. ولكنهم جلسوا بصمت عندما رأوا والدهم وضيفه.

"ماذا بشأني؟".

"لماذا بقيت على قيد الحياة؟ كيف نجوت من الثورة التي دمرت القيود الإسبارطية؟".

"لقد أُعفي عني، إلى جانب ثلاثة آلاف آخرين". شد زينوفون قبضته في أثناء حديثه، ومدّ سقراط يده للتربيت على اليد المرتجفة على الطاولة.

قُدّم الطعام، وشكرت زانتيب الإلهة ديميتر وحوريات البحر على الطعام الذي أمّنته لهم.

اثنان من الأولاد كانا نحيلَين وطويلين مثل القضبان، أما الأخير فكان أقرب ما يكون إلى نسخة عن والده، مع كتلة كثيفة من الشعر الأسود. انكبّ الصبية الثلاثة على تناول الطعام مثل الكلاب النهمة، ماسحين كل قطرة من الزيت بكسرات الخبز.

سأله سقراط: "إذا أعفي عنك، لماذا يصرخون عليك في الشوارع؟ لماذا يرمون عليك الحجارة والفواكه؟". طأطأ زينوفون رأسه.

"بعضهم كان لهم آباء أُعدموا بأمر من مجلس الثلاثين. وهم يلومون مَن ساعدهم منا في أعمالهم، بالرغم من أننا لم نُرد سوى إحقاق الحق وتطبيق النظام والمعيشة الأفضل. ما الذي جلبَته الديمقراطية لنا سوى الدمار؟ كم رجلًا من أثينا خسرنا في سيراكيوز؟ كم غيرهم تعفنوا في السجون المظلمة؟ ثلاث مرات، أتت إلينا إسبارطة قائلة: 'نحن جميعنا يونانيون، دعونا نضع حدًا لهذه الحرب القائمة بيننا'. ثلاث مرات، صوّت ديمقراطيو أثينا ضد تلك اللفتة النبيلة. حتى عندما كنا نخسر، أتوا إلينا وعرضوا علينا السلام... ورفضناه".

"وأنت غاضب منهم؟ شعرت أن الإسبارطيين كانوا أكثر نبلًا؟".

"أجل، لأنهم كانوا كذلك. هذه ليست وجهة نظر. لقد أعطى الأثينيون صوتهم للعامة - وماذا يريد العامة سوى العيش من دون عمل، سوى الاستلقاء في الشمس وأخذِ ما لا يستحقونه! بالطبع لقد شاركت في أعمال مجلس الثلاثين، وقد كنت محقًا في ذلك".

"والآن؟ هل سامحك شعب أثينا؟".

"لا، إنهم يعذبونني. بعد كل ما فعلته من أجلهم، إنهم يعتبرونني عدوًا! لقد تولينا السلطة لعام واحد في تاريخ أثينا بأكمله يا سقراط، وخلال تلك المدة كانت هناك وفرة في الطعام وعُرضت مسرحيات عظيمة. لم تحدث أعمال شغب في المدينة طيلة أشهر. لم يتم السماح لأي مجرم باختيار طريقة موته! قُتل أولئك الذي هددوا السلام، وبالمحصلة لقد نلنا السلام".

سأل سقراط بما يشبه الهمس: "هل توقف العنف عندما أُعدم هؤلاء المجرمون؟".

زفر زينوفون وأحنى رأسه حتى كاد يلامس صدره.

حتى الأولاد توقفوا عن الأكل للاستماع إلى الحديث.

"لقد ازداد الأمر سوءًا. يومًا بعد يوم، شهرًا تلو الآخر. ظننا أننا إذا قتلنا القادة، فسيهدأ البقية ويطيعون القانون، ولكنهم استمروا بالظهور في كل مكان. في بداية الأمر كان هناك أبناء القادة وأعمامهم، ولكن بعد ذلك بدا أنهم كانوا يتكاثرون مثل رؤوس هيدرا. في كل شارع كان هناك رجال لم نعرفهم وقفوا وخاطبوا الشعب. طلبنا إليهم التفرق - وفرضنا حظر تجول ليلي على المدينة بأكملها وشنقنا المزيد والمزيد".

سأله سقراط مجددًا: "ولكنكم حققتم السلام في النهاية؟".

"لا، لقد انتفضوا، حاملين المشاعل والأسلحة. تفرقوا في جميع الشوارع، وقتلوا بعض أعضاء مجلس الثلاثين في أسرّتهم، وارتكبوا الجرائم ونهبوا و...". هز رأسه في محاولة منه للتخلص من الذكريات.

"ولكنهم غفروا لك منذ ذلك الحين؟ كم مرّ من الوقت، عام آخر؟ لابد أنهم تجاوزوا تلك الأيام العصيبة؟ وبالطبع أعادوا بناء الأسوار التي هدمها الإسبارطيون، للكشف عن خضوعنا لليونان بأكملها؟".

نظر زينوفون حوله، نحو المرأة ذات الوجه الصارم، والأولاد الثلاثة الذين يراقبونه بذهول وقد مسحوا الصحون بأصابعهم للتأكد من أنهم لم يتركوا أية لقمة فيها. ثم هز رأسه نافيًا.

"بقيت الأسوار أنقاضًا كما هي، واستُخدمت حجارتها في بناء بيوت جديدة. ولا، لم يغفروا لي. هناك خطباء ينادون الآن بعقاب جديد للذين ساعدوا مجلس الثلاثين، لكل أولئك الذين أُعفي عنهم. يقولون إنهم كانوا متساهلين جدًا في السابق".

لم يقاطع أحد الصمت الذي تلا حديث زينوفون حتى استأنف حديثه.

"لا أعرف ما يجب عليّ فعله. لا يمكنني الهرب، ولكن إذا بقيت فأعتقد أن ذلك لن ينتهي بصورة جيدة".

"ليس لديك زوجة أو أولاد يا زينوفون، إن حياتك ملكك. كم تبلغ من العمر، ثلاثين عامًا؟".

أجابه: "ستة وعشرين!"

فضحك سقراط.

"سنتحدث عن الكبرياء في يوم ما يا صديقي، ولكن الآن عليك أن تعيش حياتك كما هي. ماذا يمكنك أن تفعل؟ هل ستستمر بما تقوم به؟ ما التغيير الذي يمكنك أن تُحدثه؟".

اعتدل زينوفون في جلسته وانتصب، متجرعًا كوبًا آخر من النبيذ بالرغم من أنه قد غيب حواسه. لقد حاول أن يراقب نفسه من الخارج ويرى أيامه كما سيراها الغريب عنه.

إن تأثير النبيذ هو بالضبط ما حاول سقراط فعله، أن يبلغ هذا الوحي الكبير أولئك الذين لديهم الجرأة للإجابة بصدق.

أجابه: "سأغادر أثينا، بالرغم من أنها موطني، عليّ الرحيل". قال تلك الكلمات مترنحًا.

ابتسم له سقراط وأمسك بساعده عبر الطاولة.

"ليس إلى الأبد. حتى الأثينيين يغفرون وينسون في النهاية. أنت شاب يا زينوفون، لا تعِش في مكان يُثقل كاهلك بالخوف والهموم. استكشفْ العالم. وعندما يحين الوقت، ستعود. وبحلول ذلك الوقت سيكونون قد غفروا، أعدك بذلك. هذه طبيعة البشر. ابتعد وعش حياة مليئة بالإنجازات. عد إلينا بالقصص لإمتاع زوجتي العزيزة".

وقف زينوفون واحتضن صديقه العجوز.

قال: "جلّ ما أردته هو تعلم أفضل طريقة للعيش. لطالما علمت أنه لا يمكنني سوى التلميح. كان يجب أن تكون أنت قائدهم يا سقراط. ستكون أثينا رائعة عندها".

"أيها الشاب، إنها رائعة بالفعل، أتمنى لو كان بإمكانك رؤية ذلك. وإذا كنت تثق بحكمتي حتى الآن، فعليك تقدير صوت الشعب أكثر قليلًا. كريتاس كان كذلك أيضًا. لديّ طالب لتعليمه غدًا يقول لي إن على الرجل معاملة حراسه كما يعامل الراعي أغنامه. لماذا لا يجد أفضل تلامذتي أية قيمة في جدالنا الأثيني، وفي مساءلتنا؟ العالم مليء بالطغاة وحراس الناس. الملوك مثل النحل، إنهم يتكاثرون بأعداد كبيرة! فقط في أثينا نحن نمنح صوتًا للشباب، الفقراء، والأذكياء، لرجل قبيح مثلي، ليست لديه ثروة أو أنصار. يا ولدي، ما نمتلكه هنا هو زهرة تحت الشمس الساطعة، إنها أكثر هشاشة من الزجاج".

قال زينوفون بجدية: "الآلهة هي من تنصحنا وتحكمنا".

"كما يعلم الأب أبناءه، الملوك والقادة ليسوا سوى تجسّدٍ لاتباع الطبيعة البشرية هذا النظام. وإلا هل كنت تريد رؤية السلطة في يد من يعلو صوته؟ هل تريد للّذين يُكثرون من الكلام أن يسودوا على الحكماء والصالحين؟".

قال سقراط: "لقد تحديت الآلهة على قتلي من قبل، لقد..." مدت زوجته يدها مقاطعةً إياه لالتقاط الوعاء، وحجبت بذلك رؤية زوجها عن زينوفون. لقد سمعت الكلمات التي همسا بها، بالرغم من أنها تظاهرت بخلاف ذلك. بعض الأحاديث يجب ألا تُقال على مسامع الأطفال، أو من بيدهم أرواح الناس. لا يقدّر جميع الأثينيين رغبة سقراط في التساؤل والجدل حول كل شيء، حتى ولو كان الأمر يتعلق بفنائه هو. كانت الفكرة غريبة جدًا واستوقفت زينوفون في حين أنه سكب النبيذ من جديد، مع شريحة من الجبن والخبز والعنب. طلب الأولاد الإذن بالمغادرة وانطلقوا مسرعين حالما مُنحوا إياه.

"أتعلم يا سقراط؟ أنت من علم كريتاس الإسبارطي الذي انضم إلى مجلس الثلاثين وحكم أثينا قبل أن يُقتل. كيف تتم مطاردتي أنا في الشوارع وتهديدي بسبب الدور الذي أديته، أما أنت فلا أحد يزعجك على الإطلاق؟".

أجابه سقراط: "أنا محبوب جدًا". هزأت زوجته التي كانت تنظف الأوعية فعبس في وجهها. "في الحقيقة، إنهم يعرفون أنني أحبهم. إنهم لا يعتبرونني متعاليًا على الناس العاديين. أي جنون قد يدفعني للقيام بذلك! أنا ابن أثينا، أنا يوناني. أنا بنّاء وهم يرون الشباب يتجمعون للاستماع إلي. أنا لا أشكل تهديدًا لهم".

قال زينوفون بشكل جاف: "إنهم يسمونك أعظم حكماء أثينا.".

"ما الذي فعلته ويستحق شيئًا بقيمة هذا الكوب من النبيذ الأحمر اللذيذ؟ عندما كنت أقطع الحجارة، كنت أقدم شيئًا جديدًا للعالم. عندما وقفت في الصف مع رفاقي عشت الألم وشاهدت الدماء

تُسفك، كنت مهيبًا عندها. أما جل ما أفعله الآن فهو طرح الأسئلة في السوق".

قال زينوفون بلطف: "قال ألسيبياديس إنك جعلته يدرك أن حياته بأكملها كانت حياة عبد، هناك آخرون ممن لا يقدّرون بعد النظر".

"إنه رجل عظيم. وأنا مسرور لأنني أنقذت حياته، حتى إنه لم يشارك في الحرب بعد ذلك. أما بالنسبة إلى الباقين فأنا مجرد رجل يبلغ من العمر سبعين عامًا. عندما أتجول في الأسواق، فأنا أرتدي رداءً مرقعًا وأستند إلى عصا راعٍ. لا أحد يخشاني. ولكن أنت يا زينوفون، عندما ترفع حاجبك في وجههم، عندما تتصرف بطريقةٍ والدك، بطريقة الأشخاص الذين يعتقدون أنهم أدرى من الجميع، فإنك تسيء إلى نفسك".

لم يقل زينوفون شيئًا لبعض الوقت، بالرغم من أنهما أفرغا قارورة النبيذ الأولى وبدءا بالثانية. في نهاية المطاف، أومأ الشاب برأسه موافقًا.

"سأفكر في ما قلته لي. سأذهب إلى الأسواق، إلى المجندين هناك في الوقت الذي لا يزال نبيذك يجري في عروقي. وسأدع الآلهة تقرر مصيري".

قال سقراط: "أنت رجل طيب، أيها الأثيني، لو أن الشباب يعود يومًا لكنت سأرافقك". نظر خلفه حيث تقف زوجته منتظرة. "ولكن بما أن شبابي قد انتهى وأنا الآن متزوج فمع ذلك كله لم يعد وقتي ملكي. أتمنى لك حظًا موفقًا". تعانق الرجلان وخرج زينوفون من الباب، مترنحًا قليلًا، ولكن الغشاوة كانت قد زالت عن بصيرته.

عندما عاد سقراط إلى طاولته، وجد كومةً من العملات الفضية تركها زينوفون تحت وعاء مقلوب. تلاعب بها لبعض الوقت غارقًا في أفكاره، ثم هز كتفيه، وأرسل في طلب المزيد من النبيذ للاحتفال بثروته المفاجئة.

الفصل السادس



تقع مدينة ساردیس على الأطراف الغربية للإمبراطورية، جنوب بيزنطة. اعتقد الناس في ساردیس أن سوسا هي عاصمة الإمبراطورية الفارسية، وأن مدينة بيرسيبوليس التي تحول الجبل فيها إلى هضبة لم تكن مكانًا أسطوريًا.

دخل الرجال اليونانيون الأغنياء بصحبة حراسهم إلى أسواق ساردیس ينتقون البضائع والتوابل لبيعِها في أسواق بلدهم ولاستهلاكهم الخاص. لقد كان شراء العبيد الشقر من غاول أو الحرير القادم من الصين، بكميات كبيرة، تجارة مزدهرة في المدينة، بالرغم من أن الثروة الحقيقية لم تكن المظاهر المترفة، فالأسوار العالية تخفي قصور الملوك والأمراء، على نحو لم يتمكن فيه أي من المارة معرفة أن حدائق واسعة مثل الموجودة في الغرب يمكن أن توجد في هذا المكان.

في وسط المدينة هناك القصر الملكي الذي يبقى بأتم جهوزية بالرغم من أن أحدًا من أفراد العائلة المالكة لم تطأه قدماه منذ عشرات السنين. جيش من الخدم والعبيد ينظفون الأشجار ويلمعونها ويشذبونها. لقد حافظوا على المسافة الفاصلة بينهم وبين الأمير كَي يسير هو ورفاقه الثلاثة وحدهم في الحدائق، وككل شيء آخر فإن الخصوصية كانت مجرد وهم هناك.

ارتدى سايروس ملابس خفيفة في الحر، وتدلى سيفه ذو المقبض المرصع بالياقوت من خصره، لقد وضع في يده اليسرى خاتمًا ذهبيًا وحيدًا، كان ذلك العلامة الوحيدة على السلطة والثروة. سار الإسبارطي كليرشوس إلى جانبه حافي القدمين مرتديًا عباءة حمراء تتطاير خلفه مع النسمات في حين كان يستمع بإنصات.

قال أحد الرجال: "ظننت أنني أعرف هذا الجزء من الأناضول يا مولاي"

لن ينعت القائد بروكسينوس الأمير الفارسي بالكاذب في ذلك المكان، ولكن الشك كان ظاهرًا على محياه. جميع الضباط اليونانيين كانوا ذوي لياقة عالية وسمر اللون كما تفرض عليهم مهنتهم. ولكن لسبب ما كان بروكسينوس من بويوتا بارز العظام. ألقت جبهته بظل قاتم على عينيه،

وامتد أنفه الكبير أمام وجهه يشق عباب الهواء مثل مقدمة السفينة. كان كليرشوس يحبه، ولكن الإسبارطي أدرك أنه كان شاهدًا على لعبة بين الملوك، إذ يمكن للصدق أن يؤدي إلى مقتل الرجل قبل أن يتحول إلى تهديد.

قال سايروس، وهو يربّت على ظهر بروكسينوس: "بكل تأكيد لن تستطيع معرفة كل القبائل في هذه التلال، جميع جبال الأناضول تابعة لإمبراطورية أخي، حتى الجنوب الثائر... وأنا قائد جيوشه. ربما عليّ أن أقود بضعة آلاف من الجنود الفرس من الشرق إلى هذه التلال، ما رأيك؟ رجال لم تطأ أقدامهم هذه الأراضي من قبل؟ لا، أعتقد أنني أحتاج جنودًا يونانيين لهذا الغرض. لقد رشحك كليرشوس، وقد بلغتني أخبار مشرفة عنك بصفتك قائدًا محنكًا".

قال بروكسينوس راكعًا على ركبة واحدة قبل أن ينهض: "أنت تطري عليّ يا مولاي".

"إنني أعطيك حقك بالوصف يا بروكسينوس، هل يمكنك أن تجد لي ألفي محارب يوناني من النخبة بعتادهم الكامل؟ رجال مدربين وخبيرين لن يهربوا من القبائل الهمجية؟".

"أجل أعتقد ذلك، أعرف عشرات القادة وجميعهم لديهم سجلات عن الرجال الذين درّبوهم. بعضهم سيكونون في حملات بالطبع، أو متقاعدين. ولكنّ ألفي رجل ليس عددًا كبيرًا".

نظر الضابط إلى الأمير ثم إلى كليرشوس. كان هناك شيء غريب، بالرغم من أن بروكسينوس لم يتمكن من تبيانه.

كان الجنود اليونانيون مقدَّرين حول العالم بأكمله لبراعتهم، لقد باعوا أنفسهم بوصفهم مرتزقة وكانوا يخدمون صاحب السعر الأعلى. ولكن مع ذلك شعر بروكسينوس بوجود خطب ما. أخبره حدسه بأن يرفض العمولة، لكن من الناحية الأخرى كان الأمير قد عرض عليه ثروة.

"تريد الاستعانة برجالي لمدة سنة واحدة؟ للذهاب إلى التلال والقضاء على القبائل الموجودة هناك؟".

أجابه سايروس موضحًا: "محوها عن بكرة أبيها".

كانت عيناه متسعتين، ولاحظ كليرشوس ذلك. بدا الأمير أنه يريد

من الرجل أن يصدق وعده، فقام بروكسينوس بمداعبة أطراف لحيته أسفل ذقنه.

"سأحتاج إلى أن أدفع لهم عربونًا تعبيرًا عن حسن النوايا".

سأله سايروس بغير اكتراث: "كم تريد؟ سأعرفك إلى مساعدي بارفيس. سيرتب الدفعة الأولى وأي شيء آخر تحتاج إليه. اشحذ همم رجالك أيها الضابط. اجعلهم على أهبة الاستعداد للقتال وسأشكرك على ذلك".

سأل بروكسينوس: "بعدها سنزحف للقضاء على أولئك البيسيديين؟ في الجنوب؟".

"بعدها أعلمني بجهوزيتك، أريد أن أشاهد رجالك يستعرضون مهاراتهم أمامي قبل أن أرسلهم بعيدًا".

"فهمت، ثقتك تشرفني سمو الأمير، وكذلك مدح كليرشوس لي أمامك، بالرغم من أننا لم نلتقِ منذ عشر سنوات. لن أخذلك، لن أخذلكما. منذ هذه اللحظة أنا خادم عرش إمبراطورية الفرس".

صحّح له كليرشوس: "أنت تخدم الأمير سايروس".

توقف الضابط اليوناني لبرهة قبل الركوع على ركبة واحدة.

وسأل: "أليس الأمر سيان؟".

ضحك سايروس، بالرغم من أنه كان بإمكانه أن يخنق الإسبارطي في تلك اللحظة.

قال: "أخي هو الإمبراطور، وطيلة السنوات الماضية كنت القائد العام وخادم جيوشنا من ساريس حتى الهند. بالطبع، الأمر سيان" راقب سايروس يركع أمامه قبل أن ينهض مجددًا دون انتظار الإذن منه، فامتعض. لم يقدم اليونانيون فروض الطاعة كما يجب على الإطلاق، فقد كانوا يتمددون على بطونهم أمامه. لقد أدرك أن هذا هو أسلوبهم فحسب، ولكن بالنسبة إلى شخص ترعرع في قصور الإمبراطورية الفارسية، فقد كان ذلك أمرًا مزعجًا بعض الشيء بالنسبة إليه.

عندما غادر بروكسينوس، التفت سايروس إلى الرجل الآخر الذي لم يتلفظ بكلمة واحدة واكتفى بالمشاهدة في أثناء سيرهما في الحدائق.

قال سايروس بصوت عالٍ: "لقد شعرت بالتعب".

قبل أن ينهي كلامه، ظهر صف من العبيد حاملين طاولة ومقاعد وجهّزوها بكؤوس زرقاء أنيقة. تمت إضافة أطباق صغيرة من الطعام لتهدئة آثار الجوع، بينما كان يجلس، مد سايروس يده لالتقاط الزيتون

والثوم المشوي، دون الالتفات حتى للتأكد من أن العبد قد وضع الكرسي تحته.

لم يتمكن سوفيانيتوس الستيمفاليني من تجاهل الالتفات خلفه للتأكد من انتظار العبد له أيضًا. وضعت كأس في يده وارتشف العصير البارد منها.

قال سوفيانيتوس: "مولاي، أنا لست معتادًا على مثل هذه الأمور".

قال كليرشوس قبل أن يتمكن الأمير من الرد: "ربما يمكنك الاعتياد عليها يا نيتوس، إذا خدمت بشكل جيد"

سأله سايروس: "اسمك الضابط نيتوس، أليس كذلك؟".

أحنى الرجل رأسه مجيبًا، متقبلًا تجاوز الرسمية بينهما كما لو أنه كان يمتلك خيارًا في ذلك.

تابع سايروس حديثه: "لقد سمعت ما قلته لبروكينوس، أتخيل أنك تعرف أنني قد قابلت العديد من الرجال أمثاله خلال الأسابيع القليلة الماضية".

قال نيتوس: "لابد أنك تكره أولئك البيسيديين بصورة خاصة".

نظر بعيدًا وهو يرتشف نبيذه، مستمتعًا بالنسيم العليل في الحدائق. لقد تصور أن كليرشوس كان يعاني من هذا المستوى من الراحة. كان الإسبارطي سيبحث عن باقة من نبات البقلة أو غصن شائك ليخلص نفسه من هذا العذاب بكل تأكيد. لم يفهم نيتوس أبدًا تلك المظاهر، ليس عندما يكون العالم عبارة عن قصر مفعم بالهواء العليل والتلال الخضراء الخصبة التي تمتع النظر. راقب كلا الرجلين بتمعن، ولكنه ركّز تحديدًا على الأمير. في المدينة انتشرت الشائعة أن سايروس نادرًا ما ينام لكثرة مشاغله، وأنه استدعى الجنود من كافة أرجاء البلاد.

لابد أنه أنفق أنهارًا من الذهب، لا بد أن الذهب لا قيمة له لديه.

انتظر نيتوس ردًا، لكن أيًا من الرجلين لم يقل شيئًا. لقد لاحظ أن ملامح الإسبارطي متسمرة كتمثال من الخشب، وأنه سارح بنظره في الأفق. تنهد.

"سموك، لقد قاتلت إلى جانب الإسبارطيين، الكورينثيين، الثيبيين والأثينيين لعشرين عامًا. لقد بذلت قصارى جهدي للوصول إلى هذا المنصب من السلطة والثقة، لكي يتطلع إليّ الرجال منتظرين أوامري التي قد يترتب عليها موتهم أو حياتهم. خضت ثلاث حملات كبيرة وربما عشرات المعارك الصغيرة، ونجوت منها جميعها من دون خدش أو جرح خطير. في عيد ميلادي الأربعين، داس حصان على قدمي وكسر نصف عظامها، ولم أتمكن من العمل لستة أشهر و... حسنًا، لقد شحّت الأموال. لذا لا يمكنني أن أقول إنني لا آبه للنقود، ليس بالمعدل الذي تعرضه. أنت تشتري خدماتي... وطاعتي. وإذا قلت يا *نيتوس، لا أريد مناقشة هدفي الحقيقي* فسأتفهم الأمر كليًا. أنا أعرف ما يقارب ألفًا ومئتي رجل سيغادرون فراش زوجاتهم للزحف بعيدًا عن كورينث لقاء أجر جيد. إن اسمك يفرض الاحترام، ولك سمعة طيبة بين الناس. يمكنني أن أجمع ألفًا ومئتي رجل مساوين لأي إسبارطي". شخر كليرشوس ورمقه نيتوس بنظرة امتعاض.

"لقد عرفت كليرشوس لفترة تعادل نصف حياتي. وهذا كافٍ لأعرف أنه رجل لا يقبل الادعاءات أو أنصاف الحقائق، سموك. ولا أظنه مختلفًا عنك، أتصور أن لديكما هدفًا مشتركًا وأنا لا أختلف معكما. ولكننا مخضرمون، ألسنا كذلك؟ كفانا حديثًا عن قبائل التلال الخطرة، على الأقل بيننا". ضحك وارتشف رشفة من عصير الفواكه.

"يمتلك كليرشوس ألفي إسبارطي تحت إمرته، كما سمعت. وبالرغم من أنه لا يستطيع التمييز بين النبيذ الجيد والخل فليست هناك قبيلة في العالم يمكنها أن تتسبب له بالمشاكل، مهما كانوا

كثيري العدد أو مهما علَت أسوارهم". ألقى نيتوس نظرة خاطفة على الأمير. رفرف الستيمفاليني بعينيه عندما شاهد سايروس يضحك وعيناه تلمعان.

قال نيتوس: "هل أضحكتك؟".

أجاب سايروس: "لا، على الإطلاق أيها الضابط. أخبرني كليرشوس أنك لن تتقبل القصة التي اتفقنا عليها. وكما قلت، لديّ أسباب أخرى لحشد جيشي. وإذا انتشرت هذه الأخبار بين الناس، فلن يعود ذلك بالخير عليّ". ارتشف رشفة من كوبه، وانتظر برهة لتقييم الرجل الجالس أمامه في حين رفع الضابط نيتوس رأسه.

"أفهم ذلك بالطبع. كما قلت، إن ذهبَك يشتري خدمتي. وأنا لست سوى أداة متواضعة. فأس الحطاب لا تسأل أية شجرة ستقطع". قهقه كليرشوس مما دفع كلا الرجلين للالتفات إليه.

ابتسم نيتوس قليلًا: "نيتوس ليس رجلًا متواضعًا سموك. ولكن مع ذلك لم أعهده ثرثارًا أيضًا".

"ربما تتساءل هذه الفأس المتواضعة إذا كانت ستواجه خيالة أم مشاة. أو إذا كانت ستحارب في البحر أم على البر. القرار يعود إليك، سموك بكل تأكيد." التفت الأمير إلى الخلف وفجأة أصبحت ملامحه جدية.

تلفت حوله مستشعرًا عيونَ الخدم القريبين منه أو ربما آذانهم. ثم أشار إلى الضابط الستيمفاليني نيتوس الذي اقترب منه حتى أصبح بإمكان الأمير التنفس في أذنه. تراجع كليرشوس في جلسته لكي يتمكن من مراقبة تغير ملامح الرجل.

أبلى نيتوس حسنًا، فلم تتغير ملامحه كثيرًا في حين ابتعد عنه الأمير مجددًا.

"لقد فهمت، البيسيديون إذن. أنا أقدّر الرجل الذي يستطيع الحفاظ على مجلسه". نهضا معًا وربّت كليرشوس على ظهر الضابط الستيمفاليني كما يفعل الأصدقاء. أتى الخادم بإشارة واحدة ليرشد اليوناني إلى البوابة وبقي كليرشوس وسايروس وحدهما.

سأله كليرشوس: "هل أخبرته؟". وللمرة الأولى لم يكن متأكدًا من الإجابة.

قال سايروس: "أجل، عليّ أن أكسب أفضل الرجال إلى صفي أيها الضابط إذا ما كنت أريد أن يكون لي أي أمل في تحقيق ما أريده. وإذا كانت لدي موهبة واحدة فهي إيجاد أولئك الرجال".

قال كليرشوس: "أنت تشرفني وتمدح نفسك في الوقت ذاته يا سمو الأمير".

"اجل هذا ما فعلته".

أجفل زينوفون عندما سمع اسمه يُنادى به من الخلف في الشارع المزدحم. لقد كانت أثينا أكثر مدن اليونان رخاء لقرون. لطالما أتى الفقراء لجمع ثرواتهم هناك، عمل بعضهم في بناء أسطول السفن الأثيني وأنفقوا مدخولهم في الحانات الموجودة في الموانئ، أما بعضهم الآخر فقد فضّلوا السرقة مغامرين بفضيحة عامة أو النفي.

شعر زينوفون بالاشمئزاز لرؤية الشباب الذين بإمكانهم الانضمام لأية فرقة من المرتزقة يضيعون حياتهم هباءً بهذا الشكل، سكارى، وفي بعض الأحيان يمدون أيديهم للتسول من المارة.

لقد تعرف إلى بعضهم في أثناء سيره مع سقراط في الشوارع. وقد لفت انتباهَه بالطبع منظرُ الرجل القبيح سائرًا حافي القدمين ومرتديًا ثوبًا مرقعًا ورماديًا بلون ملابس أفقر المتسولين. تذكر زينوفون المرة الأولى التي جلس فيها عند قدمَي الفيلسوف في سوق الملابس اليونانية التقليدية المفتوح، عندما نادى سقراط على شاب يدعى هيفايستوس للجلوس إلى جانبه. كان الشاب قائدًا لنوع من العصابات المحلية، تبختر واختال عندما صاح رفاقه بأن الرجل العجوز يستغله كامرأته.

انزعج زينوفون، ولكن سقراط سأل هيفايستوس سؤالًا تلو الآخر مثل السيل. لقد عمل العجوز على ما بين سطور النكات الأولى والردود الوقحة، ساعيًا للوصول إلى ذات الشاب الحقيقية. وعندما توصل إليها شيءٌ ما استفاق داخل قائد العصابة. تقدم أحد أصدقائه للإدلاء بتعليق ساخر، فضربه هيفايستوس على رأسه بقوة جعلته يسقط ويتراجع ذليلًا.

لقد شاهد زينوفون الأمر مئات المرات، إلا أن سقراط كان دائمًا ما ينفي معرفته بأي شيء ويقول إنه لا يفعل شيئًا سوى طرح الأسئلة حتى يدرك الرجال ما الذي يؤمنون به حقًا.

بالنسبة إلى بعضهم كان هذا الإدراك مثل الشمس الساطعة فوق التلال.

وبالنسبة إلى آخرين كانت تلك المعرفة كثيرة عليهم فكرهوا أنفسهم - وغالبًا ما كانوا يكرهون الرجل الذي جعلهم يرون أنفسهم على حقيقتها وما آمنوا به فعلًا.

نظر زينوفون خلفه وشد قبضته عندما رأى رأس هيفايستوس الحليق يتحرك بين حشد من الناس. كان الشاب لصًا ومتنمرًا أيضًا.

لقد كان بين حشد يغادرون المسرح بعد حضور عرض مسرحية ديونيسوس.

ساروا وتحدثوا عما شاهدوه في الداخل تائهين في متاهة ما، وقد سار الرجال أمثال هيفايستوس بينهم، سارقين السلاسل الذهبية وأكياس النقود، وأي شيء يمكنهم الحصول عليه. كانت العصابات تتغذى على أولئك الذين كانوا أضعف من أن يدافعوا عن أنفسهم، في حين احتقرهم زينوفون جميعًا.

ربما كان هذا البغض هو ما استشفه هيفايستوس منه.

بالرغم من أن جرذان الشوارع تبعت سقراط مثل الحراس الشخصيين كلما خرج من منزله، إلا أن هيفايستوس كان يحمل في داخله كرهًا نادرًا تجاه زينوفون. كان بعمر لا يتجاوز الثمانية عشر عامًا وجسد نحيل تغلبُ فيه العظام على اللحم إلا أنه لم يكن مغفلًا ليتحدى زينوفون بشكل مباشر. بدلًا من ذلك، شجع هيفايستوس إخوته النحيلين على رمي البيض والفواكه أينما شاهدوا النبيل الأثيني.

شعر زينوفون بغضبه مثل الدرع، فقد كان يندفع نحوهم إذا اقتربوا كثيرًا، أو عندما يصطدم شيء تافه بوجهه أو رقبته. كانوا يصرخون ويطلقون الشتائم. عندما كان يسير بصحبة سقراط، كانوا يكتفون بالمشاهدة والعبوس في وجهه، ولكن عندما يكون بمفرده كانوا يسخرون من "الرجل النبيل" أو "صاحب الخيل" بأصواتهم الحادة.

في هذا اليوم، صاحوا باسمه بدافع العادة فقط؛ فقد كانت لديهم فرائس أكثر قيمة بين الحشود. كان زينوفون قد تجول عند أطراف مسرح المدينة الكبير، حيث يأتي الآلاف كل عام لحضور مهرجان التمثيل، والاستمتاع بالمسرحيات الكوميدية والتراجيدية. حتى سقراط تعرض للسخرية من قبل المتهكمين هناك، بالرغم من أن العجوز أطلق ضحكة صاخبة عندما شاهد الرجل الذي سيؤدي دوره في المسرحية حتى كاد أن يفسد الغرض من ظهوره.

وجد زينوفون نفسه قد ابتعد عن اسطبلات المدينة حيث يُبقون الأحصنة. كان منزل عائلته خارج المدينة وكان يأتي إليه كلما استطاع في تلك الأيام. لم تكن لديه زوجة ولم يكن أحد بحاجة إليه. ترك له والداه ثروة تعفيه من مشقة العمل، ولكن السنوات القادمة بدت كأنها خالية من المتعة من هذا المنطلق. نظر إلى صف المجندين الممتد أمامه، وإلى المظلات الشمسية التي زودوها بدوارق المياه الباردة أو النبيذ. شعروا باهتمامه مثل الصقور وحدقوا إليه بنظرات حادة، ورأوا شابًا طويلًا في ذروة قوته.

تمعن في الأمر لبعض الوقت، من دون الاستجابة لاستعطافهم، عندما سارت الحشود الخارجة من المسرح بعيدًا ذهب هيفايستوس ولصوصه الوضيعون لارتكاب سوء آخر. لم يكن في أثينا ما يعنيه، ليس في ذلك العام على الأقل. لقد عرف زينوفون معنى السلطة، بوصفه أحد المشرفين تحت حكم مجلس الثلاثين؛ الطغاة الثلاثين، كما كانوا يسمونهم حينها، بالرغم من أن زينوفون كان يسميهم الرجال المحترمين عديمي الرحمة. لم يسمحوا لعصابات الشوارع أن تنتشر دون رقابة، ولكن بطريقة ما أثار الإعدام العلني المدينةَ بأكملها، مما نتج عنه ليلة عظيمة من العنف. منذ ذلك الحين، تغيرت حياته، ولم يعرف بعدها معنى للسلام.

اتجه زينوفون نحو المجند الأول، كان إسبارطيًا كما يوحي لباسه. ألقى الرجل نظرة واحدة وأومأ برأسه دلالة على الرضى. كان قد شاهد هذه التعابير ذاتها مرات عديدة من قبل.

قال له: "ضع دمغتك هناك يا ولدي، وبالمقابل سنصنع منك رجلًا، لن تعرفك أمك عندما تعود إليها، وستضع الفتيات الورود في شعورهن عندما يرينك. إنهن يحببن الجنود يا ولدي".

قال زينوفون: "حسنًا". شعر بدهشة الرجل عندما كتب اسمه على اللائحة بدلًا من التوقيع بحرف أو دمغة من الشمع.

"هل تمتلك مهارات أخرى أيها الشاب، إضافةً إلى الكتابة؟".

أجاب زينوفون: "الأحصنة". شعر بالذهول كأن الأمر يحدث مع شخص آخر غيره.

أجاب الإسبارطي رافعًا حاجبيه: "أنا أعرف الأحصنة".

"هل أنت نبيل أثيني؟ هارب من والده؟ أم من الديون؟".

أجابه زينوفون: "أنا... خدمت مجلس الثلاثين، وأنا أسعى لبداية جديدة". تغير وجه الضابط، وأظهرت عيناه شيئًا يشبه التعاطف. بوصفه إسبارطيًا، فقد كان يعرف امتعاض الأثينيين أكثر من غيره.

قال الرجل: "هكذا إذن، أعتقد أن عليّ شكرك يا ولدي على خدمتك. إنهم ينسون دائمًا أننا قدمنا لهم ثلاث فرص لتحقيق السلام. ولكنهم رفضوها في كل مرة، لذا اضطررنا لاختراق أسوارهم".

اعترف زينوفون: "لقد قلت الأمر ذاته". بدأت أفكاره تتضح وبدأت همومه القديمة بالزوال عندما أخذ يفكر في مستقبله.

سأل: "إلى أين سأُرسل؟".

"معظم الرجال يسألون عن رواتبهم أولًا، ولكن بما أنك أحد النبلاء فأعتقد أنك لست بحاجة إلى المال. سنتجه نحو جنوب الأناضول أيها الشاب، لمحاربة البيسيديين. إنهم أوغاد همجيون وشرسون يحاربون باستخدام الرماح. سنريهم ماذا يعني التدريب اليوناني، ونحضر بعض رؤوس أولئك الهمج. نمتّع أنفسنا مع نسائهم، ونعود إلى الوطن مع بعض الندبات لإعجاب السيدات، وبعض القصص الجيدة لأبنائنا. بصراحة، عندما أفكر في الأمر أشعر أنكم أنتم من يجب أن يدفع لي".

سلم لزينوفون قطعة حجرية وأشار إلى آخر الصف حيث جلس العامل على الطاولة، يحيط به عشرات الرجال.

"أترى ذلك الشاب هناك، الخطاط؟ سيسألك عن اسمك وباقي المعلومات... وسيبدأ أجرك من اليوم، بالرغم من أن أعدادنا لم تكتمل بعد".

سأل زينوفون: "متى سنغادر؟".

"هذه هي الروح المطلوبة أيها الشاب، الحماس، الطيبة، لن نتأخر أكثر من يوم أو يومين على ما أعتقد. سنبحر على متن سفينة نحو الشرق ونجتمع في سارديس. لقد اتخذت قرارًا صائبًا يا ولدي. ستغادر شابًا وتعود رجلًا، أنا أضمن لك ذلك".

أتى مجند آخر محتمل للاستماع إلى الحديث، ولاحظ زينوفون أن انتباه الإسبارطي تحول إلى الوافد الجديد.

بالكاد استطاع تصديق ما فعله، ولكنه شعر بأنه على صواب.

كان خبيرًا بالأحصنة، وكان خبيرًا بالرجال أيضًا. وأيًا كان ما سيتطلبه الأمر أيضًا فسيتعلمه في أثناء الزحف نحو ساردیس بكل تأكيد.

شعر بأن مزاجه قد تحسن في حين سار عائدًا نحو المدينة، إلى المكان الذي ربط فيه حصانه. كان القرار الصحيح، ولكنه تساءل فقط عمّا إذا كان عليه أن يدفع لقاء حصص إضافية في تعلم المبارزة بالسيف قبل أن يغادر.

الفصل السابع



في قاعة الملوك في بيرسيبوليس، سجدَ تيسافيرنيس على الأرضية الرخامية. كان قد تعلّم ألا ينهض قبل أن يُسمح له بذلك، وبعض العلامات الحديثة شاهدة على ذلك. لم يكن أرتحششتا ليتسامح مع أية زلة أو إهانة. جلس الملك الشاب على عرشه وتقبّل تهاني الحكام والخدم على حد سواء، كأن الجميع كانوا عبيدًا لديه. لاحظ تيسافيرنيس نظرات النبلاء الكارهة في أثناء مغادرتهم الحضرة الملكية، مجبرَين على ترك كرامتهم خلفهم.

أرسلت الأمم الثماني والعشرون أبناءها وكبار رجالها لحضور جنازة داريوس. استمرت الإمبراطورية بنعيه طيلة أربعين يومًا، مع إنشاد آلاف العبيد للتراتيل إلى أهورا مازدا على مدار الساعة، للإسراع في إدخال روحه إلى الجنة. زُين القبر العظيم بخطوط من الذهب الذي لا يتقشر، واختير الحراس لجمالهم إضافة إلى مهاراتهم القتالية. كل منهم وقف طواعية ليلقى حتفه بضربة واحدة في الصدر، ثم وُضعت الجثث على عروش ذهبية في مواجهة الباب الخارجي، وتُركوا لحراسة عالم الموتى. ستُخلد أسماؤهم إلى جانب اسم الملك، وسترتقي عوائلهم مرتبة كاملة من الشرف.

في اليوم الأخير عند القبر، تذكر تيسافيرنيس شعور الجبال التي هُدمت كأنها لا تزال حولهم، مع لهيب نيران المشاعل وحدها على كل جانب. ذهب أرتحششتا إلى ما بعد الباب الأمامي لمرافقة أبيه، ينتحب ويهمس الأسرار لأذن الجثة.

بحلول وقت مغادرتهم، حُطمت السلالم الخشبية التي استخدمها البناؤون والعمال. وبقي القبر عاليًا قبالة الوجه العاري للجروف الملكية، كنافذة حُفرت في الصخر.

شعر تيسافيرنيس بإحدى عضلات ظهره تتشنج بسبب الانتظار الطويل قبل أن ينتبه تلميذه القديم لوجوده.

كان قد تجاوز الستين من العمر، ولم تكن هذه الوضعية مريحة له، ولكنه كان يعلم أن الشاب يريد إظهار سلطته أمام البلاط. تجول الخدم منتعلين نعالهم، كما أُمروا، مدركين أن عدم موافقته على أي شيء يعني أن رؤوسهم ستتطاير على الأرضية اللامعة. بحث الملك الجديد عن الكسالى بين خدمه، وعاقب أية مخالفة مهما بلغت من الصغر بالسرعة القصوى.

نظر تيسافيرنيس إلى الأعلى عندما شعر بلمسة. أمسك يد الخادم الذي ساعده على الوقوف، ثم تبعه عبر صالة العرش الطويلة. اصطف الحراس في ممرات بعرض شوارع المدينة مليئة بالأعمدة المصقولة من الغرانيت التي أُحضرت من مصر عبر البحر منذ قرن مضى، وقد طُليت تيجانها وقواعدها بالذهب. لقد استنزفت ثروة الإمبراطورية على قصور ملوكها ومعابدهم.

جلس أرتحششتا في النهاية البعيدة، يرتشف من كأس ذهبية شيئًا جعل عينيه تتسعان وتلمعان. شربه بحركة خاطفة، فترك علامات حمراء على أطراف فمه. عندما اقترب تيسافيرنيس وهمّ بالركوع مجددًا، رمى الملك الكأس نحو الخادم ونهض. تحركت عبدتان بسرعة للابتعاد عن طريقه عندما تقدم. شاهد تيسافيرنيس إحداهما تقرص الأخرى بلطف لكن أرتحششتا لم يلحظ ذلك.

من تحت حاجبيه السميكين، نظر تيسافيرنيس إلى الفتاتين نظرة المتذوق. عندما تُختار فتاتان من الجموع وتُطعمان وتُدربان لإمتاع الإمبراطور، فلا بد أن يكون جمالهما أخاذًا. الفتاة التي قُرصت كانت ذات شعر أسود قصير ترك رقبتَها مكشوفة. لقد لاحظت نظراته إليها وكان وجهها مفعمًا بالحياة. أما الأخرى فكانت تشبه الدمية من شدة جمالها.

قال أرتحششتا بلطف: "يا صديقي القديم، يمكنك الانحناء على ما أظن، ربما يجب أن أمنحك حق الانحناء دائمًا عندما تأتي للقائي، كدلالة على احترامي لسنك وخبرتك" سُر تيسافيرنيس للفكرة، ولكن العادات تحكم جوابه.

"مقابل التعبير عن احترامي، جلالتك، فإن عمري لا يساوي شيئًا" عبس أرتحششتا مفكرًا، ثم تراجع تاركًا يده الممدودة بالكامل تهوي بحرية.

"حسنًا يا صديقي القديم، عليك أن تستمر بالركوع إذن. إن التقاليد تقيّدنا جميعًا على ما أعتقد، حتى أنا مقيّد بها".

"بالطبع، جلالتك". قال تيسافيرنيس وهو يركع على الأرض، على الأقل هذه المرة كانت نظيفة.

نهض ليجد العبدة ذات الملامح الغاضبة تراقبه. كانت شفتاها داكنتين وريّانتين، كما لاحظ. كان يعلم أن حياته تساوي أكثر من أن يُقبض عليه وهو يحدق إليها، لذا أشاح بنظره. عندما وقف منتصبًا، لاحظ أنها صرفت انتباهها إلى قلادة كانت تضعها، لذا أزاحها من فكره. عاد أرتحششتا إلى جلسته، وبدا أنه كان يقلد نظرة والده الصارمة ولكن بسطوة أقل.

"جلالتك، لديّ أخبار لا يمكنني تفسيرها عن أخيك سايروس" توقف تيسافيرنيس للحظة. كان يعرف الملك جيدًا لكي يرمي الطُّعم في الماء وينتظر الرجل حتى يبتلعه. وبكل تأكيد، كان لاسم

سايروس ذلك التأثير. لم يتحدث أرتحشستا عن أخيه منذ حادثة تدخل أمهما المذلة، ولفترةٍ ظل سايروس يتصرف وكأنه لم يعد إلى المنزل على الإطلاق، واستمرت الإمبراطورية باستلام التقارير من الأمم الثماني والعشرين، وأيضًا تم الإبلاغ عن تحركات سايروس في الغرب على حدود اليونان دون أية خصوصية تُذكر.

لقد بدت الأمور على السطح هادئة ومستقرة، ولكن تيسافيرنيس كان يعرف أبناء داريوس جيدًا ليصدق ذلك.

سأله أرتحشستا: "ما الذي يقلقك؟". ثم نظر بعدم ارتياح إلى الخدم والعبيد الذين قد يسمعون المشاكل العائلية، ولكنه تذكر أنه ملك، جالس على عرشه في عاصمة مملكته، لذا لوّح بيده مشيرًا إليهم بالانصراف للتخلص من هذه الأفكار المزعجة.

"جلالتك، تعلم أنني علمت سايروس منذ أن كان صبيًا صغيرًا. لقد صفعته بيديّ هاتين عندما ترك أفعى ملكية في غرفتي".

و"نعامة" أجاب أرتحشستا ضاحكًا.

"أجل، أنا أتذكر ذلك." لم يشارك تيسافيرنيس الملك في الاستمتاع بتلك الذكرى.

"أنا أعرفه جيدًا جلالتك. بما فيه الكفاية لأشتبه بأنه لن يغفر بسهولة خسارته لحراسه الإسبارطيين، وأنه كان على وشك أن يخسر رأسه، لولا تدخل والدتك...".

"أجل" أجاب الملك. "إلا أن موته كان سيضعفنا يا تيسافيرنيس، والأمم تتوقع منا حكمًا مستقرًا. سايروس أدرى بجيوشنا من أي رجل آخر على قيد الحياة. ربما سأقوم باستبداله مع الوقت، ولكن كما قالت أمي، إن القيام بذلك بهذه السرعة بعد وفاة والدي سيتسبب بحدوث الفوضى".

بدا أن هذا الاعتراف قد خنق صوته وهو مستمر في الحديث: "إن العفو عن أخي كان قرارًا حكيمًا" انحنى أرتحشستا إلى الأمام. قامت الفتاة العبدة بوضع فخذها على ساق الملك العارية، وظن تيسافيرنيس أنه سمع صوت احتكاك جلدها بجلده، ولكنه لم يتجرأ على النظر إلى الأسفل، لاسيما وأن أرتحشستا يراقبه مترصدًا كما فعلت الأفعى الملكية التي وضعها كلا الولدين في غرفته منذ سنوات. لطالما شعر تيسافيرنيس بالخوف من الأفاعي. لقد صرخ مثل النساء حينها، ليسمع بعدها الأميرين يكادان يختنقان ممسكَين بعضهما ووجهاهما محمران من شدة الضحك.

"إلا إذا كانت لديك معلومات أخرى يا تيسافيرنيس..؟ بماذا أخبرك جواسيسك؟ هل أخي وفي؟".

"من يستطيع أن يعرف ما في القلب، جلالتك؟ ولكن مع ذلك وردتني تقارير عن مبالغ ضخمة تُستجر من الخزينة الملكية، ستين، أو ربما ثمانين ألف درهم إضافية".

"وماذا في ذلك؟ ربما يبني ثكنات جديدة، أو يدرّب مزيدًا من الرجال. إن الجيش هو الذراع اليمنى القوية للإمبراطورية يا تيسافيرنيس. أنت لا تقدّر تكلفة ذلك، أعتقد أن نصف ميزانية المملكة تُصرف على إطعام الجنود كل عام، وربما حتى أكثر من ذلك. الأحصنة، الدروع، السهام وحدها! أتذكر كيف كان يفتخر والدي بالعدد الكلي للرجال الذين يمكنه إرساله إلى ساحات المعارك. هل تفهم؟ لم يشتكِ والدي من تكلفة ذلك، لا، بل كان يستمتع بالأمر! من عساه يتحمل تكاليف كل هذه الأمور إذا لم تكن عائلتي؟ يا تيسافيرنيس، إذا كان هذا كل ما لديك فقد خيبت أملي". أومأ تيسافيرنيس برأسه.

كان الملك يستمع بإصغاء، ونسي أمر عبدتيه. لقد حان وقت سحب الطُّعم والإمساك به بسرعة.

"ربما أنت محق، جلالتك، بالرغم من أن المبالغ التي استجرها الأمير هي ضعف مثيلاتها من العام السابق. ولكني قلق مع ذلك من عدد الرجال اليونانيين الذين جنّدهم".

"بوصفهم مساعدين؟ نحن نعلم بشأن حبه لأولئك المرتزقة، الإسبارطيين على وجه التحديد. وماذا في ذلك؟ بضعة آلاف هنا وهناك لتدريب جنودنا الخالدين وإلهامهم. يا تيسافيرنيس، لقد أشرف أخي على أمور الجيوش لأعوام. وبالرغم من اختلافنا على بعض الأمور، إلا أنه لن يشكل خطرًا على إمبراطوريتي، ولا حتى من أجل مليون إسبارطي".

"جلالتك، لقد وردتني التقارير عن عدة آلاف منهم. لقد أرسلهم شمالًا وشرقًا، إنه يدرب بعضهم في ثراس، وبعضهم الآخر في كريت. ولكن مع ذلك فإنهم جميعًا تحت سيطرته. إن الشخص الحريص قد يعتقد أنه بدأ يجهز جيشًا فاتحًا، جلالتك. أنا لا أعرف عدد اليونانيين الذين جندهم، ولكنه تمكن من حشد ثلاثين أو أربعين ألف جندي إسبارطي تحت إمرته مباشرة على امتداد المدن الغربية، وربما أصبح عددهم أكثر من ذلك الآن".

همّ أرتحششتا بالإجابة، ولكنه عدل عن الأمر، واستغرق بالتفكير. لم يقاطعه تيسافيرنيس، ولكنه انتظر رافعًا حاجبيه. لا تزال لديه ورقة أخرى لإشراكها في اللعبة.

"جلالتك، أنت تعلم أنني لن أتجرأ على تقديم اتهامات باطلة لك مبنية على الإشاعات والأقاويل. لقد أبقيت بعض العيون تراقب على مر السنوات، وبعض الكتّاب يكتبون التقارير على امتداد الإمبراطورية، بعضهم رجال مقربون من سايروس، ولكني لم أسمع كلمة تشكك بدوافع، ولا مرة واحدة".

"وما الذي اختلف الآن؟" سأل أرتحششتا بوجه ممتقع.

"جلالتك. لم يعودوا يقولون شيئًا الآن. لم تعد تردني الأخبار منهم، وهذا ما دفعني لأتساءل عما يجري على حدودنا الغربية". مرّر أرتحششتا يده في شعر الجارية الجالسة عند ركبتيه، كما كان سيفعل مع كلب الصيد المفضل لديه. استرق تيسافيرنيس النظر إليها فوجدها تنظر إليه بازدراء وكره، ونظراتها أقرب إلى الاحتقار. فاحمر وجهه وأشاح بنظره.

"حسنًا يا تيسافيرنيس، أنا أعرفك كفاية لأثق بحدسك. إذا كنت تقول إن هناك أمرًا مريبًا، فمن الحمق تجاهل ذلك. اذهب بنفسك إلى الغرب، خذ بضعة رجال معك، والتقِ بأخي لتحكم إن كان وفيًا". اضطرب تيسافيرنيس عندما فكر في الأشهر التي عليه تحملها على الطريق.

"جلالتك، آخر مرة رأيت فيها أخاك كانت من أجل أن أسوقه لحتفه، وهو لن يترأف بي أيًا كان ولاؤه، ربما يمكنني...".

قال أرتحششتا: "افعل ما أمرتك به، لقد سمحت لأخي أن يستعيد ألقابه وسلطته. ولقد تراجعت عن الأوامر التي أصدرتها في أثناء حدادي على وفاة أبي. إذا قتلك، عندها سأعرف أنه لا يزال غاضبًا. أترى؟".

ابتسم أرتحششتا ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه: "حتى في موتك يمكنك أن تكون ذا فائدة لي".

عرف تيسافيرنيس أنه يجب عليه التوقف عن النقاش الآن وركع عند قدمي الملك. "هذا شرف لي جلالة الملك، سأذهب وأعود إليك بالحقيقة أو سأموت، وفي الحالتين أنا في خدمة الإمبراطورية".

وقف زينوفون تحت أشعة الشمس مراقبًا بحارًا يونانيًا غاضبًا يستخدم كامل قوته ليسحب حصانًا خائفًا. بدا الرجل متمرسًا في الإبحار، ولكن بينما اصطف بقية المجندين على الموانئ، لم يستطع زينوفون التوقف عن التحديق بالطريقة التي حاول بها تطويع الحصان الذي لم يتوقف عن الصهيل.

كان بياض عينيه واضحًا، ولكن البحار لم يتوقف عن الشتم وضربِه بسوط جلدي، كأن الغضب والألم سيجعلان الحصان يطيعه! لقد ثبّت أرجله في الممر بين سطح السفينة ورصيف الميناء، يشد نحو الخلف بكل وزنه. ومع وجود بحار واحد يحاول جره، بدا أن الحصان سيبقى مكانه حتى حلول الظلام.

مئتا شاب من مختلف المدن اليونانية كانوا يمدون معبرًا آخر إلى رصيف الميناء من السفن، قلة منهم لا يتجاوزون العشرات هم من زاروا بلادًا أجنبية، وكان الجميع بانتظار من يخبرهم عما يجب عليهم القيام به. صرّ زينوفون أسنانه وهو يبحث عن الضباط الذين كان عليهم أن يكونوا هناك.

لسوء الحظ، لم يكونوا مثل الضابط الذي سجّل اسمه عنده. لقد خاب أمل زينوفون، لأنه لم يرَ ذلك الرجل مجددًا. بدلًا من ذلك، نُقل إلى رعاية زوج من السكارى يتجاوز عمرهما الثلاثين عامًا.

حالما رُبطت السفينة بالميناء، ترجّلا دون النظر إلى الخلف، ما من شك أنهما كانا يقصدان حانتهما المفضلة، وتُرك الجنود الشباب اليونانيون الذين أتوا للقتال لصالح الأمير سايروس ليتدبروا أمورهم بأنفسهم.

كانت الموانئ مزدحمة بالسفن التي تحمل بضائعها وتفرغها على مد نظر زينوفون. مد يده تحت سترته الجلدية الجديدة المحيطة بصدره وهو واقف في مكانه ليحك جلده.

لقد شاهد بعض الرجال يفركون الجهة الداخلية لستراتهم بالحجارة، ولكنه لم يدرك السبب، إلا عندما شتتت الحكة انتباهه. لقد عرف الرجال الخبيرون أين يمدون الزيت اللزج، أو كيف يطردون البراغيث من معاطفهم، أو ربما مجرد أهمية اقتناء قارورة مياه. لم يعرف زينوفون أيًا من آلاف الحيل التي كانت تصنع الفرق بين العذاب والراحة. كان يتعلم بأسرع ما يمكنه.

بحلول ذلك الوقت، فقدَ البحار أعصابه، وأصبح يصرخ واحمر وجهه حرجًا، عندما بدأت الحشود بالتجمع. انطلق زينوفون تجاهه، ووصل في الوقت المناسب لرؤية الحصان يحرك رأسه جيئة وذهابًا قاذفًا الرجل بقوة كأن لا وزن له، ولكن البحار رفع سوطه مجددًا حالما استطاع استعادة توازنه.

انتزعه زينوفون من يده بحركة سريعة ورماه بعيدًا.

"أنت تخيف حيوانًا أقوى منك، هل تريده أن يكسر إحدى أرجله على الميناء هنا؟". كان الرجل غاضبًا جدًا لدرجة أنه فكّر في ضرب الشاب الواقف أمامه. استطاع زينوفون ملاحظة ذلك في عينيه، ولكنه شاهد غضبه يخبو. لم تكن لدى البحار أدنى فكرة عمن كان هذا الشاب، ولكنه أدرك جيدًا أنه سيتعرض لعقاب وخيم جراء ضرب أحد الجنود أو إهانته. كان ذلك كافيًا لجعله يتوقف مؤقتًا، في حين أمسك زينوفون اللجام من يده من دون مقاومة.

"دعنا نهدئ من روعه قليلًا، هلّا فعلنا؟". تحدث زينوفون بلطف أكبر، وكان ذلك من أجل الحصان والبحار على حد سواء.

تمتم الرجل بشتيمة مخاطبًا نفسه، لكن زينوفون تجاهلها. في الحقيقة، شعر البحار بالارتياح لأنه استطاع الانتهاء من الأمر، إلا أنه لم يبتعد، بل وقف مكتوف اليدين وقد علت وجهَه نظرة ساخرة.

أدرك زينوفون أن الرجل سينتظر لتقييم ما سيفعله، كما سبق له أن فعل. لكن الفرق هو أن زينوفون لم يأبه برأي الرجل به.

راقب الحصان تغيُّرَ القبضة المحكمة على لجامه بعينين واسعتين. لطالما تساءل زينوفون عن مستوى إدراك الحيوانات، كان يشك في أن الأحصنة حيوانات ذكية بما فيه الكفاية لكي تحقد.

سأل: "ها أنت ذا. والآن، دعنا نلقي نظرة عليك، هلّا فعلنا؟".

"يا له من شعر جميل" حافظ على قبضته مُحكمة على اللجام، ولكنه لم يشده أو يطبق ثقله على الحصان الذي كان بإمكانه أن يجر رجلًا لمسافة أميال. استدار في أثناء تكلمه كأنه على وشك السير مبتعدًا.

بقي الحصان في الممر كأنه متجذر هناك.

شاهد زينوفون بطرف عينيه البحار يمتعض.

اقترب الرجل ليقول شيئًا إلى الرجل الواقف بجانبه، التفت زينوفون نحوهما وتجهّم وجهه عندما تعرف إلى هيفايستوس واقفًا هناك.

كان الشاب قد انضم إلى المجندين في اليوم نفسه الذي انضم فيه هو، وعن طريق نفس المُجَنِّدِ. لا شك في أن الإسبارطي قد حصل لنفسه على مكافأة. لاحظ زينوفون وجود هيفايستوس على الميناء في أثينا عندما اجتمع البقية، ولكنه لم يعلم ما الذي عليه استنتاجه من وجوده هناك. لم يكونا صديقين، كان يعلم ذلك علم اليقين، ولم يقل أيٌّ منهما كلمة للآخر عندما التقيا، بالرغم من أن كلًا منهما لاحظ وجود الآخر.

تساءل زينوفون عمّا إن كان سقراط هو من أقنع هيفايستوس بالانضمام إليهم، بدلًا من هدر حياته في الشوارع. ولكن فكرة أخرى أكثر إزعاجًا، خطرت بباله، ربما دفع الرجل بزينوفون إلى هذا المكان فقط للاعتناء بهيفايستوس.

لقد كرر سقراط أن سنواته في الجندية كانت سنوات سعيدة. لذا، لم يكن بالأمر المستبعد أن ينصح بقضاء بضع سنوات من الزحف والقتال مع الجيوش حتى يتمكن الرجال من النظر إلى حياتهم وسائر مشاكلهم من منظور مختلف.

قال زينوفون، مخاطبًا الحصان: "هيا أيها الحصان، "فأنت لا تريد البقاء طوال اليوم هنا أليس كذلك؟ هناك آخرون في الانتظار خلفك كما تعلم". كان زينوفون منكبًا على الحصان بكل جوارحه عندما وقف هيفايستوس إلى جانبه.

سأله الشاب: "أخبرني ما الذي عليّ القيام به".

رفع زينوفون حاجبيه مستغربًا، ثم أومأ برأسه.

"حسنًا، سنتحدث إليه بهدوء لبعض الوقت، ليشعر بالأمان. أعتقد أنه لا يزال يرفض العبور بعض الشيء، فالأحصنة لا تستطيع أن تتكلم يا هيفايستوس، إنها تمرض وتغضب فحسب. ربّت على عنقه، ولكن حذار أن يحاول عضك. إنه جامح بعض الشيء كما يبدو من عينيه". راقب زينوفون الشاب الأثيني حليق الرأس الذي قام بمد يده ليلمس حصانًا للمرة الأولى في حياته. ارتعشت رقبة الحصان تحت يده، كما لو أن ذبابة حطت عليها، ولكن الفحل لم يهاجمه. بدأ هيفايستوس بالضحك في بهجة عارمة لملمس بشرته.

قال متعجبًا: "يمكنني رؤية عروقه". فابتسم زينوفون.

"أجل، إلا أنني أعتقد أن قلبه الكبير بدأ يبطئ النبض. إنه يستجيب للمس، لذا استمر بتمرير يدك عليه. هكذا يا صديقي. أعتقد أنه حان الوقت لكي تتحرك من مكانك الآن، أليس كذلك؟ لابد أن

الأمر يصيبك بالجنون أن تسير على هذا الممر وهو يتأرجح ويهتز تحتك؟ أجل، يمكنني تصور ذلك. هيا بنا".

استدار زينوفون مجددًا، وسار الحصان خلفه، ولم يبقَ إلا بعض من الخوف والجفول اللذين كان يشعر بهما من قليل. سار على رصيف الميناء جيئة وذهابًا ممسكًا لجام الحصان ولم يفارقه هيفايستوس، الذي ربّت على الحصان أو اكتفى بوضع يده على كتفه. شعر بالتموجات الرائعة لبشرة الحصان تحت يده، ولكن زينوفون لاحظ أن الحصان أصبح أكثر هدوءًا وخفّض رأسه.

قال: "أنت تجيد التعامل معه بالفطرة".

نظر إليه هيفايستوس مندهشًا، كان مكشوفًا تمامًا أمامه في تلك اللحظة، فأشاح بعينيه بعيدًا.

أجابه: "شكرًا لك، أتمنى لو أنني أستطيع امتطاء الأحصنة. لطالما أردت تعلم ذلك". لوّح البحار بيده نحوهما بقرف، وعاد إلى ممشى السفينة لاصطحاب حصان آخر.

في الجهة الأخرى من الميناء كان الضابطان عائدين، منتعشين وثملين، جاهزين لتولي مهامهما من جديد.

شاهدا زينوفون وهيفايستوس واقفَين بصحبة الحصان فنادياهما.

سأل الأكبر سنًا بينهما: "أنت الشاب الخبير بالأحصنة إذن؟".

أومأ زينوفون برأسه، إلا أنه لم يكن يعلم ما الذي كُتب بجانب اسمه، لكنه كان يعرف أن الأحصنة تخيف أولئك الذين لم يترعرعوا بالقرب منها.

"أجل، كان أبي يربيها".

"جيد، شابان يعرفان ما الذي يفعلانه قد يكونان ذا نفع هنا. تبعد سارديس مئات الأميال، وقد يستغرق الوصول إليها أربعة أو خمسة أيام من السفر في الحر. إذا اعتنيتما بجميع الأحصنة، فقد تحصلان على مزيد من النقود، ستكون الأحصنة أفضل في سارديس، إذا كنتما تتساءلان. أحصنة جيدة ليست مثل هذه الهزيلة".

رأى زينوفون هيفايستوس يسد أذن الحصان الذي لا يزال ممسكًا به، كأنه يحميه من سماع هذا التعليق المسيء، كان تصرفه مضحكًا جدًا، فما كان من زينوفون إلا أن ضحك. لقد وعده سقراط بتجربة جديدة، في نهاية المطاف كان العجوز الذي ادعى أنه لا يعرف شيئًا أكثر حكمة مما يظن.

الفصل الثامن



في ظل سطوة أشعة الشمس، كانت الرياح ساكنة، لكن سايروس بالكاد شعر بذلك في أثناء ركوبه فحلًا قويًا عند طرف السهل الممتد على مدى نظره وصولًا إلى الجبال الزرقاء. لقد كان يراقب التدريبات منذ شروق الشمس، مع وجود بارفيس إلى جانبه. الرجل الذي كان أول من قدّم له الماء، أصبح خادمه الوفي، وبالكاد استطاع تصديق حظه الوفير وارتقاء مقامه. نادرًا ما كان بارفيس يغيب عن سيده، ووجد سايروس نفسه قد أُعجب بسرعة بديهة الرجل، والطريقة التي يحل وفقها المشاكل. لطالما قال بارفيس كل الجدران يمكن تسلقها، وكان من الغريب أن يتفوه بمثل هذه العبارة حارس حصن.

في السهل بالقرب من ساردیس، زحف ستمئة مقاتل كورينثي وتوقفوا، تفرقوا في صفوف لم يتمكن سايروس من تمييزها، ثم هاجموا بعضهم بعضًا في ما يشبه تمثيلية طقسية. ربما كانت حربًا ومسرحية في آن معًا. لقد سمع سايروس أن اليونانيين كانوا يستمتعون بمشاهدة المسرحيات المأساوية وحضورها، للنحيب أو الضحك والعودة متجددين بطريقة ما.

لم يكن مهتمًا بهذه الأمور، بالرغم من أنه لطالما تساءل إذا كانت تؤدي دورًا في التدريب. عندما لا يكون هناك وجود للأعداء، كان يلاحظ فرقًا بسيطًا بين القوات القادمة من المدن اليونانية والفيالق القادمة من موطنه. كان بإمكان الفرس أيضًا الزحف وركوب العربات والانتشار في تشكيلات مختلفة.

لكن عندما يُطلق نفير الحرب، عندما تُستل السيوف لسفك الدماء والقتل، كان اليونانيون يخترقون صفوف الفرس مثل منجل حديدي عملاق، ويكتسحونهم بالكامل. لقد كان ذلك لغزًا بالنسبة إليه. لم تبلِ فيالق الخالدين جيدًا، وخاصة في مواجهة الإسبارطيين. لقد علم سايروس أن حمل درع الأب، أو سيف الأخ، أو ارتداء خوذة العم البرونزية كان أمرًا يعني الكثير لليونانيين. كانوا يحملون

في بعض الأحيان شرف العائلة بأكملها إلى ساحة المعركة. وبالرغم من أنهم قد يُقتلون، إلا أنه لم يكن بالإمكان جعلهم يهربون، خصوصًا عندما تكون أرواح الرجال الشجعان تراقبهم.

لاحظ سايروس أن الضابط نيتوس الستيمفاليني رجل يفي بوعده، لقد درّب الرجل جنودًا جددًا وزرع القديمين منهم بين صفوفهم، مشكلًا قوة جيدة تتألف من ألف ومئتي جندي بالمجمل. استيقظوا جميعًا مع الإسبارطيين قبل بزوغ الشمس بساعة وركضوا حول التلال المحيطة بالسهل لساعات قبل أن يعودوا لسد رمقهم والبدء بالتدريب على السلاح.

صعب عليه ألا يقارنهم بالجنود الفرس، أولئك الرجال كانوا يعيشون وفق مراتبهم النبيلة، يستيقظون في وقت متأخر لتتم خدمتهم، ونادرًا ما يبذلون أي جهد بأنفسهم. في حين كان نيتوس، كليرشوس، بروكسينوس والبقية جميعهم يركضون إلى جانب رجالهم، ولا يجدون أي عار في ذلك. هذا درس يمكن للفرس أن يتعلموه.

عبر السهل، رأى فارسين قادمين على صهوتي حصانيهما بسرعة كبيرة. أجفل سايروس من المنظر. لم يكن هناك داع للمخاطرة بحياتهما، واستطاع أيضًا أن يتبين أن الحصانين كانا من سلالة جيدة حتى من تلك المسافة البعيدة. بالرغم من أن السهل كان منبسطًا، إلا أنه كان هناك احتمال لوجود حجر ما، أو حفرة يعلق فيها حافر أحد الأحصنة.

وضع كل من الرجلين جلدَ فهد على ظهر حصانه وامتطاه، وجثم ممسكًا بكتف حصانه بركبتيه. امتطى أحدهما ظهر حصانه ببراعة، متوازنًا مثل البهلوان، أو طفل صغير يجلس على الجدار. أما الآخر فلم يكن بمثل براعته على الإطلاق، بدا متشبثًا في نظر الأمير، ممسكًا باللجام ظنًا منه أنه سيسقط لا محالة.

أحب سايروس الأحصنة، وبالرغم من ذلك فإنه نادرًا ما رأى مثل هذا المنظر. لاحظ أن الحصانين المندفعين يتجهان مباشرة نحو صفوف المقاتلين السائرين، وهم أيضًا شاهدوا اقترابهما منهم وتوقفوا في مكانهم بناء على الأوامر التي وُجهت لهم.

تشكل الرجال في صفين متراصين، رافعين دروعهم مثل جدار برق بلون الذهب تحت أشعة الشمس. انتصبت الرماح كالقضبان السوداء خلفها. كان عملًا متقنًا ولكن الفارسين لم يبطئا من سرعتهما.

اندفعا نحو الصفوف مثل السهم المنطلق.

بينما نظر المقاتلون مذهولين، قفز أحد الفارسين ودفع حصانه إلى الأمام، ثم انحنى بزاوية بدا معها أنه سيسقط لا محالة. شاهد سايروس الشاب ينحني إلى الأسفل لالتقاط اللجام الذي أفلت منه، حينها أدرك على الفور أن الحصان الذي كان في المقدمة قد خرج عن السيطرة، وأن راكبه أصبح عاجزًا بالكامل، وغير قادر على الإمساك باللجام.

مع إفلات اللجام من يده، سيطر الشاب القائد على الحصانين ببراعة وأوقفهما بسهولة. تقدم سايروس بحصانه إلى الأمام، راغبًا في الاستفهام عما شاهده للتو. ولكن وجوده لم يمر دون

ملاحظة مع ذلك، إذ جمع الضابط نيتوس الجنود الألف والمئتين كأنهم سيخضعون للتفتيش. اتخذوا خطوة موحدة ووقفوا جنبًا إلى جنب.

ترجل الفارس الشاب لتفقد حوافر الحصانين، ونظر إلى الأعلى عندما نادى نيتوس على الجنود بالانتباه، ولكن عندما حاول رفيقه أن يضع يده على كتفه شاهده سايروس يدفعها بغضب. التفتا عندما تقدم الأمير وقفز إلى الأرض. تحولت ملامحهما من الغضب إلى الخزي إلى العينين المتسعتين دهشة كأنهما تعرفا إليه. اكتفى الرجل الذي جنح حصانه بالانحناء، أما الآخر الذي أمسكه على ركبة واحدة فقد ركع. لقد لفت ذلك اهتمام الأمير.

سأل الأمير الرجل الراكع: "ما اسمك؟".

"زينوفون سموك".

"كان ذلك تصرفًا شجاعًا يا زينوفون. لقد خاطرت بحياتك لإنقاذ هذا الرجل".

"لإنقاذ الحصان، سموك، هذا الحصان من أفضل أحصنتنا. لم يكن على هيفايستوس محاولة ركوبه قبل أن يتقن ركوب الخيل أكثر".

"فهمت، انهض من فضلك. هناك كثير من اليونانيين الذين يكتفون بالانحناء أمامي، أو يكتفون بالانحناء أقل ما يستطيعون، كأن الأرض ساخنة جدًا بالنسبة إليهم. ألا تمانع أنت إظهار الاحترام؟".

وقف زينوفون منتصبًا وشامخًا. كان يتعرق، واحمر وجهه من الجهد، فاكتفى بهز كتفيه.

"لا يقلل الأمر من قيمتي إذا احترمت الرجال الآخرين، سموك. إذا أظهرت لك الاحترام فإن ذلك لن ينتقص شيئًا من احترامي. في نهاية المطاف، أنا أتوقع الطاعة من شخص مثل هيفايستوس هذا. أنا أتوقع منه احترام خبرتي ومنصبي. إنه لم يفعل ذلك بالطبع، ولكني أطالبه به بالرغم من ذلك".

رمش سايروس بعينيه ناظرًا إليهما، مشاهدًا كيف حرك الرجل الآخر رأسه رافضًا، غير متقبل للوصف الذي نُعت به للتو.

"أنتم تذهلونني أيها اليونانيون، يبدو أنكم تفكرون في كل شيء، هل يخطر لكم التصرف بعفوية، دون التفكير في الأمور على أنها أحجية؟".

أجاب زينوفون: "لقد أتيت لقتال البيسيديين سموك".

"لقد تخيلت وجود صداقات حميمة واختبارًا للشجاعة، وتمنيت اختبار نفسي، إذا كنت تفهمني. ولكن عوضًا عن ذلك، ها أنذا، شهرًا تلو الآخر، أدرّب الآخرين، وأتدرب بنفسي. ربما كان عليّ التفكير في هذا القرار أكثر".

وجد سايروس نفسه مستمتعًا بمزاج الشاب العكر الواضح، ممزوجًا بمزاح متشائم كان باديًا من لهجته الساخرة.

فخاطبه سايروس قائلًا: "أتخيل أن طريقتك في الكلام تُكسبك الأصدقاء يا زينوفون".

تقدم فك اليوناني إلى الأمام مظهرًا عناده، ورفع رأسه كأنه يتحدى، مما جعل سايروس يضحك رافعًا يديه.

"أرجوك، أنا لا أقصد إهانتك، بل فهمك. في مدن والدي..." تردد قليلًا كأن ظلًا مر به. "في مدن أخي، يعرف الناس مكانتهم بالضبط. إنهم يعرفونها من عائلاتهم ونسلهم، من الخبرة، من الترقية، من معارفهم وعلاقاتهم، ولكنهم يعرفون بالتحديد أين يقفون في مقياس المراتب. نحن لا نمضي حياتنا في تقلبات الشك وعدم اليقين. يعرف الرجل عندنا متى يركع أمام الأمير ومتى يطلب الخنوع إلى من هم أدنى مرتبة منه".

قال زينوفون: "هذا يبدو... مريحًا". ولكن صراحته جعلته يتابع الكلام. "إلا أنه في الحقيقة، يخطر لي..." تراجع عن الحديث، مترددًا.

أشار له سايروس بيد ممدودة.

"طالما أنك في خدمتي، فأنا أقسم لك إن ما من شيء ستقوله سيتسبب لي بالإهانة، أتمنى أن أسمع الحقيقة فحسب". سمح زينوفون لنفسه بالابتسام. لقد أُعجب بأمير الفرس الذي أحضر نصف العالم إلى سارديس للتدريب.

"سموك، عندما تصف نظام الأسياد والخدم فأنا أعجب به، لأنني أتخيل نفسي على الفور بأنني سيد. والسيد سيحب نظامًا يفيده بكل تأكيد. ولكن مع ذلك، إذا اعتبرت نفسي شخصًا مجبورًا على القيام بالأعمال تحت قيظ الشمس، لصالح شخص ربما أعتبره لا يستحق أن يكون سيدًا عليّ فسأشعر عندها بالاحتقار. عندما ركعت أمامك، فإن ذلك كان احترامًا مني للتقاليد ولأنني أشعر بأن الرجل عليه أن يعرف مكانته في الحياة. ولكنك مع ذلك تحدثت إليّ بلطف، لو تكلمت معي بفظاظة أو احتقرتني، لكانت رغبتي في الركوع أمامك ستقل. في كلتا الحالتين أنا أبقى رجلًا يونانيًا حرًا، سموك، أثيني. لقد أقسمت على خدمتك، وها أنا أتقاضى أجرًا من أموالك. أنا محكوم بقسمي، ولكن عندما أقف بين يدي الآلهة، سأبقى قادرًا على القول إن ذلك كان خياري".

ضحك سايروس، مستمتعًا بالشاب الجاد الذي لم يختلف معه بالرأي في هذا الطرح. لم يشعر بأي غضب من رده، ولكنه تساءل مع ذلك فيما إذا كان قد أطال البقاء بصحبة اليونانيين فعلًا.

عوضًا عن المتابعة في نقاش تلك النقطة، مرر سايروس يده على رجل الفحل غير المخصي الذي امتطاه زينوفون.

وقال له: "إنه حيوان رائع، إنه يكافئ حصاني باساكاس على ما أظن".

ألقى زينوفون نظرة خبيرة على حصان الأمير، وأومأ برأسه موافقًا.

"إن حصان سموك باساكاس أطول بعض الشيء، ولكن أجل، اعتاد أبي تربية الخيول لمدة أربعين عامًا، وكان يبيع الأحصنة الفارسية مقابل مبالغ طائل كما أتذكر".

"إنها الأفضل في العالم" قال سايروس بهدوء، عارفًا بأنها الحقيقة. فابتسم له زينوفون.

تلاشى احمرار وجهه، وأدرك سايروس أن عليه أن يصرف الشابين ليعودا للقيام بواجباتهما. سعى لإيجاد طريقة لاستكمال المحادثة مع أنه كان يعرف أنه سيعيدها على مسامع الضابط الإسبارطي في ذلك المساء عندما يجلسان لتناول العشاء معًا.

"أنت أثيني يفكر مثل الفرس يا زينوفون، وأعتقد أحيانًا أنني فارسي يفكر مثل الأثينيين".

ضحك زينوفون، والتقط لجامَي الحصانين. لقد تجاهل سلوك هيفايستوس السلبي، الذي انتظر رافعًا حاجبيه، ناظرًا إليهما بالتناوب. مازال زينوفون يتساءل عما إن كان سقراط خلف انضمامهما في اليوم نفسه، فأشعرته هذه الفكرة بمزيد من الحيوية.

فقال زينوفون مخاطبًا سايروس: "أتمنى لو يتمكن صديقي سقراط من سماع حديث سموك، إذا أُتيحت لك الفرصة، فابحث عنه في أثينا، واطرح أمامه فكرتك هذه فمن المؤكد أنها ستعجبه، وسيكون من مؤيديك بسببها".

هز سايروس رأسه نافيًا، وقال: "لا أعتقد أنني سأزور اليونان مجددًا، ليس قبل وقت بعيد، إن أعمالي ستأخذني شرقًا بعيدًا في الصحراء".

فقال زينوفون وهو يجثو على إحدى ركبتيه: "يؤسفني سماع ذلك، لقد تشرفت بمعرفتك، سموك". وعندما انتصب واقفًا تبادلا الابتسام.

جمع زينوفون لجامي الحصانين في حبل طويل واحد، وتبعه هيفايستوس يجر أذيال الخيبة.

خبت ابتسامته في أثناء مراقبته لهما وهما يبتعدان. لقد مرّ عام تقريبًا على وفاة والده، وعاد هو إلى حياته السابقة بوصفه قائدًا لجيوش الفرس كأن شيئًا لم يتغير، بالرغم من أنه في واقع الحال قد تغير الكثير. لقد أحضر اليونانيين إلى ساحات الحرب، ثم سار بهم، وتابع تدريبهم لزيادة مهارتهم تحت إشراف أفضل الضباط.

أصبح لديه ما يقارب اثني عشر ألف مقاتل، ولكن ذلك لم يكن كافيًا، فأخوه يستطيع إحضار ستمئة ألف جندي إلى ساحة المعركة، وقد كان سايروس يعرف الأرقام أكثر من أي شخص آخر. يعلم أنه بحاجة إلى مزيد من الفيالق الفارسية. لم يكن يستطيع الفوز باثني عشر ألف يوناني فحسب، ليس أمام هذا العدد الهائل! ولكنه كلما استطاع إقناع المزيد من الفيالق الفارسية بالانضمام إلى اللعبة، وإحضارهم إلى مشارف سارديس، ازداد الخطر المحدق به. لقد أدرك بعض الضباط

اليونانيين الخطب بالفعل، فلم يكن هناك سوى بعض الأعداء في العالم الذين يتطلبون حشد كل هذا العدد، وبينما أخذ بالازدياد، شهرًا تلو الآخر، فقد أصبح جليًا للجميع أنه ليس هناك سواه.

عض سايروس على شفته، وانتشل قطعة صغيرة جافة منها، في الوقت الذي لفح النسيم وجهه. لقد حشد جيشًا، ولكن القسم الفارسي منه انضم إليه لأنه الأمير وقائد جنود الإمبراطورية. لقد اختار الضباط بعناية، رجالًا درّبهم بنفسه، رجالًا يثقون به. لكن ستأتي لحظة تدرك رجال الفيالق إلى أين هم متجهون، وعندها إن تمردوا فسينتهي أمره.

كان حشد هذه الجيوش للتمرد على والده خطوةً محكومًا عليها بالفشل قبل البدء بها، لكن الأمر مختلف ضد أخيه أرتحششتا. أمل سايروس أن تكون لديه فرصة في النجاح، فبالنسبة إلى فيالق الفرس كان سايروس الأمير الذي يعرفونه؛ الذراع اليمنى للملك الجديد، وقد يقفون في صفه. لقد راهن بحياته وبالإمبراطورية بأكملها أنه حين تأتي تلك اللحظة، فسيفعلون ذلك.

فكّر في الشابين الأثينيين اللذَين امتطيا حصانيهما مثل الريح، لم يكونا صديقين بكل تأكيد، ولكن مع ذلك خاطر أحدهما- وهو زينوفون- بحياته لإنقاذ الآخر. كان من الصعب ألا يُعجب المرء بهذه النوعية من الرجال.

حسنًا، لقد اختار أن يضع حياته في مهب الريح. قد ينجح وقد يفشل، ولكن لا أحد سيستطيع القول إنه كان يعرف مكانه. ابتسم لنفسه فقد كانت فكرة مريحة في نهاية المطاف.

الفصل التاسع



وقف سايروس بجانب بروكسينوس البويوتاني؛ الضابط اليوناني الضخم الذي كان يبدو بحالة مزرية في المطر. في حين وقف كليرشوس مكتفًا ذراعيه وجامعًا عباءته الإسبارطية حوله، إلا أنه كان مبتلًا بالكامل. كان سايروس قد سمع بروكسينوس يعطس ويسعل في خيمته طوال الليل، وكما هو متوقع لم يقل الضابط شيئًا لأي منهما. لقد لاحظ سايروس كيف كان بقية اليونانيين حذرين من الشكوى في أثناء وجود الإسبارطيين. كانوا يكّنّون لهم احترامًا منقطع النظير، ولم يبدُ أن كليرشوس قد لاحظ ذلك، إلا أن الأمير اعتقد أنه كان سيجده أمرًا مُرضيًا في سره.

كانت الجبال التي تقع شمال فريجيا غنية بالغابات، فقد كان بإمكان جيوش بكاملها التدريب في هذا المكان، بعيدًا عن عيون المراقبين والأعداء الآخرين. ستة أسابيع من السير شمال ساردیس أمّنت وللمرة الأولى، الخصوصية الكافية لجمع الفرس واليونانيين. لقد أصر كليرشوس على ذلك. كانت إحدى التناقضات التي يحملها منصب سايروس هو جهل ضباطه الفرس سبب حشده لكل هذا الجيش في حين أن الإسبارطي كان يعرفه. وعلى الأقل اشتبه عدة ضباط يونانيين بأنهم ليسوا هنا لقتال بعض قبائل التلال.

طلب كليرشوس معرفة مستوى الفيالق الفارسية التي سيقودها في المعركة. كان من المنطق البديهي الموافقة على هذا الطلب، لكن سايروس بدأ يشعر بالندم تجاهه بعد ستة أسابيع من الحروب الوهمية والتدريبات الجسدية. في ذلك الصباح بالتحديد، شاهد الفيالق الفارسية تهرب من الكورينثيين الذين لا يحملون سوى العصي والهراوات، ويطاردونهم بين الأشجار. انتظر قائد المشاة الفارسي بالقرب من حصانه على بعد بضع خطوات فحسب، مادًا عنقه مترقبًا إشارة الأمير التي تسمح له بالاقتراب.

شعر سايروس بغضب شديد، فقد كان الأمر من السوء بما يكفي لأن يخترق الجنود اليونانيون صفوف الفرس مرارًا وتكرارًا. بدا أن الرجال أمثال بروكسينوس وكليرشوس يستطيعون

ارتجال خطط جديدة من العدم، ثم يجعلون مقاتليهم ينفذونها بسرعة وسهولة. لقد شعر أن الجنود الفرس يبدون حمقى ولا يتصرفون بالسرعة الكافية، فقد وجدوا أنفسهم أكثر من مرة يتابعون تنفيذ أوامر سابقة في حين أصبح "العدو" اليوناني في الجهة المقابلة بالفعل، يراقبونهم ويسخرون منهم. تلك أمور قد يتذكرونها في الوقت المناسب، هذا ما أمله سايروس. نظر إلى يساره، وتنهد لرؤية الضابط الفارسي المترقب، ومن دون أي تأخير أكثر، أشار إليه سايروس. اندفع الرجل مسرعًا على الفور عبر صفوف الحرس، بصدر منتفخ مثل الديك القزم.

راقب كليرشوس وبروكسينوس الفارسي وهو يركع بالكامل على الأرض الموحلة. كان أداؤه مثاليًا في ذلك على الأقل. كان سايروس سيقدر الأمر أكثر لو أن قائد المشاة الفارسي إيراز تيرازيس لم يراقب مهزلة مطاردة جنوده ثلاث مرات ذلك الصباح.

قال الضابط بتصنع: "هذا شرف لي، سموك، أنا لا أستحق الوقوف في حضرتك. امنحني لحظة واحدة من وقتك وستكون بذلك قد منحتني أكثر من قيمتي آلاف المرات". في تلك اللحظة، شعر سايروس بأنه يفتقد أسلوب اليونانيين الصلف.

"لقد طلبت التحدث إليّ أيها القائد، وإذا كان وقتي قيمًا جدًا كما تقول، فربما عليك اختيار كلمات أقل، أو التحدث بسرعة أكبر".

"بالطبع، سموك. أردت فقط التعبير عن مدى خيبتي من الرجال هذا الصباح".

"من الرجال" كرر سايروس كلماته رافعًا حاجبيه.

"يجب أن تعرف سموك أن الفيلق الموكل إليّ قيادته يتألف من الفلاحين، معظمهم ميديون، وهم ليسوا رجالًا مثقفين إذا كنت تفهم قصدي. إنهم يتحركون مثل قطعان الماشية إلى الأمام وإلى الخلف، يتوقفون عندما يطلب إليهم الوقوف، ولكنهم يكتفون بذلك، دون أية فكرة عما يفعلون. لقد جلدت المئات منهم بسبب وقاحتهم، ولكن ذلك لم يزدهم إلا عنادًا وغباءً يومًا عن يوم".

"ماذا تريد يا قائد المشاة إيراز؟ أن تعود إلى الوطن؟ يمكن تدبير ذلك".

"لا، سموك!". بدا أن الفارسي شعر بالإهانة حقًا. "كل ما أطلبه هو أن أستلم أحد الأفواج المقاتلة لتدريبه. ربما سيكون رجالي الميديون أسعد مع قائد يتكلم لغتهم أفضل مني".

سأله سايروس بهدوء: "الميديون لا يفهمون ما تقوله؟".

هز الفارسي رأسه نافيًا مستذكرًا غضبه.

"إنهم بسطاء ومزارعون، سموك. لقد خضعت للتدريب في بيرسيبوليس، إلى جانب الضباط الإمبراطوريين. يمكن تعقب نسبي إلى ثلاثة وأربعين جيلًا. هل أنا راعي غنم لكي توكل إليّ مهمة رعاية هؤلاء الرجال؟". ضحك على النكتة التي ألقاها بنفسه. "أعتقد أنك فهمت قصدي، سموّك".

"أجل" أجاب سايروس. "إنما فهم المشكلة يختلف عن القدرة على إيجاد حل لها. يمكنني أن أعاقبك بالضرب، أن أقطع لك أذنيك، أو ربما أبتر لك يدك اليمنى علامةً على فشلك. يمكنني إرسالك إلى الوطن، أو ببساطة إعطاؤك حبلًا لتشنق به نفسك. ولكن لديّ مئات الضباط من أمثالك، الذين لا يرون انعكاسًا لأنفسهم في رجالهم عندما يتم اختراق صفوفهم ويهربون مرة بعد مرة بعد مرة!" صرخ سايروس الكلمة الأخيرة حانقًا، متقدمًا نحو إيراز التيرازيس.

بالمقابل، ركع الرجل على الأرض مجددًا، وغطى رأسه بيديه.

"أيها الحراس! خذوا هذا الرجل وجردوه من ملابسه. اجلدوه أربعين جلدة أمام رجاله". صرخ قائد المشاة من الفزع والحيرة عندما أدرك ما حل به.

"سموك، ما الذي اقترفته لأستحق هذا العقاب؟ أرجوك! دعني أشنق نفسي، قبل أن أتعرض لهذه الإهانة. ما الذي فعلته؟ أرجوك، أنا لا أفهم...". سُحب بعيدًا في الوقت الذي كان يصرخ فيه ويتوسل.

رفع سايروس رأسه إلى السماء مواجهًا المطر الذي انهمر باردًا على عنقه. عطس بروكسينوس عطسة قوية، فاستدار سايروس نحوه غاضبًا وعاجزًا. رفع الضابط اليوناني يديه مستسلمًا، بحالة يرثى لها لا يسعه أن يفعل شيئًا تجاهها سوى تنظيف أنفه بقطعة قماش مربعة.

حشرج كليرشوس حنجرته لينتبه إليه سايروس.

"هل لديك ما تضيفه يا كليرشوس؟".

"إذا أمكنني فعل ذلك دون أن تأمر بجلدي، أجل". بالكاد استطاع سايروس السيطرة على نفسه، فأمال رأسه وفمه ملتوٍ إلى أحد الجانبين.

"بحقك، أنا لن آمر بجلد ضابط يوناني حتى لو أعطاني سببًا لذلك. أنت تعرف كما أعرف أنا تمامًا أن خدمتك لي ليست عبودية. عليك أن تدرك أن ضباطي الفرس يتوقعون أمرًا مماثلًا مني. سيرى الآخرون إيراز التيرازيس يُجلد أمام رجاله وسيدركون أنه يتحمل جزءًا من مسؤولية أدائهم السيئ هذا الصباح. سيمضي بضعة أيام تحت عناية أطبائنا، وإذا أدرك رجاله أنه تحمل الجلد بالنيابة عنهم فقد يحترمه رجاله أكثر مما يفعلون الآن. ربما سأرسل له معلمًا لتعليمه الأوامر باللغة الميدية ريثما يتعافى. أجل، هذا أمر يستحق التنفيذ". أومأ كليرشوس برأسه موافقًا، بالرغم من أنه لاحظ أن الأمير كان يشد قبضته بين الفينة والأخرى في أثناء تحدثه.

"أنا ممتن لأنك لن تصدر أمرًا مشابهًا. فمن النادر أن تجد أميرًا يعرف حدوده".

رمق سايروس الرجل الذي كان يخبره أنه لن يتقبل التعرض للعقاب، الرجل الذي كان يعمل في خدمته.

شعر الأمير بغضبه يشتد واحمر وجهه حنقًا.

بالمقابل، راقب كليرشوس محاولات الأمير للتحكم بغضبه بشيء من الاهتمام.

قال سايروس: "أيها الضابط، أعتذر عن تصرفي. لم أشاهد سوى المشاكل اليوم. إن رجالك... متفوقون. ظننت أنني كنت أعرف أسطورة الإسبارطيين، ولكن رؤيتكم تتدربون في ظروف مشابهة للمعركة الحقيقية... في الحقيقة هو أمر استثنائي. يبدو أن كل إسبارطي يفكر كضابط، ولكنه مع ذلك يتلقى الأوامر كجندي. كيف تفعلون ذلك يا كليرشوس؟ لو كان لديّ عشرة آلاف من أمثالكم، فلن أحتاج إلى البقية جميعهم. كنت سأغزو العالم بأكمله بهم وحدهم".

قال كليرشوس: "لقد تربينا لنفكر في أنفسنا. ولكن هناك القليل من الحرية في التصرف، سموك. لقد تدرّب رجالي وقاتلوا سوية لسنوات، منذ أن كانوا في ثكنات صبية صغار في الوطن. إنهم يتبعون الأوامر بالطبع، ولكن إذا شاهدوا ثغرة فقد يختارون خرق التشكيلة والهجوم. ليس هناك ضابط يستطيع الإحاطة بساحة المعركة بأكملها، ولا جندي أيضًا. لهذا السبب أنت تجلس على صهوة حصانك، ونرسل نحن الكشافة لمعرفة مواقع الأجنحة، لكن مهما يكن مستوى جهوزيتنا فستأتي لحظة يستطيع فيها أحد المقاتلين تجاوز رجلين أضعف منه ويجد نفسه متقدمًا على البقية، ربما لبلوغ جدار متحطم أو قتل أحد قادة العدو. إذا توقف بانتظار الأوامر حينها ستضيع الفرصة. وإذا اندفع إلى الأمام دون تفكير، فإن صفه سيُخترق وينتهي أمره. إنها مسألة حكمة في اتخاذ القرار فعلًا. عندما يتخذ قرارًا صائبًا، فنحن نرقي أولئك الرجال، وننصبهم ضباطًا، ونمنحهم النياشين. ولكن إذا تسبب قراره بتدمير صفه، فسيبصق بقية الرجال عندما يسمعون بذلك اليوم ولن يحمل أولاده اسمه حتى يذبل عوده". هز الضابط كتفيه وأردف. "كما قلت لك، إنه التوازن". سرح كليرشوس بنظره بعيدًا في الأفق للحظة يفكر في ما قاله للتو، لكن سايروس لاحظ ذلك، فأشار له بيده لمتابعة حديثه.

"أعتقد أن الضابط الذي أرسلته ليُجلد أغبى من أن يتولى القيادة. إنه لا يحب رجاله على الإطلاق، ولا يقدّر مهاراتهم وشجاعتهم. لقد رأيت رجاله الميديين؛ إنهم رجال عنيدون، ولا يسهل التغلب عليهم. بالطبع هم لا يريدون صعود التلة ونزولها مرارًا مع اختراق الإسبارطيين والكورينثيين صفوفهم مثل الذئاب! إنهم يشعرون بالبرد، متعَبون ويائسون من الحياة. وأن يعظهم رجل مثل هذا!... بصراحة، أنا متفاجئ من أنهم لم يقتلوه حتى الآن. لابد أن كرامتهم مهانة جدًا".

سأل سايروس يائسًا: "ما الذي سيفعله الإسبارطي في هذه الحالة إذن؟ لديّ العشرات ممن هم ليسوا أفضل منه، وهناك بعضهم حتى أسوأ منه".

قال كليرشوس: "نحن نبدأ بإجراء حديث هادئ معه، خمسة أو ستة منا سيوضحون له خطأه، في حال لم يكن يعرف ذلك. لذا نحرص على أن يفهم الأمر. عندما يستأنف عمله، نراقبه لمعرفة إذا كان قد تعلم الدرس. بعض الرجال يتعلمون من خبراتهم، في حين يعتبرها بعضهم الآخر طقسًا للعبور نحو قوة أكبر. في حال لم يفعل، أخشى أنه سيُترك لتنهشه الذئاب. نحن لا نسمح بالضعف أيها الأمير سايروس، ولكن... طريقتنا لا تناسب الجميع. بالفعل، إن طريقتنا ستؤثر على فيالقك كما يؤثر ضرب الحصان أو الكلب يوميًا فإما يجعله مروضًا وإما متوحشًا، ولكن أفضل مما كان سابقًا".

شتم سايروس، ضاربًا قبضته على درع معطفه مما أدمى براجمه. راقب كليرشوس ذلك بصمت.

"إن سمحت لي سموك، في بعض الأحيان يبدو وكأن الغضب ينهشك من الداخل. كل جيش يتطلب وقتًا لتدريبه. لقد شاهدت أفرادًا من الرعاع والعامة تحولوا إلى فيالق جيدة من قبل. إن فيالقك الفارسية ليست أقل لياقة، ولا أقل انضباطًا من بعض الذين رأيتهم، ولكن يبدو أنك تضيق الخناق على نفسك أكثر فأكثر، مثل جديلة الحصان. هل هذا كل ما لديك؟". شعر سايروس بالمرارة عندما أجاب.

"هل عرش والدي بأكمله بلا قيمة؟ ألا ترى أنه يستحق الكفاح من أجله؟".

"لا، على الإطلاق! لا أستطيع التفكير في جائزة أكبر في العالم بأكمله مما تسعى إليه أنت".

اضطرب الضابط الإسبرطي، ناظرًا إلى بروكسينوس الذي اقترب لاستراق السمع. "ولكن... إن حياة ليس فيها سوى الحرب هي حياة تعيسة. عندما لا يفكر الرجل في شيء سواها لأشهر أو سنوات، فإنه يفقد حيويته. أعتقد أن الأمر ينطبق أيضًا على الثأر، إذا ابتلعه الرجل وتحول إلى حاجز كبير فقد ينهار الرجل تحت تأثير غضبه، سموك. لقد شاهدت ذلك بنفسي. قد يضلّ الرجل منطق تفكيره، وإذا لم يفقد صوابه وانهارت أعصابه، فإن قلبه قد يتوقف أو يتهدل وجهه مثل الشمع المحترق. أعتقد أنه لولا وجود زوجتي بانتظاري في المنزل، وأبنائي وبناتي، فلن أعمل بهذا الكد. عندما أكون في المنزل، أميل إلى العمل في الأرض بسلام. أزرع الزيتون والبصل. أنا أفكر في ذلك المكان الصغير عندما تعمي بصري وتصم سمعي قعقعة السيوف ورائحة الموت". لاحظ الضابط أن بروكسينوس كان يراقب مدهوشًا فاحمر وجهه.

لم يتعود كليرشوس إلقاء الخطابات الطويلة، ولكن مع ذلك شعر بالقرب من الأمير؛ كان سايروس رجلًا محبوبًا على ما يبدو. أبعد كليرشوس تلك الفكرة عن ذهنه. بالرغم من أنه قد قاد صفوفًا وكتائب وجيوشًا، إلا أنه لم يكن منيعًا ضد الرغبة التي ملأتهم وشغلتهم جميعًا؛ اتباع رجل ذي قيمة. لأجل الأمير المناسب، علم كليرشوس أن رجاله سيسيرون إلى الجحيم بأرجلهم، كما كان سيفعل هو نفسه أيضًا.

"سموك... من الصعب في بعض الأحيان الاستمرار بالتفكير في إسبارطة. لقد كرست حياتي من أجلها؛ دمي، وعرقي، وشبابي بأكمله".

اعترف سايروس: "لقد عشت حبًا جميلًا، مرة واحدة فقط، ولكنها تزوجت رجلًا آخر".

قال كليرشوس: "ربما ستعيد النظر بشأنك إذا نجحت في مهمتك هذه".

شخر بروكسينوس، فالتفت إليه الرجلان ليجداه يضحك وقد نظف أنفه بقطعة القماش.

"أعتقد أنني سأطلب نصيحة كليرشوس في شؤون الحرب، سموك. ولكنني لن أطلبها في ما يتعلق بأمور الحب. إنهم يختارون النساء بحسب سرعتهن في السباق".

"هذا غير صحيح" قال كليرشوس، في حين نظر إليه سايروس بعينين متسعتين من الدهشة. هزّ كتفيه قائلًا: "هذا صحيح في بعض الأحيان، فالنساء السريعات يلدن أولادًا أقوياء".

قال بروكسينوس: "نساء سريعات ذوات شوارب جميلة ولامعة".

نظر كليرشوس بهدوء إليه، فانتبه بروكسينوس لما قاله للتو ونظر إلى قدميه. انفجر الإسبارطي ضاحكًا بعدها، مربتًا على كتف القائد الذي يعاني من الزكام بقوة جعلته يهتز في مكانه.

قال كليرشوس: "أيها الأمير سايروس، لقد جمعت رجالًا أشداء تحت إمرتك. إذا منحتني عامًا، فسأحولهم إلى جيش يمكنه غزو العالم، لا يمكنني أن أجعل منهم فيالق إسبارطية. ولكن يمكنني أن أجعلهم كورينثيين، أو أثينيين، أو حتى بويوتانيين. وهذا سيفي بالغرض".

حاول بروكسينوس مسح يديه به، فانحنى كليرشوس متجنبًا حركته وضحك. زاد المطر من هزيمه، إلا أن أمزجة الرجال تحسنت مع انهماره بغزارة. كان الثلاثة مسترخين عندما التفتوا لرؤية مبعوث يتزحلق على الأرض الموحلة في أثناء صعوده المنحدر راكضًا. كان الفتى فارسيًا، وافترش سجادة، ثم استلقى عليها، حاملًا محفظة مخطوطات من الرخام المصقول. عبس سايروس عندما كسر القفل واستخرج اللفافة الورقية. ارتطمت بها قطرات المطر مصدرة صوتًا مثل الطبل، مبعثرة الحبر مما جعل الأحرف تنساب سائلة. زمّ شفتيه.

قال سايروس: "لا أعتقد أننا نمتلك من الوقت السنةَ التي تحتاج إليها أيها الضابط، يبدو أن أخي قد أرسل صديقًا قديمًا لتفقد أحوال الجيوش في الغرب. لقد وصل تيسافيرنيس إلى ساردیس ويطلب حضوري بالسرعة القصوى".

لف سايروس الرسالة، بالرغم من أنها كانت مبتلة جدًا لإعادتها مجددًا إلى حافظتها. حطم الأنبوب على ركبته وصفّر لإحضار حصانه إليه، فقفز وامتطى صهوة حصانه دون الحاجة إلى درجة الصعود.

بينما أمسك باللجام، وضع كل من الضابطين يده اليمنى على الكتف الأيسر وأحنيا رأسيهما.

"أيها الضابط كليرشوس، أيها الضابط بروكسينوس. سأقدّر مشورتكما في ساردیس. أريد أن أعرف انطباعكما عن هذا السيد الفارسي. هل أطلب تجهيز حصانين من أجلكما؟".

تحدث بروكسينوس قبل أن يتمكن الإسبارطي من الرفض.

"إذا كانت هذه أوامر سموك، بكل تأكيد. لقد أقسمنا على خدمتك في نهاية المطاف". حدق كليرشوس في البويوتاني، غير قادر على التصريح بأنه كان يفضّل السير. بالكاد تردد سايروس،

مفكرًا في لقاء الرجل الذي يفضل رؤيته مقتولًا من أن يسير حرًا طليقًا.

"سيكون ذلك أسرع يا كليرشوس".

قال بروكسينوس: "يمكنك أن تركب خلفي إذا أردت أيها الضابط".

أجاب كليرشوس: "لا، لن أفعل ذلك". أحنى رأسه، وضرب يده اليمنى فوق كتفه اليسرى مجددًا. "كما تأمر سموك، بالطبع". لقد وصل تيسافيرنيس إلى القصر في سارديس منذ أسبوع بحلول الوقت الذي وصل فيه سايروس بصحبة أربعين رجلًا فقط. بلغ تعداد الحراس الشخصيين الذين رافقوا السيد تيسافيرنيس ستمئة جندي. اعتقد سايروس أن الأمر تطلب بعض الشجاعة مع ذلك، بعد ما حصل بينهما عند الهضبة. عندما ترجل الأمير عن حصانه في الباحة المكشوفة، وجد نفسه في مواجهة الصفوف الصامتة من الجنود الخالدين. كانت أزياؤهم الموحدة السوداء خالية من أي خدش، ولم يكن بوسعه سوى أن يتساءل عما إن كان في بيرسيبوليس، حيث كانت حياته على المحك.

شكل الفارسان المرافقان لسايروس سحابة عندما قفزا عن صهوة حصانيهما وسلما اللجام إلى العبيد. تناثر التراب على قوات تيسافيرنيس المسلحة، مثل العاصفة الرملية.

كان باستطاعة سايروس الشعور بنبضات قلبه. لم يكن متأكدًا من أن أخاه لم يصدر الأمر بقتله، وكان قد فكر في اصطحاب الآلاف معه، ولكن قبل أي شيء فإن تصرفًا كهذا سيسيء إلى موقفه. كان عليه التصرف كأن شيئًا لم يحدث بينهما، كأنه لا يعتبر تيسافيرنيس وأرتحششتا عدوَّين له.

كان عليه أن يؤدي هذا الدور حتى لو كلفه الأمر حياته.

وفقًا لذلك، أسرع الخطى إلى الأمام، ولم يظهر أية علامة على أنه لاحظ التوتر بين صفوف الخالدين. ابتسم سايروس ورفع يديه في الهواء، محتضنًا الرجل العجوز، مقبّلًا إياه على خديه وشفتيه كما جرت العادة. وهو يقوم بذلك، تذكر الأمير حكاية يونانية قديمة عن رجل وجد ثعبانًا متجمدًا في الثلج. شعر الرجل بالأسى على الثعبان المحتضر وضمّه إلى صدره لتدفئته، لكن عندما استعاد حيويته، غرز أنيابه في صدر الرجل وأزهق روحه.

لقد اعتنى سايروس بالثعبان واحتضنه في صدره عندما اعتبر تيسافيرنيس صديقًا له. ولم يكن ليرتكب الخطأ نفسه مجددًا.

رافق الضابط نيتوس الستيمفاليني الأمير إضافة إلى كليرشوس وبروكسينوس، وتقدم بدوره لتحية السيد الفارسي، بالرغم من أن تيسافيرنيس اشمأز من رائحة العرق والأحصنة التي كانت تفوح من الرجال عندما تجمعوا حوله لكي يتعرفوا إليه. تقدم حارسه الشخصي للحيلولة دون تقدم الضابط اليوناني منه أكثر، لكن نيتوس أمسك بأصابع الرجل ولواها بحدة مما جعله يصرخ مندهشًا. النظرة التي رمق بها تيسافيرنيس حارسه كانت سمًا زعافًا حينها.

قال تيسافيرنيس: "ربما عليك الذهاب لتفقد إذا ما كان طعامنا قد جهز أيها القائد".

احمر وجه الرجل غضبًا، ولمعت عيناه عندما نظر إلى الستيمفاليني. لم يبدُ أن نيتوس قد أدرك فعلته، ولكن سايروس ابتهج لأنه أفسد العرض الذي كان تيسافيرنيس قد حضّره. لم يكفه سوء حضوره للقاء عدو، بل إضافة إلى ذلك استُقبل في القصر الملكي كأن سايروس كان الضيف وتيسافيرنيس هو المضيف.

ابتسم الأمير واضعًا يده على كتف تيسافيرنيس وأداره. كان يعرف أكثر من الجميع كُرهَ الرجل للتواصل الجسدي. لذا، احتضنه سايروس بقوة في أثناء دخولهما إلى القصر.

"أنا مسرور جدًا لرؤية وجه مألوف في هذا القصر أيها الأسد العجوز. لقد افتقدتك، وكنت أعتقد أنك ما زلت غاضبًا مني، بسبب..." لوح بيده في الهواء، "كل ما حصل سابقًا في بيرسيبوليس. ربما كان ذلك مجرد تهيؤات، ولكنني ظننت أنه من الأفضل أن أبقى بعيدًا، في أقصى الغرب، على الأقل لبضع سنوات ريثما يستقر أخي في منصبه الجديد ملكًا عظيمًا وإمبراطورًا إلهيًا".

قال تيسافيرنيس: "فهمت". ألقى نظرة ملؤها الشك نحو الضباط اليونانيين الثلاثة الذين يسيرون خلفه. وتساءل عمّا إذا كان أي منهم يتحدث اللغة الملكية. "ولكني أرى أن سموك لا تزال متحالفًا مع اليونانيين". لدهشته، لوّح سايروس بإصبعه في وجهه كأنه يؤنب طفلًا مشاغبًا.

"حسنًا، لقد تسببت بخسارتي لحراسي الإسبارطيين أيها الأسد العجوز. وكان عليّ تقديم بعض الاعتذارات عند عودتي إلى هنا. إن الذهب الذي قدمته لعائلاتهم، يكفي لتجهيز فيلق كامل... ومن أجل ماذا؟ لطالما خدمت العرش وأبي طوال حياتي، وأنا مستعد لقضاء الباقي من عمري في خدمة أخي العزيز أيضًا. أنت تعرفني يا صديقي القديم. لقد تجاوزت خلافاتنا. ولا يسعني سوى الاعتذار وترك الماضي وشأنه. ماذا هناك لإضافته؟".

وجد تيسافيرنيس نفسه مرتاحًا لتأثير سيل الكلمات هذا، التي ترافقت مع ضغط تلميذه القديم على كتفيه. لم يستطع مقاومة أداء دور المضيف في حين تابعا سيرهما عبر ممرات القصر، مبتعدَين عن حر الشمس في الخارج.

إضافة إلى حراسه، اصطحب تيسافيرنيس معه طاقمًا كاملًا من الخدم، من بينهم القتلة المأجورون، والطهاة، والمسممون، وساسة الخيل، وأي نوع من الخدم شعر أنه قد يحتاج إليه.

تم اصطحاب مرافقي سايروس للاغتسال والاستحمام قبل الوجبة التي حضّرها تيسافيرنيس لهم. لم يجد أية علامة على الاحتقار لدى الأمير، ولا أي أثر له.

قال تيسافيرنيس: "سيقدَّم العشاء عند الغروب سموك، لقد انشغل طباخي الخاص لأيام في التحضيرات". بالرغم من أنه حاول مقاومة الاعتراف بذلك، إنما بدا أنه سيرسل أخبارًا للملك أرتحشنتا. لم يهدر تيسافيرنيس أسبوعه هباءً في المدينة. كل مدينة كانت تحتوي شبكة ملكية ترسل التقارير إلى كبار الجواسيس الإمبراطوريين.

كانت مسألة وقت ليس إلا حتى يعلم تيسافيرنيس بكل خطوة قام بها سايروس خلال الأشهر الستة الماضية، كل محادثة، وكل فعل وكل قرار. كان الجواسيس يسجلون كل ذلك كتابةً كما يردهم، مكونين صورة كاملة سيقرؤها بنفسه، والأكثر أهمية من ذلك، أنه كان سيتناول العشاء مع الأمير ويمضي أيامًا في مراقبته. لقد عرف تيسافيرنيس سايروس منذ نعومة أظفاره وإذا ما كان يمارس أي نوع من الخداع، فإن تيسافيرنيس سيكتشفه بكل تأكيد. شعر المعلم القديم بكتفيه تتراجعان إلى الخلف وبصدره يبرز فخرًا بسبب الثقة فيه. كان حكمه حرفيًا هو الفيصل في الحياة والموت، مع جيوش بأكملها بانتظار كلمته.

أومأ تيسافيرنيس للعبدين الشابين لمرافقته. كان يحب أن يستحم كي يشعر بأن مزاجه جيد. فقد كان في نهاية المطاف الذراع اليمنى للملك العظيم، وخنجر العائلة الملكية. لقد سرّته تلك الفكرة.

كان العشاء تلك الليلة حميميًا. ورغم أن تيسافيرنيس قد أحضر رجالًا يكفي عددهم للوقوف في كل ركن وممر في القصر، إلا أنه لم يسمح سوى لستة منهم بالدخول إلى صالة الطعام للوقوف في أركانها. كان هو بنفسه مرتديًا ملابس ذات لون ذهبي، الثوب الفضفاض أبقاه باردًا، بالرغم من أنه اكتسب بضع طبقات من الدهون منذ آخر مرة رآه سايروس فيها.

كانت النوافذ مرتفعة في جدران تلك الصالة، حيث قام داريوس بتسلية حاكم إحدى الولايات من الهند وخبأ حجار الياقوت في طبق من الخوخ لإمتاعه، ثم رماهم لأولاده مثل قطع الحلوى. هب نسيم عليل عبر القاعة، وانتشر على مستوى منخفض بسبب تصميم الدعائم الموجودة في الخارج، إنها أعجوبة يعود فضلها للتصميم الفريد الذي أبدعه المعماري الأصلي.

الطاولة ذاتها كانت من رخام أخضر داكن مصقول ببراعة فائقة لدرجة أنها عكست عوارض السقف في الأعلى بين الصحون، ووجوه الخدم عندما انحنوا فوقها.

جلس الأمير سايروس على رأس الطاولة وتيسافيرنيس إلى يمينه. أما كليرشوس فقد جلس إلى يساره وبروكسينوس ونيتوس على امتداد الطاولة.

استمر تيسافيرنيس بتأدية دور المضيف، وأخذ ينصح بتذوق أطباق معينة. راقب ليرى إذا كان سايروس سيتردد قبل تناول أي منها، ولكن إذا كان الأمير يخشى السم، فإنه لم يظهر أية علامة تدل على ذلك. إن سلوكه الطبيعي كان أمرًا مريحًا، اعترف تيسافيرنيس بذلك. الرجل الذي ارتكب الخيانة قد يتوقعها من الآخرين، ولكن سايروس مزق الخبز بأصابعه وتجرع النبيذ الأحمر بكل استرخاء واستمتاع.

سأل تيسافيرنيس: "سموك، هل يتحدث الأصدقاء اليونانيون لغتنا؟".

لمفاجأته، أومأ كل من بروكسينوس وكليرشوس برأسيهما، إلا أن بروكسينوس رفع يده ملوحًا بها إلى الأمام والخلف، وكأنه يشير إلى أنه ليس متحدثًا طليقًا. راقب الضابط نيتوس ما حدث بجهل تام، وتلفت حوله كأن كلابًا كانت تنبح أحدها على الآخر. كان بإمكان تيسافيرنيس معرفة أن

تلك لم تكن تمثيلية، فهم ليسوا بهذه الوقاحة. لم يعتبر اليوناني الأصوات التي سمعها لغة حقيقة، لذا تعامل معها كأنها زقزقة عصافير، أصوات يمكنه تجاهلها، أو حتى التحدث في أثناء إصدارها.

"كما ترى أيها الأسد العجوز، اللغة الفارسية هي لغة التجارة والحرب، على الأقل بالنسبة إلى الأشخاص الذين اختاروا الحرب تجارةً لهم". تحدث سايروس بطبيعية كأنهما لا يزالان صديقين.

"فهمت ذلك، سأحرص على ألا أتحدث بصورة سيئة، سموك. إلا أن أخاك طلب إليّ أن أحكم على جهوزية القوات هنا. لذا لابد لي من تفقد قواتنا والذين يقاتلون لصالحنا. هل تعرف أعدادهم بالتحديد؟".

قال سايروس: "بالطبع". ومدّ ملعقة صغيرة من بياض البيض على الخبز والسمك. "سأطلب إلى مندوبي تجهيز كل تلك الحسابات. لقد علمتني الحساب يا تيسافيرنيس. وسأخجل من نفسي إذا وجدت فيها خطأً الآن". ضحك تيسافيرنيس، وأفرغ كأس نبيذه ليُعاد ملؤها من جديد. لقد أشعره ذلك بالدفء فابتسم للأمير.

قال كليرشوس باللغة اليونانية: "الطعام لذيذ جدًا".

عبس تيسافيرنيس من سلوك الرجل السيئ، إلا أن سايروس ترجم له بسرعة. ابتهج نيتوس فقد كانت تلك أولى الكلمات التي فهمها.

قال تيسافيرنيس: "لقد أحضرت الطباخ معي. بصراحة، لا يمكنني السفر من دونه في عمري هذا. لا شيء يعجبني إذا لم يكن هو من حضّره". ربّت على معدته بأسى وأردف قائلًا: "انتبه من الأحماض عندما تتقدم في العمر يا سايروس". للحظة، وجد سايروس نفسه يبتسم كأنهما عادا صديقَين قديمين كما كانا في السابق. لكنه ذكر نفسه بأن الرجل الجالس إلى الطاولة بجانبه كان يريد رؤية رأسه مفصولًا عن جسده. لم تكن هناك صداقة ولا لطف لدى المعلم القديم السمين الذي كان يمضغ عجينة اللحم والبرتقال. لم يكن الأمر يتطلب سوى نظرة واحدة إلى الحراس الواقفين بالقرب من الجدران لمعرفة أنهم جاهزون للدفاع عن سيدهم. لقد راقبوا سايروس كأنه عدو، مما ذكره بأنه كان كذلك بالفعل. مع ذلك، كانت وجبة لذيذة فزمجر بروكسينوس عندما نهضوا، كانوا قد جلسوا لتناول العديد من المأكولات والنبيذ، في حين استمر تيسافيرنيس بالتفاخر بكل منها، مادحًا طباخه بشتى الطرق حتى شعر سايروس بأنه يرغب في خنقه. لم يتناول اليونانيون سوى القليل، لقد لاحظ ذلك، ولكن ربما كان ذلك مثالًا على سلوك كليرشوس، الذي بالكاد تذوق كلًا من تلك الأطباق كأنه يتفقدها إذا كانت تحتوي سمًا.

وهو كان يفعل ذلك طبعًا.

مع حلول منتصف الليل، وبعد مرور يوم طويل، كان من الطبيعي أن يتثاءبوا.

رفع سايروس رأسه إلى الأعلى ووضع يده على فمه المفتوح.

"غدًا أيها الأسد العجوز سأجهز بعض أفضل فيالقنا للاستعراض أمامك. لقد أنفقت ثروة على تدريبهم، ولكني أعتقد أنك ستوافق على أنها لم تُنفق هدرًا".

"أرجو ذلك سموك". أجاب تيسافيرنيس بنبرة لا تخلو من الوعيد في صوته.

خيم الصمت ولاحظ تيسافيرنيس أن الأمير رفع أحد حاجبيه. أدرك أن سايروس كان يتوقع منه الركوع أمامه. لم يبدُ هذا تصرفًا صائبًا بالنسبة إليه، ليس لرجل أتى إلى هنا ليحكم عليه. بتصنع، انحنى تيسافيرنيس من وسطه. احمر وجهه عندما انتصب مجددًا وشاهد سايروس يحدق إليه.

ضحك تيسافيرنيس ضحكة خفيفة.

"هذا عهد جديد، سموك..." ولدهشته، شاهد ملامح سايروس تصبح أكثر جدية.

"لا يا تيسافيرنيس، أنا ابن أبي، أنا أخ الملك العظيم، أرتحششتا. هل تنوي الإقلال من احترامك تجاه عائلتي، العائلة الملكية؟". ربما كان ذلك سلوكًا متعاليًا، ولكن بالمقابل فإن سايروس تحمّل ليلة كاملة مع رجل يحتقره، يختار كلماته بعناية مفكرًا في ما قد تكشف له. لقد انتهز اللحظة ورفض أن يدعها تفلت منه، فاستمر بالتحديق حتى ازداد احمرار تيسافيرنيس حنقًا وانحنى إلى الأسفل، ركبة تلو الأخرى، حتى أصبح مستلقيًا على الأرض بأكمله.

قال سايروس بهدوء: "من المهم أن نتذكر من هو المضيف بيننا، ومن هو الضيف". غيّر نبرة صوته حينها، فارضًا نوعًا من اللطف في حديثه وقد مدّ يده لمساعدة تيسافيرنيس على النهوض.

"ها أنت ذا، يبدو أن اليونانيين لا يفهمون أهمية إظهار الاحترام للأمير. يا تيسافيرنيس، وإن رؤيتك تفعل هذا بشكل جيد تجعلني أشعر بالحنين للوطن".

"شكرًا لسموك، إن هذا شرف لي". قال تيسافيرنيس، إلا أن صوته كان مخنوقًا مما جعل بروكسينوس يشخر ثم ينفخ من أنفه لإخفاء استمتاعه بالأمر.

الفصل العاشر



إن منزلة تيسافيرنيس بوصفه مضيفًا لم تكن محددة. فلا تجري في عروقه ولا حتى قطرة دم نبيلة واحدة، ولكنه كان يمتلك مفاتيح الدولة مما أكسبه سلطة التصرف باسم الملك، وكان مقتنعًا بأنه أتى لمراقبة الجزء الغربي من الإمبراطورية. كان سلوكه بعيدًا كل البعد عن الخادم عندما جلس على صهوة حصانه في ساحة الاستعراض في سارديس. دعا الحاكم المحلي نفسه إلى الحدث، إلى جانب جميع العائلات الثرية المحلية التي يمكنها المراهنة، والتملق أو حتى التهديد للحصول على دعوة.

كانت الشمس ساطعة فوق ساحة التدريب الشاسعة الخضراء، شاهد تيسافيرنيس الفيالق تستعرض تشكيلاتها ومهارتها أمامه.

اتقى هو والأمير سايروس من لهيب أشعة الشمس بوقوفهما تحت مظلة مصنوعة من القصب والكتان المحاكَين معًا يحملها العبيد.

حاول سايروس الاسترخاء والاستمتاع بالمنظر، ولكن معرفته بأن كل ذلك سيتم إبلاغه إلى أخيه أفسدت عليه يومه.

في الأوقات الأكثر سلمًا، كان سايروس سيستمتع بعرض أفضل رجاله وأصعب المناورات على معلمه القديم، وكان سيأمل أن أخبار نجاحه ستصل إلى مسامع أبيه في بيرسيبوليس.

لم يكن بإمكانه فعل شيء اليوم، ليس بعد أن جمع أعدادًا هائلة من الرجال ودربهم لمدة أشهر. آلاف اليونانيين وما يقابلهم من الفيالق الفارسية زحفوا في الساحة في تشكيلات معقدة، يستعرضون الخدع ومهارات المجموعات الصغيرة ضد بعضهم، لقد خطط سايروس لخاتمة من هجوم خاص لإبهار تيسافيرنيس، كما كان سيفعل ببساطة في السابق. ولكنه الآن يعتقد أن هذا مبالغ به، لقد تعرق في أثناء ابتسامه، وطلب إحضار المشروبات الباردة.

كان الأمير وتيسافيرنيس هما الوحيدان الجالسان على صهوتَي حصانين في الساحة، في حين جلس بقية الضيوف والزوار منتشرين على مقاعد بيضاء ملتفة حولهما، كأنهم كانوا الجمهور في مسرح يوناني. كان الجو العام لطيفًا وقد استمتع التجار والنبلاء بأشعة الشمس. اصطحب العديد منهم بناتِهم العازبات، وحاولوا لفت انتباه الأمير الملكي الذي بدا أنه لا يحب الحفلات الغنائية والراقصة ونادرًا ما كان يُشاهد في العلن.

تساءل سايروس عمّا إذا كانت هناك أية شائعات متداولَة لن تجد طريقها إلى مسامع تيسافيرنيس، ومن خلاله إلى مسامع أخيه. لقد شك في ذلك، فقد كان سايروس الوريث المباشر للعرش حتى يتمكن أرتحشستا من إنجاب وريث له. إن علاقاته الغرامية وقلّتها على حد سواء كانت محط اهتمام العرش. لعن نفسه لأنه لم يُبلِ بشكل أفضل خلال الأشهر السابقة التي كانت بحوزته.

لقد انكبّ على جمعِ أعداد غفيرة من الجيش، فيلقًا تلو الآخر. لم يخطر بباله أن أخاه قد يرسل رجلًا يدّعي البراءة لتَفَقدِ إذا ما كان الأمير يرتاد المسارح، أو يغازل أية امرأة من العائلات الراقية. خليلتاه اليونانيتان لم تكونا مُحتسبتَين.

شعر سايروس بقطرة من العرق تجري على خده. كان يكره الكذب، وقد أعياه الخداع. تذكر أن أمه أخبرته عن ناسك اشتُهر بلطفه وتدريبه على التحكم بغضبه، فلم يُشاهد غاضبًا على الإطلاق. عند موته، اشتُبه بأنه قد تعرض للتسميم لذا تم تشريح جثته لاكتشاف سبب وفاته، عندها وجدوا أن عضلاته كانت ملتفة ومعقودة بعضها ببعض، بعد سنوات طويلة من كبح غضبه وعدم السماح لأحد برؤيته.

شعر سايروس بمثل شعور ذلك الناسك كلما التفت تيسافيرنيس ليستفهم عن أحد جوانب العرض التي أمتعته. كل ما كان باستطاعته فعله هو رفع وجهه والابتسام في وجه الشمس وقد تزايد خوفه شيئًا فشيئًا. لقد أبقى والده الجواسيس منتشرين على امتداد الإمبراطورية بأكملها، الجميع كان يعلم أن الجواسيس لم يكونوا على دراية بوجود شبكته. حاول سايروس التصرف كأنه تحت المراقبة، كأن كل كلمة قالها بصوت مرتفع يمكن أن تصل إلى مسامع أسوأ أعدائه، وكان عليه أن يتوخى الحذر قَدر الإمكان، لأنه لم يكن يعلم بمن عليه أن يثق. مع ذلك كان من السهل أن يغفل عن الحذر في الليالي الدافئة، بوجود الطعام اللذيذ، والنبيذ الجيد إلى جانب الأصدقاء. كان يمكن أن يضيع حياته بأكملها بقوله بضع كلمات فحسب.

جلس الجمهور عندما دخل مئات الإسبارطيين إلى الساحة عبر البوابة، يسيرون بخطوات واسعة جعلتهم يلفتون انتباه الفيالق الفارسية التي وقفت باستعداد على الجانب الآخر. بدأت النساء يلوحن بمراوحهن عند مشاهدتهن أولئك الرجال يسيرون بصفوف متسقة الخطوات، وعباءاتهم الحمراء ترفرف. كانت هناك مدارس مختلفة بين الإسبارطيين أنفسهم فيما يتعلق بالعباءات. فقد أمر بعض القادة بإزالتها في المعركة، إذ كانوا يعتبرونها لباسًا مناسبًا لليالي الشتاء والاستعراضات، ولكن بالمقابل من السهل على العدو الإمساك بها وانتزاعها في المعركة، في حين اعتقد بعضهم الآخر أمثال كليرشوس أنه يمكن استخدامها لإعاقة سلاح الخصم أو إعاقته بصر العدو بقطعة القماش تلك ريثما يطعنونه بسيفهم. كانت مسألةَ تفضيل شخصي بالنسبة إلى الرجال الذين كانت

حياتهم تعتمد على مهارتهم في القتال، لكن كان لابد لسايروس من الاعتراف بأنها كانت تبدو جميلة في ساحة الاستعراض.

كانت المعركة الوهمية التي صممها هو وكليرشوس ستمتع الجمهور الفارسي، وحتى اليونانيين. لكن الإسبارطيين أنفسهم اكتفوا بهز أكتافهم عندما تدربوا على المناورة في العرض التمهيدي. كانوا يعرفون أنهم الأفضل، بغض النظر عما أراد أمير فارسي عرضه على معلمه القديم.

على بعد أقل من أربعين خطوة من المكان الذي جلس فيه تيسافيرنيس وسايروس على صهوتَي حصانيهما، استل الإسبارطيون دروعهم عن ظهورهم وأحكموا إمساكها أمام سواعدهم. في الوقت ذاته، أخفضوا رؤوس رماحهم ببطء، ممسكين بها على أنها أسلحة وليست عصيًا.

كانوا جاهزين للهجوم بلمح البصر، ووجد سايروس نفسه يبتلع ريقه عندما فكر في مواجهة هؤلاء الرجال في المعركة. توقفت جميع الصفوف الأخرى لمشاهدة الحدث الأخير، حتى العصافير والجمهور المشاهد كانوا صامتين.

بدأ سايروس يصلّي بصمت كي لا تهرب الفيالق الفارسية وتغادر ساحة الاستعراض. لقد جهز ثمانمئة رامٍ بالعدد، وتأكد من أن سهامهم تتكون من العصي فقط دون الرؤوس الحادة. ولكن مع ذلك لم يكن قادرًا على فعل الأمر ذاتِه مع رماح الإسبارطيين، ليس دون أن يجعلها عديمة الفائدة. رفض كليرشوس تدمير أسلحة آبائهم من أجل استعراض، فقد كانوا سيتحملون وابلًا من السهام ويمتنعون عن تقطيع أوصال الفرس بالمقابل.

تواجهت القوتان فيما بدا كأنه زحف بطيء.

وجد سايروس نفسه يعتصر قبضته وقد توقفت صفوف الفرس على بعد مئتي خطوة. شد الرماة أقواسهم، وأطلقوا السهام بسلاسة، فأصدرت صوتًا يشبه صوت رفرفة الحمام. أول ما صدر هو صوت السهام وصراخ الرماة، ثم تلاه صوت الأوامر الصادرة من جانب الإسبارطيين. رُفعت الدروع مشكلةً قبة رائعة من الخشب والجلد. ثم صوت الاصطفاق الناجم عن ارتطام آلاف وآلاف من عصي السهام على الدروع. كل واحد من الرماة حمل كنانة تحتوي اثني عشر سهمًا، لذا فقد أطلقوا قرابة عشرة آلاف سهم على الدروع. لقد كان عرضًا جميلًا من بعيد يُظهر ثمار الساعات التي أمضتها المجموعات في التدريب على إصابة الهدف. اخترقت بعض الرميات الدروعَ وراقب تيسافيرنيس ذلك باهتمام. صفق العجوز بيديه على الجلد المصقول لسرج حصانه مُثنيًا على الهجوم.

في الساحة، ارتفع الإسبارطيون ببطء من وضعيتهم.

بينما ارتفعت الضحكات والتعليقات المادحة بين الجمهور المشاهد. فجأة، خيّم الصمت. شعر المتفرجون بالنظرة الغاضبة التي حدق بها الإسبارطيون تجاه الفيلق الفارسي.

التفتت الخوذات البرونزية ببطء، وبقيت مركزة على الرماة الفرس الضاحكين. رأى سايروس الإسبارطيين ينتزعون السهام الفارسية من دروعهم. ازدرد لعابه مرة أخرى عندما أدرك

أن الرؤوس قد اخترقت دروعهم، أن بعض السهام لم تكن آمنة. لم يعرف الأمير إذا كان ذلك مجرد خطأ بسيط حدث بين صفوف فيالقه، أم أنه نتيجة سخط الضباط الفرس، ربما أملوا أن يتركوا بعض اليونانيين قتلى على أرض ساحة الاستعراض. شاهد سايروس الإسبارطيين يناقشون الهجوم فيما بينهم، ولم يكن بوسعه فعل شيء سوى التحديق والتمني أنهم لن يفكروا في الأخذ بثأرهم. وقف الرجال الذين يرتدون العباءات الحمراء وقفة متحدية، مستهزئين بالعدو، مستعدين للهجوم مثل الكلاب الشرسة. يبدو أنهم لم يُصابوا بجروح، ولكن كلًا منهم كان قد ثبّت نظره على أحد الرماة.

تذكر سايروس كلمات الملك ليونايديس المنقولة من موقعة ثيرموبيلاي. عندما أخبره الفرس في عصره أنهم سيحجبون الشمس بسهامهم إذا لم يستسلم، فهز كتفيه مجيبًا وقال لهم إنه سيقاتل في الظل عندها.

ضحك تيسافيرنيس لما شاهده، وأمر الضباطُ الفرس الرجالَ الغاضبين بالعودة إلى وضع الاستعداد. ارتفعت رؤوس الرماح المدببة إلى الأعلى، وأعيدت الدروع إلى خلف ظهورهم عندما صدر الأمر بالسير مرة أخرى. في الجهة الأخرى من الساحة، كان الرماة الفرس لا يزالون يضحكون، ويربت كل واحد منهم على ظهر الآخر واقفين في تشكيلة متراخية، كأنهم في حفل زفاف أو مهرجان ما. استشاط سايروس غضبًا لرؤيتهم بهذا الشكل، لولا أن الأمر سيحرجه أمام تيسافيرنيس، لكان سيتمنى مشاهدة هجوم الإسبارطيين عليهم في تلك اللحظة، لتعليمهم ألا يتراخوا في دفاعاتهم مرة أخرى. لقد أدرك أن الأمر كان سيشبه إطلاق الثعالب بين الدجاج. حتى هذا الدرس كان سيتطلب إراقة بعض الدماء.

بدا أن تيسافيرنيس لم يلحظ حماقة الرماة الفرس، وبما أن تلك كانت نهاية الاستعراض، ترجل هو وسايروس عن صهوتي حصانيهما معًا، وسلماهما لعناية الخدم. تمطط تيسافيرنيس وتثاءب، مبتسمًا في وجه الأمير. طقطق العجوز أصابعه إشارة لطلب المشروب المثلج، كان ذلك كأسه الرابعة، بالرغم من أن كل واحد منها يكلف أجر شهر كامل؛ دينارًا ذهبيًا كاملًا. كان الثلج يُجلب في مكعبات كبيرة من البحيرات الجبلية، ثم يُخزن عميقًا تحت الأرض خلال أشهر الصيف. لقد كان كل كأس من الشراب تعبيرًا عن الحضارة والثروة. كان تيسافيرنيس مدمنًا على العصير الحلو المليء بكسرات الثلج اللذيذ. إضافة إلى ذلك، كان مدمنًا على مظاهر الترف والسلطة التي بين يديه.

قال وهو يرتشف ويتنهد مستمتعًا: "كان ذلك عرضًا رائعًا، من الجيد أن يعرف هؤلاء الأجانب أنه يمكن هزيمتهم، وخاصة من قِبل جنود الفرس. لا أحبذ أن أخبر أخاك بأن جنودك اليونانيين يمتلكون سطوة تفوق منزلتهم". ثم حدق إلى الصفوف الواقفة عابسًا. وقال: "لا أرى علامات جَلد على ظهور الإسبارطيين. أتساءل عما إن كنت صارمًا معهم بما فيه الكفاية". صاغ جملته الأخيرة كسؤال مما جعل سايروس يضطر للإجابة. كان الأمير القائدَ الأعلى لجميع جيوش مملكة الفرس. وبالطبع كان تيسافيرنيس يعلم أن سايروس أكثر خبرة منه بأشواط في هذه الأمور. إضافة إلى ذلك، بدا العجوز مصرًّا على إزعاجه والتأكيد على تفوق مكانته عن لقائهما السابق، كأنه كان يمتلك موافقة الملك العظيم أرتحشستا وثقته. كان من المستحيل تبيان صحة الأمر، ولم يكن سايروس سيسأله ذلك بشكل مباشر، أو يرسل مبعوثًا لأخيه بهذا الخصوص. نتيجة ذلك، كان عليه

تحمل التهكم الصلف والتهديدات من دون أية علامة على الامتعاض. فعلى حد علمه كان تيسافيرنيس في مهمة لاختباره، ومعرفة ما الذي كان يفعله بالضبط.

أجابه سايروس: "أنا أدع أمر تهذيب الإسبارطيين برمته لضباطهم، إذا كان أحد أعضائهم كسولًا على سبيل المثال، أو يُكثر من تناول الطعام، فسيعاقبونه بقسوة مذهلة، من منطلق أنه يهدد حياتهم جميعًا. إنهم يأخذون هذه الأمور على محمل الجد كثيرًا، كأنها اعتداء على شرفهم وشرف مدينتهم الأم وسمعتها".

قال تيسافيرنيس: "إنها محض ادعاءات، كأن أولئك الرجال يمكن أن يمتلكوا شرفًا حقيقيًا، أو حتى يفهموا الفكرة بحد ذاتها. أنا متأكد من أن أخاك لن يحب سماع إعجابك بهم. أتوافقني الرأي؟".

شعر سايروس بغضبه يتّقد مجددًا، لذا كان من الصعب عليه الإجابة من دون أن يظهر عليه ذلك.

"أنا لن أنكر ذلك أيها الأسد العجوز. كعدم إنكاري لزرقة السماء. أنا أقدّر الجنود البارعين. والإسبارطيون لا مثيل لهم".

سأله تيسافيرنيس: "هل هم أفضل من جنودنا الخالدين؟".

"تخبرنا موقعة ثيرموبيلاي بأنهم كذلك، وتخبرنا موقعة بلاتيه بأنهم كذلك. إذا كنت سأحافظ على حدود مملكة أخي قوية، فيجب أن أحصل على أفضل الرجال لتدريب فيالقي".

هدأ تيسافيرنيس لسبب ما، ولكنه استغرق برهة في تحريك كأس شرابه قبل أن يجيب.

"قد يفضّل بعض الرجال تجنبَ ذكر موقعة بلاتيه، سموك. فقد طارد فيها الإسبارطيون مشاتنا، وذبحوا من تبقى في المخيم، لقد كان ذلك يومًا حزينًا. ولكن ها أنت ذا، تمتدح أبناء أولئك الهمج والأوغاد وأحفادَهم. أتراهم هناك، يحدقون بهذه الطريقة! لو كنت قائدًا جيدًا، لكنت ستجلد أحد ضباطهم بسبب وقاحة رجاله. وأنا أتساءل عما سيقوله أخوك...".

قاطعه سايروس: "أرتحششتا سيعرف أن إمبراطوريته آمنة، وسيعرف أن الأمن يتحقق بالحدود الآمنة، وأن جيوشه مدرَّبة وجاهزة للزحف في أية لحظة. لقد جمعت أفضل الرجال، لتحسين فيالقنا الفارسية، ولكي تكون الأداةَ التي تشحذ قوتها. هذا كل ما يهمه".

أطبق سايروس فمه قبل أن يتسرب المزيد من الغضب في أجوبته. لم يكن يستطيع التمييز بين إذا ما كان تيسافيرنيس غاضبًا حقًا من تعجرف الإسبارطيين، أم أنه كان يسعى خلف زلة لسان منه تتكفل بالقضاء عليه. "في كلتا الحالتين، هذا واجبي".

التفت تيسافيرنيس إلى أحد الضباط الذين أحضرهم بصحبته.

"أيها القائد بيخاس، أترى ذلك الضابط الإسبارطي هناك؟ الذي يضع جلد النمر على كتفيه. أجل، ذو الخوذة المميزة هناك. استدعه إليّ".

فتح سايروس فمه مندهشًا. لم يحاول الاعتراض على الأمر، فقد كان يعلم أن كرامته لن تنجو من هذا الفعل. استدعى تيسافيرنيس الضابط. كان الرجل يدين بالولاء لسيد واحد فقط.

سأل سايروس، والأفكار تتزاحم في رأسه: "هل تفكر في إصدار الأوامر في ثكناتي؟".

التفت تيسافيرنيس نصف التفاتة. ولدهشته، شاهد سايروس يد الرجل تستقر بجانب الخنجر الموجود تحت حزامه، كأنه يفكر في استلاله. لقد ساء اليوم بشكل مفاجئ، وظهر حقد الرجل. وجد سايروس نفسه يتخبط في حين سار الضابط كليرشوس نحو الفرسان، ثم توقف ونزع خوذته بحركة بطيئة. وقف الإسبارطي مباعدًا بين قدميه بعرض كتفيه، مما أظهر استرخاءه. إذا دل ذلك على شيء، فهو يدل على أنه كان يتوقع المديح. ارتفع حاجباه عندما أشار تيسافيرنيس باتجاهه بغضب.

قال تيسافيرنيس بصوت جهوري: "لقد أزعجني غرور هذا الرجل، وبصفتي الممثل والمبعوث الملكي للملك العظيم أرتحشستا، ليتمجد اسمه ويطول عمره، أرغب في أن يُجلد هذا الرجل، كي يكون قدوة للبقية. أيها القائد بيخاس، اطلب إلى أحد رجالك الأقوياء إحضار السوط. جرّد الإسبارطي من ملابسه حتى خصره ونفّذ العقوبة. سأعدّ بصوت عالٍ".

صرخ سايروس غاضبًا: "لن تفعل". وأفسحت دهشته الطريق لغضبه. "أنت لا تمتلك هذه السلطة هنا". أشار بحزم للضابط الذي همّ بالتحرك للإمساك بالضابط كليرشوس. "ابتعد عن الرجل، واركع على الفور". قال جملته الأخيرة صارخًا فأطاعه قائد المشاة. ولدهشة سايروس، بقي تيسافيرنيس واقفًا على قدميه، بالرغم من أنه شحب وجهه وأخذ يرتجف.

قال تيسافيرنيس بصوت متقطع: "سموك، أنا أتحدث باسم أخيك، الذي يمثل سلطة العرش بأكمله، على الأقل في هذا المكان القذر، بعيدًا عن العالم الحقيقي. وإذا أذنت لي بإحضار حقيبتي، فهي تحتوي على ختمه الشخصي، وكلماته المقدسة منقوشة بالذهب. أنا واثق من أنك لا تريد عصيان أمر مباشر من العرش نفسه".

قال سايروس بصوت مليء بالحنق: "أنت لست العرش، وأنت لا تصدر الأوامر هنا يا تيسافيرنيس، فأنا قائد جيوش الإمبراطورية. ما الذي تعرفه عن أمور الحرب؟ هل ترى أولئك الإسبارطيين الواقفين في الساحة هناك، حاملين الرماح والسيوف القصيرة وسيوفهم الخاصة في الجعب الصغيرة على ظهورهم؟ إذا مسست بقائدهم، فلن يقفوا دون حراك. إذا مزقت جلده، فلن أتمكن من إنقاذك من غضبهم، لا أنت ولا أي من رجالك".

قال تيسافيرنيس: "لقد فهمت". شحبت شفتاه مع تزايد التوتر "إنك تخاف منهم إذن، تخاف من همجيتهم! كم هذا مثير للاهتمام! أنا أتساءل حقًا من السيد هنا إذا كانت كلابك البرية تستطيع الإفلات من رسنها بهذه البساطة".

فجأة قال كليرشوس، مفاجئًا كليهما: "إذا أذنتما لي، فإن سمو الأمير سايروس ليس محقًا تمامًا بملاحظته. لن يتدخل جنودي الإسبارطيون، إلا إذا أمرتهم بذلك".

تحدث الرجل بدقة وفصاحة، كانت لغته الفارسية الملكية صحيحةً تمامًا، وقد تحدث بلهجة مدينة سوسا. نظر تيسافيرنيس إليه منزعجًا، ولكن الإسبارطي تجاهله منحنيًا للأمير سايروس.

"سموك، إذا كان الرجال قد أساؤوا إلى ممثل أخيك، فسأتقبل الجَلد بكل تأكيد. هذا أمر مفروغ منه. ولن يتدخل رجالي في الأمر إطلاقًا. نحن نعرف ما هو الانضباط والعدالة الحقة. أعتقد أنه سيكون درسًا كبيرًا لهم".

توقف كليرشوس عن الكلام قليلًا، محدقًا إلى سايروس بتركيز كبير ريثما فكر الأمير في الأمر. مع مراقبة تيسافيرنيس لهما، كان على الرجلين تخمين نوايا بعضهما بعضًا دون إظهار أية علامة على التعاون بينهما.

بعد صمت طويل، أومأ سايروس برأسه موافقًا.

"حسنًا. يبدو أن تيسافيرنيس قد وجد بالفعل سلوكًا مشينًا من رجالك. هلّا تفضلت بخلع درعك وعباءتك، فسوف تُجلد لتكون عبرة لهم". تنهد سايروس في حين ركع الإسبارطي على ركبة واحدة وأحنى رأسه قبل أن يقف مرة أخرى ويبدأ بخلع ملابسه. كان يعلم أن الرجل يفضّل الانحناء على تدنيس ركبته بالتراب، وكانت تلك علامة على أنه اتخذ الخيار الصحيح. حاول سايروس ألا يظهر ارتياحه، فلم يمضِ سوى يوم على إخبار كليرشوس له بأنه ليست لديه السلطة الكافية ليأمر بجلده، ولكن ها هو ذا.

عندما لم يعد كليرشوس يرتدي سوى ما يستر عورته وخفين، بدا بطريقة غريبة أضخم مما كان عليه. كأن الرجل كان منحوتًا من الخشب الداكن. فالعضلات المنحوتة تحت درعه المعدني كانت في الحقيقة أقل إبهارًا من عضلاته المخفية تحته.

في الساحة، كانت خوذ الإسبارطيين لا تزال تخفي ملامحهم، لذا بدوا كأنهم غير مكترثين وبلا حراك.

شاهد جميع من كان هناك كليرشوس وهو ينزع ملابسه حتى خصره، لكنه لم يبدِ أية علامة على أنه مدرك لمراقبتهم إياه في حين أنه سار نحو مقاعد الجمهور ووضع كلتا يديه على المقعد المطلي باللون الأبيض، إحداهما فوق الأخرى. نظر تيسافيرنيس بحدّة إلى عضلات الرجل الإسبارطي، ولكنه أطبق فمه، وأشار مجددًا لرجله لإحضار السوط، مصمِّمًا على تنفيذ الأمر.

لقد شعر بطريقة ما أنه فقدَ الخاتمة التي كان يريدها لذلك اليوم، ولكنه لا يزال يريد جعلَ الإسبارطي يصرخ من الألم. إن فكرة جعلِ إسبارطي يصرخ أو يتأوه كانت تشكل تعويضًا لذلك اليوم الخائب.

عندما فك الضابط الأربطة، لاحظ سايروس أن الإسبارطيين قد اتخذوا وضعية الاستعداد. نظر كليرشوس إلى الأعلى نحو السماء وتمتم شيئًا لم يكن سايروس بالقرب الكافي ليتمكن من سماعه.

لقد سمع صوت الأشرطة وهي تهوي في الهواء، كل منها كان ينتهي بقطعة من الحديد. ارتطمت الضربة الأولى بظهره فوق الندبات، مخلِّفة خطوطًا حمراء تقطّرت بدم سائل من ظهر الضابط.

قال تيسافيرنيس: "واحد". مبتسمًا بزاوية فمه.

شعر بأن ظهره يؤلمه لأنه ظل واقفًا.

بينما ضرب السوط مرة أخرى، همس تيسافيرنيس لخادمه وجلس على الكرسي الذي أحضر له مصدرًا تنهيدة تدل على الرضى.

"اثنان". استمر بالعد "أم أنها ثلاثة؟ هل عليّ البدء من جديد؟".

قال سايروس: "إنها الثانية، سأستمر بالعد حتى الأربعين. من فضلك، استمتع بكأس آخر من العصير البارد".

تأكد من قوله الجملة الأخيرة لتبدو كالإهانة، مما جعل تيسافيرنيس يحمر غضبًا. تساءل سايروس كيف لم يلحظ حقد الرجل من قبل. هل كان كذلك طوال الوقت، أم أنه ظهرَ بسبب تغير المناصب مع العرش الجديد؟ لقد اعتبره سايروس صديقًا له طيلة سنوات عشر، ولكن ربما كان ذلك صحيحًا عندما كان سايروس أميرًا وكان هو مجرد ضابط مسكين في الجيش ومعلم. ولكن بينما ارتقى أحدهما وتدنت مكانة الآخر، فقد بدا أن ذلك كشفَ عن ضغينة لدى العجوز، أو ضعفٍ كان كامنًا لديه.

راقب سايروس كليرشوس يتحمل الجَلدة تلو الأخرى.

كانت هناك نحو أشرطة وأوتار عشرة في ذلك السوط. وكل ضربة كانت تقطع جلده في أنماط متقاطعة، كاشفةً عن اللحم تحت الجلد. وضع الإسبارطي يديه على المقعد، ولاحظ سايروس اللحظة التي انتبه فيها كليرشوس إلى أنه كان ممسكًا به بقوة. تنهد الرجل وأرخى قبضته، واقفًا يحني رجليه قليلًا.

كان من الصعب تخمين توقيت الجلد. إذا ضُرب السوط في الوقت الذي كان كليرشوس يأخذ فيه شهيقًا، كان يخرج الهواء من صدره رغمًا عنه. لاحظ سايروس أن كليرشوس حاول توقيت تنفسه على نحو يتلقى فيه الضربات بين الشهيق والزفير، لكن الجلاد الفارسي لم يكن خبيرًا، ولم يكن يضرب بانتظام، فلأكثر من مرة توقف لفترة طويلة ليمرر أصابعه بين أوتار السوط مباعدًا بينها.

عندما بلغ العدد الثلاثين جلدة، لاحظ سايروس أن الإسبارطي أخذ يتعرق، وكانت عضلاته تلمع على جانبيه، لقد نزف دمه بسبب ضربات السوط حتى أحيط جسده ببقعة من القطرات الحمراء، وشعر أفراد العائلات المذهولين أكثر من مرة بسقوط قطرات الدم على جلودهم، حتى إن شابة وجدت بفزع كبير قطرة منها على رأس إصبعها.

بقيت ضربتان، وكان على كليرشوس أن يبذل جهدًا لتحرير يديه عن المقعد، وكانت كل مرة أصعب من التي سبقتها. لم يُصدر أي صوت يدل على شعوره بالألم، سوى الزمجرة عندما أُجبر على زفر الهواء من قوة الضربة. بحلول الجلدة الأربعين، بدا الذعر على الجمهور، لقد تعلموا درسًا عن إسبارطة في ذلك اليوم، وكان بإمكان سايروس المعرفة من عبوس وجه تيسافيرنيس أن ذلك لم يعجب الرجل.

التفت كليرشوس إلى الأمير راسمًا ابتسامة لطيفة على شفتيه.

"أتمنى أن دمي قد كفّر عن الإساءة سموك. شكرًا لك على ثقتك بي، وبرجالي. إن هذا شرف لي".

فقال سايروس: "لقد تغاضينا عنها". ولكنهما كانا يعلمان أن تلك لم تكن الحقيقة. "عد إلى رجالك، وقل لهم إن شجاعتك قد أبهرتني".

ركع الضابط الإسبارطي على إحدى ركبتيه. تحرك كليرشوس بصعوبة لاستلام درعه وعباءته من الضابط الفارسي الذي كان يحملهما مذهولًا. التفت إلى رجاله، الذين ساروا جميعًا عبر الساحة من دون أن ينبسوا ببنت شفة.

راقب تيسافيرنيس خروجهم وقد بدا الاستياء على ملامحه.

وقال لساريوس: "أتساءل عما إذا كانوا يستحقون كل الذهب الذي أنفقته عليهم".

أجابه سايروس: "إنهم يستحقون ذلك بالفعل". ثم هزّ رأسه دلالة على عدم تصديقه لما شاهده للتو.

الفصل الحادي عشر



مع ارتفاع الشمس إلى كبد السماء، انطلق تيسافيرنيس ومرافقوه عبر مركز المدينة. كثيرة كانت الرايات المرفرفة والطبول والأبواق التي رافقت موكبه الذي كان أشبه بموكب ملكي يزور مدينة. لقد تجمع كثيرون من أهالي ضواحي سارديس لمشاهدة السيد النبيل القادم من الشرق الذي تنازل وسار بينهم.

خرج سايروس للوقوف على شرفة غرفته في القصر عندما سمع أصوات الناس. ولمح في البعيد تيسافيرنيس قبل أن يغيب عن نظره. كان السيد الفارسي يمتطي صهوة حصان رمادي، وقد جعل العبيد يرمون العملات الفضية إلى الجموع مُحاطًا بالجنود الخالدين بزيهم الموحد.

عضّ سايروس على فكيه مصدرًا صريرًا من اصطكاك أسنانه وقد وضع يده على حافة الشرفة، واستنشق الهواء البارد. بحلول ذلك الوقت لم يكن لديه شك بأن الجواسيس كانوا يراقبونه، ولكنه نزل إلى الإسطبل مع مرافقه بارفيس مبتعدًا عن صخب المدينة وأصواتها المرتفعة. عندما امتطى سايروس صهوة حصانه، سرّه الالتفاف إلى اليسار نحو بوابة الإسطبل والابتعاد عن تيسافيرنيس باتجاه الثكنات في الطرف الآخر من المدينة.

لقد كان الجو مختلفًا تمامًا في هذا الجزء من ساردیس.

تأهب الحراس الواقفون عند البوابة ما إن رأوه، وأحنوا رؤوسهم في حين انطلق سايروس نحو وجهته بصمت. لم يكن هناك سوى بعض الجنود اليافعين. ولكنهم أوقفوا تدريبهم عندما شاهدوه يترجل عن حصانه. شعر بارفيس بالتهديد الذي كان يملأ الجو، ولكنه أقسم على حماية سايروس، فانتصب الرجل مثل الديك المتفاخر، بالرغم من أن أيًا منهم كان يمكنه الإطاحة به بسهولة وتجريده من سيفه.

رفع سايروس رأسه شامخًا في مواجهة نظراتهم المهددة.

عندما تجرؤوا على تحديه بنظراتهم، تذكر سايروس ما قاله كليرشوس له سابقًا، إنّ جميع الشباب حمقى، وإن كانوا محظوظين كفاية وعاشوا ليبلغوا الأربعين أو الخمسين من عمرهم، فسيتمنون لو أن باستطاعتهم مقايضة خبرتهم وحكمتهم في الحياة مقابل يوم واحد من أيام الشباب العظيمة.

مع دخوله إلى الظلام في الداخل، توقف سايروس حتى يتآلف نظره مع كمية الضوء الضئيلة. لقد طُليت الجدران بالكلس، الأمر الذي جعل من الجو العام في الثكنات لطيفًا؛ فقد كانت نظيفة وتفوح منها رائحة القش وبعض المراهم التي كان سايروس يعرف أن اليونانيين يستخدمونها لعلاج الجروح والإصابات. سمع أنينًا منبعثًا من إحدى الغرف، فأومأ لإسبارطيين كانا جالسَين إلى إحدى الطاولات. كان كل منهما يحمل كأسًا صغيرة، ولاحظ سايروس وجود نرود مرمية على سطح الطاولة، إلى جانب بعض العملات البرونزية.

لم يتحرك أي من الرجلين للوقوف احترامًا لقدومه، واكتفيا بالمشاهدة فحسب. شد سايروس على قبضته اليمنى. وشعر باندفاع جعله يقترب منهما ويواجههما عبر الطاولة.

"ألم تعودا تُظهران الاحترام لقادتكما؟ ماذا سيكون رأي الضابط كليرشوس إن شاهد سلوككما الوقح هذا؟" تبادل الرجلان نظرة سريعة ووقفا، اندفع سايروس متابعًا سيره قبل أن يبدأا بالركوع.

توقف عند عتبة الغرفة، مراقبًا شابة تمرر الخيط عبر ظهر الضابط حتى أصبح جلده مجعدًا مثل قطعة من القماش. كانت قد خاطت بالفعل عشرات الجروح بدقة كبيرة، مثل الديدان التي تظهر في اللحم.

التفت كليرشوس إليه، وجعلته هذه الحركة يصك أسنانه ألمًا.

قال سايروس مخففًا عنه: "اعتقدت أن الإسبارطيين لا يشعرون بالألم".

زمجر كليرشوس وسأله: "من أخبرك ذلك؟ هل نحن مصنوعون من الحجر؟ بالطبع نشعر بالألم! ولكننا لا نُظهر أننا نشعر به. على الأقل ليس أمام أعدائنا". سر سايروس لمعرفته أنه لا يعتبره عدوًا. ابتسم هو وضحك كليرشوس، إلا أنه أغمض عينيه عندما فعل ذلك فقد بدا منهكًا.

"لقد أمضت بانيا الليل بأكمله تعمل على تضميد جراحي. أتمنى أن يكون صديقك قد شعر بالرضى".

قال سايروس بجدية: "تيسافيرنيس ليس صديقي، أشك في أنه كان كذلك. اسمع، لقد أتيت لأشكرك. أنا لا أعرف إذا ما أراد إيذائي فحسب، أم أنه أراد إظهار ارتقاء مكانته الجديدة. لقد كان مجرد معلم الأمير في السابق، إلا أنه أصبح الآن الساعد الأيمن للملك العظيم. في الوقت ذاته، لقد تدنّت مكانتي، وسُمح لي بالإبقاء على حياتي وعملي، فقط لا غير. أرادني تيسافيرنيس أن أدرك أن الموازين قد انقلبت ضدي. ولو رفضت...". نظر سايروس إلى الشابة، ملاحظًا تركيزها بصمت.

شاهد كليرشوس هذه النظرة وهز رأسه.

"بانيا صماء سموك، لا يمكنها سماعك، إلا أنها مع ذلك تمتلك مهارة عالية في خياطة الجراح".

"أعتقد أنني سأنحر عنقها مع ذلك". قال ذلك واستلّ خنجره.

لم تتفاعل الفتاة مع ما فعله. لذا، أعاد الخنجر إلى غمده.

رفع كليرشوس حاجبه مستنكرًا فِعل سايروس، فتنهد الأمير، وذهب لإغلاق الباب خلفه، وأحضر كرسيًا.

"لقد أكسبتني بضعة أيام أيها الضابط، ولكني لا أعتقد أننا نمتلك تلك السنة التي أردتها بصراحة. سيغادر تيسافيرنيس غدًا، ولا أستطيع تخمين ما سينقله من أخبار".

"اجعله يسقط عن الشرفة".

"لقد أرسل التقارير بالفعل مع الحمائم التي جلبها معه من بيرسيبوليس. من هذه المسافة لا أحد يمكنه أن يتأكد مما إذا كانت ستبلغ وجهتها. ولكن بالمقابل، أنا لست متأكدًا، بالحالتين، لا يمكنني أن أعرف كيف سيتصرف أخي عندما يعود تيسافيرنيس إلى جانبه. لأسبابي الخاصة، سأحب رؤية ذلك العجوز الأحمق يسقط عن ارتفاع شاهق، ولكني أحتاج تلك الأشهر الثلاثة أو ما يقاربها التي ستستغرقها عودته إلى..." توقف عن الكلام بحكم العادة القديمة. لم يكن قلب الإمبراطورية معروفًا في الغرب، وكان من الصعب عليه تسمية عاصمة أخيه أمام أحد الغرباء. "إلى بيرسيبوليس. يجب أن أكون ممتنًا أنه ليس شابًا، فهو سينتقل ببطء عبر الطريق الملكي".

ربّتت بانيا على كتف كليرشوس، وأومأت له أن يستلقي على بطنه. راقبها سايروس، وهي تسكب بعض النبيذ الأحمر على الجروح التي خاطتها لتزيل الدم الجاف، بعدها التقطت قطعة من القماش، وضغطتها على الجروح، مربتة على الضابط كما لو أنه كلبها الأثير. ابتسم كليرشوس لها، وتساءل سايروس عما إن كانا حبيبَين. كان يعلم أن الإسبارطيين منفتحين بالنسبة إلى هذه الأمور، فكانوا يعيشون عشرات علاقات الحب، ومن هذه الناحية، كانوا مختلفين عن الفرس، بكل المقدسات التي رضعها سايروس مع حليب أمه.

بدا كليرشوس ضابطًا إسبارطيًا مجددًا، عندما وقف على قدميه، ولوّح بيديه على طولهما، ليومئ بعدها إلى بانيا ويعطيها دينارًا ذهبيًا.

قال لها الإسبارطي: "جيد جدًا".

بدت مبتهجة، وانحنت بامتنان. انتهز كل من سايروس وكليرشوس الفرصة للنظر إلى ثدييها اللذين أصبحا مكشوفَين بسبب حركتها تلك.

عندما أصبحا وحدهما، وقف سايروس أيضًا.

قال له: "تيسافيرنيس عدوي، لم أكن متأكدًا من ذلك في السابق، ولكني متأكد الآن. بغض النظر عما يعتقد أنني أفعله هنا، حتى ولو كان لا يشك بأي شيء، أعتقد أنه سيهمس في أذن أخي بضرورة استبدالي، ليحل مكاني أو أحدُ المقربين منه".

قال كليرشوس: "حسنًا لديك خيار بسيط لاتخاذه".

"الاستغناء عن الخطة بأكملها، وقبول حياة أبسط في أثينا أو كريت مثلًا، أو في مكان آخر بعيد عن نفوذ الفرس. أو استدعِ الفيالق التي جمعتها بالفعل وانطلق مبكرًا، إذا كنت محقًّا بشأن تيسافيرنيس، وأردت الاستمرار بتنفيذ خطتك، فعندها عليك أن تضغط على الرجال أكثر. لدى أخيك قوات كبيرة يا سايروس، أنا واثق بأننا نستطيع هزيمتهم، ولكني أفضّل ألا يعرفوا بقدومنا، إن المفاجأة تساوي عشرة آلاف رجل".

صمت سايروس لبعض الوقت، وفكّر في الأمر. عندما نظر إلى الأعلى، كانت هناك نظرة جامحة على محياه، ولم يكن كليرشوس بحاجة إلى سؤاله عن الخيار الذي اتخذه.

"لم يكن والدي الأخ الأكبر، هل أخبرتك بذلك من قبل؟".

"أعتقد أنك ذكرت ذلك، أجل. ثلاث مرات حسبما أتذكر".

"حتى إنه لم يكن الولد الثاني. فالولد الثاني قتل الأول، ثم تقدم أبي من بين الحشود حاملًا سيفه البرونزي في يده لينتقم لأخيه الأكبر. هذا كل ما أطلبه أيها الضابط. العدالة والانتقام والعرش. لا أعتقد أن هذا كثير".

"حسنًا سموك. سأجعل كل رامٍ وقناص منتشرين في سارديس وجاهزين لإسقاط أية حمامة مرسال قد يكون تيسافيرنيس قد أرسلها لكي يستخدمها جواسيسه في إرسال التقارير. سآمر بتفتيش كل غرفة في المدينة لإخراجها من جحورها. وفي هذه الأثناء سنحضر جميع الجيوش التي جمعناها باسمك؛ اليونانيين والفرس على حدّ سواء، من جميع مدن اليونان، من ليديا ومصر، سيبحرون لينضموا إليك." توقف الضابط عندها، وامتقع وجهه.

سأل سايروس: "ما الأمر؟".

هزّ كليرشوس رأسه.

"أنا أصدقك عندما تقول إن أولئك الرجال يثقون بك، لأنهم يعرفونك منذ زمن، لقد اختبرت ما فيه الكفاية بصحبتك لأتأكد من أنهم محقون. سيضعون حيواتهم رهن إشارتك، لأنك طلبت إليهم ذلك، ولكن بسبب من أنت عليه. فأنت القائد، والأمير، والابن الموثوق لعائلتك". توقف وأخذ نفسًا عميقًا. "عندما تطلب إلى هؤلاء الرجال الوقوف في مواجهة العرش بحدّ ذاته، سيعصي بعضهم أوامرك، كن متأكدًا من ذلك، يمكنني أن أستعد لتلك اللحظة. يمكنني أن أدسّ في الفيالق ضباطًا أثق

بهم، ممن أقسموا بالولاء لك. يمكنني حتى أن أنشر قصة استيلاء والدك على العرش من أخيه الأكبر، ولكن سيأتي يوم يدركون فيه أنه ليس هناك أي بيسيديين، ولا قبائل في التلال، على الأقل ليس ممن نقلق بشأنهم، وأن العدو هو عرش الملك العظيم بحدّ ذاته، قائد قوة عظيمة من أبناء جلدتهم. يمكن أن نخسر كل شيء قبل أن يُطلق سهم واحد، وقبل أن يُستل سيف واحد. تلك هي المخاطر، سموك.

ربما عليك التفكير قليلًا أكثر في التقاعد والانتقال إلى ملكية جيدة لتربية الخيول والأبناء. وعندما أقول ذلك بصوت عالٍ، فهو لا يبدو حلمًا سيئًا في نهاية المطاف. العديد من الرجال لن يفكروا مرتين في قبول مسار حياة يجلب لهم السلام".

ابتسم سايروس ابتسامة تخفي القليل من الأسى خلفها، بدت الغرفة ذات الجدران البيضاء باردةً في البداية، ولكن عندما أُوصد بابها، أصبحت حارة جدًا.

"أنا لست كالعديد من الرجال. أنا أمير من الأسرة الإخمينية، ولكن الأهم من ذلك، لقد قررتُ أن أخي المثقف الخائن ليس أهلًا للجلوس على العرش، لطالما كنتُ وفيًا له طوال حياتي، ولكن الأمور اختلفت الآن، سأقضي عليه. أنا الأحق بالمُلك هذا قراري".

قال كليرشوس: "حسنًا سموك، سأجمع جيوشك".

جلس تيسافيرنيس مستريحًا في المكتب الخاص بأغنى المرابين في ساردیس. أحاط به جنديان عملاقان من الجنود الخالدين في حين أنه ثنى رداءه على ركبته، لكي يتلاءم وانحناءها.

كان الرجل الذي يجلس قبالته قريب زواج من درجة بعيدة للعائلة الملكية. لم يكن تيسافيرنيس قد قابل جامشيد من قبل، إلا أنه اعتقد أنه يعرف نوعه. استغل الرجل قرابته لبناء إمبراطوريته التجارية الخاصة التي امتدت من الهند حتى مصر.

بناء على ثقة العرش به، كدّس جامشيد ثروة طائلة من الأجور التي كان يتلقاها من خلال العقود التي ينفذها لصالح العرش. من سفن الحبوب إلى العملات الذهبية ذاتها، كان له نصيب من كل صفقة تتم، ومع بلوغه الستين من العمر، فقد كان نادرًا ما ينفّذ الأعمال بنفسه معتمدًا عادة على واحد من أبنائه وأبناء إخوته الست، ولكن نبأ قدوم تيسافيرنيس إلى المكاتب كان قد بلغه، فاندفع مسرعًا عبر المدينة لاستقبال الرجل الذي كان يتحدث باسم الملك.

وضع تيسافيرنيس الختم الملكي على الطاولة بينهما، جاذبًا الأنظار إليه من شده بريقه. كان الرمز مزيجًا من رجل نبيل على صهوة حصانه والنسر الممثل للعائلة الملكية، وإذا كان هناك أي شك، فإن وجود الجنود الخالدين كان دليلًا كافيًا لتأكيد أن الأعمال تخص العائلة الملكية.

بالكاد تمكن جامشيد من ضبط حماسه جراء تفكيره في احتمال إبرام صفقة ضخمة اقتضت حضور تيسافيرنيس شخصيًا، ولكن كان عليه الانتظار ريثما يحضر خادمه النبيذ لتيسافيرنيس وكوبًا من الأعشاب الطبية له، التي ملأ شذاها المكتب بأكمله.

أخذ تيسافيرنيس كوبًا مليئًا بالنبيذ الأحمر، ثم أعطاه لأحد مرافقيه ليتذوقه أولًا. ادعى التاجر أنه لم يلاحظ الأمر، بالرغم من أنه شعر بلسعة الإهانة. كان يعلم جيدًا أن هذا الرجل أمر بجلد ضابط إسبارطي، لقد شهدت المدينة بأكملها ذلك الحدث.

أشار جامشيد إلى كوبه الساخن مخفيًا استياءَه.

"أعشاب لتحسين الهضم الذي كان سيئًا جدًا في الفترة الأخيرة. بعض الأوراق الطبية التي أحضرتها من ولاية يونان في الصين، إضافة إلى أربعين لفة من الحرير الأحمر، تليق بالإمبراطور نفسه".

قال تيسافيرنيس بسلاسة: "هذا كرم كبير منك يا جامشيد". ابتسم عندما لم يتمكن التاجر من إخفاء خوفه من زلة اللسان. "سيسر جلالة الملك أرتحشتا بهذه الهدية".

أجاب جامشيد: "بالطبع".

ارتشف التاجر رشفة من كوبه، وهسهس لنفسه عندما اكتشف أنه لا يزال ساخنًا جدًا. راقب تيسافيرنيس وهو يشرب كوب النبيذ، ويعيد ملأه من الإبريق نفسه. تراجع كل من الرجلين في جلسته وابتسما، يراقب أحدهما الآخر عن كثب.

قال جامشيد: "تقول الشائعات في السوق إنك ستعود شرقًا في الغد".

رفع تيسافيرنيس رأسه.

"نادرًا ما تكون أخبار السوق غير صحيحة".

"تمنيت لو أنك شرّفت داري قبل اليوم أيها السيد تيسافيرنيس، حتى يكون لي شرف القول إنني أتعامل مع مبعوث الملك أرتحشتا. الحسابات جميعها صحيحة بالكامل، الديون والفوائد جميعها دُفعت بالتمام والكمال. لقد قُوّم العالم بعدما مني بخسارة والده المحبوب، ليرقد في الجنان لآلاف السنوات...".

"هذه الديون..." قال تيسافيرنيس، وهو يفرك اللحم تحت ذقنه بإصبع واحدة. "أتصور أنك قد وهبت الذهب والفضة للأمير سايروس خلال الأشهر القليلة المنصرمة؟ من الصعب إيجاد دار مراباة أو مرابٍ لم يفعل ذلك". راقب تيسافيرنيس الدم يتجمد في عروق التاجر. هذا النوع من الرجال لم يكن بحاجة إلى أكثر من تلميح حتى يهرب راكضًا عبر التلال، بصحبة جميع عبيده وأكياس الأموال خلفه.

قال جامشيد، بكلمات متقطعة: "يا سيدي، إذا كانت لديك أخبار يجدر بي معرفتها، فأنا أتوسل إليك أن توضح. لقد أعطيت سمو الأمير سايروس أكثر من تسعين ألف دينار ذهبي. من المستحيل أن أمنح هذا المبلغ لأي شخص آخر، ولكن الأمير هو القائد العام للجيش الفارسي. ولم

تكن هناك حدود للمبالغ التي يمكنه استدانتها على الإطلاق. لقد أوفى بجميع ديونه فيما مضى، جميعها! أرجوك هل سمعت شيئًا ما؟ ستملك امتنان عائلتي بأكملها وجميع المرابين في ساردیس".

تقدم تيسافيرنيس إلى الأمام وشرب من كأسه.

وقال له: "إن العائلة الإخمينية تفي دائمًا بديونها، بلا شك، ولكن الأزمنة تتغير وتتقلب، وأعمال الناس، وحتى الأمراء، قد تزدهر وتندثر. هذا أمر طبيعي بلا شك". شاهد الحيرةَ تزداد على وجه جامشيد فتنهد مستطردًا. "لأكون صريحًا، هناك من يعتقد أن الأمير سايروس يعتمد كثيرًا على المرتزقة اليونانيين، على حساب جنودنا الفرس، ولن يقبل الملك بأن تذهب كل هذه الخيرات إلى مدن الضباط اليونانيين. هل هم عبيدنا، أم يعملون لصالحنا؟ لا. لماذا يجب علينا أن نعطيهم كل هذا الذهب؟ أنصحك يا جامشيد، وأنت أخي في التجارة، بألا تتجاوز حدود استطاعتك. ها أنذا، أقول لك أكثر مما يجب".

رفرف التاجر بعينيه، ووقف ببطء وانحنى فوق الطاولة، واضعًا جبينه على الخشب المصقول. لاحظ تيسافيرنيس أنه كان يرتجف.

"شكرًا لك يا سيدي تيسافيرنيس. أنت صديق حقيقي لهذه العائلة لكي تحذرنا. ألف شكر لك".

أجاب تيسافيرنيس: "لقد كنتَ داعمًا وفيًا للعرش يا جامشيد". وقدم له الختم الملكي. "ولقاء خدماتك - وصمتك - يمكنك أن تصنع نسخة عن هذا الختم من الجص وتضعها أعلى عتبة بابك. عندها سيعلم الجميع أن لك كفيلًا لدى الملك أرتحشتا وأنك تحظى بمباركة عائلته".

غادر تيسافيرنيس الرجل، وركعت له حاشيته، يمسحون الأرض ويضربونها ببهجة. ذهب لزيارة مرابٍ آخر في المدينة، واحد يقال إن جامشيد لن يحذره، فهما يكرهان بعضهما. سيسمع جميع التجار والمرابين الخبر قبل غروب الشمس. لم يندم تيسافيرنيس على شيء سوى أنه لن يكون حاضرًا لمشاهدة أولى طلبات النقود، ومشاهدة أولى عربات الطعام التي ترفض مغادرة باحتها. لابد من دفع النقود للمرتزقة، ولن يمر وقت طويل قبل أن يجبر الأمير سايروس على إرسال اليونانيين إلى مواطنهم.

ضحك تيسافيرنيس في سره. في الوقت الذي كان أحد الخدم يساعده على امتطاء حصانه. خرّ الخادم تحته فقد اضطر لحمل وزنه بالكامل وهو منحني الظهر. شكّل حله لمشكلة الأمير سايروس ضربة قاضية، فقد لمّح على الخلاف من دون أن يصرح به. حالما يعلم سايروس أنه لن يكون هناك المزيد من الذهب المتدفق من الخزينة الفارسية، سيضطر إلى العودة إلى أخيه ليعرف مكانته الجديدة.

"خذوني إلى المنزل". قال وهو يهز رأسه مستمتعًا حينما تخيل تتالي أحداث رحلة عودته إلى الملك.

كانت هناك أكثر من طريقة لإخضاع الكلب.

في المساء الذي أعقب مغادرة تيسافيرنيس، دخل سايروس غرفة العشاء الفارهة في القصر ليجد مجموعة كئيبة بانتظاره. كان يعرف بروكسينوس جيدًا، والضابط نيتوس الستيمفاليني، وكان كليرشوس هناك أيضًا، إلى جانب خادم سايروس؛ بارفيس الذي لف حزامًا جلديًا على صدره، وأخذ يتأرجح جيئة وذهابًا على مقعده.

بدا أن مينون السالينى- وهو من الذين جنّدهم سايروس قبل عدة أشهر- يريد طرح بعض الأسئلة. لقد أحضر مينون معه ألف مقاتل يوناني، بينهم ثمانمئة رمّاح، لا يحملون شيئًا سوى درع صغير، وكان رماة الرمح أولئك صغارًا وفتيين، ويتحركون بسرعة البرق. سُر سايروس فقد كان يعرف أن فرقة جيدة من الرماحين يمكنها هزيمة كتيبة كاملة.

على حدّ علم سايروس، لم تكن لدى أي من مينون أو سوسيس السيراكوزي الذي يجلس بجواره فكرة عن غايته الحقيقية.

لقد جمعا الرجال وقاما بتدريبهم من أجل الذهب والفضة فقط. استقر نظره على فارسيين جالسين إلى الطاولة، وبدا عليهما عدم الارتياح، لأن المحادثة التي جرت قبل وصول الأمير كانت باليونانية.

أورونتاس كان أكثر الضباط الفرس الذي جعل القوات التي تحت إمرته على أتم لياقة خلال الأشهر الماضية.

كان أنحف من سائر الضباط وكانت بشرته أدكن منهم، وإن كانت الأرقام تعني شيئًا، فكان يجب أن يكون الأكثر سلطة بين كبار الضباط، فعديد قواته يفوق عديد أية قوات تأتمر بإمرة أي ضابط يوناني. إلا أن الواقع كان مختلفًا بعض الشيء كما لاحظ سايروس. فقد جلس أورونتاس بعيدًا بعض الشيء عن البقية، وكذلك فعل الإسبارطي كليرشوس، الذي كان يترأس الجلسة بلا شك.

كان الفارسي الآخر، أريايوس، شخصية ملفتة للانتباه، وكانت معرفة سايروس به بسبب سمعته بوصفه فارسًا، فقد شاع عنه أنه بارع في ذلك. الضابط التالي في تسلسل الرتب في القوات الفارسية كان أريايوس وهو ضابط استحق مكانته بجدارة، وكان سايروس يأمل أن يتفق معه بدلًا من النقاش مع أورونتاس العنيد.

امتلك أريايوس شعرًا طويلًا يصل حتى كتفيه، وكان يماثل بقوته البدنية أيًا من الإسبارطيين، فقد كان عريض المنكبين قوي الساقين، وأُشيع عنه أنه يحب صحبة الفتيان وأنه يكتب قصائد بهم في الأماسي. لقد فضّله اليونانيون على أورونتاس من دون أدنى شك. ولكن بما أنه كان في الثلاثينات من العمر، فقد كان أصغر سنًا ومن عائلة أقل مكانة من أورونتاس.

أيًا كان ما يفضله الأمير، فأورونتاس هو الضابط الفارسي الأعلى رتبة هناك.

عندما دخل سايروس، نهض الجميع. انحنى اليونانيون، وقلدهم أريايوس ولم يجد في الأمر غرابة.

لاحظ أورونتاس حركة زميله بطرف عينيه في حين وضع يده على الطاولة تحضيرًا للركوع على الأرض. راقب سايروس بصمت تردد أورونتاس وارتباكه بالرغم من أنه انحنى أكثر من البقية، قبل أن يعود إلى وضعية الاستعداد عندما أشار إليهم سايروس بالجلوس جميعًا. انتشر سلوك اليونانيين مثل الوباء بين صفوف الفرس. ولكن من ناحية أخرى، إذا كان ذلك سيترافق بالمقدار نفسه من الشجاعة، فسيعتبر سايروس ذلك مقايضة عادلة.

وصل الطعام على شكل سلسلة من الأطباق الساخنة، وقد حملها صفٌّ طويل من الخدم الذين أتوا من جانب القاعة. كان الجميع جياعًا، ولكن كان بإمكان سايروس ملاحظة تبادلهم للنظرات متسائلين عمّن سيمتلك الشجاعة لإخباره بأمر لن يود سماعه. كان خادمه بارفيس أكثر الحاضرين تأثرًا.

أمرهم سايروس: "كفاكم صمتًا واستراقًا للنظرات المتبادلة، ما الأمر؟ ليقل أحدكم شيئًا!".

قال كليرشوس: "يبدو أن السيد تيسافيرنيس قد ترك خلفه هدية أخيرة سموك، لقد رُفض اعتمادك المالي. وفي هذه اللحظة، لا يمكننا الحصول على درهم فضي واحد في سارديس وأنا أعلم أن لديك اثني عشر ألف مرتزق عليك أن تدفع لهم أول كل شهر، وهو ما سيحل بعد ثمانية أيام".

بدوره قال بارفيس: "ليس لدينا طعام كافٍ للبقية". رافعًا جعبته الجلدية كأن سايروس يمكنه رؤية التفاصيل من جهته حيث يجلس على الطاولة. "لدينا أموال تكفينا أسبوعًا، ولكن إن توقفنا عن دفع المستحقات، فستعتبر عقود المرتزقة بحكم المنتهية؛ ومن دون طعام سيتضور الرجال جوعًا. لقد أجرى الضابط أورونتاس إحصائيات لمتطلبات الحبوب واللحم التي نحتاج إليها للاستمرار بتدريب ثمانين ألف رجل. وهي... أرقام خيالية سموك. لا يمكننا تسديد ثمنها بأي شكل. لقد انتشر الخبر، ولم يرضَ أي بائع ماشية أن يمدد اعتمادنا المالي يومًا واحدًا".

كان سايروس قد أمسك بسكين لتقطيع الطعام الذي وضع أمامه في الطبق، فرماها على الطاولة ونهض واقفًا.

"لقد غادر تيسافيرنيس هذا الصباح، وربما أغلق مرابو ساردیس محلاتهم، ولكن كم تبلغ سرعة انتقال الأخبار؟ هل يمكنني استباقها؟ هناك ذهب في بيزنطة على بعد مسير أربعة أيام على صهوة الحصان باتجاه الشمال. لابد أن اسمي وختمي لا يزالان يُقدّران هناك. كم نحتاج؟".

نظر الرجال الجالسون إلى الطاولة مذهولين. وكان ضابطه أورونتاس هو من تحدث أولًا.

"سموك، إذا راكمت ديونًا إضافية على العرش، فلن يتم سدادها، ولن تستجدي الأموال من مرابي بيزنطة فحسب، بل أنت ستتشوه سمعة العائلة الملكية بأكملها! أرجوك! لابد من إيجاد حل آخر".

ضيّق سايروس عينيه وهو يستمع، وهز رأسه عندما تذكر أن أورونتاس لم يكن يعلم غايته الحقيقية، ولم يكن يدرك التهديدات التي يواجهونها. مع ذلك، كان من الصعب عليه أن يكون لطيفًا مع الرجل.

"أيها الضابط أورونتاس. لقد تجاوز تيسافيرنيس المكانة الموثوقة التي مُنحت له من قبل أخي الملك أرتحششتا، ومهما تكن قراراتي خاطئة أم صائبة، فلابد أن أحصل على الذهب لكي أدفع للرجال. العار الحقيقي هو تسريح جيش كامل من المرتزقة لينقل خبر أن مملكة الفرس لا تستطيع الإيفاء بديونها! لا، أنا أحتاج..." توقف قليلًا ليفكر في ما سيقوله، "إلى تسعين ألف دينار ذهبي، أو ضعف ذلك إذا استطعت تأمينه. هذا المبلغ سيمنحني حرية الحركة، والوقت للعودة إلى أخي لحل هذه المسألة. هل تفهم؟".

أراد الفارسي تحسين قراره السابق في الانحناء على الطاولة، فرمى بنفسه عند قدمي الأمير سايروس. راقبه زميله أريايوس ببعض المتعة.

"لم أدرك ذلك يا سيدي، أنا آسف. أنا أفهمك وفي خدمتك".

"وأنا ممتن لذلك" قال سايروس بامتعاض، مدركًا أن اليونانيين يراقبون ما يجري. "كليرشوس؟ سأحتاج حراسًا خاصين. لا يمكنني أن أدخل بيت التاجر في بيزنطة بمفردي. ولكن مع إصابة ظهرك فلا يمكنني...".

قال كليرشوس بكل وضوح: "سيشفى على الطريق سموك، لن أفوّت ذلك".

"جيد، أحضر عشرة من رجالك. بارفيس، أنت أيضًا، اذهب إلى إسطبل القصر لتجهيز الأحصنة. وإذا كانت هناك رسالة تسبقنا على الطريق، فعلينا الوصول قبلها وإلا سنخسر كل شيء".

قال أورونتاس بصوت متقطع: "سموك، هل يمكنني مرافقتك؟".

نظر سايروس إلى الأسفل وهزّ رأسه.

"لا. سأصطحب الضابط أريايوس. جهّز رجالك للانطلاق حال عودتي".

سر أريايوس من هذا القرار، وألقى نظرة شفقة على أورونتاس لاحظها سايروس، ولكنه تجاهل الأمر فقد كان يشعر بالسأم من ضباطه في تلك اللحظة. بعضهم كانوا مهتمين بالمنافسات التافهة أكثر من خدمتهم له.

الفصل الثاني عشر



أرهقتهم الأيام الأربعة على صهوات الأحصنة، وكان أكثرهم تعبًا كليرشوس، فبالرغم من قدرة الإسبارطيين الأسطورية على التحمل، إلا أن جراحه بدأت تنز بعد بضعة أميال من الركوب على ظهر حيوان لا يحبه وبالكاد يعرف كيف يسيطر عليه. كل يوم كان ينتهي بإيواء سايروس للأحصنة والرجال إلى أحد النزل على الطريق، ثم ينتظر حتى يلحق بهم كليرشوس بعد بضع ساعات. من منطلق الكبرياء والمسؤولية الشخصية، لم يكن سايروس يغادر ناصية الطريق حتى يصل كليرشوس. ولكن الوقت الذي كان يستغرقه الإسبارطي كان يزداد يومًا بعد يوم فقد أصبح كليرشوس شاحبًا ونزف ظهره من خلال ضمادات جراحه، لكنه لم يشتكِ على الإطلاق، حتى في الصباح عندما يكون الألم في أشده.

لم تعانِ تلك المجموعة الصغيرة من قطاع الطرق واللصوص أو من حراس المدينة في بيزنطة. شعر سايروس بالغضب لكل ساعة ضاعت منه بحلول ذلك الوقت، وتوجه مباشرة نحو منزل أغنى المرابين في المدينة. لكن الجميع تفاجؤوا عندما مد بارفيس يده ممسكًا بلجام حصان سيده داخل أسوار المدينة وأوقف الحيوان.

عندما نظر إليه سايروس مدهوشًا، ترك بارفيس اللجام، وانحنى لدرجة أنه كاد يسقط عن سرج حصانه على الطريق. ولكن مع ذلك، تحدث قائلًا: "سموك، مغطى بالتراب والعرق. اعذرني ولكن... أنت بذلك تكشف يأسك للجميع، ويمكن لأي كان ملاحظة ذلك. أنا أعتذر عن وقاحتي، ولكنك قطعت شوطًا طويلًا، ولن أقبل أن أشاهدك تضيع كل ذلك بسبب أمر بسيط الآن.

أرجوك يا سيدي، إن والدك يحافظ... كان يحافظ على مكانته في هذه المدينة. يمكنك الاستحمام وارتداء ملابس ملائمة أكثر لمنزلتك واسم عائلتك".

قال سايروس متذمرًا: "وماذا لو وردت الأخبار من سارديس في أثناء استحمامي؟ ستكون هذه الرحلة الوعرة قد ضاعت هباءً".

لم يكن بوسع خادمه سوى الانحناء، أما سايروس فقد التقط اللجام مجددًا، ممررًا إبهامه على التطريزات الفاخرة.

"أعتذر يا بارفيس، أنت محق بالطبع. ولكن مع ذلك فأنت تسرعت".

لم تمضِ ساعتان إلا وكان الأمير يسير بخفة على الأرض بالقرب من منزل التاجر شاستر، مرتديًا معطفًا فخمًا وسترة حريرية، بعد أن اغتسل من وعثاء السفر. بينما كان سايروس يحضّر نفسه للقاء، أرسل بارفيس إعلان وصوله لكي تُفتح الأبواب لاستقباله. كان الأمير مسرورًا لأنه استغرق ذلك الوقت في تبديل ملابسه، وسار منتصب القامة وحمل غمدًا مزينًا بالجواهر على خصره تبلغ قيمته وحده نحو خمسة آلاف دينار. كانت تلك المظاهر أمرًا ضروريًا.

لم يسبق للأمير أن التقى بشاستر من قبل، إلا أن سايروس كان قد سمع باسمه عدة مرات عبر السنين. من بين جميع التجار والمرابين في بيزنطة، كان شاستر الأكثر قدرة على تحمل الخسارة التي سيمنى بها، عندما لن يتمكن العرش من تسديد الدين. لقد أشيع عن الرجل أنه يمتلك ثروة تضاهي ثروة كرويسوس؛ ملك ليديا القديم.

ابتسم سايروس، ومد ذراعيه عندما رأى سيد المنزل، تقدم نحوه، وقاطع محاولة الرجل للركوع قبل أن تبلغ ركبته الأرض.

"من فضلك يا سيد شاستر، أنا ضيف. لقد أتيت في أمر مستعجل من العرش، وأنا ممتن جدًا لأنك موجود في المدينة في وقت مروري بها. إن بيزنطة هي جوهرة الغرب. ولم أكن أريد نقل أعمالي إلى ساردس". راقب سايروس عن كثب رد الفعل عندما نطق اسم المدينة. وقف الضابط كليرشوس في الصف لمراقبة ملامح الرجل أيضًا. لكن التاجر اكتفى بتقبيل يده، واضعًا شفتيه على براجم يد الأمير. شك سايروس في أن لحيته قد حُلقت منذ أن بزغت أول مرة، فقد كانت تغطي كامل وجهه باستثناء أنفه، وجبهته، وعينيه. إن طولها الكبير كان مزينًا بالكامل بالحلي والجواهر التي كانت ترن كيفما تحرك.

"إنه شرف لي سموك. لقد تمنيت لقاءك منذ سنوات عديدة. ستبتهج زوجتي عندما أُخبرها بأنك اخترت زيارتنا من بين الجميع". شعر سايروس ببعض الذنب عندما تذكر كلمات أورونتاس.

كان من الصعب عليه أن ينظر إلى عيني الرجل وهو يسعى إلى تدميره، ولكنه أجبر نفسه على الابتسام أكثر. كانت غايته تبرر وسيلته. عندما سيصبح ملكًا، سيصلح جميع هذه الأمور. تعلّق سايروس بذلك لمساعدة نفسه على إسكات صوت تأنيب الضمير الذي كان يصدح في رأسه.

"أنا متأسف، لأنني لن أتمكن من البقاء لمقابلة عائلتك، فقد وصلتني أخبار عن عصيان كبير في ثراس، ولديّ اثنا عشر ألف مرتزقة تحت تصرفي، إنهم الأفضل في اليونان بأكملها،

ويجب أن أدفع لهؤلاء الرجال. أخي، الملك أرتحشتا، سيَفي بدَيننا لك بلا شك، وسأضع خاتمي لتوثيق الدين. هل لديك تسعون ألفًا هنا؟ لقد أحضرت رجالًا لحمل الأكياس".

من شدة دهشته، أمسك التاجر شاستر خصلة من لحيته في يده، وقد بدا التوتر واضحًا عليه. كان سيقع أرضًا لولا أن سايروس أمسكه من ذراعه.

"سموك، أنا آسف ولكنه مبلغ ضخم! لديّ ثلاثون ألفًا من الذهب في خزنتي هنا، وإذا منحتني يومين فقط، فسأحضر الباقي إلى مقرك، أو حتى سأرسله خلف قواتك المتقدمة. سيدي، أنا آسف. لو أنك أخبرتني قبل قليل من الوقت، لكنت سأجهز كل شيء". حاول سايروس ألا يظهر خيبته، وربّت على كتف الرجل.

"لا عليك، ثلاثون ألفًا ستفي بالغرض. أحضر لي الشمع والقلم، سأختم دفتر حساباتك لتوثيق الدَّين".

"أجل سموك، بالطبع، أنا متأسف جدًا...".

"لا يمكنني أن أتأخر هنا." ذكّره سايروس مرة أخرى.

غادر التاجر الغرفة بسرعة، غير مدرك أنه عرّض نفسه للسرقة للتو.

تطلبت الآلاف الثلاثون عربتَين لنقلها، وقد غادرتا المدينة مع بزوغ القمر، محاطتَين بالإسبارطيين على صهوات أحصنتهم.

تم التخلي عن أربعة على الطريق، فلم يكونوا بحاجة إليهم. تأثرت المجموعة الصغيرة بمزاج سايروس الذي كان غاضبًا من نفسه. لم يكن متأكدًا مما إذا كان السبب في شعوره ذلك هو أنه اضطر للكذب وأخذِ مال من دون حق، أم لأن فعلته لم تؤمن له سوى ثلث ما يحتاج إليه.

مع شروق شمس الصباح التالي، ظهر فارس قادم على الطريق من اتجاه مدينة ساردِيس، وبالرغم من أن ذلك الجزء من الإمبراطورية كان آمنًا إلا أن الرجل بدا عليه القلق عند رؤيته لهذه الكتيبة المدججة بالسلاح. شاهدهم المرسال من مسافة بعيدة وتراجع تاركًا بينهم مسافة كبيرة. بالمقابل، نظر كليرشوس والإسبارطيون إلى حقيبة الرجل الجلدية وتساءلوا عن الرسالة التي قد تحتويها.

سأل كليرشوس الأمير: "أتريدنا أن نقتله؟".

قال سايروس من دون أن يلتفت: "لا، دعه يذهب، أيًا تكن الرسالة التي يحملها، فهي غير مهمة الآن. لقد حددت مساري".

خلال الأيام التالية، بدأت الجيوش بالتجمع في ساردِيس، فرس ويونانيون على حدّ سواء. امتلأت السهول المحيطة بالمدينة بخنادق المراحيض، والخيام ونيران المخيمات بالآلاف. تم الدوس

على الحقول الخضراء المليئة بالقمح والشعير مما أدى إلى ضياع موسم السنة بأكمله.

وصل الجنود اليونانيون بأساطيل من السفن إلى الساحل، وزحفت كتائب المشاة الفُرس من الصحراء، وكان قادتها يحيّون سايروس بخشوع وبهجة. لم تدم بهجتهم بلقاء قائد جيوش الإمبراطورية وفارسها الأول طويلًا قبل انضمامهم إلى الأعداد الغفيرة المجتمعة. أبقى سايروس دائرة المقربين منه صغيرة قدر الإمكان، ولكن كما حذره كليرشوس، لم يكن باستطاعته إخفاء غايته أمام هذا البحر من الجنود، فأي شخص ذي بصيرة سيدرك أنه ليست هناك قبائل تلال في العالم بإمكانها الوقوف في وجه هذا الجيش. كانت الدول تُغزى أو تهزم في مواجهة قوات أصغر من تلك التي تجمعت حول ساردیس.

لم يكن سايروس ينام سوى بضع ساعات في الليل على سريره المتنقل، وذلك بعد أن يعييه التعب، ليستيقظ في اليوم التالي بلمسة من بارفيس على كتفه. في المساء، كان الأمير يرفّه عن العشرات من ضباطه، داعيًا إياهم للسباحة في المياه. كليرشوس، بروكسينوس، ونيتوس الستيمفاليني جميعهم كانوا يحضرون ويراقبون زملاءهم الفُرس باهتمام وقلق.

كانت هناك أسئلة لم يتمكن سايروس من تجنب الإجابة عنها، مما جعل صبره يكاد ينفد كلما طرح أحدهم سؤالًا آخر. لا، لن يغزوا المدن اليونانية. لا، لن يخبرهم باسم العدو الذي سيواجهونه، ليس قبل أن يحين الأوان.

شُفيت جراح كليرشوس، وكان يضع زيت الإوز والخبز العفن على جانب إحدى كتفيه المتقرحة حتى يخرج القيح منها. عرض أن يُري ندباته لبعض الفرس، ولكنهم رفضوا مستائين من صراحة الضابط اليونانيين. لقد كان كليرشوس آخر من يغادر كل ليلة، منتظرًا ذهاب الضيوف بعد أن يشعروا بالتعب، وإذا كانوا من النوع الذي لا يغادر حتى يعتذر المضيف وينهي الأمسية، فقد كان سايروس يطلب إلى القلة الذين يثق بهم الانتظار في غرفة جانبية ريثما يفرغ القصر من الزوار وينام الخدم.

"معنا أم لا؟" كان سايروس يطرح هذا السؤال.

كان اليونانيون يشعرون بالإطراء لأن حكمهم كان يؤخذ على محمل الجد، فلم يظهروا ذلك، وكانوا يتبادلون النظرات بجدية قبل الإجابة.

فيقول كليرشوس: "لم ينظر هذا الرجل الليلة إلى عينيك إطلاقًا، ولا إلى عينيّ عندما حاولت إجراء محادثة معه. أفترض أنه لم يكن من المعاصرين لك؟".

فيجيبه سايروس: "أنت محق، إنه ضابط مخضرم، لقد رقّاه أبي. لسوء الحظ إنه ضابط كُفء وأنا بحاجة إليه. بروكسينوس؟ ما رأيك؟".

"لم يعجبني، وأنا أثق بحدسي، لن أثق به إن غاب عن ناظري". قال اليوناني الضخم كلماته، وهز كتفيه كأن جبلًا قد تحرك من مكانه. "إنه ليس مثل ذلك المرِح الذي قابلناه الليلة الماضية. أنت بطل بالنسبة إلى كثيرين من أبناء قومك، ولكن ليس الجميع سموك. أعتقد أن قائد

المشاة الذي اجتمعنا به الليلة، أراس هذا أو أراز، أيًا يكن اسمه، يجب أن يُصرف، أو يُرسل في مهمة ما. لا أعتقد أنه سيكون وفيًا".

قال سايروس بحدة: "لا يمكنني أن أتخلى عن كل رجل يبدو عنيدًا أو غير وفي، إذا كنت سأنجح في مسعاي، فأنا بحاجة إلى جميع من يمكنني الاعتماد عليهم، وعلى خبرتهم وتجاربهم". هزّ رأسه بقوة بعد أن استشاط غضبًا. "لا يمكنني النجاح إذا لم أثق بضباطي، ولكنهم جميعًا أتوا إلى هنا لأنني استدعيتهم باسم الملك. لذا أخبروني، كيف يمكنني أن أقودهم إلى معركة ضد أخي؟ هل هذا مستحيل؟".

نظر الأمير إلى الرجال الذين حضروا تكريمًا لاسمه. في الحقيقة، كان يثق باليونانيين الذين كان يدفع لهم شهريًا مبالغ كبيرة أكثر من الفرس الذين لبوا نداءه بصفتهم ضباطًا رسميين للإمبراطورية الفارسية. أراد اليونانيون النصر وهذا كان أمرًا مهمًا. والأكثر أهمية أنهم كرهوا تيسافيرنيس وكل ما يمثله بشكل شخصي.

لقد كبحوا الاندفاع غير الاحترافي بالتسلل إلى عملهم بعد أن أمر ذلك الفارسي بالتحديد بجَلد واحد منهم، بغض النظر عن مدى قدرة كليرشوس على إخفاء إهانته.

تحشرج نيتوس الستيمفاليني. بعد مدة طويلة، تقبل سايروس أن اليوناني كان يجب أن يعلم بالخطة. ربما أزعج الأمير أن يترك أبناء قومه جاهلين، ولكنه على الأقل كان يستطيع مناقشة المشكلة مع أكثر المرتزقة الذين يثق بهم دون الحاجة إلى ممارسة الألاعيب أو الكذب عليهم. نظر إلى نيتوس، متذكرًا النزهة التي سارا فيها في حدائق ساردِيس يناقشان أمر التهديد الكبير للبيسيديين. لم يصدق الرجل الأمر ولو للحظة، مما دل على حكمته.

"سموك، لقد كنت أفكر في هذه المشكلة منذ فترة طويلة، وهل لديك الحق في الجلوس بدلًا من أخيك على العرش".

فتدخل كليرشوس قائلًا: "حذار يا نيتوس".

"ما أقصده هو أن فيالقك الفارسية لن تقبل القتال ضد الملك الحقيقي - ولن يفعلوا ذلك - لأي شخص في العالم سواك. أنت الوريث الشرعي للعرش في نهاية المطاف، إذا طلبت نزال الملك أرتحشنتا وهزمته... إذا تعثر وكسر عنقه، هل أنا محق في قولي إنك ستصبح الملك على الفور بعد موته؟".

قال سايروس: "هذا صحيح".

أومأ نيتوس.

"حسنًا، ربما لديك الحق في تحديه، بدلًا من قيادة جيش للغزو والتدمير، يمكنك أن تطلب نزالًا فرديًا ضد أخيك، بسبب ما ارتكبه بحقك من إساءة، واستعمل جيشك للضغط عليه ليقبل النزال، وسيحميك الجيش وأنت تسترد الحق الذي اغتُصب منك، أنا أعرف أن حراسك الشخصيين

قد قُتلوا، وأنك سُجنت في الزنزانة منتظرًا الإعدام، أنت الابن المظلوم سموك. إذا قاوم جنودك الفرس، إذا تجرؤوا على العصيان، فسأخبرهم بذلك".

خيّم صمت طويل بعدما سكت نيتوس. في حين رفع كليرشوس حاجبيه حتى كادا يختفيان تحت شعره.

قال بروكسينوس: "يا لك من ثعلب ماكر يا نيتوس! هذه الطريقة المثلى لتنفيذ الأمر. سيتفهم قادتك أن الأمر مسألة شخصية. سموك. إنها مسألة شرف عائلي وجزاء. سيفلح ذلك".

تابع نيتوس الكلام: "سيقاوم بعضهم سموك، أنا واثق من ذلك".

"ولكن يمكننا مواجهة ذلك عندما يحصل، ربما يمكننا التخلص من بعض المشتكين والمتذمرين قبل أن نلتقي في ساحة المعركة".

ابتسم الرجل الحكيم ثم ضحك عندما ضربه كليرشوس على ظهره.

قال سايروس: "حسنًا، أنا لا أنوي انتظار القلة الذين لم يصلوا بعد. لقد خسرنا أسابيع بالفعل في جمع الجيش هنا. إن تيسافيرنيس في طريقه متقدم علينا، لذا علينا المغادرة سريعًا، إذا كنا سنمتلك أية فرصة في النجاح".

نظر حوله فرأى القادة يتبادلون النظرات.

"ماذا أيضًا؟".

قال كليرشوس: "هناك مسألة الدفع للرجال سموك، لم يبقَ أي شيء من الثلاثين ألفًا التي حصلنا عليها في بيزنطة. لقد أُنفقت على المخازن والعربات، ما يكفي لإطعام الجيش لمدة شهر على الطريق. ستة أسابيع على ثلثي حصص الإعاشة. لن... يكون هذا كافيًا".

لدهشتهم، لوّح سايروس بيده مظهرًا لهم ثقة لم يشهدوها لوقت طويل من ذلك العام.

"لقد فكّرت في الأمر أيها السادة -وأرسلت المبعوثين إلى واحد أو اثنين من أقدم حلفائي وأغناهم، وبحلول الوقت الذي سنصل في زحفنا إليهم معتمدين على القمح ومياه الينابيع، أعتقد أننا سنحصل على كل ما نريده.

لا يمكنني القول إننا لن نواجه الصعاب، ولكن أية حملة يمكن تنفيذها من دون ذلك؟ ليس هناك كثير من الثوابت في الحياة سوى واحد. وعدي لكم هو إذا جعلتموني ملكًا بعد قتل أخي، فلن تحتاجوا شيئًا بعدها. هل هذا كافٍ بالنسبة إليكم؟ أقسم على ذلك بشرفي، وسأضع يدي بيد كل منكم تأكيدًا على قسمي، إذا كنتم موافقين".

تقدم اليونانيون، واحدًا تلو الآخر، وصافحوا يده، ممسكين بها بقوة، حتى أصبحت براجمهم بيضاء وقد اختبروا صدقه. لم يكن هناك أي شك في عينَي الأمير.

لم يكن كليرشوس متأكدًا مما إذا كان ذلك أمرًا جيدًا أم سيئًا، نظرًا لما مروا به حتى الآن.

حل الصيف بالفعل، وتشكّل الخط الطويل من الجنود تحضيرًا للزحف من ساردیس، كانت الكتيبة اليونانية ستضيع بين حشود المشاة الفرس لولا أن كليرشوس أصرّ على أن يسير الإسبارطيون في الطليعة. قال الضابط إنهم سيشجعون البقية على السير بسرعة أكبر إذا أسرعوا الخطى، بالرغم من أن اليونانيين تذمروا لأنهم اعتبروه يقدم نفسه عليهم مجددًا.

مع التحاق آخر كتيبة مشاة فارسية بالرتل تجاوزَ العدد الإجمالي للقوات المئة ألف جندي. كان لديهم عجز في الرماة والرماحين، فلم تكن هناك سوى بضعة آلاف من الأخيرين. إضافة إلى أنه كان لديهم نقص أيضًا في الفرسان، بالرغم من أن سايروس شاهد الأثيني زينوفون يرعى الحيوانات التي كانوا يمتلكونها ويحافظ على انضباطها ولياقتها. وجد اليوناني الشاب نفسه في منصب سيد الأحصنة، وبدا كفؤًا عندما مر سايروس بجانبه. بشكل عام، لم يكن ذلك الجيش الذي أملَ سايروس حشده لمواجهة أخيه والموارد الهائلة للإمبراطورية الفارسية. لم يتمكن من التخلص من الشعور بأن العملية بأكملها كانت قرارًا متسرعًا من قبله.

منذ البداية، كان جمع حشد يمتلك أدنى فرصة في التغلب على الملك الفارسي احتمالًا مستحيلًا، لم يتدرب الرجال كفاية كما أراد، بالرغم من أن كليرشوس وعده باستكمال التدريبات في أثناء الزحف - وأيضًا لياقتهم كانت تتحسن بلا شك يومًا بعد يوم. مئة واثنا عشر ألف جندي سيزحفون باتجاه الجنوب الشرقي في الصحارى، بعيدًا عن الطريق الملكي وعيون المراقبين. وجد سايروس نفسه فخورًا بهم بشعور ممتزج بالحزن واليأس.

انطلق الكشافة والمناورون سريعي الحركة قبل القوات الرئيسة بيوم، وهرولت عشرات المجموعات خلفهم تتبعهم كل ست ساعات بعد ذلك. لقد أصبح الأمر أشبه بلعبة للرتل الأساسي محاولة اللحاق بالرجال خفيفي السلاح. علم الضباط أن هذا سيرفع المعنويات خلال المسيرات الطويلة عبر الأراضي الجرداء ولم يمانعوا في ذلك. إن فكرة اللحاق بمجموعة الكشافة جعلتهم أكثر تيقظًا، وشكّلت نوعًا من المراهنات التي تمت بين الفيالق والكشافة أنفسهم بالطبع.

لم يحدد سايروس وجهته النهائية بعد، ولكنه نشر خبر أنهم تباطؤوا. بالرغم من أنهم سيقطعون دربًا أكثر وعورة من التي يسافر عليها تيسافيرنيس، إلا أن وجهتهم كانت أي مكان يمكنه فيه أن يفرض على أرتحشتا النزال. إن فكرة قطع كل تلك المسافة كانت شاقة، وما لم يخففها أنهم كانوا مضطرين لأن ينقلوا معهم كل ما يحتاجون إليه.

وجد سايروس نفسه يعتصر فكيه استياءً من العدد الكبير لمرافقي المخيم، لقد جعل ساردیس قاعدته لأكثر من ثمانية أشهر، كان يدفع لمرتزقته ذهبًا، في حين كان الفرس يتقاضون أجورهم بالفضة من محاسبي الكتائب. طيلة ذلك الوقت، استضافت مدينة ساردیس عشرات آلاف الجند الذين يمتلكون أموالًا لإنفاقها.

ازدهرت التجارة، واستفاد الحدادون، وصنّاع الجلود، وصناع الأسلحة ذات النوعية العالية، وصناع الدروع، وبالطبع شركاء الفراش من الذكور والإناث الذين ظهروا بأعداد كبيرة

ليعتاشوا على الرجال الوحيدين الذاهبين إلى الحرب. بعضهم كوّن علاقة قوية تربطهم بأفراد من اليونان أو الفرس. وهناك آخرون ممن فضّلوا العلاقات المؤقتة وحصلوا على كل ما تمكنوا الحصول عليه.

كانت المحصلة اثني عشر ألفًا إضافيين أو ما يقارب ذلك ممن لن يشاركوا في أية معركة سيواجهونها، ولكن مع ذلك كان لابد من إطعامهم وحراستهم على الطريق.

أمسك الأمير حافة أنفه بين سبابته وإبهامه، ولعن اسم تيسافيرنيس هامسًا. لم يتوقع أن ينطلق في ذلك الصيف الذي يمكن لحرارته أن تقتل الرجال، والأسوأ من ذلك سلبُه قدرته على الدفع كانت ضربة قوية له؛ عملٌ ظن أنه ناجم عن أحقاد تافهة أكثر من أنه نتيجة للشك بولائه. طوال حياته لم يفكر سايروس في صعوبات قيادة حملة دون أن تكون الثروة اللامحدودة للخزينة الملكية تحت تصرفه. كان الأمر أشبه بأن تقصد محيطًا لتجده اختفى فجأة، لقد بدا الأمر وكأن العالم انقلب رأسًا على عقب.

كان عليه تعلم المساومة مع المزودين للمرة الأولى في حياته، مما خلق حدة وليدة الغضب إلى المفاوضات التي فاجأته كما فاجأت البقية. وجد نفسه يستمتع بتخفيض السعر، وكان ذلك تدريبًا على قوة لم يفهمها من قبل، نوعًا من الصراع دون سفك الدماء.

كانت الفكرة بحد ذاتها غريبة بالنسبة إلى أمير. كان سايروس يعلم أن جيشه يتكون من رتل يخصه أكثر مما سيكون عليه لولا ضغط الوقت والمال. كان فخورًا بهم، فخورًا بالعاهرات، وحتى الرجال الذين سيخونونه في نهاية المطاف.

لقد لبوا نداءه، سواء كانت أسبابهم نبيلة أم لا. إن جمع مواطنيه واليونانيين مكّنه من تشكيل محيطه الخاص على أرض قاحلة، رتل يمتد لأميال طويلة يبعد فيه من في الطليعة عن المؤخرة مسير يوم كامل. الفكرة بحد ذاتها جعلت الأفكار تدور في رأسه وجلبت ألمًا بدأ يتشكل خلف عينيه.

عندما أصبحوا جاهزين، جال مئات الضباط على الكتائب الخمسينية لإسكاتهم في تلك الرقعة الشاسعة، منتظرين لكي يتشكلوا واحدة تلو الأخرى. امتطى سايروس وكليرشوس حصانيهما في مقدمة الرتل، حيث ربط ثورين أبيضين إلى دعامات حديدية مثبتة في الأرض. وافق الإسبارطي على انتظار وصول المجموعات الأخيرة من المقاتلين القادمين من كريت. رفض كليرشوس الحصان الذي عرض عليه قائلًا إن المرة الفائتة كانت كافية. مع ذلك، أقسم على ضمّ أولئك الرجال إلى صف سايروس.

تنفس سايروس بعمق، واشتم رائحة الليمون والنعناع في الهواء، إلى جانب اللفحات القادمة من رائحة الفحم. كان عرافوه جاهزين لمراقبة انتشار الدم وتفسيره، وعلم كل الضباط أنه ستكون هناك شرائح من اللحم على موائدهم تلك الليلة، لذا نظروا إلى تلك الحيوانات المقيدة بترقب. رفع سايروس يده في الهواء وخيم صمت مطبق للحظة، لم يخترقه سوى صوت الهواء الذي جعل الأقمشة تصطفق مثل الأجنحة.

عندما أخفض يده، نحر العرافون أعناق الثيران، مما نجم عنه تدفق كبير للدم.

كانوا سيسيرون جميعهم في البرك المتشكلة، تاركين خلفهم آثارًا تمتد مسافة ميل أو أكثر. ولكن ذلك لم يهم، فقد كان الدم غايتهم. ولم يجمع أحد هذا الحشد من قبل من أجل السلام.

نفخت الأبواق صادحة في الصباح. رُفعت الرايات على طول الرتل. بدأ قارعو الطبول الذين كانوا يحملون آلاتهم الموسيقية المعلقة من أكتافهم بعزف لحن إيقاعي لضبط خطا المسير.

رفع سايروس صلاة إلى السماء الزرقاء فوقه متمنيًا حظًا جيدًا وتاجًا من الذهب يُزيّن رأسه. كان النهر المتعرج يبعد ثلاثة أيام عبر أراضي ليديا الخضراء، وكانت مدينة كولوسي تبعد مسير يوم آخر. قرر انتظار كليرشوس هناك لإحضار المتخلفين.

راقب الأمير الفارسي من جانب الطريق في حين انطلق الاسبارطيون بصمت، ملوحين بأيديهم. تلك الأيام الأولى كانت ستكشف نقاط الضعف، لم يكن لديه أدنى شك في ذلك: الخطأ في تخطيطهم، والأشياء الكثيرة التي أغفلوها، أو تجاوزوها. مع ذلك كانت ستظهر لهم ما واجهوه أيضًا - وأولئك الذين وصلوا إلى قصر الاستراحة في كولوسي بنظام جيد سيدركون أنهم أهل للمهمة. علم سايروس أنه سيتلقى الضربات من كل حدب وصوب وأنه سيصبها جميعها في بوتقة واحدة، خطوة تلو الأخرى. لذا ابتسم، وأدار حصانه بلجام محكم وضرب بكعبيه. لم يبق في الخلف سوى الضابط الإسبارطي وعشرة حراس. شاهد سايروس كليرشوس يظلل عينيه بالرغم من أنه كان يستطيع الشعور بنظرة الرجل. أخفض رأسه تأكيدًا عليها وشاهد كليرشوس يفعل الشيء ذاته. كان الطريق مفتوحًا أمامه، أينما أراد أن يقودهم إليه.

الفصل الثالث عشر



وصل الصف الطويل إلى النهر كثير التعاريج.

في البدء، عمت الفوضى قليلًا، فالرجال لم يكونوا معتادين على المسير لست أو سبع ساعات، فتعثر كثير منهم، الأمر الذي أدى إلى تعثر آخرين خلفهم. ومع ذلك، في وقت مبكر جدًا من المسير الطويل، عانى الرجال فقد برزت تقرحات، وجب عليهم لفها كل ليلة، بالرغم من أن معظم الذين عانوا قبلوا بنصيحة الإسبارطيين، بضرورة ترك الجلد يتعرض للهواء، كي يجف ويُشفى، بدل المخاطرة بتعفن التقرحات.

عبروا النهر بعبّارات بدائية الصنع، صُنعت كل واحدة منها من جمع سبعة قوارب صيد وربطها ببعض، وهذا ما أثار موجات من الضحك بين الرجال، فقلّة من الفرس كانوا يعرفون السباحة، لذا تمسكوا بشدة بالقوارب خوفًا، حتى إن براجم أصابعهم أصبحت بيضاء من قوة الشد، وبلغوا من الذعر ما جعلَهم يستلقون في القوارب، أما الإسبارطيون فشعروا بالإلفة، فأخذوا يصطادون السمك، أو يغطسون في الماء بمتعة، ولم يبدوا انزعاجًا من أشعة الشمس.

بعد يوم آخر طويل من المسير، أخذت علامات التعب تظهر على الرجال، وعانى كثيرون منهم من الإصابات والالتواءات، إذ كان من المستحيل أن يتقدم الرجال محمَّلين بالأسلحة ولمسافات طويلة من دون بعض الإصابات أو سقوط السيوف الأمر الذي يسبب جروحًا بليغة. لكنّ الرجال المخضرمين لم يبخلوا بالنصح على الجنود الأغرار، وعندما رأى سايروس ذلك، أمل أن تساعد هذه التجارب المشتركة بين الجنود في بناء اللحمة بينهم، مما يجعل أفواجه الفارسية حين ترى العدو تختار الوقوف إلى جانبه، وهو الأمير والقائد العام للجيوش بدلًا من الملك الذي لا يعرفون عنه شيئًا. إنهم يعرفونه هو، وقد امتطى صهوة حصانه إلى جانبهم، وليس بغريب عنهم.

لقد كانت البداية جيدة. أراح سايروس رجاله لسبعة أيام في كولوساي، وأراح نفسه برحلة صيد إلى الحدائق الملكية.

لم تصله أية معلومات عن كليرشوس، بالرغم من أن مينون وصل وأحضر معه أربعمئة جندي آخرين، وأخبره بأن كليرشوس سيلتحق به في سيلايناي وعليه عدم انتظاره على الطريق. أخذ سايروس عددًا من أحصنة السباق من الإسطبلات الإمبراطورية لاستخدامه الشخصي، وسلمها إلى زينوفون. ولكنها لم تكن كافية، فالأمير لم يستطع إحضار المزيد من الفرسان المدربين، ولم يحمل ما يكفي من الأموال للتفكير في شراء المزيد، وباستثناء كتيبة الحرس المؤلفة من ستمئة فارس، فقد علم فائدة الكشافين السريعين، ولكن موارده لم تتح له شراء أحصنة لكل الكشافين الذين يتقدمونهم، فمن دونهم لن يكون الجيش الجرار إلا مجموعات بطيئة الحركة، وستكون عرضة لأي كمين مفاجئ.

في الوقت الذي غادروا فيه كولوساي، كانت تقرحاتهم قد بدأت تشفى واستعادوا نشاطهم، لقد ترافقت عودتهم إلى التقدم مع بداية الربيع، وجعلت أصوات الأبواق الأحصنة تصهل، وتركض.

وجد سايروس أنه يستمتع بالساعات التي يقضيها يوميًا برفقة الرجال.

في معظم الأحيان كانت أفواج الجيش وكتائبه تسير في الوديان والحقول بعيدًا عن الطرقات الرئيسة، ولم يكونوا على بيّنة مما ينتظرهم. لقد شعر سايروس بارتفاع لياقته البدنية، بالرغم من أنه كان قلقًا من اقترابهم من الجبال، أو حتى من غابة صنوبر الضخمة. لقد أرسل رجالًا للبحث عن كليرشوس، لكن لم تكن هناك أية إشارة منه بعد. بعيدًا عن ساردیس، أدرك الأمير كم يثق بالإسبارطي ويعتمد عليه.

كان سايروس الوحيد بين جنوده الذي يعرف مقدار قوة جيوش أخيه، حتى إنه كان يعلم عنها ما لا يعلمه الملك أرتحشَشتا نفسه، وكان يعلم علم اليقين، أن الملك إن شعر بأنّ سايروس يشكل تهديدًا فلن يجد صعوبة في حشد جيش مؤلف من نصف مليون مقاتل، وهذا ما كان يجعل الكرى يجافي أجفان سايروس، إضافة إلى أن الموارد المالية لثمانٍ وعشرين ولاية ستكون تحت تصرف جيش العرش والملك، لذا لن يكون الموضوع المالي وتأمين التموين والإمداد لجيوش أرتحشَشتا موضوعًا يفكر فيه الملك.

ففي الوقت الذي كان سايروس يسير مع قواته تحت قبة النجوم كان أرتحشَشتا يشرب الخمر وينام هنيئًا ملء أجفانه.

تبعد قلعة سيلايناي عن مدينة كولوساي مسير ثلاثة أيام، وتقع عند نهر مارسياس. هناك انتظر سايروس وصول كليرشوس ومَن بقي من جنود، وقد شعر بالأسى لأنه سمح لقائده بالتخلف عنه.

عند المساء، بدأ الأمير يرى نظرات التململ في أعين الجنود الفرس الذين لم يستطيعوا فهم سبب انتظار أميرهم لهذا الإسبارطي. فهم لم يعرفوا أهميته، بغض النظر عن رتبته. ومع ذلك، لم

يفعل الأمير شيئًا، وانتظره لأيام، ولم يتقدم بالرغم من أن الوقت لم يكن يجري في صالحه.

ويومًا بعد يوم، أخذت الحماسة التي رافقت أيام تحركِهم الأولى تتلاشى، بعد أن اعتاد الجنود على رغد العيش النسبي في المخيم، لم يبخلوا على أنفسهم بالاستمتاع والترويح عن أنفسهم في المدينة المجاورة للمخيم. أما سايروس فتغاضى عن إصدار أوامره بشأن الجنود الذين خالفوه وكان إعدامهم ينتظر أوامره، وأيضًا غض النظر عن الشجارات التي كانت تكثر بين فرقة الالستيمفالينين وفوج الإمبراطوريين.

لقد كان تفكيره في مكان آخر وفي شخص أكثر أهمية.

في اليوم الرابع عشر، وصل كليرشوس، هادئًا كنسيم الربيع. برفقة ثمانمئة جندي هوبليت من مدن مختلفة، ومئتي رماح من البلتاست وأربعين رامٍ من الكريتان. ما إن رأى سايروس القائد وصحبه حتى هدأت ثورة غضبه وقلقه، ولكن كليرشوس شعر بغضب الأمير الداخلي ولم يجد ضيرًا في الركوع على إحدى قدميه مقدمًا فروض الطاعة للأمير على مرأى من القادمين الجدد.

"سموك، ما من أحد آخر، إنهم محظوظون للبقاء على قيد الحياة بعدما غرقت سفينتهم في طريقها من جزيرة كريت. لديهم آلاف الحكايات ليرووها، ولا شك أنك ستستمتع بسماعها ونحن نتقدم، من الآن ما من وحدات خلفنا".

نظر الإسبارطي إلى البعيد مثل كلب الصيد المتعطش لرائحة الفرائس.

قال سايروس: "ظننتك لن تأتي".

نظر إليه كليرشوس بحزم وثبات. "سموك، لقد منحتك كلمتي. لن يفرقني عنك سوى الموت".

ابتسم الأمير، في حين تابع كليرشوس حديثه: "والموت ليس مستبعَدًا".

ما إن بدأت الأفواج تتحرك، حتى ساد جو من الفرح بين الجنود، مروا من خلال مقاطعات الساتراب حيث استمتع الرجال بالسير على الطرقات المرصوفة، ولم يفكروا في المعركة التي تنتظرهم، فقد بدت لهم بعيدة، إلى درجة أنهم يستطيعون اعتبارها مشكلة يمكن تجاهلها الآن.

لم يشاركهم القادة جو الفرح هذا.

لقد أغضبت بعض التعليقات البسيطة كليرشوس. أخذ الأمر على محمل الجد، وشعر بالتوتر ينمو ببطء كلما تقدموا، وشاركه سايروس توتره، دون أن ينبس ببنت شفة لأيام كاملة، مع أنهما يسيران أو يمتطيان حصانيَهما جنبًا إلى جنب ويتوغلان في أراضي الإمبراطورية.

طوال الوقت لم يكف سايروس عن التفكير في تيسافيرنيس متسائلًا عما إن كان قد تخطى الرجل العجوز، أم لا يزال هو متقدمًا عليهم. كانت تلك الحجارة نفسها هي التي حملت الملك

داريوس الأول لغزو اليونان، حتى إن ابنه العظيم خشايارشا سار عليه متجهًا إلى الغرب، ولم يعلم أبدًا أنه سيرى جيشه يُذبح ويُقتل في جميع الاتجاهات.

بالرغم من كل هذا، اضطر سايروس إلى السفر جنوبًا بعيدًا عن الكشافة الملكيين الذين قد يسرعون في العودة إلى الوطن لإخبار الملك عند رؤيتهم الجيش.

لقد استولت هذه الأفكار على تفكير سايروس الذي أمضى ساعات يتعرق تحت الشمس، وفقدَ ثقته بقدرة رجاله القتالية عندما أدرك أن الأمر سيستغرق نصف يوم فقط لإطعامهم وجبة واحدة.

عند الظهر دنوا من بلدة فحطوا رحالهم بالقرب منها، وامتلأت البلدة بالعربات. تناثرت أواني الطبخ وجمع الحطب. فبدا الأمر وكأن مهرجانًا يُقام في المنطقة، وُضعت الخيام واصطف الرجال لإنفاق أموالهم على المرح. تم التخطيط لكل شيء ولم يتمكن سايروس من الانتظار والتحديق إلى الشمس، فقد ظلّل عينيه من سطوع ضوئها.

مثل الجراد، دخلوا الحانات التي صادفوها، بغض النظر عن صغر حجمها أو حالتها.

كلما شاهد الأمير مدينة أو بلدة على الطريق، كان يعلم أنها بُنيت بأمر إمبراطوري، لقد كانت منتشرة مثل حبات الخرز حتى سوسا وكانت ضرورية لراحة المسافرين.

لكن جيش سايروس حرم تلك المدن والبلدات من الموارد التي تتيح لها تأدية وظيفتها، فقد جردها جنودُه الجياع من كل شيء، ولم يكن أمام سايروس من خيار إلا إطلاق العنان لرغبات جنوده في السلب والنهب وهو يعلم أن موارده أوشكت تنضب، بعدها تابع التقدم، وتوقف على بعد ثمانين ميلًا من مدينة تايريايون، في ولاية كيليكيا، وقرر الاستراحة في مزرعة أمضى فيها أيامًا عندما كان طفلًا.

وكما توقع سايروس، بعد يومين، كُلف كليرشوس من قبل القادة أن يتحدث إليه، وكان يعلم ما يريد أن ينقله إليه، فالأفواج اليونانية والفارسية لم تتلقَّ رواتبها في الوقت المحدد، وكانت خزائنه فارغة. بينما كان سايروس على الشرفة يأكل التمر والجبن الطري اللذين تُشتهر بهما المنطقة خاطب كليرشوس قائلًا: "أيها القائد، لقد علمت أنهم سيرسلونك. اجلس وتناول الطعام. هذه الأطعمة هي أفضل ما يمكن أن تتذوقه في حياتك".

لقد بدا كليرشوس تمامًا كما كان في اجتماعهما الأول، كما لو أن الوقت ثابت ولم يتحرك. وفي المقابل، رأى القائد أميرًا شابًا أنهكته المسؤوليات.

أجاب: "شكرًا سموك". تناول تمرة عن الطاولة وأكلها، وبصق النواة في راحة يده. "جيدة جدًا".

ساد الصمت بينهما، وانتظر سايروس أن يتكلم كليرشوس، مستمتعًا بقدرته على اختبار عزمه مقابل عزم الإسبارطي. أنهيا طبق التمر، وجلب الخادم طبقًا من شرائح اللحم الرقيقة

وفصوص الثوم المحمرة التي وُضعت على الطبق مثل البيض الأبيض الصغير. أحبَّ كليرشوس الثوم، أخذ حفنة بيده وتناولها.

بعد صمت طويل قال: "سموك...".

ضحك سايروس، مقاطعًا إياه.

"كليرشوس، أنت رجل جيد. أعرف أنك تكره أن تقول ما ستقوله، ومع ذلك تطوعت لتكون الشخص الذي يسألني عن موضوع رواتب الرجال. قلت لك قبل ذلك إنني أرسلت مبعوثًا، أليس كذلك؟ وأوضحت لك سبب قطعنا لكل تلك المسافة. لديّ صديق في كيليكيا سيساعدنا".

قال كليرشوس، "هل تعرف الملك؟" تجشأ ووضع يده أمام فمه. رفع كأس النبيذ إلى الآلهة، وارتشف رشفة طويلة للتخلص من طعم الثوم. بينما فعل ذلك، لاحظ تعابير سايروس تتغير.

قال كليرشوس: "لسنا صديقين، عرفته عندما كنا صغيرين للغاية، لكننا اختلفنا، ولم تعد الأمور كما كانت بيننا منذ ذلك الحين".

"هل أخذها منك، أم أخذتها منه؟".

سفح سايروس بعض النبيذ على نفسه بعد سماعه السؤال حينما كان يرتشفه.

"هل يجب أن تكون... إسبارطيًا، أيها القائد؟ فظًا للغاية؟" استهجن كليرشوس.

"أجد أن مثل هذه الأشياء عادة ما تكون أبسط مما نجعلها".

"حسنًا، في هذه الحالة، نعم، أحبّ كلانا المرأةَ نفسَها. أحبتني، لكنها تزوجته! كيف يكون الأمر بتلك البساطة؟ إنها قصة غير عجيبة من عشق الشباب، أيها الإسبارطي! لقد اختارت الرجل الخطأ". تنهد الأمير وهو يتذكر، وغامت عيناه تحت أشعة الشمس المشرقة. "لا أزال افتقدها حتى الآن".

جلس كليرشوس منتصبًا على كرسيه، وارتشف مرة أخرى من نبيذه، وبالكاد لاحظ أن الخادم أعاد ملأه.

"يمكن لبعض الرجال أن يكونوا سفهاء، حتى عندما ينتصرون. ومع ذلك، فقد جلبت جيشًا إلى منطقته، وحسب اعتقادي، فهو جيش لا يمكنه مجاراته".

"بغض النظر عن الهدف الحقيقي، هل سيكون قتله هدفًا ثانويًا نجنيه في طريقنا؟".

نظر سايروس إلى القائد لفترة طويلة وفكر، فرك يديه ببعضهما، وهو يتحسس الجلد الخشن لراحة يده.

قال ببطء: "إن أمكنني إسقاطه عن حصانه ليلقى حتفه، فسأفعل. لكنها تحبه، وقد أنجبت منه ولدين، أعلم أنها تحبني، لكنها اختارته. لا يمكنك العودة في الزمن يا كليرشوس، أبدًا".

أجاب كليرشوس وهو يرفع كأس النبيذ: "إنهن النساء، إنهن مصدر للعجب لنا جميعًا".

رفعا كأسيهما وارتشفا منهما. شعر الرجلان بتأثير النبيذ حينها.

قال سايروس: "إنني أحبها، لطالما أحببتها" ثم تنهد. نحن على طرف كيليكيا، على الحدود تقريبًا. لقد أرسلت مبعوثًا ليخبرها بأنني هنا، وقد أجابتني. لا أعرف ما إذا كانت ستساعدني أيها القائد، لكن ليس لدي أحد سواه ألجأ إليه".

"هل ستأتي إليك؟ أم عليّ إحضار الأحصنة؟".

"ستأتي بعد ظهر الغد، هذا ما قاله المبعوث".

سأله كليرشوس:"هل ذكرت زوجها؟".

هزّ سايروس رأسه، ورفع القائد حاجبيه.

قال سايروس بيأس: "لا، لقد أحبت كلَينا، لكنها اختارته". وارتشف مرة أخرى من كأسه. اصطبغت أسنانه باللون القرمزي ولمعت عيناه.

فجأة نهض كليرشوس، وأخذ يحدق إلى الأمير بعمق.

"حسنًا، سنريها ما الذي خسرته بمحض إرادتها، سأعدّ عرضًا جيدًا للقوات لترى الشاب الجسور وقائد الحرب، صف لي زوجها، أهو مستبدٌّ وقاسٍ وعجوز قبيح قصير القامة؟".

أجابه سايروس وهو يحرك يده، "إنه مجرد رجل. لا أستطيع رؤية فضائله، لكن كما قلت لك، لقد اختارته".

أنهى كليرشوس الحديث قائلًا: "سموك دعني أتصرف، ولا تكثر من الشراب، وإلا لن تحسن قيادتنا في الغد، أستأذنك بالعودة إلى الجنود".

لوّح له سايروس، وانحنى نحو كرسيه، ورفع كأسه لتُعاد تعبئتها مرة أخرى، بالرغم من أنه أبقى عينَيه مغمَضتين.

ضحك كليرشوس، متسائلًا عما إذا كان مدمنًا على الشراب هكذا، وأدرك أنه لم يكن. اختفى القائد في الظلام، وبدأ الركض عندما فكر في كل ما يجب فعله.

عند الفجر، استيقظ سايروس وتقيأ كثيرًا من الحمض الأصفر. كانت هناك بحيرة في أرض الحدائق، فتوجه إليها وسبح فيها، ثم أكل البيض والجبن.

كان الوقت قد تأخر عندما تمكن من ارتداء ملابسه وامتطاء صهوة حصانه بمساعدة خدمه، فالشمس كانت قد ارتفعت في كبد السماء الزرقاء، وترافق ارتفاعُ الحرارة مع ارتفاع مقدار صداعه، فوجد الراحة بإغماض عينه اليسرى في الوقت الذي كان يقترب فيه من المخيم. وقف الحراس باحترام عندما أكملوا الطقوس، وبالرغم من أنهم علموا من هو، إلا أنه تناهت إلى مسمعه تمتمة فظة عن إفراطه في شرب النبيذ، لكن لم تكن لديه النية ولا القوة لمعاقبتهم.

عندما أصبح أكثر وعيًا بالضجيج من حوله، خمّن أن القائد الإسبارطي لم ينم على الإطلاق. كان كل فوج مشغولًا بالتنظيف والتلميع، ليكونوا أنيقين قدر الإمكان، وتساءل هل طلب موكبًا استعراضيًا؟ لم يتمكن من التذكر. لقد نسي بعضًا من تفاصيل الحديث الذي دار مع القائد كليرشوس بالأمس، ولكن عندما استعاد مقتطفات من الحديث شعر بالإحراج، وجحظت عيناه، لقد تحدث عن حبه للقائد الإسبارطي! فغطى سايروس وجهه بيده.

أتى صوت من بعيد: "يا صاحب السمو".

نظر سايروس إلى الأسفل لرؤية الشاب سيد الأحصنة، الأثيني. وعندما حدق إلى وجه زينوفون بدا له سليمًا ومسرورًا بشكل مثيرة للاشمئزاز. "سموك ترجل عن حصانك لبعض من الوقت، لنتمكن من تنظيف باساكاشير وضفرِ ذيله ورقبته، ليصبح جاهزًا للتفتيش".

سأله سايروس ببطء "التفتيش؟".

ومضت بذاكرته ومضات من حديث الأمس، فأخذ العرق يتصبب منه، وعندما استنشق الهواء ونظر إلى الشمس أدرك كم كان الوقت متأخرًا.

لقد مضى وقتٌ طويلٌ على استيقاظه، ولا يزال يعاني من الإعياء بسبب الشراب دون أن يتمكن من الإتيان بشيء سوى التعرق والأنين، عندما استعاد زمام نفسه، أمسك ذقنه، متحسسًا الشعر الخشن النابت. وخاطب زينوفون قائلًا: "إنني بحاجة إلى بارفيس". بعدها ترجل عن صهوة حصانه منزلقًا، وبدا مترنحًا، وغير قادر على التحكم بساقيه وقال:

"أريد أن أحلق ذقني، وأحتاج إلى ملابس جديدة، ابعث لي بارفيس بسرعة".

ركض زينوفون ممسكًا باللجام، مما اضطر الحصان إلى اللحاق به. حدّق سايروس إلى الشمس. وعقد العزم على ألا يثمل مرة أخرى، لقد أقسم على ذلك، فقد كانت عاقبة الثمالة وخيمةً.

أتى صوت بارفيس من بعيد: "ها أنذا، سموك".

أسرع الرجل الذي كان يحرس الحصن لتلبية طلب الأمير بسرعة.

رأى سايروس أن بارفيس يحمل كرسيًا قابلًا للطي، فجلس عليه بامتنان. تجمع الخدم من حوله حاملين الأوعية والقماش والزيت. بدأ بارفيس بشحذ الموسى قبل أن يمسك بها ويعرضها للهواء، لقد أصبحت حلاقة الذقن أحد طقوسهما المعتادة. أغمض سايروس عينيه.

صاح بارفيس: "ظلّلوا هنا! ظلّلوا فوق الأمير، واجلبوا ملابس جديدة، نريد بعض الخصوصية هنا، هل هذا سوق؟ أحضروا تلك الرايات وضعوها حول سموّه".

لقد شعر بالراحة لسماحه لبارفيس بتولي زمام الأمور، فتح سايروس عينيه عندما وُضعت الكأس في يده، وابتسم مرتاحًا عندما رأى أنها تحتوي حليبًا.

"شكرًا. من فضلك أريد المزيد يا بارفيس أحضر البقرة بأكملها لا مانع في شرب كل ما يجود به ضرعها".

في الوقت الذي أخذت فيه الشمس تسلك دربها ببطء إلى المغيب، كانت الأفواج تقف مستعدة في الساحة، في صفوف غاية في الانتظام. وقف كل رجل وقد باعد بين قدميه، في انتظار تفتيش الملكة. أتى رجال من الفوج الطبي ومعهم نقالة، لنقل أحد الرجال الذي أُغمي عليه وسقط أرضًا بسبب وقوفه لوقت طويل تحت لظى الشمس، وبما أن الجنود كانوا يسقطون أرضًا من دون أن يستخدموا أيديهم للتخفيف من قوة الصدمة، فقد كانت إصاباتهم خطرة، أما باقي الجنود غير المشاركين بالعرض، فنُقلوا بعيدًا لعدة أميال، إضافة إلى عبدتَي الأمير.

شعر سايروس بصبره ينفد، فأخذ يتنقل على صهوة حصانه باساكاشير منتظرًا ظهورها، لقد مرت سنوات ست على آخر مرة رأى فيها إيباكسا. لقد تغير وأصبح رجلًا وقائدًا مختلفًا كل الاختلاف عن ذلك الفتى الذي كان عليه، كان واثقًا بأنها ستختاره، لقد كانت ثقته بنفسه عالية. في تلك الأثناء كان معافى فقد زال الصداع.

قال بارفيس: "ها هي ذي! لقد أتت!".

نظر سايروس إلى الأعلى ليرى عربة يجرها حصانان أدهمان، ويركض حولها ثمانون جنديًا يرتدون الدروع، وكلتيات جلدية، فذكّر نفسه بأنها ملكةٌ وزوجةُ رجل آخر. أرخى قبضته عن سرج الحصان، منتظرًا وصول العربة، وتساءل عمّا إن كان ما ستراه سيغيّر من نظرتها إليه.

سُمعت أصوات الأبواق على طول الطريق، بالرغم من أنها كانت تبشر بالترحيب بدلًا من أصوات اندلاع المعركة. توجهت العربة نحو الأمير الجالس أمام الجميع على صهوة حصانه، قبل أن تلف في دائرة كبيرة، وتقف مواجهة للطريق الذي أتت منه.

مدت الملكة إيباكسا ملكة كيليكيا يدها خارجة من العربة. شعر سايروس بألم في صدره لا علاقة له بكمية النبيذ التي شربها في وقت سابق. كان شعرها الداكن مضفرًا كذيل قطة، وتمايل أسفل ظهرها وهي تترجل من العربة، بدت له كسابق عهدِه بها، وكأن السنوات الست الماضية لم تمر.

ترجل الأمير عن حصانه، وشاهد الملكة وهي تنزل على ركبتها، وبينما كان ينظر إلى أسفل عنقها، وجد نفسه يتساءل عما إذا كان اليونانيون يفهمون أهمية بادرتها. كانت هناك ثمان وعشرون أمة في الإمبراطورية، وكان ملوك تلك الأمم وملكاتها يركعون على ركبة لأفراد العائلة

الإمبراطورية. عندما فعل اليونانيون الأمر نفسه، بدلًا من السجود المناسب، كانوا يشاركون بطقوس ملكية بأنفسهم.

رمش سايروس، مدركًا أنه لم يعطِ لها الإذن بالنهوض، كان بإمكانه رؤية الاحمرار على رقبتها، ظنًا منها أنه غاضب.

"انهضي من فضلك، إيباكسا. يُدهشني كيف لم تؤثر السنوات عليك، يبدو الأمر وكأنني فارقتك بالأمس".

أمسك يدها وهو يحدثها، قبل أن يفلتها وهي تغير وقفتها، لأن حراسها لم يعتادوا مشاهدة أحد يمسك بيدها.

عندها خاطبت حراسها مبتسمة: "الأمير سايروس صديق قديم، أنا في أمان أيها الضابط راوش، لقد أوصلتني بأمان، يمكنك المغادرة، سأرسل لك مرسالًا عندما أكون مستعدة للمغادرة".

انحنى الضابط للملكة والأمير، قبل أن يصعد إلى العربة، وأمسك باللجام. في تلك الأثناء نظر سايروس إلى العربة وتكلم قبل أن يضرب الضابط الحوذي الحصانين بالسوط.

"سيدتي، لقد رتبت جولة تفقدية للجنود، إن أمرتِ الضابط الحوذي بمغادرة عربتك مع الباقين فسيشرفني أن أحل محله". أحنت الملكة رأسها، فأذعن الضابط ولم ينبس ببنت شفة، وغادر مع الباقين وهو يحدق إلى سايروس حانقًا. فتحت إيباكسا بابًا صغيرًا للوصول إلى المقعد المبطّن في الخلف، واتكأت عليه بدلًا من الجلوس. كانت الشمس دافئة جدًا والنسيم عليلًا.

ابتسم سايروس، وأمسك باللجام، وضرب بالسوط الحصانين، فتحركت العربة، فابتعد مرافقو الملكة كي لا تدوسهم سنابك الحصانين.

قال سايروس: "أعتذر، ما زلت جديدًا على هذا..."

اعتقدَت أنه قد فعل ذلك عمدًا. ضرب سايروس بالسوط مرة أخرى، فركض الحصانان. سمعت الأميرَ يشجعهما، أسرع وأسرع في أثناء تجوالهما، بعيدًا عن الجيش الذي جمعه لإبهارها. كانت السرعة التي انطلقت بها العربة مرعبة، ولكنها بعثت في نفسها البهجة في الوقت نفسه، فاستذكرت سايروس وصديقَه عندما كانا يتسابقان عند صفة النهر الكبير، تأكدَت من أنه لم يفقد لمسته المحترفة في التعامل مع الأحصنة، وكانت واثقة من مهارته وقوته. كانت إيباكسا تراقب توازنَ جذعه وتذكرت الطريقة التي تحركت بها عضلات ذراعيه عندما حملها. شعرت بالدموع تنهمر من عينيها، ولم تستطع معرفة ما إن كان ذلك بسبب ذكريات أيام الصبا، أم الحب الضائع، أم بفعل الغبار والهواء.

الفصل الرابع عشر



عندما كان في طريق العودة عبر الأرض الخالية، قاد سايروس العربة بسرعة كبيرة أمام الأفواج المنتظرة. وكان يتوقف بين الحين والآخر، لتتمكن الملكة الشابة من الترجلِ والتحدث إلى كبار ضباطه. بدا أن إيباكسا مستمتعة بوقتها بين الفرس واليونانيين على حدّ سواء. لاحظ سايروس أن كليرشوس قد أصبح يتصرف بطريقة أبوية بعض الشيء، لقد كان صدرُ الإسبارطي رحبًا، ليجيب عن أسئلة الملكة الشابة.

خجل القائد أورونتاس مثل الولد الصغير عندما أمسكت الملكة بيده. ربّتت إيباكسا على كتفيهما، وارتاحا عندما ابتسمت. وقف الأمير إلى جانبها، كما لو أنها كانت ملكته، وبدا مسرورًا باليوم الذي يبدو أنه أصبح جيدًا بعد بداية سيئة. لم يسعه سوى التفكير في ما قد تكون عليه حياته اليوم لو أن اختيارها وقع عليه.

وقفا طويلًا تحت الشمس دون مظلة. أُغمي على بعض الرجال لذا أُخذوا بشكل سري وأُخفوا بعيدًا عن الأنظار لاستعادة عافيتهم، عندما عاد سايروس والملكة إلى خيمة بارفيس لتناول العشاء شعرا بالإرهاق. سُمح للأفواج بالمغادرة، والتحرك إلى المخيم الذي يقع على بُعد ثلاثة أميال. هناك، أكلوا واستراحوا بعد قضاء يوم تحت الشمس. بالرغم من أن الجنود عانوا من الحر، إلا أنهم كانوا مسرورين لرؤيتهم مقدارَ الإعجاب الذي يكنّه الأمير للملكة الشابة.

انضم أورونتاس، وأريايوس، وكليرشوس إلى القادة الآخرين على طاولة طويلة صُنعت اليوم. جلس سايروس وإيباكسا عند مقدمة الطاولة بعيدَين عن الآخرين. انتبه كليرشوس إلى أن الأمير وضع يده اليمنى على القماش بين الأطعمة، ورفع راحة يده بلطف. لم يتمكن كليرشوس من معرفة ما إذا استجابت إيباكسا عمدًا، لكنها وضعت يدها اليسرى على الطاولة. ربما كانت تحاول الوصول إليه، ابتسم الإسبارطي في سره.

بدا جليًا أن الطعام لم يعجب أورونتاس، بالرغم من أن الأمير حرص على إعداد الأفضل لضيفته، لم يُعجب الفرس بالأطباق المتبلة بالزعفران، والهال، وبتلات الورد، وسائر الأعشاب غالية الثمن، فقرروا تناول اللحم العادي والخبز المقدم للأفواج.

لقد شارك القادة اليونانيون الآخرون الطاولةَ مع الأمير وضيفته. كان بروكسينوس حاضرًا، يحرس إبريق نبيذ وكأنه اعتبره ملكًا له، بالرغم من تنقل الخدم مثل الطيور الطنانة. ضحك نيتوس الستيمفاليني بشدة مع سوسيس، ومينون، ثم بدا مذهولًا عندما لاحظ أن الجميع ينظرون إليهم. تدفق النبيذ في حين بدأت أوجاع الشمس وحروقها تتلاشى، بالرغم من أن نصف الرجال هناك شعروا بأن حرارة الشمس لا تزال تنعكس على أجسادهم.

لم يكن كليرشوس الوحيد الذي لاحظ وضع الأيدي على تلك الطاولة، إذ أخذ سائر الضباط يتهامسون بما رأوا. لذا أكلوا بسرعة، ورفضوا تناول التحلية، وعندما أنهوا شرابهم ونظفوا سكاكينهم بمفرش الطاولة، انحنوا واحدًا تلو الآخر للملكة والأمير وانصرفوا.

لم يشرب الأمير النبيذ هذه الليلة، مدعيًا بأنه يعاني من ألم في معدته، وعندما غادر آخر القادة، دخل الموسيقيون وأخذوا يعزفون على القيثارة. فجأة وقف سايروس، ودنا أكثر من الملكة إيباكسا.

قال "حسنًا هذا أفضل، لا يسعني سماعك بسبب صوت الموسيقا، شكرًا لحضورك اليوم. لقد كان هذا يومًا مثاليًا، مثل الدرّة في وقت الشدة. لقد رأيت قادة جيشي، إنهم أفظاظ بعد الشيء، حالوا دون أن نتحدث كسابق عهدنا، أتتذكرين أحاديثنا؟".

أجابت: "بالطبع".

أمسك بيدها ووجدها ترتعش، فجأة أصبح الوضع حميميًا، وسمحت له بالتحدث عن أشياء أخرى، عن أمور أكثر أهمية.

"انتظرت طوال الليل، وعندها أيقنت بأنك لن تأتي، حاولت أن أقنع نفسي بأن الوقت لا يزال باكرًا وبأنك ستأتين، ولكن الوقت مرّ، وانبلج نور الصباح، وتمكنت من رؤية البساتين والتلال الخضراء خلفها".

قالت بهدوء: "كان يجب أن أرسل شخصًا إليك، أنا آسفة".

"لا، لقد كان خيارك. كان من الأفضل بالنسبة إليّ أن أغادر، وأن أتابع حياتي".

أجابته وهي تنحني نحوه: "أما زلت أعزب؟".

تجاهل كلماتها، رغم أنها طعنته كالسكين.

أجبر نفسه على الضحك.

"لم أعثر على امرأة أخرى... من تستطيع أن تحل مكانك في قلبي؟".

أجابت: "لا، لقد تساءلت كثيرًا...". شعر بترددها وهي تتكلم.

"ما الذي تساءلت عنه يا إيباكسا؟ لا تخشي شيئًا، لا أحد يسمعنا".

"لقد تساءلت كيف ستكون حياتي لو ذهبت ليلتها".

حرّكت يدها في راحة يده، بحركة تشبه الطائر الذي يبني عشه، إلا أنها لم تسحبها.

"سينيسيس رجل بارد. أنت لا تعرفه تمامًا، تمر أيام وأسابيع دون أن يقول لي كلمة. لو ذهبت إليك تلك الليلة، لكنت سأخسر ولديّ، لقد كنت محتارة ومُربكة، لولاه لكنت..." هزت رأسها، وأغمضت عينيها، فانهمرت دموعها، وسال الكحل من عينيها ملطِّخًا وجهها.

سحب يدها ببطء نحو شفتَيه وقبّلها، وشعر بقشعريرتها.

قال: "لم أكف عن التفكير فيك كل ليلة طيلة السنوات الست الماضية".

همست: "أرجوك، لا أريد التحدث، أيمكنك أن تصرف الخدم؟".

في الصباح، مشى كليرشوس ثلاثة أميال من المخيم إلى الخيمة ليجد سايروس وإيباكسا يستمتعان بوجبة فطور باكر. كان الطقس باردًا، وكانت قطرات الندى على وشك التبخر عندما وصل.

قال سايروس: "أيها القائد، أتمنى أن تنضم إلينا".

انحنى كليرشوس لهما، وحيّى الملكة بلطف في أثناء جلوسه، فقدمت له شرائح البطيخ، والتين، والجبن الطري. في مثل هذه الجلسة ما كان كليرشوس ليتحدث عن الخزائن الفارغة، أو أي شيء يدل على أنه يشتبه بحدوث شيء بينهما. أكل بصمت، وهو يرى الطريقة التي يتبادلان بها النظرات.

قالت إيباكسا: "إذا كنت ستأخذني إلى المنزل، سايروس، فستُرسل إليك العربات في وقت لاحق من هذا الصباح، كما... تناقشنا".

مد الأمير يده ولمس يدها، كما لو كان الأمر طبيعيًا. احمرّ خد إيباكسا لوجود الإسبارطي، بالرغم من أن كليرشوس كان مشغولًا بطبقه حينها.

نهض سايروس ومد يده باتجاهها. كانت عيناه مظلمتين بسبب كل المحادثات التي لم يسمعها كليرشوس في الليلة السابقة.

"هيا يا حبي. سوف أعيدك إلى زوجك وولدَيك".

تلألأت عيناها بالدموع وهي تنهض، شاهدهما كليرشوس وهما يتناقشان في موضوع، وأعرب عن أمله في أن تقبل الملكة بمدِّهما بما يحتاجون إليه من نقود. إنه يحب سايروس، لكن على القائد الدفع للجنود، وإلا عليه تسريحهم، قد يقبل المرتزقة بتأخير أجورهم شهرًا وشهرين، ولكن في النهاية سيغادرون، أضف إلى ذلك أن اليونانيين يعرفون قيمتهم، والفرس معتادون على قبض أجورهم في الوقت المحدد نهاية كل شهر.

كان سايروس مسؤولًا عنهم جميعًا. فكّر كليرشوس في ما يمكن فعله، بالرغم من أن الأمير بدا سعيدًا بما فيه الكفاية. فلم يسبق للإسبارطي أن رآه أكثر سعادة واسترخاء، وشعر بالإثارة عندما تذكر الفتاتين اللتين جلبهما سايروس إلى المخيم، وأبعدهما عندما أتت الملكة لقد كانت إحداهما، شديدة الشبه بها.

فكّر كليرشوس بزوجته وأبنائه. لم يتزوج عن حب، على الأقل في البداية، بالرغم من المودّة العظيمة التي يحملها لـكالاندري. يُطلب إلى جميع الإسبارطيين الحصول على أولاد قبل المضيّ في طريق المرتزقة. كان ذلك المنطق العام فحسب، بالنظر إلى مخاطر العمل. تنهد قليلًا، فقد عرف الحب مرة واحدة أو مرتين خلال الحملات، لم يعد الأمر مهمًا كما كان من قبل. ومع ذلك، كان بإمكانه أن يتذكر الشعور، لذلك حسد هذين الاثنين، بالرغم من مشاعر الحزن والخسارة المنعكسة في أعينهما.

عندما عاد سايروس، كانت برفقته بعض العربات وعربة الملكة نفسها. تسابق كليرشوس وبروكسينوس وأورونتاس لرؤية الصناديق.

أمسك الرجال الثلاثة النقود الذهبية والفضية بأيديهم بارتياح وأخذوا يضحكون، ما من شك في أن النقود كافية. لقد كان أورونتاس هو الوحيد الذي لا يعرف إلى أين هم متجهون، وبما أنه لم يكن أحمق، فقد كان يعرف أن هناك خطبًا ما أدى إلى حرمان الأمير من الاقتراض من شبكة المرابين.

لقد أتاحت لهم النقود شراء الطعام والدروع، والقيام بالإصلاحات، ولولاها ما كانوا ليستطيعوا المضي قُدمًا.

كانت النقود المعدنية المفتاح الرئيسي للحرب، الوقت المناسب لاستخدام القوة الهائلة التي نظمها الأمير.

بالنسبة إلى كليرشوس وبروكسينوس، كانت الصناديق الوسيلة التي تتيح لهما مساعدة الأمير ليعتلي العرش، سيتم دفع قسم كبير من هذه العملات على الطريق إلى التجار والمرابين، لتسديد مستحقات التجار، وأجور الجنود الذين يريدون إرسالها إلى أهاليهم. من شأن هذه العملات أن تُبقي إسبارطة آمنة وقوية، وستسمح لأثينا ببناء سفن، وكتابة المسرحيات والتماري في المجالس.

مهما يكن السبب نبيلًا، الذهب والفضة يشتريان كل شيء.

بعد يومين، عادت الأفواج للتحرك شرقًا، مبتعدةً عن كيليكيا. لقد بدا الأمير متجهمًا وهو يراقب رجاله يسيرون مرفوعي الرؤوس، فخورين بأنفسهم، لقد كان هناك بجسده، لكن تفكيره كان في مكان آخر، كان يفكر في المرأة التي أمضى ليلة في أحضانها، ولكن ليلة لم تخمد شوقه إليها، لقد كان مستعدًا -إن طلبت إليه- أن يذهب بجيشه، وينقذها، ويعدم زوجها، ويغيّر وجهته بالكامل، لكنها لم تطلب، ربما أحبت ولدَيها ومن خلالهما زوجها، كم هي عصية على الفهم مشاعر المرأة! وكم هي كثيرة دهاليز قلبها! لقد منحته ليلة، ولكنه لا يظن أنها ستكون الأخيرة.

همهم سايروس مخاطبًا نفسه: "سأعود إلى هنا، عندما أنجز مهمتي، وسأراكِ مجددًا".

قطع جيش الأمير في الأيام الثلاثة التالية ستين ميلًا. كانت مسيرتهم سهلة وبقيت المهمة واضحة، لكن كليرشوس أصرّ على ملء كل برميل ماء وقارورة كلما بلغوا نهرًا. عنى هذا التوقفَ لفترة ما بعد الظهيرة بأكملها كلما وصلوا إلى جسر فوق مياه جارية، لكن حرارة الصيف كانت مرتفعة وشرب الجنود عند تعرقهم. اشترى سايروس الملح في كل سوق أو مدينة. فقد رأى أن الرجال ما عادوا يتعرقون، وأدرك الجنود المخضرمون أنهم سيصبحون شيئًا فشيئًا ضعفاء، وسيصابون بالدوار، ولن يستطيعوا الاستمرار.

لقد بعثت صناديق النقود التي أعطتهم إياها إيباكسا الراحة في نفوس كبار الضباط، لم يفكّر سايروس، ماذا سيكون رأي زوجها عندما يعلم بأخذها من خزائنه وإعطائها لحبيبها السابق، لكنه كما عاهد نفسه فهو سيَفي بكل ديونه بعد أن ينازل شقيقه، فالأولوية هي للانتقام، الذي يمهد الطريق لتحقيق العدالة.

عندما كان سايروس يمتطي صهوة حصانه، ويسير إلى جانبه كليرشوس وبروكسينوس، أو أورونتاس وأريايوس اللذان يشعران بشرف مرافقته، كان يحني رأسه، وتأخذه الذكريات كلما شم عبق الياسمين متذكرًا إيباكسا. فقبلَ توقفه في كليكيا كان حلمًا بعيد المنال، لكن بعد ذلك التوقف وتركِها هناك، أُضرمت في صدره أشواق الماضي بشكل أكثر حدّة.

في بيرسيبوليس، استحم تيسافيرنيس ودلّكه العبيد الإمبراطوريون قبل شروق الشمس. كانت الغرفة مضاءة بمصابيح، فقد تمتع بمزايا الحضارة التي يفتقر إليها الكثير من الناس. بحلول الوقت الذي نهض فيه وركب حصانه إلى بوابة الهضبة، شعر بالانتعاش. أشرقت الشمس على الجانب الآخر من الأسوار، وهذا ما تركه بفيئها، في حين كان العالم وراء الأسوار مضاءً كالذهب. امتطى تيسافيرنيس حصانه إلى القمة، وتذكر عند صعودها مع ثلاثمئة إسبارطي وأمير شاب إلى جانبه، عندما كان داريوس على فراش الموت. داعبه نسيم الفجر، وابتسم على تغير الأحوال، فقد أصبح اليد اليمنى للملك العظيم، حتى إن الأمير سايروس شعر بسلطته الجديدة.

فتح الجنود البوابة وانحنوا له، فأعرب تيسافيرنيس عن تقديره لهذه اللفتة، بالرغم من أن مرتبته الرسمية لم تكن مؤكَّدة، إلا أن خدمه وعبيده خاطبوه بلقب "الزعيم تيسافيرنيس". بالطبع، بإمكان الرجل اختيار أي اسم يناسبه في منزله.

عرف تيسافيرنيس جيدًا أنه كان مجرد عضو موثوق به، مجرد صديق، وأثار انعدام اللقب الرسمي غضبه مثل شوكة تخزه تحت إبطه، وكان يأمل أن يضع أرتحشتا الأمور في نصابها الصحيح عندما يقدم تقريره. لقد سافر لمدة ستة أشهر من أجل إعداد تقرير، ومثل هذا التقرير يستحق بالتأكيد مكافأة.

كانت الحدائق مثالية كما كانت على الدوام، وكان العبيد يجمعون كل أوراق الشجر المتساقطة ويشذبون كل شجيرة ليكون شكلها مثاليًا، وتبدو كما لو أن يد الإنسان لم تتدخل في تنسيقها.

ارتدى تيسافيرنيس رداءً فضفاضًا من الحرير وانتعل صندلًا. تبع وكيل الملك عبر الممرات المظلّلة، لم يسعه تخيل وجود شيء أفضل من البلاط الفارسي. لقد نظر الرجال العاديون إلى العائلة المالكة على أنهم آلهة، وهذا ما أسعده، فهو صديق الآلهة.

شاهد تيسافيرنيس الملك أرتحشتا واقفًا في الحقل يحمل سهمًا أسود بين يديه. مرصعًا بالذهب، بدا شيئًا مميتًا. حدّق تيسافيرنيس إليه وهو يقترب.

سجد تيسافيرنيس ورفع يديه نحو رأسه مُبديًا الطاعة.

أمكن لأرتحشتا أن يوقفه في أثناء تلك العملية، لكن الملك اكتفى بالتحديق نحو الأسفل حتى انتهى ذلك. لقد ترقى الابن بعد وفاة والده، ويجب أن تُقدم له فروض الطاعة التي كانت تُقدم لوالده، بالرغم من أن أرتحشتا ظل يدّعي أن فروض الطاعة هذه لا تعنيه شخصيًا بل تُؤدى إكرامًا للعرش واحترامًا له.

عندما انحنى تيسافيرنيس نحو قدميه مرة أخرى، وضع الملك سهمه على الوتر، ونظر إلى ست شابات كنّ يقفن في الحقل، يحملن دروعًا إسبارطية فوق رؤوسهن. رأى تيسافيرنيس أن الشابات جميلات، يرتدين سترات تكشف أرجلهن حتى الفخذ. أشاح بنظره عنهن، لكن الملك كان شابًا ولم يتعب بعد من ذلك النوع من المطاردة. كانت هناك حكايات حول فتيات جُلبن إليه من جميع أنحاء الإمبراطورية، اختُرن فقط لجمالهن. احتفظ ببعضهن لنفسه في حين تم تسليم الأخريات إلى حراسه مكافأةً لهم.

لقد اعتقد تيسافيرنيس أن تكليف بعضهن بمهمة حمل الدروع في أثناء رماية الملك لم يكن بالضرورة عقابًا، بل إشارة على عدم رضى الملك عليهن. تنهد تيسافيرنيس. لقد كان سيده قاسيًا على النساء، لكنه كان سيتغير في الوقت المناسب، كما يفعل كل الرجال.

قال الملك بجانب كتفه: "راقب هذا يا تيسافيرنيس".

سحب السهم، وأطلقه بسلاسة مصيبًا الدرع الأبعد. لقد اصطدم بالدرع الذي حملته إحدى الفتيات مما أدى لتعثرها وسقوطها أرضًا. سخر الملك شاعرًا بالرضى. رفع يده دون أن ينظر وأصاب هدفًا آخر. لم يقل شيئًا عندما أطلق الأسهم الثلاثة التالية التي أصابت جميعها الأهداف. لم تسقط أية فتاة أخرى، رغم أنهن تعثّرن إثر تلقيهن ضربات الأسهم.

"هذا القوس متميز يا صاحب الجلالة. لقد تحسنت مهاراتك. حقًا أنت سيد السلاح". لقد علم تيسافيرنيس أن تلك كانت مجاملة واضحة، لكن أرتحشتا كان يتمرن بشكل يومي، وكان أداؤه يستحق الثناء. اعتقد معظم الرجال أنه لا يزال أقل قوة من أخيه.

لم يكن الآخرون يعلمون الجهد الذي يبذله ليصبح أكثر قوة.

بعض الرجال يُولدون أكثر جرأة وأكثر سرعة ومرونة، فينظر إليهم الآخرون متحسرين على قوتهم، ولكن القوة يمكن أن تُكتسب من خلال التمرين، صحيح أن دربها طويل وبطيء ولكن في النهاية يبلغ المجتهد الهدف الذي يسعى إليه، وها هو ذا أرتحشتا مثال الرجل الذي يواظب على التمرين، فكل من يواظب على التمرين بانضباط سيصبح جسده أكثر صلابة وعضلاته أكثر بروزًا، وسيتمتع بلياقة عالية. لم يكتفِ أرتحشتا بتدريب جسده بل أحضر أبرز المحاربين بالسيوف ليتدرب معهم. لقد وُلد سايروس محاربًا بالفطرة ولكن كما يبدو لتيسافيرنيس يبدو أن التدريب جعل من أرتحشتا ندًا لأخيه.

الرجل الذي كان عالمًا أصبح نمرًا يرتدي ثوب ملك.

بعد العشرات من الضربات، حكّ الملك أحد ساعديه بالآخر، وشعر بعضلاته تتحرك، وسلم القوس لعبد وواجه تيسافيرنيس.

سار الملك وهو يتحدث: "حسنًا، يا تيسافيرنيس. أسمعني كيف يلعق أخي العزيز جروحه في الغرب".

وجب على تيسافيرنيس الاستعجال في السير للبقاء إلى جانبه. تركا العبيدَ وراءهما، وسارا عبر الحقل الأخضر، حتى وصلا إلى حافة جرف. لوّح أرتحشتا بيده لحاملات الدروع كي ينسحبن، فأخفضن رؤوسهن نحو الأرض كي لا يُزعجن الملك. لم يستطع تيسافيرنيس مقاومة النظر إلى واحدة أو اثنتين منهن في أثناء مرورهن، واضعاتٍ الدروع الذهبية على أكتافهن، ولمعت سيقانهن السمراء تحت أشعة الشمس. إنه في الثانية والستين، وليس في الثمانين، ولا تزال السيقان تعني له الكثير.

مشى أرتحشتا إلى الجرف، ومدّ قدمه اليمنى واضعًا نصفها في الفراغ.

حلّقت الطيور بكسل في دوائر أسفل الجرف، وكان تيسافيرنيس والملك يقفان أعلى منها. امتدت العاصمة تحت قدمي أرتحشتا، وبدت من هذا الارتفاع بمثابة متاهة من الطرق والحدائق الخضراء. ارتفع الدخان الناتج عن نيران الطهو والأفران في تيارات رقيقة، مما شكّل ضبابًا.

وجد تيسافيرنيس نفسه خائفًا ومذهولًا من عظمة المكان. كانت طريق السقوط طويلة، على نحو لم يتمكن فيه العقل من حساب المسافة بشكل صحيح. علم جزء منه خطرَ الوقوف على هذا الارتفاع مما جعل معدته تنقبض خوفًا.

"صاحب الجلالة، لقد قابلت الأمير سايروس عند الحدود الغربية للإمبراطورية، لا يزال يحتفظ ببعض اليونانيين وغيرهم من المرتزقة. مكثتُ اثني عشر يومًا في ساردیس، وأُتيحت لي فرص عديدة لمراقبته ومراقبة المحيطين به".

"ما هو تقييمك يا تيسافيرنيس؟ لقد أرسلتك لأنك أعلم من الجميع. أما زال مخلصًا؟".

تنفس تيسافيرنيس بعمق. لقد طالع ملاحظاته وتقاريره مرات عديدة في طريق العودة، وفي كل مرحلة من مراحل رحلة عودته، كان يفكر في إجابة مختلفة عن هذا السؤال، فعدد الأشهر التي استغرقتها رحلته كان يعني احتمال تغير أمور كثيرة، ولكنه يمكنه الحكم من خلال ما رآه.

أجاب تيسافيرنيس: "يا صاحب الجلالة، لم يعد مخلصًا".

استدار أرتحششتا ونظر إليه، ما إن رأى تيسافيرنيس نظرة أرتحششتا الشبيهة بنظرة صقر، حتى تذكر والده.

"أمتأكد مما تقوله يا تيسافيرنيس؟ فنشوب الحرب متوقف على ما تقوله".

تابع تيسافيرنيس حديثه: "يا صاحب الجلالة، لقد تحدثت إلى ثلاثة جواسيس في ساردیس، وأجمعوا على أن الأمير جمع جيشًا جرارًا، ولكن الغريب في الأمر قولهم إن هذا الجيش يراد منه محاربة قبائل الجبال، وسحقُ بعض المتمردين".

"وأنت تظن أنه انقلب عليّ، على دولته؟".

أحنى تيسافيرنيس رأسه ببطء: "لديه عشرات القادة اليونانيين، إضافة إلى الكثير من الضباط الفرس، واليونانيون هم مفتاح فوزه بأي حرب، هذا ما أراه، جلالتك. عدد الفرس كبير في الصفوف الأمامية، لكنّ اليونانيين منتشرون في جميع أنحاء الغرب. لديّ تقارير من كريت، وأثينا، وليديا وقبرص. إنهم يتدربون هناك، لكنهم يتبعون أخاك الذي يدفع لهم ذهبًا من خزائن العائلة الإخمينية".

سأله أرتحششتا "كم عددهم؟".

بحسب ما رأى تيسافيرنيس، بدا أرتحششتا سعيدًا ولم تُقلقه الأخبار التي نقلها إليه.

"لا يمكن لأحد التأكد يا سيدي. تحدثت إلى رجل فقال إنهم ثلاثون ألف يوناني، وقال آخر إنهم ثمانية آلاف فقط. وهذا ما يدعوني للشك. إذا تولى شقيقك قيادة القوات، فلماذا يبقيها في مدن متفرقة؟".

"ما تفسيرك لذلك يا تيسافيرنيس؟".

"أعتقد أنه يحشد جيشًا ليقوده إلى هنا، ويستولي على العرش والإمبراطورية".

عندما سمع أرتحشثتا ما قاله تيسافيرنيس أرجع رأسه إلى الخلف وقهقه، ومسح عينيه، وقال: "أتمنى، أتمنى لو كان بإمكان والدي سماعك. لقد توقع حصول هذا، هل سبق لي أن أخبرتك؟ سوف أستمتع بإخبار والدتي عن الخطر الذي يحدق بنا جميعًا، بسبب حنانها وعطفها، ما كان يجدر بها طلب العفو عنه".

ما إن قال ذلك حتى غابت عن وجهه معالم الهدوء، وحلت محلها القسوة.

"أحسنت يا تيسافيرنيس. أشكر صنيعك، لقد أثبتّ لي أنك جدير بثقتي، لك مني كل الشكر والتقدير، ربما تكون بصنيعك هذا منقذًا لحياتي، ومنذ هذه اللحظة أمنحك لقب "بير" أيها الرجل الحكيم، وسيخاطبك جميع من في البلاط بسيدي تيسافيرنيس، وسيدوّن وكيلي ذلك في السجلات ويعطيك نسخة عنها.

ما كان بتيسافيرنيس إلا أن ألقى بنفسه على البساط، وأخذت عيناه تدمعان بفعل ذرات من الغبار دخلتهما، ولم تكن هذه الدموع سيئة في مثل هذا المقام.

"يا صاحب الجلالة، لقد غمرتني بعظيم كرمك، وهذا شرف لا يدانيه شرف".

"أبدًا يا تيسافيرنيس، ألا يجب عليّ أن أكافئ الأخبار السارة؟".

"الأخبار السارة يا سيدي؟".

"بالطبع! سأقود الجيش الإمبراطوري إلى الميدان، مثل الملوك القدامى. وسترافقني يا تيسافيرنيس، لطالما كنت خطيبًا مفوّهًا، وأمضيت أوقاتًا طويلة في الجيش، وسأكون مسرورًا برؤيتك تستعيد ذكريات سنوات شبابك الذهبية".

لم يستطع تيسافيرنيس إلا أن يُظهر سعادته لِمَا سمعه، بالرغم من أن التفكير في تمضية أشهر على صهوة الحصان، ولّد لديه رغبة في البكاء.

حدّق الملك حالمًا إلى العاصمة في الأسفل.

"إن كانت لأخي رغبة في خوض نزال معي، فسأفاجئه". رفع أرتحشثتا قبضته صوب الشمس بعدما أحكم إغلاقها كمن يؤدي قسمًا. "ولا أشك في أن والدي سيراقبنا يومها، وعندما يتواجه أميران، سينتصر أحدهما، وسيصبح الآخر طعامًا للقطط والغربان، هذا هو ديدن الأمور".

الفصل الخامس عشر



أوقف سايروس الرجال في ثابساكوس، بعد قيادتهم بنشاط طيلة أيام. كانت المدينة غنية وقديمة على حدّ سواء، وتاق للاستحمام وخصوصية الثروة والسلطة. لاح في الأفق قوس أبيض كبير ونهر الفرات بالقرب من الأسوار. بُنيت ثابساكوس حول حوض كبير من ذلك النهر القديم، نشأت لتكون مكانًا ترتوي منه الحيوانات ولتبادل السلع التجارية فقط. على مدى الأجيال، نمت المدينة لتصبح محورًا من أكبر المحاور في المنطقة. تنافس بائعو التوابل والعبيد على فسحة، وكانت هناك ثروة كافية لبناء الشوارع والحدائق وقصر الحاكم. كانت آخر محطة في الغرب، وكانت مظهر الحضارة الأخير قبل أن يلهث من حرارة الصحارى والجبال وراءها.

دخل سايروس المدينة، بعدد كبير من الرجال، فباع التجار في السوق الأخبار، وكذلك الزعفران، والسكر، والعاج، والحديد. خلال ساعة، علم سايروس أن تيسافيرنيس وصل إلى سوسا منذ شهر. استراح ليوم واحد فقط قبل أن يتابع مسيره.

بحلول وقت مبكر من المساء، امتلأ كل إسطبل في المدينة بالرجال، كل طابق أرضي ومستودع، وكل منزل. تجهز سايروس في الحديقة الملكية معهم، مما سمح لأفواجه بالراحة في الحدائق التي صممها جده. كانوا لا يزالون كثيرين.

خارج الأسوار، وُضعت العربات في حلقات، تجمعت داخلها ورشات الحدادين، وعربات الطعام، ومحلات الطهو، والخيم والمراحيض. لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى المأوى في أشهر الصيف. بالرغم من أن الرياح حملت معها الغبار، نام معظم أفراد الجيش تحت النجوم، مزوَّدين ببطانيات رقيقة أو عباءات.

بينما امتدت الشمس بلونها الأحمر والأرجواني عبر الأفق، أتى كبار قادة الأمير سايروس إليه في القصر الملكي الصغير، وبدا عليهم الذهول مما رأت أعينهم، فقد وضع الزيت في أوعية

ذهبية، وخرجت من فجواتها فتائل الشموع الطويلة، كان مقدار النور بحد ذاته تعبيرًا عن الثروة والقوة، مما أضفى على الأمسية جوًا، وكأنها حفل خاص أو اجتماع لطقس سري.

في قاعة الولائم، جلس سايروس ولم يولِ نظره لكل القادمين، بدا أنه مجتمع مع كليرشوس ومنهمك بالحديث معه، إلا أنه في الحقيقة، كان يراقب جميع الوافدين ويحكم عليهم، لقد كانت هذه القاعة أحد الأماكن القليلة في ثابساكوس حيث أمكنه مخاطبة جميع قادته. فالمسارح لم تكن موجودة في المدن الفارسية، بالرغم من أنه يفكر في تشييدها ما إن ينهي حربه مع أخيه، فإن بنى والده جبلًا، فلا شك في أن ولده يستطيع إعادة هيكلة هذه الإمبراطورية.

لقد أتاحت له الأيام الستون التي أمضاها على الطريق حفظ الضباط من ذوي الرتب المتوسطة والدنيا. أصبح هذان الشهران حلمًا مريحًا عندما نظر إلى الخلف، فهو لم يعد مستعجلًا، وخفّت المشتتات، وكثرت الأمور الممتعة. فمنذ أن بدأ المسير شرقًا لم يعد بإمكانه إضافة المزيد من الجنود إلى جيشه، لأن الأفواج التي يمكن تكوينها سيجب عليها المسير بسرعة للّحاق بالأفواج التي انطلقت قبلها وليس من المنطقي جعلُها تبطئ لانتظار المتأخرين، فالجيش عندما يتقدم يصبح مثل السهم الذي انطلق من القوس، استعادته غير ممكنة قبل أن يبلغ هدفه.

وكما وعد كليرشوس كانت التدريبات تجري في الأمسيات أو عندما تتوقف الأفواج لترتاح، وبعد شهرين من المسير لاحظ اللحمة التي جمعت الضباط بعضهم ببعض، وبينهم وبين الجنود أيضًا، وأصبح على بيّنة من أمره بشأن الضباط الذين يفضل تقريبهم منه، والذين يُفضل إبعادهم عنه. فبالنسبة إليه كان مرحَّبًا ببروكسينوس ونيتوس دائمًا بصفتهما قائدَين وصديقين، وشعر بحميمية العلاقة التي تجمعه بهما، فقد جمعته بهما ثقافة ولغة لم تكونا متوفرتَين مع الضباط اليونانيين، أما أورونتاس وأريايوس فكانا يمثلان له عالمه السابق الذي يسعى لتغيره، لذا لم يشعر بالراحة عندما دخلا عليه، لكنه مع ذلك لم يبخل عليهما بابتسامة.

يظن بعض الرجال أن الولاء يكون عفويًا ولا يمكن اصطناعه، لكن كانت لدى كليرشوس نظرية أكثر تعقيدًا اعتقد سايروس بصحتها.

بغض النظر عن شعور القائد الحقيقي تجاه رجاله، فقد استغرق الأمر بعض الوقت لمنحهم بعض الذكريات القيّمة التي سوف تدوم طيلة حياتهم. ثم لقد كان الأمير يحظى بتمجيد قادته، لدرجة أن كلمة واحدة منه يمكن أن تخترق قلوبهم كما يخترق السيف الأضلاع، وعندها كانوا مستعدين لتقديم أرواحهم عند محراب أوامره، إذا سارت الأمور بشكل جيد. كانت تلك نصيحة الإسبارطي ولم يكن لسايروس أن ينسب لنفسه شرف المحاولة.

أجبر الأمير نفسه على الإيماء إلى أورونتاس وأريايوس، راقبهما وهما يركعان كتوأم متطابق كلٌّ على إحدى ركبتيه، نظر إليهما اليونانيون بفضول. أشاد بعضهم بأريايوس عندما أطلق سراحه، وتناول كأسًا كبيرًا من النبيذ وحيّى أولئك الذين عرفهم وأحبوه. لم يحتس أورونتاس سوى عصير الفاكهة. منذ البداية، لم يرَ سايروس إلا الطاعة من ذلك الرجل بالذات، فلم يكن هناك طوق جديد من الحديد بإمكانه رؤيته في أورونتاس، ولم يكن هناك اكتشاف للأخوة. إلى جانب أريايوس، كان هناك عشرات الضباط الفرس الذين نظروا إلى سايروس كما لو أن الشمس أعمت أبصارهم.

تنهد، ومع ذلك كان معظم كبار رجاله متبلدي الأحاسيس. إذا كسر أورونتاس عنقه وهو يسقط من أعلى سور المدينة في تلك الليلة، علم سايروس أنه سيتحمل الخسارة بكرامة كبيرة. لسوء الحظ، لم يشرب الرجل الخمر.

كان أورونتاس نموذجًا للرجل الفارسي المعتدل. بعد الوجبة، ربما قضى المساء في الصلاة في معبد أهورا مازدا. هزّ سايروس رأسه وهو يحتسي النبيذ من كأسه، يولد بعض الرجال من دون أن يكون لديهم شعور بالفخر، تلك هي الحقيقة. كان أورونتاس مقتدرًا ورصينًا، ولكن لم يكن هناك خيط ذهبي، ولا بئر عميقة. أو إذا كان هناك شيء، فقد اختار عدم مشاركته مع أميره.

دخل مينون الساليني، وهو ينظر برهبة إلى السقف المقبّب، وكان يرافقه سوسيس سيراكيوز. ابتسم سايروس لهما أيضًا، رغم أن ذلك كان جزئيًا بسبب تذكره شابًا إسبارطيًا واجه صعوبة في نطق حرف الـ "س"، أعاره كليرشوس إلى سوسيس بوصفه مساعدًا ليوم واحد، وأجبره على الإعلان عن الضابط الكبير أينما ذهب القائد سيراكيوز. انهالت دموع سوسيس من الضحك، ممسكًا بالشاب الإسبارطي في حين أصبح الرجل أكثر برودة وأقل استمتاعًا.

مع دخول كل رجل كان يرشد إلى مكانه، بقي بعضهم واقفًا، يتحدث مع مجموعة من الأصدقاء.

جلس آخرون في مقاعدهم على الفور ووضعوا سكين الأكل بجانب المقاعد المخصصة لهم. رأى سايروس أحد اليونانيين يحدق إلى نصل له شكل غريب بتعابير فضولية، ثم اختبر حافته بإبهامه. استمتع الأمير بذلك، إن إعجابه باليونانيين يزداد يومًا بعد يوم، فهم يفضّلون المسرحيات على الشعر، والانضباط على الطاعة، والكلمات على الموسيقا.

لقد تعلم كل ما بوسعه تعلمه منهم على مر السنوات، إضافة إلى أن علاقته بهم أصبحت أوثق بعد أن سار معهم طيلة الأشهر الماضية. لقد أدرك سايروس بما لا يدع مجالًا للشك أن العيش مع الجنود يعطي منظورًا جديدًا. بحلول ذلك الوقت كان قد أدرك أن انتصارهم في الحرب مرتبط بكبريائهم وبيقينهم أنهم الأفضل في العالم، وأنه ما من ند لليونان في مجالَي الحرب والفنون. وجد سايروس نفسه يجفل عندما استذكر أمسية الموسيقا الفارسية التي قدمها لقادته، إذ لم يستطيعوا كبحَ ضحكاتهم بالرغم من كل ما بذلوه من جهد.

رجّح سايروس أن أورونتاس هو الأقل عدوانية من بين جميع القادة، لكن الرجل استشاط غضبًا بسبب تعليقاتهم. وجب ثنيه عن تحدي بيروكسينوس في مبارزة للدفاع عن شرفه، بالرغم من أنه يمكن لليونانيين سحقه تمامًا.

في قرارة نفسه، كان سايروس يعلم أن كل اليونانيين برابرة، ولكنهم كانوا يقاتلون مثل شياطين أيهرمان، ولم يكن بالإمكان التصدي لهم، وهو يعلم أن هذا هو مفتاح نجاحهم، فكيفما كانت رياح المعركة، فهم لن يهربوا حتى وإن رأوا الموت يحدق إليهم.

بخلاف الفرس الذين سبق له أن رأى أنهم يفرون من المعركة عندما تبدو الهزيمة أكيدة، أو عندما يُقتل القائد. من الراسخ في الثقافة الإمبراطورية الولاء للقائد والثقة بالنصر، ولكن عندما تسوء الأمور لا يبقى شيء من هذه الثقافة، فعندما يُسحق الجيش، لن تقوم له قيامة، فالهزيمة هي النهاية.

همهم سايروس بالدعاء لأهورا مازدا، وهو يتقدم ثملًا نحو مقدمة الطاولة، عندها أتى الضباط ووقفوا إلى جانبه.

نظر الأمير إلى مؤخرة القاعة، ورأى كيف رتب القادة أنفسهم.

هزّ رأسه، غضب فجأة عندما رآهم جميعًا.

بدأ سايروس الكلام باليونانية، ثم كرر ما قاله بالفارسية. كانت دروس اللغة أيضًا جزءًا من مسيرتهم الطويلة. وكان تعلم اللغة أبطأ مما يتوقع.

"أيها السادة، أترون أن نصف الضباط هم من الفرس والنصف الآخر من اليونانيين؟ نحن لسنا أعداءً. لقد رأيتكم تأكلون وتتدربون معًا طيلة أشهر. أرجوكم انهضوا، مرة أخرى. وليبحث الفارسي عن اليوناني قبالته وليتبادلا الأماكن". ساد الضحك بين الرجال وهم يفعلون ذلك. لم يحصل على النتيجة المرجوّة تمامًا، فقد انتهى المطاف بالكثير من الناس على الطرف النقيض مرة أخرى، لكنه لطّف الأجواء وكان سعيدًا بذلك.

قال: "شكرًا لكم". وأعطى الإشارة فتوجه جميع الجنود نحو الخارج، وبقي الرجال جالسين يسكبون الخمر من الأباريق على الطاولة.

قال: "عندما أراكم تجلسون كالأصدقاء، فهذا يعطيني الأمل في شعبنا وفي المستقبل. نحن نستخدم عملات معدنية مختلفة، ولكن يقدّر جميع الرجال الذهب والفضة. المعدن هو ما يهم أكثر. قد يتحدث أولئك الموجودون على هذه الطاولة بلغات مختلفة، لكننا جميعًا محاربون وجنود. نحن نتفهم الظلم. نحن نتفهم العار".

اختفت الابتسامات مع ارتفاع صوته، وشخصت الأعين إليه. تحدث سايروس بهدوء، ولكن لم يكن هناك صوت آخر في تلك القاعة، وقد كرر ما قاله باللغتين.

نظر سايروس إلى كليرشوس ورأى الإسبارطي يشرب من كأسه، رشفة صغيرة فقط. كانت هذه هي اللحظة التي خططا لها وأعداها. بالرغم من أن سايروس شعر أن قلبه ينبض كالطائر، إلا أنه وافق على أنه لا يمكن أن ينتظر حتى يرى الجيش الإمبراطوري في الميدان. وجب عليه أن يثق في رجاله ويُطلعهم على هدفه النهائي، فقد كان لا بد من معرفة مَن يوافقه الهدف قبل بلوغ ساحة المعركة حتى لا تكون النتائج وخيمة عندها.

"أيها السادة، لقد امتطيت حصاني ورافقتكم طيلة الطريق من ساردیس، سرنا معًا في أراضي بابل، وعبرتم الفرات العظيم، شريان حياة الإمبراطورية. إن وجودكم معي يجعلني أشعر

بالفخر، ولكن هذه الليلة قد تكون نهاية الحملة بالنسبة إلى بعضكم".

تنفس بعمق، فقد بدا أن أبسط الإجراءات أصبحت شيئًا يتطلب التفكير والسيطرة والوعي. نهض سايروس ببطء ووقف، وانحنى وهو يحدق إليهم.

"في الحقيقة، إني لا أسعى وراء محاربة قبائل الجبال البيسيدية، لم يكن بوسعي الإفصاح عن حقيقة مخططاتي في سارديس حينما كانت الآذان تسترق السمع لكل كلماتي، وأتمنى أن تصفحوا عن خديعتي تلك التي لا مبرر لها إلا ضروريات السرية. في الحقيقة، حتى الليلة، أظن أن هناك جواسيس يسترقون السمع، ومع ذلك أجد نفسي ملزمًا أخلاقيًا بإخباركم عن حقيقة مخططاتي".

توقف لبرهة، وارتشف رشفة من النبيذ، وحدق إلى كليرشوس الجالس إلى الطاولة أمامه، ينظر إلى الأمير وهو يبحث عن الكلمات الصحيحة ليتابع حديثه إلى ضباطه.

"في الحقيقة، لم يكن والدي الراحل الملك داريوس الابنَ البكر، ولم يكن وليًا لعهد جدي، ولكن عندما انقلب أخوه الأوسط على أخيه البكر، أدرك أنه لا يصلح لتولي العرش. أيها السادة لم يعتلِ والدي العرش، إلا بعد أن لطخ يده بدم أخيه الأوسط".

انحنى سايروس أكثر، ورأى الضباط يحبسون أنفاسهم، لقد بدوا جامدين كما لو أنهم شخصيات رُسمت في لوحة، وهذا ما حمله على الابتسام.

"أيها السادة، أعلن أمامكم أن أخي أرتحشتا لا يصلح للحكم، لقد جمعتكم ودرّبتكم وسرت بكم إلى هنا، لا لتكون هذه نهاية رحلتنا بل بدايتها".

نظر الضباط الفرس إلى بعضهم وأخذوا يتمتمون، وحاول الضباط اليونانيون التظاهر بالدهشة، ولكن محاولتهم تلك بدت مكشوفة، وتساءل سايروس عما إن كان أحد من الضباط الآن لا يعرف حقيقة الهدف من زحفهم إلى الشرق.

قال سايروس: "أنا القائد العام لجيوش الفرس، ابن داريوس وسليل العائلة الإخمينية الإمبراطورية، أنا وريث العرش، إذا مرض أخي الليلة ومات، فسأكون الملك في الغد. افهموا ما أقوله بدقة، أنا لست خائنًا أو ثائرًا أو متمردًا، أنا الملك المنتظر، لقد رأيت أن أخي لا يصلح للعرش، وسأفعل ما فعله أبي مع أخيه، سأُنازل أخي في الميدان".

هز كليرشوس برأسه وتنحنح، كما فعل كثير من القادة اليونانيين الآخرين الذين ضربوا قبضاتهم على الطاولة، وكانت تلك طريقتهم في إعلان تأييدهم ودعمهم له، ونظروا إلى الجالسين بجوارهم. رأى سايروس القائد أرياپوس يفعل الشيء نفسه، ضربوا قبضاتهم مجددًا، وهم يشاهدون الأمير يعيد ملء كأسه. بطريقة ما، لم يكن هذا مفاجئًا. اعتقد أنه سيكون من الصعب مقاومة رأي الأغلبية في تلك القاعة، وصلى لأجل ذلك.

لم يجرؤ الأمير في أثناء كلامه على النظر إلى أورونتاس، بالرغم من أن كل عصَب بداخله كان متوترًا، وقد أراد أن يلتفت ليرى تأثير كلماته عليه. فبما أنه أعلى الضباط الفرس رتبةً

فإن موافقتَه يمكن أن تضمن ولاء كل ضباطه، وبالمقابل يمكن لرفضه أن يزرع بذور الشقاق بين الضباط ويفسد الأمر".

سأل الأمير سايروس: "هل ستحرمونني حقي في قتاله؟".

صرخ اليونانيون الذين تحدثوا كلتا اللغتين مرتين إشارةً إلى تأييدهم له، توحدت أصواتهم، وأصبحت أشبه بجوقة جماعية مؤيدة. ورأى سايروس أن كثيرًا من الفرس شاركوا اليونانيين الرأي، في النهاية نظر إلى أورونتاس ورأى أن كثيرين كانوا ينظرون إليه، ليحددوا موقفهم بناء على ما سيقوله. بالرغم من انعدام رد الفعل، فقد فهم سايروس في تلك اللحظة أن أورونتاس كان قائدًا حقيقيًا للرجال. نظروا إليه كما نظروا إلى كليرشوس، ولم يعلم أحد ما القاسم المشترك بين هذين الشخصين.

راقب أورونتاس وقد توسعت عيناه، وفغر فمه بعض الشيء. يبدو أنه لم يكن لديه شك في الهدف الحقيقي للرحلة العظيمة منذ البداية. شعر سايروس بحماسته تخبو لأنه لن يظفر بتأييد كل الضباط الجالسين إلى المائدة، لأن أورونتاس لم يحدد موقفه، لكن الأمير لم يتخاذل وخاطب أورونتاس قائلًا:

"أيها القائد أورونتاس، والدي هو من ولّاك منصبك، لقد قطعت عهدًا له ولي، بوصفك قائدًا للجيش".

أجاب أورونتاس: "ولأخيك أيضًا".

تبعثرت الكلمات ضمن كل ذلك الضجيج، لكنها وجدت طريقها إلى أذنَي سايروس. قطّب جبينه وأصبح وجهه قاتمًا. سبق لكليرشوس وبيروكسينوس أن تناقشا في ما يجب فعله مع أي شخص لن يؤيد سايروس.

لم يرغب سايروس في رؤية أورونتاس مضرجًا بالدماء، لكنه صرّ أسنانه بقوة، وما كان ليتوانى عن ذلك إن وجد نفسه مضطرًا، لقد فات أوان التراجع، عندما سيصبح ملكًا، سيعيد الأمور إلى نِصابها، وسيدفع ديته لعائلته، وسيكون دَينًا إضافيًا عليه تسديده، وربما سيكون دينه الأخير الذي عليه الوفاء به".

سأله سايروس بلطف: "هل ستحرمني من حقي في نزاله؟".

خبا الضجيج، ورأى سايروس أورونتاس يقيّم من حوله قبل أن يهز رأسه، وعيناه حزينتان بدلًا من أن تكونا فرحتين.

أجاب: "لا، سموك".

علت أصوات الهتاف حول الطاولة، ووقف الرجال إلى جانب سايروس، الذي لم يلاحظ من خلال كل هذا إلا أورونتاس يضع يده على جبينه، وقد بدا يائسًا. جلس أورونتاس مُنكّسًا رأسه،

ولم يتناول شيئًا من كأس نبيذه. لم يرفض الرجل طلب أميره. لقد تمنى سايروس أن يرفض، ليُعمل السيف برقبته بسرعة، ولكنه بقبوله، سيتيح لنفس الخروج من القاعة حيًا، بَيد أنه يعرف أن الأمير لن يمحضه ثقته. فقد كانت موافقته باهتة من دون بهجة بخلاف الآخرين.

بالرغم من شعور سايروس بالألم الداخلي، إلا أنه ابتسم وحيّى الرجال الذين جلسوا إلى مائدته تلك الليلة. أخذ أورونتاس كأسًا من الماء وشرب نخب الإمبراطورية الإخمينية الملكية.

امتطى الملك أرتحشتا حصانه وسار مع أفواجه، التي كانت تمتد إلى أبعد مما يمكنه أن يرى، لقد شعر بالفخر لأن كل هؤلاء الرجال يقفون إلى جانبه، وجعل النسر الذي يقف على يده التي يغطيها قفازٌ يطير محلقًا إلى الأعلى. لقد أصدر أوامره بالتقدم، وكان الجميع مستعدين للتضحية بحياتهم من أجله، لقد كان يقود أقوى قوات عسكرية في العالم، وهذا ما جعله ينتشي كما لو أنه شرب برميلًا من النبيذ.

كان جيشه مؤلفًا من فيالق كل واحد منها يملأ مدينة، لم تكن حركة قواته شبيهة بتقدم جيش بقدر ما هي شبيهة بأمم نازحة.

لقد أرسل أرتحشتا مبعوثيه إلى جهات الأرض الأربع باستثناء الغرب، فهو لم يُرد إثارة شكوك سايروس باكرًا. بدلًا من ذلك، جمع من جنود الإمبراطورية ما يوازي حبات رمل الصحراء، وكان جيشه يزداد عددًا يومًا بعد يوم تلبية لنداء الملك الإخميني.

شاهد أرتحشتا أحدهم يقترب نحوه على صهوة حصانه، لقد كان الرجل يحوم مثل الذبابة، لكن الحراس الخالدين منعوه من الاقتراب، لقد ندم أرتحشتا على منحه لقب سيد، وسلطةً في لحظة نشوة عابرة.

علم أن معلمه القديم قد فضّل الحياة اللطيفة في البلاط على الحرب. لقد استمتع الملك بإرساله مرة أخرى، ولكن الرجل تظاهر بالحماس مما فاجأ الملكَ تمامًا. تولى تيسافيرنيس زمام جناحه من الجيش بصرامة، مشيرًا إلى أخطاء في التنسيب والبنية حتى ضاق الرجال ذرعًا بأوامره، ولكن أرتحشتا وفر غطاء لأوامر تيسافيرنيس، وبعد أن أمر بجلد ثلاثة ضباط حتى الموت توقفت الاعتراضات.

وجد أرتحشتا نفسه سئمًا من الاهتمام بتأمين الإمدادات لهذا العدد الكبير من الجنود، وتأمينِ الماءِ والموارد، دون ذكر الماشية، والأحصنة، والإقامة، والعربات، والخيام... أغمض عينيه. لقد كلَّفه القضاء على شقيقه كمياتٍ من الذهب تفوق التصور، ولكن لا يجدر به الاهتمام فهذه المبالغ ستوطد له عرشه، لقد كان كالنسر محلقًا في السماء وما عداه طيور.

قال تيسافيرنيس وهو ينحني أمام الملك: "جلالتك؟ جاء أحد مبعوثيّ هذا الصباح. لقد وردتني رسالة عبر طائر حمام". تجاهله أرتحشتا، متمنيًا أن يصمت، لقد شعر الملك بالتوتر الذي يعتمل في صدر معلمه، واستغرب كيف غاب عنه هذا الأمر، فبعض الرجال تسكن روح هادئة في صدورهم، فيبعثون بالسكينة فيمن حولهم، ولكن تيسافيرنيس لم يحظَ بهذه الميزة، فلقد كان يبث

الاضطراب من خلال مسامه، لم يغب عن بال الملك أن أمرًا واحدًا منه لأحد الحراس كفيل ببتر لسان تيسافيرنيس أو بفصل رأسه عن جسده، ولكنه آثر أن يخمد نزوة غضبه، ويحسب عاقبة انفعالاته.

قال تيسافيرنيس: "جلالتك... جلب الطائر أخبارًا عن أخيك".

بعد فترة من الوقت، نظر إلى الرجل السمين الذي يقف تحت لظى الشمس والعرق يتدفق أسفل ثيابه. أومأ أرتحشتا بصبر نافد، سامحًا لـتيسافيرنيس- المنهمكِ في ترتيب ثوبه لإخفاء بقع العرق- بالاقتراب.

انتظر الملك ريثما ساعد الخدمُ الكهل على الترجل والسجود، دفعوه بقوة نحو الأسفل، لكنه حاول تجنبَ السجود على الرمل.

"قل ما عندك يا تيسافيرنيس بشأن سايروس".

"يا صاحب الجلالة، كان والدك محظوظًا ويتَّسم ببعد النظر، لا تزال حكمته تحمينا يا صاحب السمو..."

"تيسافيرنيس؟ قل ما لديك من معلومات بشأن سايروس، أود الاستحمام والاستراحة، لا إمضاء النهار واقفًا أنتظر أخبارك".

"سمعًا وطاعة جلالتك، لقد جلب أحد الطيور رسالة ذُكر فيها، ما توقعته جلالتك بالضبط، فالأمير سايروس يقود جيشًا عظيمًا، وهو يتقدم من الغرب، لقد انطلق من سارديس تحديدًا".

سأله أرتحشتا: "هل لديك أخبار أخرى؟".

أحنى تيسافيرنيس وأجابه: "تكون الرسائل التي تُربَط بأرجل الطيور صغيرة، حتى تتمكن من التحليق، في الحقيقة، يمكننا اعتبار وصول طائر الحمام إلى برسيبوليس بمثابة معجزة، فالعواصف لا تتوقف في الصحارى، ولا تغيب النسور عن سمائها". عندما رأى الكهل تبرُّمَ الملك أسرع في إنهاء حديثه وقال: "هذا كل ما لديّ جلالتك".

"هل لدينا معلومات من أين انطلق قبل أسابيع".

أومأ تيسافيرنيس.

"جيد. لقد جمعت كثيرًا من الرجال يا تيسافيرنيس، قد لا أتمكن من فعل ذلك مرة أخرى ولهذا أنا ممتن. استُدعيت هذه المرة كل جيوش فارس ما عدا أولئك الذين في الغرب".

نظر أرتحشتا إلى أفواجه التي تسير عبر الصحراء، وضيّق عينيه بفعل الغبار والنسيم.

"أود أن أشكر أخي الذي أتاح لي المرور بهذه التجربة. أحاول غرز ذلك في ذهني يا تيسافيرنيس، حتى أتمكن من تذكره إلى الأبد، عندما أشعر بالضيق. إنه... مشهد عظيم، منظر ملَكي".

رفع تيسافيرنيس رأسه ونظر، فهو لم يشاركه رؤيته الحالمة التي يبدو أنه وشقيقه قد ورثاها عن والدهما داريوس، لكنه قدّر قوة ذلك الجيش. لم يكن هناك مثيل لهذه الأفواج في العالم. لا يمكن تخيل أي شيء أفضل أو أكثر إرضاءً.

الفصل السادس عشر



على بعد ستين ميلًا من ثاباساكوس، وبعد مسير يوم واحد تحولت الأرض إلى صحراء، إذ إنهم انتقلوا من أرض الحشائش والأعشاب إلى مساحات أوسع وأوسع من الرمال، وامتدت الكثبان الرملية التي يغطيها السراب. لم يُسمح لهم بتخطي أي نهر دون إعادة تعبئة كل برميل وقارورة. أظهرت الخرائط التي حملوها مجاري الأنهار كخيوط داكنة، ولكن الخرائط لم تكن بالدقة التي كان يأمل بها سايروس، وخصوصًا أن بقاء جيشه وسلامته يعتمدان عليها، وبالرغم من أن الصيف في بابل كان يلفظ أنفاسه الأخيرة إلا أن الحرارة كانت تُلهب جنوده.

شعر كليرشوس بأن معنويات القوات انخفضت منذ عبورهم ثاباساكوس، لقد تمتم الجنود ونظروا بمكر إلى سايروس، وفي النهاية بلغه سبب تململهم، ولكن أيًا منهم لم يتحدث إليه مباشرة. فقد كان الفرس واليونانيون على حدّ سواء يطالبون بأجورهم وهم الذين قد تفيض أرواحهم في أية لحظة عندما يواجهون جيش الملك العظيم.

واللُّحمة التي سُعي لإيجادها طيلة أشهر من خلال التدريبات المشتركة بدا أنها تتلاشى، فقد كثُرت الشجارات المسائية في المعسكرات، فالمزيج المؤلف من رجال يمتلكون عملات ذهبية ويحتسون النبيذ، كان خطيرًا جدًا، هذه الشجارات ما كانت ممكنة في أثناء المسير النهاري، ولكنها بدأت تصبح مقلقة سيّما بعد مقتل أربعة من اليونانيين واثنين من الفرس. والأسوأ من ذلك، أن الرجال رفضوا التصريح بسبب هذه الشجارات، حتى إن كليرشوس شك في أنهم يعرفون سببها أصلًا.

كان الجنود غاضبين، وكلما ازداد غضبهم كثرت المشاكل. لقد حذّر رجاله من تأثير الحرارة عليهم، وشدد عليهم ليهتموا بالنظافة لأن العرق قد يؤدي إلى ظهور تقرحات ودمامل، وأكثر من إصدار الأوامر إليهم بهدف جذب استيائهم إليه بدل تعاركهم مع بعضهم، لكن ذلك لم يُزد الجنود إلا غضبًا.

مرّ على تقدمهم جنوب شرق الصحراء ستة أيام، ومنذ ذلك الحين لم تر أعينهم أي أثر للحضارة والتجارة. في اليوم السابع توقفت الأفواج اليونانية عند سفح أحد التلال، وأخذ القادة يتجولون بين الجنود ويصيحون عليهم، لكنهم لم يعطوا آذانًا صاغية لهم، وقفوا كالبغال مغلقين أفواههم، لكن الأفواج الفارسية التي تابعت تقدمها لم تلبث هي الأخرى أن توقفت عن التقدم بعد أن رأت توقف اليونانيين، وأسقط بيد قادتهم، لقد وقف الجنود تحت أشعة الشمس منهكين وخُيّل إليهم أن أشعة الشمس سياط تجلدهم من دون توقف، بدورهم برك الجنود اليونانيون أرضًا بالرغم من حرارة الرمال التي لم تكن أقل سخونة من المياه المغلية.

عاد سايروس إلى الخلف، في الوقت الذي كانت فيه فرق الاستطلاع تتقدم، ودعا أريايوس لينضم إليه. من خلال المقارنة بينه وبين أورونتاس، كان يدرك أن القائد الفارسي محبوب بين صفوفه. في العادة كانت فرقة أريايوس مؤلفة من شباب اختيروا بالاستناد إلى لياقتهم البدنية.

رافقه مثل هؤلاء الشباب، ساروا إلى جانبه في حين ركض أريايوس بحصانه نحو سايروس ونزل راكعًا.

أوقف سايروس هذه الحركة بإيماءة.

"ما الأمر أريايوس؟ لماذا توقفنا؟ لم أعطِ الأوامر بذلك".

أكمل أريايوس ركوعه، وهذا ما جعل صبر سايروس يوشك على النفاد. فقال له: "قف وتحدث وأنت مستقيم".

نظر أريايوس إليه وهو ينهض.

"أجب! قف باستقامة وتحدث".

حدّق الفارسي وهو ينهض مرة أخرى.

"سموك، عذرًا لقد توقفت أفواجنا عندما رأت أن أفواج اليونانيين قد توقفت، يبدو أن الأخبار عن وجهتنا الحقيقية لم تعجبهم".

قال سايروس مصدومًا: "ماذا؟ أهناك تمرد؟".

لقد كانت كلمة تمرد تجلب معها عقوبات شنيعة.

فقد سبق لأفواج متمردة أن ذُبحت عن بكرة أبيها كالأبقار، لمجرد أنها ذكرت كلمة تمرد، ونادرًا ما كان يُهمس بهذه الكلمة همسًا خشية العواقب التي قد تترتب عليها. امتقع لون أريايوس وصحبه، وأراحهم بعض الشيء أن هناك قادة آخرين كانوا في طريقهم لمقابلة الأمير. وفي انتظار وصولهم أخذوا يحدقون إلى أوروناتس القادم على صهوة جواده، وكليرشوس الذي كان في إثره.

قبل أن يستطيع كليرشوس التفوه بكلمة صرخ به الأمير قائلًا: "ترجل عن حصانك واركع أيها القائد، أهذا تمرد؟". لقد بينت ملامح الإسبارطي أنه كذلك، لكن القائد هز رأسه على الفور نافيًا، طالبًا الإذن بالتحدث إليه قبل إسباغ وصف على الوضع وقال: "هناك خطب ما ولكنه بالتأكيد ليس...". شعر الإسبارطي بالفارسيين ينظران إليه: "إنها أحداث أقل مما توقعت حدوثه سموك، إنهم يشعرون بأنهم ضُلّلوا ويخشون من الآتي، إنهم يخشون مواجهة الجيش الإمبراطوري، أصدر لي الأمر بجلدهم وسأنفذه، وسأخصي واحدًا من بين كل عشرة منهم، تأكد أن ما تراه الآن لن يتكرر، يجب تذكير غير الفرس بأنك وريث عرش الإمبراطورية الإخمينية. سموك صاحب حق بمنازلة شقيقك".

تحدث الرجل كما لو كان فمه يقطر زيتًا. بالرغم من أن أريايوس قد ذكر حججه الخاصة بإيجاز كما كان يأمل، إلا أنها لا تزال بغيضة إلى حد ما.

قال كليرشوس: "إذا حاول القائد أريايوس الأمر عينه مع الإسبارطيين، فسيدمر هذا الجيش كل من يعترض طريقه سموك".

أجاب سايروس بتحدٍ: "تدمير؟".

حدق كليرشوس بصمت، لا يزال غاضبًا من تهديد الفارسي. نظر سايروس بعيدًا أولًا. ملتفتًا إلى القائد الفارسي.

"أريدهم أن يتحركوا يا أريايوس. لا أن أخسر رجالًا صالحين. دع الحرارة تؤثر عليهم لفترة. اختاروا التوقف في منتصف النهار حيث لا يوجد ظل! انتظر بضع ساعات ووفر لهم الفرصة للانتقال إلى الوادي الموجود على الخريطة. سأرسل لهم ماءً باردًا بعد ذلك وشخصًا هادئًا يشرح لهم عندما يصبحون مستعدين للإصغاء، عندما يكونون مستعدين لسماعي". رفع كليرشوس حاجبه متسائلًا وأومأ له سايروس في حين التف وابتعد عنه. كان أريايوس فارسًا متميزًا، لكنه لم يكن خطيبًا هادئًا. رأى سايروس أنه إذا أرسل أريايوس، حتى لو نهاه عن التهديد بالإخصاء، فستحدث بالتأكيد أعمال شغب أخرى.

أتى مينون من بين الصفوف.

كان قد تلقى ضربة على وجهه، وكانت عينه اليمنى منتفخة وداكنة اللون. وقف بروكسينيوس وراءه تقريبًا، وكانت كل تلك العظمة اليونانية حمراء اللون، رغم أنه صعُب تحديد السبب إذا ما كان بفعل الشمس أو الحرج.

انحنى الرجلان وتحدث مينون وقد التفت إليه الأمير.

"سموك، أود أن أخاطب رجالي قبل النظر في أية عقوبة. كنا نعلم أنه ستحصل بعض... الممانعة. فقد وافقوا على محاربة قبائل التلال وليس الجيش الإمبراطوري. ومع ذلك فإن معظمهم بريء، سموك. أظن أن الإسبارطيين هم من يقودونهم في هذا. ينتظر فوجي فرصة للانضمام إليك

هنا، أنا متأكد. إذا سمحت لي بالتحدث إلى ضباطي، فأنا أعلم أنه يمكنني إخراج رجالي من بين البقية".

سأله سايروس: "ما الذي حصل لوجهك؟".

"سموك، خلاف شخصي على دين ميسر مع أحد الرجال". بدا من الواضح أنها كذبة لذا لم يكلف سايروس نفسه عناء تكرار السؤال، وبدلًا من ذلك تحدث إلى كليرشوس.

"يبدو أن أحدهم قد لكمك على وجهك يا مينون".

قال كليرشوس: "ألا تظن أن بإمكاني استدعاء الإسبارطيين من بين الصفوف؟ إنهم ليسوا مجرد رجال دفعت لهم ودربتهم، لكنهم رجال عرفتهم طوال حياتي! لدي أربعة أبناء عم وابن أخ بين صفوفهم!"

"لو كنت واثقًا، أعتقد أنك كنت ستحاول بالفعل".

انفجر مينون غاضبًا، مما فاجأهم جميعًا: "إن الإسبارطيين المحببين لديك لا يتحركون، إنهم يرفضون التقدم، مثلهم مثل الآخرين. أنا لا أراهم يسيرون، أليس كذلك؟ ربما ليس هذا هو الوقت المناسب للتفاخر بالإسبارطيين يا كليرشوس. لمرة واحدة على الأقل، ريثما نسوي الأمر".

ساد الصمت بشكل محرج بعد هذا.

قال سايروس: "ليس لديّ أدنى شك في أنه بإمكانكما إخراج رجالكم من بين الصفوف. ومع ذلك، إذا سمحت لكما بالتعامل معهم بهذه الطريقة، وشعر الآخرون بذلك، فسيقتلونكما بالتأكيد. حتى لو كنتما على صواب، أريدهم أن يأتوا من تلقاء أنفسهم، لا أريد مرتزقة يشعرون بأنهم عبيد لديّ". تحدث بصوت عالٍ في أثناء حديثه ليغطي على صراع القائدين الصامت.

نظر كليرشوس إلى الأمير. ركع على إحدى ركبتيه، وهي لفتة جعلت مينون يمتعض.

"سموك لقد سبق لي أن تعاملت مع أمور مشابهة، دعني أتحدث إليهم أولًا. إن فشلت، يمكن لـمينون استدعاء مجموعته. إذا نجح الأمر فهذا المبتغى، وإذا فشل فسيكون الشرارة التي تطلق العنف، وأيًا يكن الأمر أعطني فرصة لأتصرف وحدي في البداية".

قال سايروس: "الجميع يهابون الإسبارطيين، الفرس يعرفونك واليونانيون يتطلعون إليك هل كل هذا من نسج الخيال؟ أم أن الأمور أبعد من الانضباط والمهارة القتالية؟".

ابتسم كليرشوس.

"نحن لا نبني التماثيل ولا نحيط إسبارطة بالأسوار، فنحن أسوار مدينتنا، وأنا قائد الإسبارطيين ويعرفني جنودي لأنني واحد منهم". قال ذلك متجاهلًا كل من ينظر إليه وأردف قائلًا: "سموك، يولد بعضنا ليكونوا قادة، في الوقت الحالي يولد قادة جدد في لاسيدايمون، نحن ندرب

العقل والجسد". ابتسم للحظة، كما لو أنه تذكر شيئًا. "لا يقل العقل أهمية، اسمح لي أن أحاول، وأناقشهم في المعضلة، قبل أن نعطيها تسمية وقبل أن نلجأ للإخصاء والجلد. رجاءً، تابع مع الفرس، وتقدم إلى المكان الذي كنا سنعسكر فيه مساء، سنلتقي مساء، أعدك وأقسم بـآريس. إلا إن قُتلت".

قال سايروس: "حسنًا".

كان أعظم شرف يمكن أن يمنحه لـكليرشوس في تلك اللحظة هو الابتعاد معتبرًا أن الأمر بحكم المنتهي.

في المعسكر، التقى الآلاف من الرجال والنساء، نظروا في حيرة إلى القوات الجالسة يتجادلون ويومئون. صاحت بعض النساء للرجال الذين مروا أمامهم، لكنهم تجاهلوهن تمامًا.

رأى سايروس العديد من الأحصنة على طول الضفاف، وتعرف إلى الشاب زينوفون، ورفيقه هيفاستوس. عندما شعر مينون بأنه يريد قول شيء ارتطم كتفه بروكيموس بشدة وضاعت الكلمات. بالرغم من تغير الأمزجة التي تراوحت بين الغضب والقبول المحبط، تركوا الطاغية الإسبارطي يواجه اليونانيين وحده.

وقف كليرشوس أمام الأفواج. في البداية، رمى بعضهم الحجارة عليه لطرده، لكن الرجال الإسبارطيين الذين كانوا برفقته وضعوا حدًا لذلك بكلمات وإيماءات غاضبة. فكليرشوس هو من تدخل مضطرًا لوقف القتال الذي دار بينهم فوق الرمال المحترقة. تحت شمس الظهيرة، شعر جميع الرجال بالعطش ولهثوا ككلاب الصيد.

خاطبهم محاولًا تهدئتهم: "أيها السادة، اجتمعوا وأسمعوني، لا تسفكوا الدماء في هذا المكان الذي لا حياة فيه. لا شيء ينمو هنا سوى العظام، هل ترغبون في أن تُترك بقاياكم في هذه الصحراء إلى الأبد؟ لا. حسنًا، لماذا تصرخون وتهددون الرجال الذين كانوا إخوانكم بالأمس؟". تردد صدى بعض أصوات اليونانيين، ولكن كليرشوس بدا سعيدًا لرؤيته أنهم يصغون، تمتع بصوت جيد وقوي، وعلم أن بإمكانه الوصول إلى الآلاف وسماعه، ولكن فقط إذا تجمعوا وكأنهم يستمعون إلى مسرحية.

انتظر تجمعهم، مشيرًا إليهم بكلتا يديه للاقتراب منه في الوقت الذي كان يفكر فيه، لقد كان الأمير بعيدًا عن الأنظار، برفقة كل من أريايوس وأورونتاس. ذهب القادة الآخرون معهما، تاركين الإسبارطي لتهدئة الخيانة التي شعر بها هؤلاء الرجال. عندما وقف كليرشوس هناك، تساءل كيف بإمكانه فعل ذلك.

في البداية، كثرت الحركة والضجيج في صفوف الأفواج، فعمت الفوضى، وشعر البعض بالذعر، في حين برر آخرون مخاوفهم المتنامية مع كل لحظة، تجادلوا وصرخوا وهددوا بعضهم، ولكن شيئًا فشيئًا تشكلت حلقة من الرجال المصغين حول كليرشوس، ولم يمضِ وقت طويل قبل أن يحل الصمت، وقف الإسبارطي أمامهم، وسالت الدموع على وجنتيه، وبشبه غضب مسح الدموع بساعده.

"حسنًا؟ لم تظنوا أن الإسبارطي يمكن أن يبكي؟ لقد صادقت الأمير عندما كنت منفيًا ومنبوذًا، وبما أنكم لا تريدون المتابعة معي فعليّ اتخاذ قرار. أنا قائدكم، وصديقه في الوقت نفسه، وإن خُيّرت فإما سأغادر معكم وأختاركم وإما سأخون ولاءكم لي وسأغادر معه، إنكم تضعونني أمام خيارين أحلاهما مرّ. لا بد لي من كسر تلك الصداقة والذهاب معكم، أو خيانة ولائي لكم والذهاب معه. لقد وضعتموني في موقف مستحيل". انحنوا ليتناقشوا هامسين.

تابع: "أعلم أن عليّ اختياركم، فلن أدنس شرفي، وأدع أحدهم يقول إنني قدت اليونانيين وتركتهم في الصحراء، فإن عصيتم قراري فسأتبع قراركم وأسير معكم وأكون إلى جانبكم في كل ما قد يصيبكم، هذا ما يحتمه عليّ واجبي تجاه أصدقاء وحلفاء درّبتهم. لن أتخلى عنكم".

هتف بعضهم في حين بدا آخرون مضطربين.

لم يندهش كليرشوس عندما وقف عدد كبير من الرجال، راغبين في مناقشته كما لو أنهم في أغوروا في أثينا. إذ لم يكن بقدرة اليونانيين التوقف عن النقاش حتى وإن كان الطرح واضحًا وضوح الشمس فهم يسعون وراء الحصول على الاستنتاجات بأنفسهم، وهذا ما جعله يحبهم، بالرغم من أنه ظن أن حبهم هو ضرب من الجنون بقدر نقاشاتهم.

احتشد السالينين حوله. رأى كليرشوس أن بعضًا من الغاضبين كانوا من فرقة مينون، بالرغم من أنه لم يعلم سبب غضبهم. أبسبب ضعف مينون في القيادة أم لأن هناك بعض المتشددين في فرقته. من المؤكد أنهم لم يتوقعوا وقوف الإسبارطي إلى جانبهم، حدقوا إليه وقدموا إليه بعض الماء. استمع كليرشوس بصبر إلى ثلاثة متحدثين من بين الأفواج اليونانية، بالرغم من أنهم لم يقولوا شيئًا سوى أنهم يشعرون بالخيانة، حتى إن أحد الشبان وجد أنه من المناسب تكرار أن الأمير أخبرهم بأن الهدف من الحملة محاربة قبائل التلال، وليس جيش أرتحششتا. أومأ كليرشوس للشاب بالرغم من أنه في قرارة نفسه عدّه مجرد أحمق.

أخيرًا، قال كليرشوس، عندما بدا أن الشاب اليوناني لن يتوقف أبدًا من تلقاء نفسه: "في النهاية وصلنا إلى هذه النقطة. نحن هنا الآن. لا يمكننا العودة، أو اتخاذ قرارات أفضل. نحن اليوم نقف هنا في هذا المكان من دون ظل. ما يجب أن يُقلقنا هو نقص الإمدادات، إن تملصنا من عقدنا مع الأمير فلن نجد ما نأكله أو نشربه الليلة، فأظنكم توافقونني الرأي أنه لن يعدّ لنا وليمة وداعية. أيها السادة، الأمير صديقي وحليف كبير لليونان، إن ذهبه سيجعل جيلًا من الأبناء والبنات ينعمون برغد العيش. ومع ذلك، إذا أصبح عدوي، فأفضّل أن أبقى بعيدًا عنه، إنه يفوق عددنا بكثير، ولا أعتقد أنه سيسمح لنا بعبور الصحراء بالموارد اللازمة".

نهض رجال جدد للتحدث. هز كليرشوس رأسه عندما نادوا بالعودة إلى اليونان أو شراء المؤن من سوق المعسكر. تمنى فقط أن يكون هناك رجال أكثر عقلانية ويستمعوا إلى النقاش. من خلال تجربته، غالبًا ما كان الصامتون أكثر تأثيرًا، فهم يمحصون الأمور، ويكونون أكثر عمقًا من أولئك الذين يطلق عليهم "البحارة" أو "رجال الرياح". كان مسرورًا لعدم رؤية إسبارطيين بين المتحدثين، بالرغم من أنهم شاهدوه وانتظروا.

في الحقيقة، لقد كان مينون محقًا من ناحية. يمكن للإسبارطيين قيادة الباقين في الظروف المناسبة، ومع ذلك يمكن لكلمة خاطئة واحدة أن تلهب المشاعر القديمة، وخاصة بين رجال أثينا. فتاريخ اليونان يحتشد بالحروب المستمرة، والعداوات القديمة كانت عميقة.

سمح لهم كليرشوس بالتحدث إلى أن جفت حناجرهم بعد الظهر، مضيفًا أفكاره الخاصة كلما نفدت حججهم وأفكارهم الكبرى. كان يسعى لجعلهم يكتشفون بأنفسهم أن خياراتهم قليلة، فهم لم يدعوا إلى تمرد بكل ما للكلمة من معنى، ولكنهم لم يكبحوا أنفسهم عن التعبير فجأة، لقد تصرفوا كطفل ممتعض لم يجد لديه وسيلة للتعبير سوى الركل.

لقد أوصل إليهم حقيقة مفادها: "لن تستطيعوا المغادرة سرًا وعندما سيكتشف أمركم سيهاجمكم من سرتم إلى جانبهم لأشهر"، وإن كانت هذه الحقيقة غير كافية، فقد أضاف إليها ما جعلهم يدركون سوء العاقبة فمنذ أن يولوا ظهورهم للمعسكر سيصبحون من دون إمدادات غذائية. لقد حرص كليرشوس على عرض أفكاره واحدة تلو الأخرى حتى يتسنى لهم إدراكها، مؤكدًا أنه سيكون مؤيدًا لخيارهم، ولم يعترض إلا عندما تهور أحد الرجال واقترح مهاجمة جيش الأمير، ونهب المعسكر، والحصول على الإمدادات، فهز كليرشوس رأسه، قائلًا إنه لا يستطيع المشاركة بعمل يوصف بالخيانة، ولكن إذا أصروا، فسوف يساعدهم على انتخاب شخص آخر لقيادتهم. لم يقبلوا بذلك وتابعوا النقاش.

أخيرًا، وعندما أوشكت الشمس على الأفول، وبدأت الحرارة تنخفض، وبدأ الذباب بالتهام الملح عن أجسادهم قال كليرشوس: "أيها السادة والأصدقاء لقد علمت دائمًا أن حياة المرتزقة قد تنطوي على خطر، وحتى الموت. هذا هو عملنا، بالرغم من أنكم تفضلونه لأقرانكم". انتظر سامعًا ضحكة بين الحشد. "ربما لم تتوقعوا مواجهة شقيق الأمير، أو الفرس الذين هزمناهم في بلاتاي وماراثون، بالنسبة إلى خدمات المرتزقة الخطرة، جرى العرف أن يُدفع نصف أجرها مقدمًا أليس كذلك؟ ما رأيكم بدريك ونصف شهريًا، لم يمنحكم أحد مثل هذه المكافأة المغرية، أليس كذلك؟". اتفقوا على أن أحدًا لم يقدم لهم عرضًا مثل هذا، بدا عدد من الرجال مهتمين بالمبلغ. لا يمكن لأي عامل ماهر أن يكسب حتى خُمس هذا المبلغ، وبالنسبة إلى معظمهم، سيكون الأمر أشبه بالحصول على رواتب ثلاث أو أربع حملات دفعة واحدة. وجب على كليرشوس الانتظار لحظات قليلة قبل أن يقف أحد الكورنثيين.

"ماذا لو أرسلنا الرجال إلى الأمير وطالبنا بدفع ثمن الخدمة الخطرة؟ واحد ونصف دريك لكل رجل شهريًا؟ هل سيوافق على ذلك؟". شخصت مئات الرؤوس نحو كليرشوس لسماع رده.

أجاب الإسبارطي بعد برهة: "أنا واثق بأنه سيوافق، لكنه لن يغفر لكم إذا أخذتم الذهب، ثم رفضتم القتال من أجله. إذا وافقتم على هذا، فيجب أن يكون القرار نهائيًا. سننتصر، أقسم بذلك. نحن اليونانيين، أيها السادة. نتقاضى هذا القدر من المال لأنه لا مثيل لنا. ضعوا في اعتباركم، لا يجدر بكم ذكر ما تتقاضونه أمام الفرس". ضحك الرجال على هذه الفكرة، فابتسم لهم.

بدت اللحظة وقتها وكأنها دهر. نهضت الأفواج واحدًا تلو الآخر ونفض الرجال الرمال عن ثيابهم، لم يلبوا النداء بسبب الذهب، فهم لم يتقاعسوا إلا لأنهم يريدون التعبير عن استيائهم وهذا

ما سمح لهم به كليرشوس. وعندما دعا الجنود الإسبارطيين لم يتوانوا. في البدء، لم يجدوا في أنفسهم القدرة على النظر إلى عينيه مباشرة، بالرغم من أنهم كانوا على أهبة الاستعداد للتحرك.

قال كليرشوس: "سووا صفوفكم أيها الإسبارطيون. ارفعوا رؤوسكم الآن". انتظر حتى حدقوا إليه فحدق إليهم بثقة.

"سنقاتل من أجل الأمير سايروس الذي يريد منازلة أخيه في الميدان، أهناك من يفضل بينكم العودة إلى الوطن؟". ساد الصمت، نشر نسيم المساء الرمال حول أرجلهم، وشعروا بذلك النسيم العليل. وقف الإسبارطيون في صفوف مع رفاقهم، لم يركضوا فحسب بل بدوا من سرعتهم كما لو أنهم يطيرون.

أخفض كليرشوس رأسه، كما لو أنه ينحني لهم.

لقد دعاهم إلى الجبهة لهذا السبب، ولأنه اعتقد أن الإسبارطيين يجب أن يقودوا دائمًا. لن يكون هناك المزيد من الحديث عن الخيانة بينهم بعد ذلك.

قال: "تقدموا معي إلى المعسكر. سأتحدث مع الأمير بالنيابة عنكم، وسأناقش موضوع الأجور معه، لا تخافوا من حصول انتقام بسبب أحداث اليوم، فسأحول دون ذلك". لم يكن وعده هذا مجرد كلام، بل من رجل يعد ويصدق في وعده، وهو الذي كان يخاطب حشدًا غاضبًا بمفرده.

مرة أخرى، انطلق عابرًا رمال الصحراء، وسار خلفه اليونانيون في صفوف مثالية.

لم يستطع سايروس البقاء في المعسكر، لا سيما وهو ينتظر قرارًا سيحدد مصير مغامرته، فطلب إلى بارفيس أن يجلب له حصانًا، جلب زينوفون وهيفاستوس معهما حصانيهما، ولاحظ سايروس أن الأكثر شبابًا بينهما جلس بكفاءة أكبر على حصانه، وتحرك معه.

قال الأمير: "تبدو فارسًا أكثر مما توقعت منك".

احمر الرجل، وأومأ برأسه. ترجل عن حصانه، وانحنى بطريقة توحي بأنه كان على الأقل يقف أمام أمير ملكي، ملك عالم صغير. تنهد سايروس وصعد.

"رصد أحد الكشافة قطيعًا من النعام، إلى الشرق من هنا، سآخذ الرماح وأصطاد في انتظار عودة القائد كليرشوس إلى المعسكر، أرسل لي مرسالًا يعلمني بذلك ما إن يصل". حدّق الأمير إلى الأفق، يبحث عن بعض الدلائل على وجود طيور ضخمة تحلق بحثًا عن الغزلان.

توقع أن يسبب له الفرس مشكلة عندما يعلمون أنهم سيواجهون شقيقه، ولكن رؤية اليونانيين يرفضون أمره صدمه مما ترك الفوضى تعبث بكل خططه.

في تلك الأثناء وصل القائد أريايوس إلى المعسكر.

تجاهل الشابين الأثينيين، وألقى لجامه إلى زينوفون من دون أن ينظر إليه حقًا. انتظر سايروس وقد ركع القائد على إحدى ركبتيه.

قال أريايوس: "لقد بعثتُ ببعض الرجال لمراقبة اليونانيين، ورجع أحدهم الآن ويقول إنهم في طريقهم إلى هنا ويبدون منضبطين". حدق القائد أريايوس إلى الأثينيين اللذين يراقبانه، وحدق هيفاستوس به كما لو كان كلامه مبهمًا، ولكن بدا الآخر مركزًا على كلماته، أدار أريايوس كتفه قليلًا، جاعلًا منهما خارج نطاق اهتمامه.

"سموك، أيمكن أن يكونوا مهاجمين؟" وأردف، "هل أطلق النفير في المعسكر؟ ربما أتوا للاستيلاء على المؤن؟".

"هل اعتقلوا القائد كليرشوس؟".

"لا أظن سموك، قال الرجل إنهم كانوا يسيرون إلى جانبه".

"حسنًا، يجب الترحيب بهم كما في السابق. أحضر النبيذ إلى خيمتي أيها القائد. أخبرت الإسبارطي بأننا سنحتسي النبيذ عندما يأتي. يمكنني الاصطياد غدًا".

الفصل السابع عشر



في الصباح، استيقظ سايروس شاعرًا بالتوعك، استدار نحو الدلو الذي وُضع بجانب رأسه مصدرًا أصوات اشمئزاز. لقد أمضى معظم الليل يشرب مع كليرشوس. يتذكر أنه ألقى قصيدة بالأسلوب الفارسي وتأوه في رعب.

إلا أن الإسبارطي لم يغنِ وبرر أن شعبه لا يغني إلا عند تنصيب ملك جديد، أو عندما يظنون أن الموت قادم، أدرك سايروس أن القائد لم يكن ثملًا مثله.

توجه سايروس إلى الخلف، وتبول عند زاوية الخيمة، بعدما أحكم إغماض عينيه. كان الجو حارًا ونتنًا هناك، حيث حلّق الذباب ببطء واصطدم به. للحظة، اعتقد أنه قد يتقيأ مرة أخرى وشتم نفسه. علم أنه لن يستعيد عافيته قبل المساء. سيكون يومه عديم الفائدة بسبب تجاوزاته في الليلة السابقة. لم يكن هناك مأوى في الصحراء ولم يرغب في نصبِ خيمته في كل مرة يحتاج فيها إلى حفرة صغيرة في الرمال.

كانت حركة الأمعاء محرجة للغاية بالنسبة إلى من يسيرون لفترة طويلة. تمنى سايروس ألا يذل نفسه. أخبره والده ذات مرة بأن الرجال سوف يتسامحون مع جميع الأشياء التي يقوم بها قادتهم باستثناء شيئين. وكان الآخر هو الجبن.

وقف في دلو كبير ليغسله عبيده، ثم سمح لهم بلفّه بقطعة قماش في حين كان يحلق ويمشط شعره بالفرشاة ويربطه مرة أخرى. استلقى على طاولة قابلة للطي ليدلك، ثم جلس عاريًا على مقعد ريثما أُحضرت له ملابسه الداخلية والدروع.

رفض تناول التمر والجبن الأبيض الطري، كانت الشمس تلوح فوق الأفق في الوقت الذي خرج فيه من خيمته.

في الوقت الذي فرغ فيه من ارتداء ملابسه سمع أصواتًا في المخيم، تحث الرجال على الوقوف بانتظام. كان الصوت يتصاعد، وضع سايروس جانبًا محنته الخاصة عندما خرج، وحدق إلى البعيد.

امتدت الصحارى إلى أقصى ما يمكن أن تراه العين أمامهم، لكن التلال والكثبان الكثيفة أخفت الوديان، والأبراج الصخرية، والأنهار ذات الضفاف الخضراء وحتى القرى. بينما بدا أن كلًا منها قد وقف وحيدًا. روى الأفق قصة مختلفة.

ارتفعت خيوط سوداء رقيقة في السماء أمامهم. قاد سايروس الرجال شرقًا، دائمًا نحو الشرق، متجهًا إلى عاصمة والده. علم أنه لا يمكن لأي جيش معادٍ الاقتراب إلى برسيبوليس من دون أن يُرى، لذا فإن أرتحششتا سيعلم بوصولهم. مع ذلك، كانت القوى الإمبراطورية شاسعة، أكبر من إمكانية تجميعها في يوم واحد أو حتى شهر. قضم سايروس شفته وهو يفكر في أن كل القوات التي جلبها إلى هنا لا تشكل سوى ربع الجيش الإمبرطوري. اعتمدت خطته على الاكتفاء بمواجهة رجال النخبة الذين يحمون أخاه.

ظن أنه قد علم معنى الدخان، لكنه لم يتفاجأ عندما أتى أورونتاس إلى خيمته في أثناء انضمامه إلى مسير اليوم. ترجل القائد عن حصان أسود، وسلم سيفه إلى خادم، انحنى مواجهًا الرمال حتى أمره الأمير بالنهوض والإبلاغ.

"سموك وردتني أخبار من فرق الاستطلاع أمامنا. أبلغوني عن المحاصيل المحروقة والقرى المهجورة. إذا مشينا طوال اليوم، فسوف نلحق بأولهم بحلول هذا المساء". صمت سايروس وحدق إلى خطوط الدخان ببطء، تبدو رفيعة كالشعر من تلك المسافة.

بعد فترة قال: "تيسافيرنيس، يبدو أن صديقي القديم قد رأى أكثر مما كنت آمل". نظر إلى أورونتاس، لكن الفارسي حرص على عدم إظهار أية تعابير بحضور أميره. ربما علم سايروس نواياه النهائية بما يتعلق بـساردیس، لكن قادته الفرس لم يعرفوها بالتأكيد.

قال أورونتاس: "سموك، أتساءل..." ثم تلعثم واختفى صوته.

"تحدث بحرية".

"إذا كان أخوك، الملك أرتحششتا، في الميدان، فهو ليس قريبًا بعد".

قال سايروس: "أعتقد أننا كنا سنرى قواته الآن لو كانت قريبة".

بدا أورونتاس واثقًا بكلمات الأمير.

"الجيش الغازي هو من يحرق المحاصيل وفقًا لما ورد في دليل القادة، سموك. يتم ذلك لتجويع عدو قوي في سبيل إضعافه. أتساءل عما إذا كان هذا يشير إلى أن أخاك لا يملك القوات التي يحتاج إليها في هذا المجال، على الأقل في الوقت الحالي".

"ربما. بالرغم من أنك على صواب، إلا أنني لا أرى كيف يفيدني ذلك من دون تجديد إمداداتنا في أثناء تقدمنا، لدينا طعام، يكفي ماذا، أسبوع؟ تسعة أو عشرة أيام؟ إذا كنت تعرف الدليل العام، فستعرف أن هناك اقتراحًا أو اقتراحين للدفاع ضد هذا المخطط. إذا كانت أرض المسير أمامنا محروقة...؟".

"اتبعوا طريقًا مختلفًا". أكمل أورونتاس كلامه. "بالرغم من أن وجهة نظري لا تزال قائمة، سموك. إذا لم يكن الملك أرتحشثتا والجيش الملكي في مكانهما بعد، فقد نواجه قوة أصغر بكثير. يمكن أن يكون هناك بضع مئات من المشاعل التي تتقدم قبل فرق الاستطلاع، تتطلع إلى إضعافنا وإلحاق أكبر قدر ممكن من الضرر. إذا تمكنا من تجاوزهم، فيمكننا وضع حد لهذا، أو على الأقل إبطاءهم والحد من الأضرار التي يمكن أن يتسببوا بها".

قال سايروس: "إذا أعطيت مثل هذا الأمر، فستذبح فرق الاستطلاع لأن معظمهم من الأغرار". لقد اختار أورونتاس تلك اللحظة ليركع مرة أخرى.

"سموك، اسمح لي باصطحاب مئة من حرسك، للبحث عن هذه المشاعل في طريقنا. فقط مئة، من الرماحين. سوف أتوغل خلف فرق الاستطلاع، وأوقفهم على حين غرة وهم ينهبون ويخربون. يستغرق تدمير المخازن وقتًا طويلًا، سموك. ثق بأنني أستطيع إيقافهم". لم يسبق أن شاهد سايروس مستوى الحماس في عيني أورونتاس مثلما شاهده في تلك اللحظة. ارتعش الرجل وهو يحدق إلى الأمام.

أجاب: "انهض، أيها القائد".

لمعت عيناه ويا ليت كليرشوس كان هناك ليرى ذلك. "حسنًا. توغل عميقًا، وبسرعة، وأحضر إليّ رؤوس أولئك الذين يحرقون القرى في أراضي والدي". ركع أورونتاس مرة أخرى، رغم أنه ركع ووضع يد الأمير لفترة قصيرة على جبينه.

قال: "ثقة سموك شرف كبير".

التفّ سايروس في الوقت الذي وصل فيه حصانه، وشعر بالسرور عندما وضعوا له الدرجة الصغيرة التي تسهّل عليه امتطاء الحصان فقد كان يشعر بالقليل من الحموضة بمعدته، لذلك كان سعيدًا لرؤية الدرجة. نخر وصعد على صهوة الحصان، وأمسك باللجام.

"تقول إن أخي لا يمكن أن يكون قريبًا، لكن لا يمكن أن يكون بعيدًا أيضًا. سأسرع من تقدم الجيش. أرسل لي مرسالًا هذا المساء وأخبرني عما توصلت إليه. حتى ذلك الحين، أدعو أن يبقى أهريمان أعمى عنك. أتمنى لك الحظ يا صديقي القديم".

تشكلت الصفوف. في الوقت الذي كان يتحدث فيه مع أورونتاس، في انتظار أن يصدر الأمير أمرًا بالمسير، تقدم سايروس إلى المقدمة، وبدا كليرشوس مرتاحًا. راقب الإسبارطي التبادل وتبعت نظراته أورونتاس، ركب الرجل وتركز في وسط الصف، مشيرًا إلى حرس سايروس الشخصي.

لم يكن كليرشوس مسؤولًا تمامًا عن هؤلاء الرجال، رغم أنه اعتبر أنهم يخضعون لسلطته العامة. ومع ذلك، تضايق عندما رأى أورونتاس يجمع بعض الفرسان ويستعدون للذهاب.

لم يستطع الإسبارطي منع نفسه من التفكير في الشابين الأثينيين اللذين عرفهما. كان الأكبر سنًا، زينوفون، يتحدث بغضب، ويتلفظ بالشتائم ويأكل الشوفان وهو يومئ وراء الفرسان الفرس.

لم يتمكن كليرشوس من تذكر اسم الآخر.

سأل كليرشوس: "أرى أن القائد الفارسي أورونتاس... أخذ الأحصنة الاحتياطية. ما حاجته إليها؟". اختنق زينوفون تقريبًا عندما تعرف إلى المتحدث.

انحنى ونحنح، ربّت لـهيفاستوس من الخلف في حين حدق الرجل الأصغر سنًا.

قال زينوفون: "أيها القائد كليرشوس، إنه لشرف عظيم، سمعتك تسبقك".

سأل كليرشوس: "هل هناك أي شيء من تلك السمعة يتعلق بعدم صبري على أولئك الذين لا يجيبون عن أسئلتي؟".

هزّ زينوفون رأسه وقال:

"لا. رغب القائد أورونتاس في التقدم مع فرقة استطلاع للتصدي لأولئك الذين يحرقون الأرض أمامنا".

"ما الذي يغضبك إذن؟".

"لم يرغب القائد في أن أرافقه، قال إنه لن يصطحب يونانيًا، وإننا لسنا أهلًا للثقة".

قال كليرشوس: "فهمت". وحك ذقنه مفكرًا.

لم يكن أورونتاس من القادة الذين يتنمرون على الأشخاص بكلامهم. فهذه الصفة تنطبق على أريايوس. كان هناك خطب ما.

سأله: "كم حصانًا بقي لنا هنا؟".

زفر زينوفون مجددًا.

"ستة وأربعون، وذلك يشمل الحصانين اللذين يمتطيهما الأمير سايروس، هذا هو السبب في غضبي أيها القائد. أنا المسؤول عن الأحصنة فماذا ترك لي؟".

هز كليرشوس رأسه، وحدق إلى البعيد. قرر أن يسأل الأمير سايروس، بالرغم من أنه كان يشعر بأن الوقت قد فات بالفعل.

تقدم أريايوس من الأمير سايروس وقال: "أرغب في التحدث إلى سموك بشأن أورونتاس". التفتّ سايروس عند سماعه ذلك.

قال سايروس: "إنه على وشك المغادرة. ماذا عنه؟". ودعا أريايوس للاقتراب عندما رآه يلهث.

فكّر سايروس في مقدار الشبه بين أورونتاس وأريايوس. انتظر ريثما انحنى الرجل ممسكًا بورقة مطوية عليها ختم يعرفه سايروس. موضوعة ومضغوطة بقرص من الطين، ظهرت بوضوح. رأى سايروس أن الورقة مقصوصة حول الحواف وتجهّم عندما فكر في ما يترتب عليه هذا.

سأل خائفًا من الإجابة: "ما المهم لدرجة أنك جلبته إلي؟".

"صاحب السمو، كلفني ابن عمي بنقل هذا إلى الملك أرتحشستا. ذكر فيها أن قوة من الفرسان ستخرج من جيشك، مطالبًا الملك العظيم بعدم مهاجمته عندما يأتي. إنه من لحمي ودمي، سموك. ومع ذلك، إذا استطعت، فسأقطع كل علاقتي به بسبب العار".

شعر سايروس بالبرود. أحسّ بنظرة قائد حرسه وأومأ برأسه بحدة. فهم الرجل جيدًا ما يجب القيام به. بدوره، التفت سايروس إلى الآخرين وأمر بوقف جميع الاستعدادات للتقدم.

من مسافة بعيدة، حدّق القائد أورونتاس وشعر باضطراب، بالرغم من أنه كان بعيدًا، ظن سايروس أنه يمكن أن يرى جزءًا من الفزع الذي شعره به أورونتاس، ربما بالطريقة التي جلس بها الرجل على حصانه.

ربما كانت هناك لحظة تمكن فيها القائد الفارسي من أن يعدو بعيدًا عن الباقين، بالرغم من أنه لم يكن ليقطع مسافة كبيرة على الرمال. خرج قائد الحرس بالفعل مع مجموعة من الرجال لاعتراض أورونتاس الذي فهم أنه لن يستطيع الابتعاد.

فجأة أحنى القائد رأسه، تمسك بسرجه، وأمسكت يداه باللجام. راقب سايروس كيف أُجبر أورونتاس على الترجّل، وكيف رُبطت يداه. اقترب منه القائد أريايوس ثم ربطه بحبل طويل، وربط طرف الحبل الآخر بالحصان.

كان سايروس بعيدًا جدًا لسماع ما دار بينهما، رغم أنه أخبر نفسه بأنه سيعرف كل كلمة نُطقت في ذلك المساء.

أخيرًا، تحركت الصفوف، والتفتت العديد من الرؤوس لرؤية القائد يترنح على طول الطريق، لقد بدا أنه يشعر بالذل والعار.

امتطى الأمير سايروس حصانه إلى جانب الصف وقد تخطاه الآلاف، منتظرين اللحظة التي يظهر فيها أريايوس مع عبده الجديد. في البداية، كان الأمير سيترك اللحظة تمر في إدانة

صامتة، لكنه شعر بأن غضبه ينمو. وأشار بإصبعه إلى أريايوس ليتقدم نحوه.

اقترب كليرشوس ليتمكن من المراقبة، مع بيروكسينوس ونيتوس، وكذلك اقترب مينون أيضًا، بالرغم من أنه وكليرشوس لم يكونا على وفاق. ومع ذلك، فقد كانا مذهولَين برؤية ما فعله أورونتاس ورد فعل سايروس.

قفز أريايوس عن حصانه الرمادي مبتسمًا، يدرك جيدًا أن الجميع يحدقون إليه. كان السماح لأورونتاس بالحفاظ على كبريائه ممكنًا، ولكنه بدلًا من ذلك شدّ الحبل، وأرسل الرجل زاحفًا على بطنه أمام الأمير.

خلال لحظة، وقف أريايوس منفرج الساقين يحدق إلى الأمير، بينما كافح أورونتاس في سبيل النهوض، وضع القائد الفارسي حد الخنجر على رقبته، فانتصب واقفًا، مدركًا أن حياته كانت تُقاس بكلمة واحدة من أمير يكرهه - أو ربما من محارب غاضب لم يعجبه أبدًا- وجد أورونتاس أن عليه الهدوء.

لقد رأى ذلك في أعين الرجال قبيل موتهم. لم يكن هناك صراع في النهاية. تنفس ببطء، سعيدًا لأنه ربما سيموت محافظًا على كرامته.

قال سايروس فجأة: "لا اعتراضات، أورونتاس؟ لا توجد حجج؟" وقف القائد الذي تولى قيادة أفواج العائلة الإمبراطورية جانبًا، وهو يحدق بابن عمه بعينين حزينتين.

"يبدو أنني وثقت بالرجل الخطأ، سموك".

أجاب سايروس غاضبًا: "صحيح وأنا أيضًا".

تجهم أورونتاس، وهو ينظر إلى الشرق.

قال: "سموك... لا، لا يهم".

حدق إليه سايروس ببرود.

"هل آذيتك بأي شكل من الأشكال أيها القائد؟". هزّ أورونتاس رأسه بصمت. "حسنًا لماذا خنتني؟ ألست أنا ابن أبي؟ ألم تُقسم على خدمة عائلتي؟".

أجاب أورونتاس، متكلمًا باستنكار، وقد علا صوته: "لا سموك، أقسمت على خدمة العرش. وقررت القيام بذلك عبر الانضمام إلى أخيك، الملك. أنا... أنا آسف. فكرت في أفعالي لفترة طويلة. لم أُرد الوقوف في وجهك أيها الأمير. لقد كنت جيدًا معي للغاية. يتغنى الرجال بصيتك. مع ذلك... لم أشعر أنني أستطيع المضي قُدمًا". رفع رأسه، بالرغم من أن الدموع كانت تلمع في عينيه. "سموك، إنني مستعد لتقبل العواقب". لم يجب سايروس لفترة طويلة. علم أن عليه أن يعطي الأمر لتنتهي حياة الرجل. وتوقع ذلك كل من راقبوه. مع ذلك، حاول الحفاظ على حياة أورونتاس. بالرغم

من الغضب الذي شعر به من حوله، كان أورونتاس جنديًا جيدًا ومحترمًا بين الأفواج. لو كان هناك أمر أو كلمة واحدة كان يمكن أن يفوز بها سايروس بولائه، لقالها الأمير بصوت عالٍ حالًا. نظر إلى كليرشوس لسبب لم يستطع معرفته. قوبل كلامه بالصمت وتنهد سايروس.

أمر الحراس: "خذوا هذا الرجل من وجهي، اجعلوا نهايته سريعة بضربة واحدة، وعاملوه بشرف ودعوه يستعد". التفت إلى الخائن الذي يراقبه. قطع سايروس الحبال التي ربطت معصمَي الرجل، ففرك أورونتاس ساعديه، راقب الأمير الذي لم يستطع اتباعه.

"سموك، هل لي أن أكتب لعائلتي قبل تنفيذ عقوبتي؟". قمع سايروس موجة من الغضب كان من شأنها أن تجعل أورونتاس ميتًا عند قدميه، ومع ذلك فقد كان أميرًا وابن والده. لذلك تمالك نفسه.

أجابه: "بالطبع". واستدار للمرة الأخيرة بعيدًا عن الرجل.

سمع الجميع تنهد أورونتاس، واستعداده لتقبل مصيره. في تلك اللحظة، سجد أورونتاس أمام أمير الإمبراطورية الإخمينية، بالرغم من أن عبء موته كان ثقيلًا عليه.

قال سايروس: "أيها القائد أريايوس؟".

كان الرجل جاهزًا لتلقي أوامره، وقبّل الرمال قبل أن يقول سايروس كلمة أخرى. أومأ الأمير برأسه وهو ينهض.

"أنت قائد القوات الفارسية، أنت القائد الثاني. أعطِ الأوامر للجميع باستثناء اليونانيين، وخذ الأوامر من كليرشوس. هل هذا مفهوم؟ هل ستخدمني بإخلاص بهذه الشروط؟".

قال أريايوس: "سأحمل هذا الشرف معي إلى القبر. سأجعلك فخورًا".

قال سايروس: "قم بعملك أفضل من الوغد أورونتاس".

استدار بحصانه، في الوقت المناسب ليشهد كليرشوس يركع ناحية أورونتاس قبل أن يزهق روحه. ذهب بيروكسينوس ونيتوس مع الأمير متوجهين إلى الأفواج، تاركين مينون للسير في أعقابهم، لقد حزن الفرس، على نحو يتناسب مع فقدان زميل لهم، لكن لم يعارض أحد منهم قرار الأمير. بحلول المساء سوف تتوغل الأفواج في الصحراء. كانوا سيتركون جثة أورونتاس وراءهم، تحت ضوء الشمس، لتقيم عليها النسور وليمة.

في المعسكر في ذلك المساء، أتى الأمير سايروس إلى قسم الإسبارطيين لمشاركتهم طعامهَم. وأعرب عن ندمه لعدم إحضاره الطعام عندما رأى مؤونتهم. ومع ذلك، فقد رحبوا به، وجلس معهم على الأرض الصلبة، ورفع رأسه إلى كليرشوس إذ قبِل الرجلان تناولَ بعض الحبوب والحليب، مع قطعة من جبن الماعز وتين مجفف.

سأله كليرشوس عندما انتهى الجميع من تناول الطعام: "ما الذي أتى بسموّك؟".

قال سايروس وهو يحدق إلى النار: "فكّر أورونتاس في القتال إلى جانب أخي". فكّر في طلب إشعال النار قبل أن يتذكر أنه كان عليهم حمل كل عصا من الخشب معهم في تلك الأرض المقفرة. لقد كانت الحياة في هذه المنطقة صعبة، من دون ماء، ومن دون الدفء في الظلام. أصبح الليل باردًا نوعًا ما، اصطكت أسنانه في أثناء حديثه، وشدّ على فكه.

"اعتقد أن القوات الملكية قريبة. أخبرني بأنه سيتقدم لعرقلة أولئك الذين يحرقون المحاصيل ويسممون الآبار. لقد كانت فكرة جيدة آنذاك ولا تزال كذلك إلى الآن".

قال كليرشوس: "اترك لي الأمر يا صاحب السمو. سأوكل بعض الرجال بالمهمة، أو ربما ذلك الأثيني الذي كان محبطًا لأن أحصنته أُخذت منه.

أجاب سايروس: "نعم... نحتاج إلى أعين تراقب بعيدًا، لمعرفة أين يخيّم أخي لكن... أنا لا أعرف شيئًا عن الرجال الذين اختارهم أورونتاس. هل يمكن أن يخونني بعض من حراسي؟ يصعب تصديق ذلك. كيف يمكنني الوثوق بهم الآن؟". أمسك كليرشوس بعبوة بجانبه وصنع قارورة.

في ضوء النار، بدا الأمر وكأنها مصنوعة من عاج أصفر، مع أشكال منحوتة على سطحها. راقب الظلال، وظن سايروس أنهم ربما يقومون ببعض الألعاب الرياضية، رغم أن ذلك لم يكن مرجحًا.

"هذا آخر إمداداتي يا صاحب السمو. ربما هذه هي الليلة المناسبة". قبل الأمير القارورة وشرب بعمق، اتسعت عيناه لأنها لدعته.

سأل بصوت أجش: "هل هذا مصنوع من العنب؟".

أجاب كليرشوس ضاحكًا: "القوارير، أعتقد ذلك". رفع العبوة وشرب.

"سموك، كان أورونتاس قائدًا جيدًا للرجال. أعلم أنه كان قريبًا لإحدى العائلات النبيلة، لكنه ترقى لأنه كان صارمًا وقويًا، وكانت لديه مهارة القيادة".

سأل سايروس: "ألهذا السبب أحنيت رأسك له؟".

"أرأيت ذلك سموك؟ كان ذلك لتشريفه لأنه كان شجاعًا بتقبل موته، تقبل الأخبار كإسبارطي حقيقي. هذا شيء نادر الحدوث. لقد رأيت رجالًا كبارًا يشتكون لأنهم تعرضوا للعض من قبل كلب رجل آخر. مثل الأطفال! نحن جنود سموك، نحن نتفهم أن غدًا يمكن أن يكون اليوم الأخير أو اليوم الذي يليه. لا يملك الجندي سيطرة على الوقت أو طريقة موته، بل يمكنه دائمًا اختيار طريقة مواجهته له". صمت لفترة من الوقت، مررا القارورة ذهابًا وإيابًا بينهما حتى فرغت. وجد سايروس أن الحرقة قد خفّت وأصبحت لطيفة نوعًا ما.

"ماذا بشأن الآخرين؟".

"اعتقد الآخرون أنهم ينفذون أوامرك. لن أفكر في الأمر أكثر من ذلك. يتعلم بعض الرجال القيادة، لا أعتقد أن تلك الخاصية تولد معنا، معظمهم على استعداد لينقادوا، مطالبهم قليلة في الحياة، فقط بعض النبيذ، والطعام، والدفء، وبعد ذلك الأطفال والمنزل. لا يريدون تحديد الاتجاه، عندما يكون هنالك مفترق طريق، لا يريدون أن يأتي الآخرون إليهم، يصيحون شرقًا أو غربًا. فهذا يُترك للرجال الأقوياء والوحيدين مثل سموك".

أجاب سايروس: "حسنًا، أنا ابن لاسيديمون. لديّ جمجمة فضية وبرونز مصهور في عروقي. لقد مشيت في شوارع إسبارطة وتذوقت مياه نهر يوروتاس الذي يمر بأراضٍ جافة. لقد وقفت على أكروبوليس في إسبارطة وصحت باسمي". ابتسم وهو يتكلم، لكن بدت الكلمات وكأنها طقوس جعلت الأمير يرتعش.

تثاءب كليرشوس فجأة، وتمدد مثل طفل. نظر إلى النجوم وهز رأسه.

"الليل خطِر سموك، سأرسل رجالي مع الأحصنة غدًا، سنجد هؤلاء المغيرين وسنشنقهم، أو سنجد جيش أخيك ونقطعه إربًا إربًا. ففي نهاية الأمر، هذا ما جئنا لأجله، كان على أورونتاس الانتظار لفترة أطول بعض الشيء". جلس الأمير على قدميه، وارتفعت معنوياته بسبب ما شربه وكلمات الإسبارطي. أحنى رأسه مثلما فعل كليرشوس مع أورونتاس، ثم ترنحّ عابرًا الكثبان الرملية وترك غطاءه وحزامه تحت النجوم.

نهض كليرشوس ليتمدد، وحدق إلى الأمير حتى اختفى. أحبّ الإسبارطي ذلك الشاب، بالرغم مما شعر به من انعدام الأمن وحاجته الدائمة إلى الاطمئنان. سيصبح ملكًا جيدًا إن أتيحت له الفرصة.

الفصل الثامن عشر



نفخت أبواق الإنذار في الظلام، تعثر الجنود الملتحون في أثناء نهوضهم من خيامهم، فخرجوا وأعينهم متعبة، ممسكين بسيوفهم ودروعهم. يمكن سماع صهيل الأحصنة الراكدة، يليه صراخ القادة وهم يستدعون رجالهم إلى الصفوف. استغرق الأمر بعض الوقت لارتداء الدروع، بالرغم من أنهم كانوا يتنفسون بسرعة، جلسوا في مجموعات، يعدّلون أربطتهم وأحزمتهم. لم يهجم أحدهم فجأة. تحدث القادة إلى المجموعات الجالسة، وحثوهم على الإسراع، مذكّرين إياهم بربط أحذيتهم، وإحكام تثبيت خوذهم، لقد كانت الفوضى في كل مكان، ولكن من المؤكد أنها لم تكن بين صفوف هؤلاء الجنود، وطرح سؤال على كل شفة ولسان هو مجرد تدريب من تلك التدريبات التي يحب القائد الإسبارطي القيام بها في الوقت الذي يكون فيه الجنود نيامًا.

ما لبثت المجموعات أن شكلت فرقًا وأفواجًا ولم يبدُ أن للذعر مكانًا في قلب أي منهم، وقد ملأت الصيحات الظلام. "اصطفوا هنا، يا ديميتريوس الأثيني!" أو "أول أربعة يجتمعون تحت راية البوق!" استدعى القادة رجالهم حسب الاسم والرتبة، إلى المواقع التي تدرّبوا أشهرًا ليشغلوها. استغرق الأمر وقتًا طويلًا، بالرغم من أن الجنود والقادة أحسوا بالوقت وكأنه لحظات.

تراجعت النساء المرافقات للحشد إلى الخلف، وهن يندهن للأحبة والعشاق بأصواتهن الشجية متمنياتٍ لهم الحظ والنجاة، وأن يكون النصر حليفهم. انتظر المحاربون اليونانيون والفرس على رمال الصحراء كما لو أنهم منحنى كبير مرسوم على الأرض. بالرغم من أن الأبواق توقفت عن العزف إلا أن الصمت لم يكن سيد الموقف فقد سُمع صرير الجلود، وأصوات قرع القفازات على الدروع، وصرير الدروع غير المشحمة التي جففتها الرمال والحرارة، لقد أصدر كل ذلك ضجة كالتي يمكن أن يصدرها مخلوق مظلم ضخم مصنوع من النحاس استيقظ متحمسًا للقتال.

لم يسحب الرجال الأكثر خبرة أسلحتهم، بالرغم من أن أيديهم كانت ممسكة بها. إذا كانوا سيقاتلون في ذلك اليوم لا محالة، فسيحتاجون إلى كل خدعة للحفاظ على قوتهم عندما تشرق

الشمس، ولم تكن في قلوبهم ذرة من وجل إلا من الحرارة، فقد عانوا ما عانوه منها، إذ أصبحت بشرة الجميع أغمق مما كانت عليه في ساردیس أو اليونان، بالرغم من أن جلود بعضهم كانت عليها آثار بقع متقشرة كبيرة، فالشمس قد أحرقتهم حتى العظم. أما البقية فأصبحت أجسادهم مغطاة بالرمل ولدغات الذباب والقمل.

لقد قطعوا شوطًا طويلًا على خُطى الأمير.

بالرغم من أن الجميع شعروا بالتوتر إلا أن وجودهم جنبًا إلى جنب أشعرهم بالراحة، وهم ينتظرون معرفة سبب عزف الأبواق. صلّى المئات للآلهة، وأمسكوا بتمائم أو تذكارات أحضروها معهم من الوطن، ورفعوها نحو شفاههم وتمتوا صلاةً قصيرة.

تبولوا على الرمال حيث وقفوا، حتى ارتفع البخار.

رفع الرجال بفخر الرايات عالية فوق الأفواج، رفرفت رايات بيغاسوس، والثور، والبومة فوق صفوف اليونانيين، في حين رفرفرت رايات الأسد، والصقر، والشمس فوق الأفواج الفارسية. أحضر الأغرار الماء إلى الأشخاص الذين طالبوا به، أو ذهبوا بسرعة لجلب بعض الأشياء المنسية التي لم يتذكرها الجنود في وقت استعدادهم المستعجل. في البداية كان الأغرار يصرخون ويصيحون بالرغم من أن أصواتهم العالية كانت أشبه بالهمسات في أثناء مرورهم بين صفوف الرجال، لقد كان هذا الجيش يغرق في ظلام لا ينيره إلا ضوء النجوم.

ظهرت فرقة شاحبة ومتعرقة في الشرق، جلبت معها أول نسيم في اليوم، كما لو أن طبقة من الرمال سوف تطرد الليل. كاشفة عن الطلائع العريضة لجيش الأمير سايروس، إنهم ينظرون شرقًا كما فعل جميع الرجال، إلى مصدر الضوء، إلى الشمس المشرقة التي أنهت كل مخاوف الظلام، واجهوا تلك المخاوف وانتظروا أشعة الشمس لتدفئ وجوههم، بدلًا من أن يكونوا عميانًا وخائفين.

كان الأفق كالشفرة المظلمة التي تفصل الأرض عن السماء. مع ازدياد الشحوب، صرخ أولئك الذين يتمتعون بنظر حاد صرخات تحذير، فيما ظل الباقون يحدقون ويتفحصون ما يحدث. بين اليونانيين والفرس، كان هناك الآلاف من الرجال الذين كان نظرهم ضعيفًا، بالرغم من أنهم يستطيعون القتال بشكل بارع في المساحات الضيقة. أمسك هؤلاء الرجال بأغرار المخيم، وأداروهم باتجاه النور وطلبوا إليهم أن يخبروهم بما يرونه فوق تلك التلال الداكنة.

نظر الأغرار بتوتر، ورأوا تموج الأفق كما لو أن الأرض نفسها تتحرك، أشاروا وصرخوا عندما انعكست أشعة الشمس هناك وظهرت الرايات، سمع جميع الذين حضروا مع سايروس أصوات الدمدمة المتوجهة نحوهم، رغم أنها بدت أشبه بسقوط الحجار من الجبال البعيدة، استمروا بسماع صوت هدير طويل، وما لبثوا أن رأوا في البعيد دروعًا سوداء وغبارًا تثيره حوافر الأحصنة. كان الجيش الإمبراطوري يسير في مجموعات بدت جاهزة للقتال، لقد غطت ظلال الجحافل الأرض بظل داكن.

هدرت بعض الأفواج متحدية الجيش الإمبراطوري، فدب الحماس في صفوف بعضهم وما لبثت الأصوات أن علت قبل أن تخبو مجددًا ويعمَّ الصمت الذي يشي بالذهول مع استمرار تدفق مجموعات الجيش الإمبراطوري، وكان هذا الجيش يتكون من كل الرجال الذين يعيشون على الأرض، لقد بدوا مثل أمواج البحر المتتالية. بدا جليًا أن رجال الأمير سايروس لم يسبق لهم أن رأوا مثل هذا العدد.

لقد كانت قوات سايروس مؤلفة من مئة ألف فارسي واثني عشر ألف يوناني إضافة إلى آلاف أخرى متنوعة. صحيح أن هذه القوات كانت رشيقة الحركة خلال توجهها إلى تلال بابل الخضراء، وقد أكسبها المسير عبر الصحراء الثقةَ بالنصر نظرًا لعددها التي ظنت أنه كبير، ولكن عندما رأت أعينهم الجيش الإمبراطوري عرفوا أنهم سيُسحقون بلا رحمة.

شعر أولئك الذين ساروا من سارديس مع الأمير بآلام في المعدة والمثانة، في حين تعرق الآخرون. لقد شعروا باليأس.

ألقى سايروس بخوذته إلى أحد حراسه الشخصيين، متفهمًا أنه يجب أن يظهر بمظهر القائد الواثق من نفسه، الأمر الذي سينعكس على معنويات قواته. امتطى حصانه، في ظل الرايات الخافقة، يحيط به بارفيس وستمئة فارس يعدون فوق الأرض الرملية. لم ينظر نحو جيش شقيقه، وفضّل بدلًا من ذلك أن ينظر إلى صفوف أولئكَ الذين جاؤوا باسمه. كانوا من نصيبه، بطريقة يصعب وصفها.

استقر كليرشوس واليونانيون عند الميمنة بالقرب من ضفة نهر الفرات، وكان تطويقهم مستحيلًا، ووقف سايروس في الوسط، رافعًا رايته الحريرية التي رُسم عليها نسر ذو جناحَين مرصعين بالحجار، نظر إلى اليسار واليمين، شاعرًا بالفخر لرؤيته رايات مئات الأفواج.

عند الميسرة امتدت الأفواج الفارسية بقيادة أريايوس، شغل سايروس المركز لأنه كان من المتوقع منه أن يقف هناك.

مع شروق الشمس ومشاهدة جيش أخيه يقترب أكثر فأكثر، بحث عن النسر الملكي الإخميني في الوسط إلا أنه لم تُتح له رؤيته.

أتى رجل يعدو بسرعة من بين صفوفه إليه متعرقًا وهو يتجول بين الفرس وركع بما يكفي تقريبًا ليختفي أمام حصان الأمير.

"سموك، يطلب القائد كليرشوس أوامرك النهائية. يرغب في أن تعلم أن جميع أوراق الغابة لا يمكنها التغلب على السيف". شعر سايروس بأن أحد جوانب فمه يلتوي، لم يستطع الإسبارطي مقاومة محاولة رفع معنوياته، كان كليرشوس بمقام الأب لهم جميعًا، في بعض الأحيان.

قبل أن يتمكن الأمير من الإجابة، رأى حارسه الشخصي يشير إلى اليسار، ويظلل عينيه أمام شروق الشمس. نادوا باسم أخيه. حدق سايروس شرقًا واستوعب ما كان يجري.

وقف شقيقه في الوسط. ومع ذلك، فاق عدد القوات في مركز الجيش الإمبراطوري كل قوات الأمير. للمرة الأولى، شعر الأمير بالقشعريرة، وشعر بصعوبة في التنفس.

نظر إلى يمينه بعد ذلك، وراء الشاب اليوناني الذي انتظر الأوامر التي طلبها كليرشوس، وبيروكسينوس، ونيتوس، وكان مينون هناك أيضًا، بالرغم من أن رجاله عُزلوا عن الفرس ليشكّلوا الجزء الأيسر الأكبر من القوة اليونانية، كما لاحظ سايروس. تشاجر اليونانيون وتقاتلوا فيما بينهم في المسير وفي المخيم، وهذه المشكلة لم يعانِ منها جيش أخيه.

صلّى سايروس إلى أهورا مازدا، أغمض عينيه، ونظر صوب الشرق.

خاطب المرسال: "ها هي ذي أوامري. قُل للقائد كليرشوس أن يتقدم مع الجناح الأيمن بأكمله وبسرعة، مبتعدًا عن الضفة، وليتوجه إلى مقدمة جيشنا، قبل أن يصبح العدو في المدى. عليهم أن يضربوا وسط الخطوط الملكية، حيث ترتفع رايات النسر على يسار المكان الذي أقف فيه. كرر ذلك لي". كرر المرسال الأوامر دون خطأ، بالرغم من أن عينيه توسعتا. في النهاية، انحنى وركع على إحدى ركبتيه قبل أن يرحل، والعرق يتصبب منه.

راقب سايروس صفوف شقيقه وهي تقترب باهتمام، لقد بدا كمَن يقف أسفل جبل وينظر إلى انهيار جبل ثلجي نحوه، ومع ذلك ظل ثابتًا في مكانه.

لاحظ كليرشوس أن المرسال عاد إليه. كانت الصفوف صامتة على الجناح الأيمن منتظرة أن يصبح العدو في مرمى ضرباتهم. كان الوضع جديًا، بالرغم من أن مرتزقة اليونان كانوا واثقين بما فيه الكفاية. لقد رأوا مستوى الجنود الفرس من خلال أولئك الذين تدربوا معهم، لم يُزعجهم احتمال مواجهة رجال مشابهين في المعركة. ومع ذلك، فإن أعداد العدو الهائلة صدمتهم. كانت مشاهدة الجيش يتقدم نحوهم مثل المد القادم عبر الخليج واقعيةً للغاية.

قال الشاب: "أنا... لدي أوامر... من الأمير".

أجاب كليرشوس: "ألا يجب أن تكون أكثر رشاقة؟ قد تضطر إلى القيام بذلك طوال اليوم يا بني".

"طلب الأمير تقدم قواتك نحو مركز العدو، هناك يا سيدي".

وأشار المرسال، بالرغم من أن كليرشوس لم يكلف نفسه عناء النظر. لاحظ بيروكسينوس الذي لم يكن بعيدًا، أن الرجل أكثر سعادة على صهوة حصانه من أي وقت مضى، أشار كليرشوس إلى المرسال كي ينتظر مع اقتراب بيروكسينوس رافعًا حاجبيه تعجبًا.

"طلب الأمير سايروس إلينا دفع قوات الفرس ومهاجمة حراس الملك في الوسط. يبدو أنهم على يسارنا".

قال بيروكسينوس على الفور: "لا يمكنني رؤيته من هنا".

"أغادر النهر؟".

"هذه... خطوة متهورة".

حدّق وهزّ رأسه: "الأعداء... قريبون جدًا لتجربة شيء كهذا، كليرشوس. لا أعلم إن أمكنني حتى أن أجعل رجالي يتحركون قبل أن يلحقوا بنا".

بوجود الجنود المستمعين من حولهما والمرسال الذي سيقدم تقريرًا، حدق القائدان إلى بعضهما بصمت. كان الأمر بمثابة ضربة حظ قد تودي بحياتهم جميعًا أو الضربة الوحيدة التي تتيح الفوز في المعركة قبل أن تبدأ.

لم يرغب بيروكسينوس في ذلك، لكن كليرشوس علم أن القائد سوف يتماشى مع الخطة إذا تأكد الأمر. قدم اليونانيون الآخرون المشورة، لكنهم كانوا منضبطين للغاية، استوعبوا أنه يجب على القائد أو الأمير في بعض الأحيان إرسال الرجال إلى حتفهم لحماية تل أو صف. كانت مهمتهم هي اتباع الأوامر وبيع أرواحهم في سبيل النصر. تطلب ذلك الثقة والإيمان بقادتهم.

تطلب الأمر أيضًا من الرجال فهم أن قادتهم قد يكونون على خطأ، وأنه يمكن أن يُرسلوا إلى الموت عن طريق الخطأ أو الكبرياء، ومع ذلك سيذهبون على أي حال.

ظل كليرشوس صامتًا لفترة، ولاحظ أن مينون يحاول معرفة ما كان يحدث، وهذا ما جعله يسرع في اتخاذ القرار. قال الرجل بعض الأشياء الحمقاء حول إسبارطة، ومسرحها، ونهرها الوحيد في وادٍ جاف، لو لم يكونوا حلفاء، لكان كليرشوس قد ذهب في مهمة إلى هناك. ظن أنه لا يزال بإمكانه إذا نجا من المعركة، إرسال مينون إلى أقصى اليسار في الجناح اليوناني ليخفض رتبته، بالرغم من أن الرجل لم يبدُ أنه فهم ذلك.

قال كليرشوس: "عُد إلى الأمير سايروس. أخبره بأننا سنتقدم كما طلب". انحنى المرسال وسرعان ما غادر. استدار بيروكسينوس من حيث كان يحدق إلى خطوط العدو، ونظر إلى كليرشوس مرة أخرى.

"إذا تجاوزت الميدان، فسيحاصروننا يا صديقي ويتداخل جيش الملك على يسارنا. إذا هجمنا من اليمين أيضًا، فسيطوقنا الجناحان وهكذا... وهكذا ينتهي الأمر".

قال كليرشوس: "نعم، قبل أن نتمكن من اختراق الوسط، علينا أن ندفع الجناح إلى الأمام. إذا استطعنا فعل ذلك بسرعة، عندها نستطيع التوجه مباشرة نحو الملك في الوسط. لن أسمح للأمير سايروس بالقول إننا لم نطع أوامره، لكن سيتعين علينا أن نتخطاهم جميعًا أولًا".

ضحك بيروكسينوس: "أنت تعجبني أيها الإسبارطي".

أجاب كليرشوس: "لا يهمني ذلك". لم يكن واضحًا ما إذا كان يمزح أم لا، فتلاشت ابتسامة بيروكسينوس: "عد إلى رجالك. أخبرهم بمواكبتنا". نظر كليرشوس إلى الوراء إلى رجلين يقفان مع

بوقين فضيين طويلين.

قال، "انفخا إشارة البدء".

تفحص ما إن كان سيفه حرًا من غمده، وكذلك خنجره. شعر أن وزن درعه مناسب، ربّت صديق قديم على ذراعه الأيسر، مدّ يده وسُلم رمحًا، أمسك به وابتسم، كانت تعابيره رهيبة.

نُفخ البوقان، مرارًا وتكرارًا. انطلق الإسبارطيون، بقيادة الجناح اليوناني ضد الجيش الفارسي.

ساروا بمحاذاة ضفة النهر اليمنى وتطايرت عباءاتهم، رأوا أمامهم لوحة فسيفساء مكونة من الفرسان والرماة ذوي الدروع البيضاء، لقد صنعت العربات التي جرتها الأحصنة خطوطًا على الرمال أمام الباقين. وشكل حاملو المناجل ذات الشفرات الحادة عدوًا مخيفًا، كانوا تحت قيادة تيسافيرنيس، الذي ارتدى معطفًا أبيض، وامتطى حصانًا رماديًا.

شاهد سايروس تقدم اليونانيين، وعندما رأى أنهم لم ينحرفوا صوب المسار الذي حدده لهم، صر أسنانه حنقًا، فشقيقه لا يزال بعيدًا عن مكان تقدمهم، يبدو أن كليرشوس لم يفهم أمره، فأمسك برمحه حانقًا وهو على صهوة حصانه وغرسه في الأرض.

عندما سقطت أشعة الشمس على مياه النهر إلى اليمين منه بدت المياه متلألئة، لقد أدرك الخطوة التي أقدم عليها كليرشوس، فهو لم يرغب في أن تطوقه وحدات الجيش الإمبراطوري الجرار، ولكن يبدو أنه لم يفهم لماذا طلب إليه التوجه إلى أخيه مباشرة، فما إن تنال وحدات كليرشوس من أرتحشثتا حتى يصبح سايروس وريثًا للعرش، وعندها سيصبح من الطبيعي أن يأتمر الجيش الإمبراطوري بأوامر سايروس.

رأى كيف أن قواته اليونانية تندفع صوب الجيش الإمبراطوري، لقد بدوا مثل ولد واحد يحمل عصا وقد قرر مقاتلة فوج بأكمله.

ازدرد سايروس لعابه، بما أنهم نفذوا أمره بالتقدم من دون تردد، ما كان يستطيع البقاء مكانه ويراهم يُسحقون.

"تقدمٌ عام، بثبات الآن، تقدموا نحو العدو". نُفخ في الأبواق على طول الصفوف. لقد بدأت أفواج الأمير الفارسية بالتقدم، ولكنها بدت مثل مربعات سوداء صغيرة مقارنة بالجيش الإمبراطوري. ومع ذلك، فقد أظهروا شجاعة قل نظيرها، أخذ سايروس مكانه في مقدمة الصفوف الأمامية، مدركًا أن الوصول إلى أخيه سيكون مستحيلًا فهناك أعداد كبيرة تحيط به، ولكن لم تكن أمامه خيارات كثيرة فإما الهجوم مباشرة نحو الوسط وإما المهاجمة من خلال الجناح الأيمن صوب الجناح الأيسر الأكثر ضعفًا في الجيش الإمبراطوري. ما إن أصبحت المسافة التي تفصل بين الجيشين ثمانمئة خطوة حتى شد الرماحون والرماة أكتافهم وأذرعتهم واستعدوا للقتال، في حين تشبث الآخرون بدروعهم متمنين ألا يُسحقوا.

كتم سايروس أنفاسه عندما رأى الصفوف حول شقيقه. أخفي الملك أرتحشتا عن الأنظار بالجنود والعربات. رُفعت مجموعة من الرايات على يسار الأمير؛ رايات النسر الذهبي الإخميني.

أقحم سايروس لافتات النسر الخاصة به إلى ساحة المعركة. سيسقط أحدهما.

تقدم كليرشوس مع ثمانية صفوف من الإسبارطيين وأربعة آخرين من الهيلوتس، يتكون كل صف من مئتين وأربعين رجلًا. وتبعتهم قوات بيروكسينوس ونيتوس، وسيكون مينون في أعقابهم. حملق كليرشوس بسخط عندما رأى العربات المقبلة، مع العلم أنها ستكون مخيفة لأولئك الذين لم يسبق لهم رؤيتها من قبل.

خاطب الصفوف: "انظروا كيف تكافح هذه العربات القديمة في الرمال، أخبروا الرجال أن يقفزوا فوق تلك الشفرات. نحن نتمتع بلياقة بدنية عالية". ضحك الإسبارطيون وقرروا فجأة عدم منح الفرس الاحترام الذي طلبوه.

هتف وهو يسير على طول الطريق: "أيها اليونانيون! من يستطيع الوقوف في وجهنا؟ لا أحد، بالرغم من غرورهم. نحن محاربون، لم يسبق للعالم أن شهد مثلنا. هومايمون- نتشارك نفس الدم. هوموتروبا- نفس العادات. هوموغلوسون- اللغة التي نتحدث بها". علا صوتُه حتى وصل إلى ذروته، تضخم في الصدى والأثر.

"وهوموثريسكون- نفس المعابد والآلهة. هذا هو سبب انتصاراتنا، نحن شعب واحد، لا يتجزأ. اليوم نحن لسنا إسبارطيين، أو صقليين، أو أثينيين. نحن هيلينيين، نحن رجال اليونان، هل نريهم ماذا يعنيه ذلك؟" هدر الإسبارطيون هديرًا عظيمًا واستجاب الباقون، كشروا عن أسنانهم وهم يسيرون، شيئا فشيئًا ازدادت وتيرة تقدمهم، علموا أنهم أصبحوا في مدى الأسهم والمقاليع. لقد حان الوقت.

ترجل الفرسان عن أحصنتهم وصفعوها لتذهب بعيدًا عنهم. تناول الأغرار الذين ركضوا على طول الصفوف ألجمة الأحصنة، وأعادوها إلى المعسكر الذي يقبع على بعد أميال عدة إلى الوراء، وهتف الجنود بصوت عال.

صاح كليرشوس: "ضاعفوا من سرعتكم".

سُمع الأمر يتردد على طول الصف، وصاح رجال الجيش معًا، وبدا صوتهم كدوي الانفجار. لقد كان تحديًا لمن واجهوهم.

وبدأ الآلاف بإنشاد أنشودة الموت.

صاح كليرشوس: "جهزوا دروعكم ورماحكم".

فجأة صعّد الجيش الإمبراطوري، وسرعان ما امتلأ الهواء بآلاف السهام، مثل شفرات من العشب أو الشعر الداكن أمام الشمس.

"ارفعوا دروعكم، حافظوا على وتيرتكم". لم ينقطع نفسه، فقد واظب على التدريب يوميًا وهذا ما أبقاه لائقًا. "اشتبكوا مع العدو، حافظوا على التشكيل، حافظوا على الانضباط، لأجل الأمير سايروس، لأجل اليونان وأثينا، بحق الآلهة، لأجل إسبارطة" لقد حافظ على سلسلة من الأوامر، في حين تقدم رجاله مثل شفرة تتمايل حتى أصبحوا على بعد مئة خطوة. لقد انتهت الأنشودة بالحزن بدلًا من الهدير، لكنها أصابت العدو بالرعب.

انهالت الأسهم على الدروع، ولكن مرّ معظمها فوق رؤوسهم، إذ أطلق الرماة الأسهم من دون أن يعيروا أهمية للوتيرة. حافظوا على التشكيل حتى النهاية، ضرب وابل من الرماح اليونانية الخطوط الأمامية. انطلق الهيلوتس من بين الصفوف، وحافظ الإسبارطيون على رماحهم التي يحملونها منخفضة، لقد شكّلوا ما يشبه جدارًا من الأشواك.

بدأت قوات الفرس التي يقودها تيسافيرنيس الهجوم قبل أن يصل إليهم اليونانيون، وكالعادة انهارت الصفوف الأمامية وعمت الفوضى عندما بدأ الفرس يهربون من الإسبارطيين التي كانت أيديهم تحمل الموت على طبق من رماح، عندها علقت عجلات العربات بالرمال، وانقلبت عندما انحرفت الأحصنة.

هلّل كليرشوس عندما رأى أن الطريق أمامه أصبحت سالكة، لقد فر الأعداء من أمام الإسبارطيين كالأغنام والماعز، وكان الموت نصيب كل من كان بطيئًا في الفرار، ولكنهم حافظوا على الانضباط. صاح كليرشوس محذرًا فالخوف الدائم لأي قائد هو أن يصل رجاله إلى حالة من الغضب ويخرجوا عن التشكيل. لقد رأى جيوشًا من قبل تصنع الغوغاء. وكان دمار تلك الجيوش عاقبة هذه الغوغاء.

رفع جنوده الدروع، على نحو لم يستطع مَن خلفهم المرور دون تخطيهم.

تقدموا بثبات، دروعهم جاهزة والرماح تطعن الأعداء. سحبت بعض الصفوف وراءهم الخناجر لطعن الأعداء، كانوا يطعنون في أثناء تقدمهم كل من نجا وتخطى الصفوف الأمامية، كي لا يعيق تقدم الصفوف الخلفية المتقدمة بسرعة.

كانت مذبحة فظيعة تلك التي حلت بجناح الجيش الإمبراطوري، وقد تضرج كل الجنود اليونانيين بالدماء- ليست دماءهم بل دماء الفرس- ولم ينجُ إلا من كان يمتطي صهوة حصان، طلب تسافيرنيس إلى آلاف الرماحين ورماة المقاليع الإحاطة به وهذا ما حال دون أن يصل إليه اليونانيون ويزهقوا روحه.

رأى كليرشوس وبيروكسينوس الرجل يمتطي حصانه وقد أحاط به رافعو الرايات البيضاء، وشاهدا تراجعَه، وعندما لاحظ كليرشوس تجمع الفرسان الأثينيين استعدادًا، طلب إلى القوات الأقل نخبوية التقدم، وطلب إلى الفرسان الاستراحة.

وجب على كليرشوس أن يهدر على رجاله لإيقافهم في أثناء توجههم نحو الأمام، مخترقين القوى الرئيسة، وأصبح بإمكانهم أن يلمحوا النهر المقوس والسهول وراءهم. لقد تاق أرغوس إلى

أن يرى ما يحصل في هذا المكان. لقد أبلوا بلاءً حسنًا، لكن بالرغم من هذه المذبحة التاريخية لم يبدُ أن الجيش الإمبراطوري قد مُس بعد، لقد تراجع جنود أرتحششتا مخلفين وراءهم قتلاهم وجرحاهم، وخوفًا سكن قلوبهم لِمَا رأت أعينهم.

قال كليرشوس: "الآن إلى اليسار، شقوا طريقكم إلى الوسط".

التفّ هو واليونانيون باتجاه مقدمة الجيش الإمبراطوري، وهذه كانت أقصر الطرق لبلوغ المكان الذي يوجد فيه أرتحششتا، تنفيذًا لأوامر سايروس، لقد كان كليرشوس متحمسًا بالرغم من تعبه، فهذه المعركة كانت أصعب ما خاض في حياته. ارتفعت حرارة الشمس وشعر بجفاف لعابه، لم يكن هناك أغرار يحملون الماء في الجوار، لذا تجاهل عطشه ونظف سيفه في لحظات الراحة.

عندما التفت، أرسل بيروكسينوس إلى الجناح مع صف من الرماة الكريتيين، لصد أية محاولة قد يقوم بها تيسافيرنيس لحشد الرماة الفرس وشن هجوم مضاد. في تلك الأثناء، أدرك أن تسافيرنيس خسر كثيرًا من الجنود، وأراد كليرشوس أن يكبده مزيدًا من الخسائر، فالأرض دائمًا متعطشة للدماء ولم يُرد أن يبخل عليها ما دام الري سيكون من دماء الأعداء. لقد رأى أن أحد الرجال قد علق بشفرات دولاب إحدى العربات، ولكن أكثر ما أجفله كان رؤيته رجله يقاتل مكافحًا للنجاة، هذا المشهد ذكره بأن مفتاح نجاح قواته هو الاستمرار في الهجوم وتزخيمه، فإن استعاد الجيش الفارسي أنفاسه وجمعَ شتات شمله فسيسحقهم.

الفصل التاسع عشر



شعر سايروس بالخوف يتملكه، مما جعله يريد الخروج من الميدان على متن حصانه. لم ير شيئًا مثل هذا من قبل، شعر بانقباض في حلقه، لم يستطع التنفس إلا بصعوبة وشعر بقلبه ينبض بصوت عالٍ بما يكفي ليسمعه مَن حوله ويعلموا أنه خائف. لقد رأى موته في الخطوط الواسعة واللامعة لنهر الفرات.

تمتم لنفسه: "أنا أمير، من الإمبراطورية الإخمينية. أنا ابن الملك داريوس، حفيد خشايارشا. لن أهرب من هذا، بل سوف أواجهه". شاهد أمامه كليرشوس يقود اليونانيين، بدوا وكأنهم رجال يتسابقون تحت موجة عملاقة قبل أن تنهار عليهم. تجمع الفرس حولهم وطوقوهم، وبدا أن موجة الجيش الإمبراطوري على وشك أن تُغرقهم.

وعندما نظر سايروس إلى يساره رأى أعوان شقيقه الإمبراطوريين يطوقون جناحه بأفواج كاملة، لم تكن لديه الأعداد الكافية لمنعهم من تطويقه، لم يكن هناك شيء يمكنه أن يدمر إرادة الرجال على القتال إلا معرفتهم أن طريق التراجع أصبح مقطوعًا، وهذا ما كان يحصل الآن فقد طُوقوا، لقد كان هذا المخطط بسيطًا ويستطيع الجيش الإمبراطوري تطبيقه بيسر وسهولة نظرًا لتفوقهم العددي، لقد كانت خطتهم تقليدية تقتضي بجلب الدمار والخراب بسرعة وبأعلى مستوى من الوحشية، وهذا ما أشعرَ سايروس بجفاف حلقه.

إن تمكن جيش أخيه من الالتفاف حول جيشه فسينتهي كل شيء، ولكن إن سقط أخوه، فسيصبح هو الملك، وذلك هو المهم.

صحيح أن أرتحششتا جلب كل رجال العالم إلى ذلك النهر العظيم، إلا أن نتيجة الحرب لن يحسمها إلا رجلان؛ شقيقان. شعر الأمير بالهدوء، تنفس بعمق، لم يعد ذلك صعبًا، لم تكن الأمور معقدة. ضربة واحدة كفيلة بإنهاء كل شيء.

لقد أحاط بالأمير ستمئة فارس من النخبة، أولئك الذين كان يُفترض بهم مرافقة أورونتاس، لقد شعروا بالعار وهم يسعون لإزالة الشكوك التي تحيط بهم وأبدوا استعدادًا للقتال ببسالة لإثبات ولائهم.

عندما رأى سايروس أن صفوف شقيقه تتداخل، علم أنه لم يبق له سوى خيار واحد؛ سيغامر بحياته، وسيكون رأس الحربة، ولكن عندما تُرمى تلك الحربة لن يكون استرجاعها ممكنًا مرة أخرى.

صاح: "بارفيس".

نظر الرجل إلى الأعلى، وشعر بالرضى لأن الأمير يحتاج إليه.

صحيح أن بارفيس امتطى حصانًا، لكنه لم يكن محاربًا قويًا مثل حراس الأمير.

خاطبه سايروس: "تراجع الآن. هذا المكان ليس مخصصًا لك". رأى الأمير الاستياء على وجه بارفيس، لم يهتم باستيائه بقدر اهتمامه بحياة بارفيس. وانشغل سايروس بالصياح لرجل آخر.

نادى: "أيها القائد هاديد".

تقدم القائد وانحنى لتلقي الأوامر، لكن لم يكن هناك وقت. كانت المسافة بين الجيشين تتقلص، وبعد قليل لن يكون هناك مجال للفرار عندما يشتبكون.

"ليأتِ حراسي معي". تقدم سايروس واثقًا من أنهم خلفه.

وجد سايروس نفسه مبتسمًا وقد أصبح الهواء عاصفًا، وإيقاع عدوِ حصانه أشبه بالطبل، جلس منتصبًا على صهوة حصانه، ثم مال ناحية كتفَي الحصان حتى تصبح الحركة أكثر انسيابية، كان يحمل رمحًا بإحدى يديه، وقد علّق سيفًا خلف ظهره، وكان على أتم الاستعداد لاستخدام أي منهما.

ظهرت أعلام شقيقه، لمح سايروس حراسه يركضون جنبًا إلى جنب مشكلين نوعًا من أوتاد الحماية، كان ذلك جنونيًا، لكنه وجد تحديًا في الصفوف القادمة. اختفى صوته بين هدير الحوافر والرجال، ولكن لم تكن هناك كلمات، مجرد صراخ هائل ووعود بالانتقام. شعر سايروس بالدموع في عينيه

علم العدو هويته بالطبع. منذ اللحظة الأولى التي خرج فيها الأمير من بين أفواجه عرفوه، فلم يكن باستطاعة أي شخص أن يحيط نفسه بستمئة فارس ما لم يكن أميرًا من العائلة الإخمينية. تأرجح أولئك الذين في المقدمة إلى الأمام والخلف في حين توجه حصان الأمير إليهم بسرعة، لم يعرف سبب تأرجحهم أكان خوفًا من التقدم أم خوفًا منه، لقد كانوا شاحبين في أثناء انطلاقهم. لحق بهم خلال لحظات، قبل أن تأتي الأوامر الجديدة ويتغير التشكيل.

أفسح بعضهم الطريق بدلًا من الوقوف ضد هؤلاء الرماح والفرسان الذين ينقضون بسرعة. تراجع العشرات أو ألقوا بأنفسهم أرضًا. أولئك الأكثر شجاعة أو الذين لم يتمكنوا من القفز جانبًا، أُسقطوا فجأة، وتحطمت أجسادهم، شعر سايروس بشيء يلدغ ساقه، رأى رجالًا يندفعون بأحصنتهم بجانب حصانه، سمع صراخهم فيما تلاشى النحيب من الخلف، وقاد حراسه نحو حراس أخيه.

للحظة، سكن كل شيء عندما التقت أعين الملك والأمير، نسي سايروس أنه كان يسير عبر الرجال ولم ير سوى عينَي أرتحشتا المندهشتين، اتجهت الخوذة المزخرفة لمواجهته. كان فم شقيقه مفتوحًا وأحمر، وكانت يده تسعى لاستلال السيف، لكن سايروس كان سريعًا جدًا، وقويًا جدًا، ومتوعدًا بالانتقام. زرع رمحه في صدر شخص غريب، وأمسك سيفه في يده. رفع النصل عاليًا وضرب باتجاه رقبة شقيقه الذي تراجع بعد أن صرخ مرعوبًا وولى الأدبار.

اصطدم السيف بمعدن، والتوت يد سايروس لأن سيفه علق بطرف الدرع، ومع ذلك فقد رأى الدم. كانت لحظة من الوضوح التام، الهواء العليل والبارد. تنفس سايروس شيئًا بنكهة الانتصار.

لم يكن لدى كليرشوس وقت للشعور بالرضى. قاد القوات اليونانية نحو الجيش الإمبراطوري، وحرمهم من أية فرصة لتجميع صفوفهم. لم يستطع الفرس الرد بسرعة كافية. بحلول الوقت الذي فهم فيه قادتهم ما كان يحدث، تسلل الأسبارطيون إلى فوج جديد. لقد شقوا طريقًا متقدمًا إلى الأمام في الوقت الذي كان فيه الرجال يستديرون ويركضون بدلًا من أن يواجهوا تلك العباءات الحمر والسيوف التي تقطر دمًا.

قاتل كليرشوس مستخدمًا رمحه وكذلك درعه إلى جانب رجال عرفهم طيلة سنوات. في ذلك اليوم، اتحدوا جميعًا في كوناكسا، بجوار نهر الفرات، ثعبان الحياة العظيم الذي جعل الصحراء خضراء.

صاح كليرشوس على رجال بيروكسينوس الذين يعدُون وراءه: "ماذا تظنون أنكم فاعلون؟ أبقوا مسافة مناسبة بين تلك الصفوف" عادوا إلى الوراء، وهدأ غضبه الغريب فجأة في وجه العدو. بما أن كليرشوس تمكن من العثور على الوقت المناسب لملاحظة التشكيل السيئ، فربما لم يكن الأمر يائسًا كما اعتقد بعضهم.

لم ير أي منهم هذا العدد من الناس في مكان واحد من قبل، ليس في مسرح ديونيسوس في أثينا، وليس في حشود بساتين دلفي المقدسة. لقد كانت لمحة عن إمبراطورية أكبر من أي شيء يمكن تخيله، وبإمكانهم فقط الضغط والتوجه نحو الأمام.

احتفظ اليونانيون بتشكيلهم في الميدان، بمئتين وأربعين إسبارطيًا وبعض الهيلوتس في الطرف الأمامي، وأربعين رتلًا يسيرون وراءهم. قاتلوا باحتراف وهدوء شديد. لم يخرج أحد عن الرتل لمتابعة أحد الأعداء الفارين. ساروا إلى الأمام كما لو أنهم اتبعوا طريقًا ضيقًا وقتلوا أي شخص يعترض طريقهم، وتم تجاهل الذين كانوا على الجانبين ما لم يهجموا.

توجه اليونانيون نحو الأمام مع الدروع المرصعة بالسهام المكسورة وقطع الحجارة المفتتة. لم يشاهد العدو سوى خوذات لم يتمكنوا من اختراقها، ودروعٍ مستديرة. كان الإسبارطيون رجالًا أشداء، لم تُعرف لهم نقطة ضعف.

انطلقت الرماح اليونانية من جهة اليونانيين مثل ألسنة الثعابين، وعادت دامية.

رأى كليرشوس أحد رجاله مذهولًا. حلق شيء ما فوق الصفوف المزدحمة واصطدم بخوذته مثل الجرس. لقد لفت انتباه القائد وجعله ينظر إلى الرجال بعينين جديدتين، وكانت صفوف الجبهة قد بدأت تتباطأ بسبب التعب.

صاح: "بيروكسينوس، هل تسمح لرجالي بحصد المجد؟".

نظر القائد الآخر إلى السماء.

أجابه بيروكسينوس: "اسمح لي بالعبور وسأريك ما هو المجد. لمَ يجب أن تكون دائمًا في الصدارة أيها الإسبارطي؟ هل تعرضت للتنمر في صغرك؟".

قال كليرشوس: "صحيح كيف عرفت؟". رغم أنه ابتسم ابتسامة عريضة، وهز رأسه وهو يتحدث. قبل عيد ميلاده العاشر، فاز بثلاث مباريات ملاكمة أمام فتية إسبارطيين أطول وأقوى منه، وفاز بالأخيرة ويده اليمنى مكسورة. فرك يده عندما تذكر ذلك.

"أيها الإسبارطيون خففوا من سرعة تقدم الصفوف الأمامية. تراجعوا قليلًا، لقد أريتموهم كيفية القيام بذلك. الآن دعوا بيروكسينوس يرينا ما تعلمه، أخبر مينون أن يتقدم على يسارنا، بستين صفًا، وأن يحافظ على وتيرة التقدم". كانت تعابير الإسبارطيين مخفية بسبب نظراتهم الباردة من أسفل الخوذ، لكن كليرشوس علم أنهم مرهقون.

تمتع رجاله بأجساد قوية، لكن مهما كانت قوية فهي بحاجة إلى الراحة. لم يكن هناك ما يتعب الرجل أكثر من القتال، والتحطيب. نظر كليرشوس إلى الصفوف، راقبها بحثًا عن نقطة ضعف أو تشكيل مبعثر.

أبقى أسلوبه واضحًا وبسيطًا، فقد كانت قيادة ثلاثة آلاف رجل في ظل حرارة مرتفعة ومعركة شرسة شيئًا متعبًا. لطالما مات رجال في المعارك، بسبب قلّة الانتباه أو حصول هجوم مباغت عندما ظنوا أن الطريق مفتوح لهم ليتقدموا.

مع ذلك، سواء ارتاح الجنود أم لا فإن مصيرهم الموت في ساحات المعارك وإن كانوا أفضل المحاربين في العالم. كل شخص قابلوه وقتلوه كان نشيطًا وقد دخل المعركة حديثًا، لا يمكن سوى للآلهة القتال طوال اليوم دون راحة.

شاهد كليرشوس الإسبارطيين يبطئون من وتيرتهم الوحشية.

صاح الفرس في المقدمة كلما رأوا أعداء مكروهين يتداعون. وجد كليرشوس نفسه يزمجر، يريد أن يقطع الإثارة عنهم. رأى بعض الرجال يرتدون دروعًا سوداء قد اتخذوا موقعًا، لكن بروكسينوكس ومينون هما من سيواجهانهم.

صاح بيروكسينوس من فوق كتفه: "أنا في الموقع، كليرشوس، اذهب وأرح قدميك".

"سأبقى. أرغب في مشاهدة مينون في معركة حقيقية. لطالما تحدث كالأبطال".

استدار مينون وصرخ: "العدو أمامنا، أيها الإسبارطي". فضحك كليرشوس.

لم يعجبه الرجل حقًا، لكن كانت هناك بعض الحقيقة في ما قاله. إذا قاتل مينون كما اشتكى، فسيكون بطلًا بالفعل، وسيتناسى كليرشوس عن سائر سيئاته.

أمكن لكليرشوس سماع صليل السيوف وقعقعة الأسلحة في جميع أنحاء الميدان. ساد الموت في كل مكان، تلوثٌ لاذع في كل نفس، إنه أكثر من يعلم أن ميدان المعركة هو مكان للخوف المستمر. لذا، وجب على القائد الجيد أن يركز على المهمة الماثلة أمامه، وألا يقلق بما يجري في مناطق أخرى من المعركة ويفقد تركيزه. كان رجاله قادرين على تحقيق نجاحات كبيرة، لكن تعين جمعهم واستخدامهم مثلما يتعامل البخيل مع عملاته المعدنية. بالكاد جلب الأمير سايروس اثني عشر ألف يوناني إلى بابل، سيكون على رجال الأمير والملك من الفرس تحمل وزرِ المعركة إلى حدّ كبير.

رأى سايروس شقيقه يسقط عن حصانه فابتهج، تلاشت جميع مخاوفه، شعر بالوضوح والهدوء حين رقد أخوه على ظهره وبصق دمًا. أُخذ أرتحشتا على حين غرة، ووقع عن حصانه وهو يعدو، بالكاد تحرك حصانه. بعد مسافة قصيرة سيكون باستطاعة سايروس ذبح عنق شقيقه، وتلطيخ تاج الإمبراطورية الإخمينية بالغبار.

رأى الأمير رجالَ شقيقه ينظرون إلى سيدهم، بالرغم من أن أرتحشتا شعر بالدهشة ولم يتمكن من إعطاء الأوامر. نظر سايروس إلى الأعلى لرؤية وجوه يعرفها، ووجوه تعرفت إليه، أصبح محط تركيزهم، إنه الرجل الذي تجرأ على ضرب الملك. اندفعوا نحوه، وعلى نحو مفاجئ رأى بارفيس يمتطي صهوة حصانه ويندفع نحوه لحمايته. عصى أوامر الأمير لحمايته في المعركة، لقد استخدم بارفيس حصانه لاعتراض طريق ثلاثة حراس إمبراطوريين.

لم يلحظ سايروس أن أحدهم قد قذف رمحًا، إنه أحد رجال الملك، كان الرمح في طريقه نحوه، وأحس به عندما لمس وجهه وحطم فكه، لم يستوعب ما الذي جرى، كان منتصرًا في لحظة وفي لحظة أخرى انقلب المشهد ورأى الشمس تبهت في السماء في الوقت الذي كان يهوي بشدة نحو الأرض، سمع صوتًا وهو يكافح للنهوض، ورأى الدماء تتدفق منه، لقد كانت إصابته بليغة.

شعر بشظايا تتحرك على لسانه، مثل شظايا الفخار المكسور. هز رأسه، لكن الحركة زادت الأمر سوءًا. رأى بارفيس يقف فوقه رافضًا الابتعاد ومُؤْثرًا الذَّود عن أميره في وجه الأعداء.

راقب سايروس الرجل الصغير وهو يقتل حارسًا إمبراطوريًا بضربات صارمة. وبعد لحظة، مُزِق بارفيس أشلاء، سقط وهو يحدق إلى الأرض الرملية.

أسند سايروس ذراعه على الأرض لينهض، وصرخ عندما لم يستطع حمل ثقله. حدق إلى يده اليمنى، غير قادر على فهم كيف يمكن أن تعجز ذراعه عن الإمساك بالسيف المستلقي إلى جانبه على الرمال.

استعاد حاسة السمع، بالرغم من أنه لم يدرك أنه أصيب بالصمم لفترة من الوقت. بدا النور ساطعًا جدًا، وسمع صليل السيوف. ترجل حراسه عن أحصنتهم وضربوا طوقًا حوله لحمايته، أحاطوا به وأحصنتهم من حولهم. هدر جنود أخيه كالرعد في التلال. اندفعوا كالسيل الجارف، رأى سايروس الرجال يُذبحون، يسقطون حوله تقريبًا. شعر بأنه يستعيد حواسه، إحساسه بما كان يفعل وبالمكان. لقد كان بحاجة فقط إلى لحظة لالتقاط أنفاسه، للعثور على القوة لمواجهة أخيه مرة أخرى.

رأى سايروس أن أرتحششتا ينهض، ويمسك سيفًا. كانت ذقن أخيه مضرجة بالدماء التي بصقها وسار وهو يضع يده على جانبه الأيسر، وقد انحنى على أضلاعه المكسورة. كافح سايروس للوقوف مرة أخرى، ولكنه لم يجد في نفسه طاقة لذلك. رأى شقيقه يقاتل أحد حراسه وجهًا لوجه، سقط سيف الرجل أرضًا وقطعه إربًا بثلاث ضربات وحشية. كان أرتحششتا يبحث عنه، لم يكن من المنطقي بالنسبة إليه أن يقاتل بتلك الطريقة في جميع أنحاء الميدان. صبغ شقيقه لحيته باللون الأسود، وارتدى درعًا اعتاد والده ارتداءه.

جاء أخوه ليقف فوقه، فسحب سايروس خنجرًا مخفيًا من حزامه. حاول التحدث، لكن فمه كان ممزقًا ومليئًا بالدماء. بدأ بالتحرك، لكن الملك وضع قدمه على صدره وضغط عليه.

قال أرتحششتا، رافعًا سيفه: "شكرًا لك يا أخي. لم أعتقد حقًا أنني الملك إلى أن وقفت أمامي، أتفهمني؟ لقد أعطيتني اليوم... هدية عظيمة". تحرك سايروس في أثناء تحدثِ أخيه، لكنه كان بطيئًا للغاية.

ضرب أرتحششتا بسيفه. أصاب سيف الملك عنق سايروس وقطعه تقريبًا.

تألم سايروس، ولكن روحه كانت قد أُزهِقت ولم يعلم بعدها أن أخاه قد ضربه بسيفه مرارًا وتكرارًا، ثم انتزع رأسه ورفعه ليريه أولئك الذين وقفوا في رعب في كل مكان. شخصت إليه العيون، إلا عينَي سايروس، فالرأس كان بيد شقيقه والروح بيد الإله.

أدار أرتحششتا رأس شقيقه لينظر إليها، حدق لفترة من الوقت قبل أن يقبل شفتيه بما بدا أنه تصرف حنون.

كانت رحى المعركة لا تزال تدور، لكنه لم يكن قلقًا.

كانت الحياة الوحيدة المهمة هي حياة سايروس، وها هو ذا قد سلبه إياها، تمامًا كما وعد والده منذ سنوات عديدة. لمعت في عيني الملك دموع الفخر والذكريات. حتى إن والدته لن تستطيع

لومه فهو تصرف كما يفترض بالملك التصرف للحماية. لقد تحدى سايروس سلطة أخيه، فخرج مدرعًا، لمواجهة هذا التهديد. في ذلك اليوم، جعله سايروس ملكًا حقيقيًا وهذا ما لم يستطع أخذه بالدم والميراث. بدافع غريزي، ركع أرتحشتا للصلاة، ضم أصابعه في قبضة أمام فمه وقد أحنى رأسه. في تلك اللحظة، اقتنع بمشيئة الآلهة تمامًا ثم نهض، وألقى برأس أخيه الأصغر إلى قائد جيشه.

"ضع هذا على رمح واحمله عاليًا. دعهم يرونه! إنها دعوة لاستسلام جميع أولئك الذين أتوا إلى هنا مع سايروس. تقدموا إلى معسكرهم. انتهت المعركة. شكرًا للآلهة! لقد قدمنا أفضل ما لدينا! لقد حالفنا النصر".

تعالت الأصوات من حوله، وأصبحت هديرًا ضخمًا أصابهم بالصمم وأسعدهم. فجأة حاول الملك أن يخلع درع صدره، حيث ضربه سايروس. لقد شُق إلى قطعتين، وكان هنالك صدع امتد من عنقه إلى خصره. طلب أرتحشتا مساعدة رجلين على امتطاء حصانه. لقد وجه له سايروس ضربه رهيبة، وعلم أن أضلاعه مكسورة. لا يزال الدم يسيل من فمه، لكنه أمل أن سبب ذلك هو عض لسانه في أثناء وقوعه وليس جرحًا داخليًا. لن ينهار عند هذه النقطة، ورأس شقيقه معلق على رمح. عندما انحنى على السرج، أغمض عينيه وشعر بالألم يخمد، ليشعر بالارتياح عندما صدح صوت الأبواق. لو كان والده يرى فمن المؤكد أنه سيفخر به.

كان كليرشوس مستعدًا لإحضار الإسبارطيين إلى مقدمة الساحة اليونانية مرة أخرى. لقد كان أداء مينون جيدًا بما فيه الكفاية منذ شروق الشمس وحتى الظهر، بالرغم من أن أفواج بيروكسينوس هي التي قاتلت مثل الإسبارطيين، على الأقل في أثناء وقوف الرجال الحقيقيين في الخلف. هنأهم كليرشوس على تشكيلتهم، لقد تقدموا كثيرًا منذ أن تراجع الإسبارطيون للراحة، ولم يجدوا أحدًا قادرًا على مواجهتم. حاول كليرشوس عدم التفكير في أعداد الأفواج أمامهم. وكانت لدى الأمير سايروس والفرس تحت قيادة أريايوس معاركهما الخاصة.

أمل كليرشوس فقط في أن تضعف الروح المعنوية للجيش الإمبراطوري لمعرفتهم أنهم يتعرضون للهجوم من الجانب. لم يكن هناك وقت لوصول الفوج اليوناني إلى الملك بنفسه قبل أن يلتحم الجيشان، لكن كليرشوس يعلم أنهم قد قتلوا الآلاف، ومنعوا التقدم بالتأكيد. ومع ذلك، لم يكن هناك طريق واضح للخروج.

ضغط جنود الجيش الإمبراطوري بأرديتهم البيضاء والسوداء من جميع الجهات.

تراجع أولئك الذين في المقدمة، مع كل محاولة للحفاظ على موقعهم والتجمع بسرعة. لقد سبق لسايروس أن قال إن الفرس متمرسون في العدو، لكن نادرًا ما تدربوا على الأسلحة التي يحملونها. لقد افتقروا إلى المهارة عندما اقتحم رجاله مرارًا وتكرارًا، لقد كانت المعركة بين جنود ومزارعين يحملون سيوفًا، وانتشر الرعب وقد قرروا صفًا وراء صف أنهم لا يريدون أن يكونوا أول من يتصدى لتقدم اليونانيين.

افترض كليرشوس أنهم لن يصمدوا طويلًا. كان من الضروري وجود قائد أو فوج يختار الوقوف والقتال حتى الموت. بمجرد أن تتم عرقلة التقدم اليوناني، علم أن الآخرين سوف يلتفون من

حولهم. لقد رأى ذات مرة دبورًا ميتًا، التفت عليه كرة من آلاف النحلات. لا يمكن لنحلة بمفردها مضاهاة الدبور، ولا حتى مجموعة منها، لكن بالوزن الكبير والوحشية، مزقت الدبور تمزيقًا. راقب تلك اللحظة وهو يحضر الإسبارطيين إلى المقدمة مرة أخرى، واستعاد نشاطه مجددًا.

شحب لون الإمبراطوريين أمامهم عندما رأوا ذوي الدروع النحاسية والعباءات الحمر متوجهين نحو المقدمة. تأهبوا وانتشر الموت. ازدادت وتيرة القتال، وبدأ كليرشوس بالابتسام وهو يتقدم مع الباقين. بالرغم من موقفهم، وبما يتعارض وكل قواعد المعارك التي سبق لهم أن تعلموها كان هناك نوع من النصر في متناول أيديهم. أمكنه الشعور به. على حد علمه، لم يفقدوا مئة رجل منذ بدء المعركة، لكنهم قتلوا الآلاف وكسروا أضلاعهم. إذا لم يتمكن الفرس من تحسين أدائهم ضد مهارات جنوده ودروعهم، فهو يظن أن لديه فرصة بتحقيق النصر اليوم على أكبر جيش رآه على الإطلاق.

شعر بالأمل يزهر ومسح العرق عن عينيه. انطلقت الأبواق، وعلت الأصوات في مكان ما من الميدان. حاول كليرشوس الاستماع، على أمل أنها أصوات النصر.

تقدم الملك أرتحششتا الصفوف ورأس شقيقه مرفوع عاليًا. كانت نتائج المعركة فوضوية وخشي رجال شقيقه انتقامه. لقد كانوا على حق في ذلك، فقد أشرف على الإعدام الجماعي للأفواج التي تجرأت على الوقوف ضد الملك، على الأقل عندما استسلموا وجُردوا من أسلحتهم وقُيدوا بشكل صحيح.

شعر بالفخر الشديد. كانت آلام ضلوعه أسوأ مما اعتقد، ولكن كان مزاجه في أحسن حالاته. انطلقت أصوات الأبواق ولم يكن هناك أي خطأ، فقد طالبت القوات الملكية باللون الأسود أو الفرسان باللون الأبيض قوات سايروس بالاستسلام. كان للرأس على الرمح مفعول عجيب، بالرغم من أنه لم يكن بإمكان أحد معرفة أن ذلك الرأس هو رأس الأمير.

اتسعت ساحة المعركة مع الساعات، فقد فصلت ساعات من المسير بين مناطق المعارك والأفواج. ومع ذلك انتشرت الأخبار عندما تجول الملك العظيم حول أفواجه مثل المذنب، في مأمن من الرماح والمقاليع راكبًا على حصانه وسط مئات الفرسان المنتصرين، وصاح جميعهم بأصوات الانتصار أو وجهوا سيوفهم نحو الأفواج التي خانت الملك، يتوعدون الجنود الخائفين بالعقاب. لم يسدد أغلب رجال سايروس أية ضربات، لكنهم وقفوا خائفين مرتجفين لأن أرتحششتا نفسه تجول في الميدان، ورُفعت الأعلام الملكية بجانبه.

كان القائد أريايوس في خضم المعركة منذ الالتحام الأول للجيشين. تحت خوذته، كان شعره منقوعًا بالعرق، ولم يجرؤ على أخذ لحظة للتنفس، ليس وهناك الكثير من الرماة الذين يأملون في الحصول على جائزة تتمثل بقتل شخص مثله.

وضع أريايوس جانبًا كل فكرة متعلقة بحجم العدو وقوته. لقد عاهد الأمير على الولاء حتى الموت، العهد الوحيد الذي كسره هو عهده لأرتحششتا، لا يزال يتصارع مع تلك الفكرة، ولن يجد

السكينة إلا إذا أصبح سايروس ملكًا وغفر له. كان العالم بسيطًا بالنسبة إلى أريايوس، أبسط مما اعتقده أورونتاس.

لم تمض المعركة بشكل جيد، بخلاف ساعاتها الأولى.

راقب أريايوس في قلق متصاعد اليونانيين يتسابقون خلف فرسان تيسافيرنيس. لقد رأى القائد الأوامر تتغير كل وهلة، لذلك أملَ ألا يكون هذا ثأرًا شخصيًا.

قبل أن يتمكن أريايوس من ضبط تشكيلته ردًا على ترك جناحه الأيمن دون حماية، ركض الأمير بنفسه أمام أفواجه الفارسية، وبالكاد تمكن حارسه الملكي من اللحاق به.

علم أريايوس جيدًا أن أي قائد يمكنه تغيير خططه على مرأى من العدو، إذا كانت الظروف مختلفة أو كشفت التضاريس عن بعض المزايا التي كانت مجهولة من قبل. لم تكن الحرب مخصصة للرجال المتثاقلين، بل لأولئك ذوي الذكاء الحاد، الذين يمكنهم رؤية المخاطرة والاستفادة منها والعدو لا يزال غافلًا. مع ذلك، فقد رأى خطة المعركة بأكملها تتغير منذ ساعات النهار الأولى.

بدلًا من أن يكون جزءًا من المناورات السريعة والضربات المفاجئة، وجد نفسه وحيدًا في مركز القيادة الفارسية، وقد تطلع إليه مئات الآلاف من الرجال لإبقائهم على قيد الحياة. جلس على حصانه وبدا غير متفائل مع اقتراب الجيش الإمبراطوري، لكنه أبقى على تشكيلات جيشه وسد الثغرات، وطلب إلى جناحه الجديد التوجه نحو النهر، بالرغم من أنه زاد من ضعف صفوفه. اللعنة على كليرشوس، لتركهم مكشوفين إلى هذا الحدّ، كانت هناك فرصة كبيرة للجيش الإمبراطوري ليطوق الجناحين في ذلك اليوم، وستكون تلك هي النهاية، بلا شك.

بدأ القتال بعنف وحشي، استطاع أريايوس مشاهدة صراع الليفيثانيين لمدة طويلة من الزمن، وهم سكان مدن بأكملها يقارعون بعضهم بعضًا ويرمون رماحهم على طول خط يمتد إلى مسافة بعيدة مثل شاطئ البحر المظلم.

ارتفع الغبار في سحب شاسعة، من الأرض الرملية.

اسودت السماء وقد تطايرت السهام ذهابًا وإيابًا بين الجيشين. كان الصوت صاخبًا، كصوت تنفس وحش دفعهم إلى الأمام. استمر القتل وتمكن أريايوس من رؤية أعلام النسر الإمبراطوري ترفرف.

اختلطت في تلك المساحات الشاسعة أفواج الفرس المكافحة وكان من الصعب معرفة الصديق من العدو، امتطى أرتحششتا حصانه على تلك الأرض الرملية. على جانب الملك، نظر حارس إلى الرمح الذي كان يحمله، وظهرت أسنانه البيضاء من مسافة وهو يضحك ويهلل.

أصبح أريايوس جامدًا لأنه فهم ما كان يراه.

حملوا رأس سايروس عاليًا. غمره شعور بالقرف والرعب، لكنه في تلك اللحظة نظر نظرة مختلفة إلى ميدان المعركة المترب. مع مقتل سايروس، بدت قوات أريايوس فجأة أصغر. لقد خسر اليونانيون بالفعل، واختفوا عن الأنظار كما لو أنهم لم يوجَدوا.

للحظة أغمض أريايوس عينيه، متمنيًا لو أن أورونتاس ظل في القيادة، بالرغم من أن الرجاء الصامت لم يساعده. لقد تحطم قلبه عندما فتح عينيه ورأى أن القتل لا يزال مستمرًا.

لقد قُتل سايروس، ولم يكن العالم بخير.

علا صوت فجأة: "انسحبوا، انسحبوا بانتظام إلى الغرب والجنوب. لقد قُتل الأمير سايروس. لم يعد هناك شرف على أرض هذه المعركة الآن".

أجاب مرساله خائفًا: "نعم أيها القائد".

عندما بدؤوا في الاستدارة، انقضوا عليهم مرة أخرى.

"أخبر الرجال ألا ينسحبوا راكضين، سيقتلنا الملك جميعًا إذا لم ننسحب الآن. اخرجوا بانتظام وقد نعيش لرؤية يوم آخر، اركضوا وسوف نموت جميعًا. تأكد من أن يفهموا الرسالة".

هرع المرسال بعيدًا بين صفوف الجنود.

استمر أريايوس بمراقبة الجيش الإمبراطوري وهو يكسر أفواجه ويحولها إلى دماء وعظام. لقد انتهى الأمر، كل ما يمكنهم فعله الآن هو محاولة البقاء على قيد الحياة.

أدار أريايوس حصانه بعيدًا عن ميدان المعركة محافظًا على استقامة ظهره بالرغم من الهزيمة.

"ببطء الآن أيها الشباب، سيروا معي ورؤوسكم مرفوعة، لقد خسرت قضيتنا، لكننا لن نخسر أنفسنا". شعر رجال الصفوف الأقرب بالراحة، لأنهم لن يضطروا إلى اتخاذ خطوة أخرى نحو ذلك العدو المنتصر، الذي يهدر فرحًا ويعلو الصوت كلما انتشرت الأخبار.

القسم الثاني



"ما العمر الذي أنتظر الوصول إليه؟ لن أتقدم في السن، إن سلمت نفسي غدًا للعدو".

زينوفون

الفصل العشرون



في سهل كوناكسا، بجوار نهر الفرات، تطاير الغبار في الهواء لأن مئات الآلاف من الرجال، كانوا يمشون وهم يركلون وينزفون فوق الأرض الرملية.

أوقف كليرشوس القوات اليونانية بعد أن مر وقت لم تعترضه فيه أية قوات فارسية. في البداية، اعتقد أن السبب في ذلك هو أن رجاله قد حطّموا الفوج الفارسي ووصلوا إلى أرض مفتوحة، لكن أمكنه سماع الهتاف في مكان ما إلى اليسار، وهو صوت ضعيف وبعيد يمكن أن يأتي من أي من الجانبين.

للمرة الأولى في ذلك اليوم، فقدَ إحساسه بساحة المعركة.

للمرة الأولى في حياته، تمنى لو كانت لديه أحصنة لمساعدته على رؤية ما هو أبعد من رجاله. كان القتال لا يزال يدور من حولهم. سُمع صوت الأبواق جهة اليمين، وهذا غير منطقي. حتى الآن لم يتقدم أحد على اليونانيين.

سارت الأفواج الإمبراطورية وكان باستطاعته رؤيتهم من بعيد، لكنهم لم يهاجموهم. كان وراء اليونانيين الكثير من الغبار والدمار: كل الموتى والمحتضَرين الذين عبروا طريقهم بالفعل. لن يكون هناك تحدٍ ثان من هؤلاء.

حك كليرشوس ذقنه، حدق في كل الاتجاهات وهو يأمل أن يتضح شيء قبل أن يخبر رجاله بأنه ليست لديه فكرة عما يحدث. كان قد حطم الجناح الفارسي الأيسر، بالرغم من أنه لم يكن لديه شك في أن بعض الفرسان لا يزالون يداوون جراحهم في القرب. استدار في وجه الجيش الإمبراطوري للاندفاع نحو موقع الملك، ولكن بعد ذلك وجد هو ورجاله أنفسهم ضائعين في بحر من الرجال، واضطروا للدفاع من جميع الجوانب.

دافع اليونانيون وقاتلوا لساعات وقتلوا أعدادًا لا تُحصى. في لمحة سريعة، اعتقد كليرشوس أنه لا يزال لديه عشرة آلاف، بالرغم من القتلى. كان رجاله الإسبارطيون في المقدمة لفترة طويلة، ومع ذلك كانت خسائرهم محدودة. لقد شعر بألم في صدره. فقد عرف كل رجل، وفقدان أي شخص خلفه في الميدان يشبه فقدان أخ أو ولد. لقد فكّر بفخر في أنهم لم يبالغوا في تقدير أنفسهم. ذكّر كليرشوس نفسه بقول ذلك لـمينون.

نادى بروكيسنوس الذي كان يسير إلى يمينه: "أيها القائد، ما هي أوامرك؟".

صاح كليرشوس، كما لو كانوا لا يزالون يتعرضون للهجوم، ولكن الحقيقة أن العدو لم يكن أمامهم بل بعيدًا عند الجانبين، في اللحظة التي اقتربوا فيها بما يكفي لملاحظة الرايات أو العباءات الحمر في صفوف الجبهة. لقد أصبح الغبار كثيفًا في بعض الأماكن، فشعر كليرشوس بنوبة من الذعر تقريبًا. كانت خسارة الإحساس بميدان المعركة تجربة شائعة للرجال الذين يقاتلون في سبيل الحفاظ على حياتهم، حتى بالنسبة إلى القادة الذين يحاولون إبقاءهم في التشكيل الصحيح.

رأى كليرشوس مينون يشير إلى شيء على طرف جناحهم. صرّ الإسبارطي أسنانه وحدّق، لكنه لم يرَ شيئًا هناك حيث كان الغبار أكثر كثافة. انتابه إحساس مفاجئ بأن الفوضى قد انتشرت من حولهم.

نخر وعلم أنه يجب عليه التوقف وتحديد اتجاههم مرة أخرى.

هدر قائلًا: "احمنا يا آريس". ثم رفع صوته عاليًا كما توقع رجاله منه. "في ثلاث... خطوات! مساحة للوقوف! أيها الإغريق! توقفوا!" أوقف الإسبارطيون بسرعة أقدامهم اليسرى مكانها وجاءت الأقدام اليمنى إلى جنبها. وقفت جميع الصفوف بانتباه. وكأنه لم يكفهم الهواء المشبع بالغبار، حتى أتاهم نسيم شمالي مغبر أجبرهم على إغماض أعينهم. لهث الرجال ولعنوا بهدوء. بدت الأرض نفسها وكأنها ضدهم في تلك اللحظة.

توتر كليرشوس عندما سمع صهيل حصانين، لكنه عرف أن الرجلين يقتربان، فقد تمكن من رؤيتهما. حاول تذكر اسميهما لكنه لم يستطع. شارك الاثنان في جزء من القتال، وكان هذا واضحًا. فقد كانا مضرَّجين بالدماء، ولم تبدُ وكأنها تعود إليهما.

لاحظ كليرشوس أن الرجل النبيل لديه نظرة متجهمة، وهو تعبير عرفه الإسبارطي جيدًا. هزّ الآخر رأسه ببهجة، غير قادر على تصديق ما رآه وفعله في ذلك اليوم. علم كليرشوس أيضًا رد الفعل هذا، وكان يشعر بالكثير من الضغوط الشديدة وحاول عدم التجهم في وجه الشاب المبتهج الذي اكتشف أنه يستمتع بالحرب.

صاح لليونانيين على حصانيهما: "ترجلا وأخبراني بما يحدث. المعذرة، لكنني عاجز عن تذكر اسميكما".

أجاب الأول خلال ترجله عن حصانه: "أنا زينوفون من أثينا أيها القائد. ورفيقي المبتسم هو هيفاستوس".

"ماذا عن المعركة؟ الأمير؟ وكل هذا الغبار، لم يصلني أي شيء من مرسالي منذ فترة طويلة".

نظر كليرشوس إلى الشمس، التي كانت تتحول إلى اللون الأحمر

وهي تميل نحو الأفق. كان زينوفون ورفيقه متعبَين بعد أن أمضيا النهار بطوله على حصانيهما يقاتلان، ولو لم يكونا يخشيان هجومًا جديدًا مباغتًا لما كانا ليبقيا مستيقظَين.

قال زينوفون: "قُتل الأمير سايروس أيها القائد". أدار ظهره بدلًا من رؤية آمال الرجل الآخر تتحطم. "قطع أخوه رأسه. لقد رأيت ذلك قبل أن ألحق بك. بعد ذلك، القتال... حسنًا، كما تعلمون".

لم يبدِ كليرشوس أية علامة على الحزن والخجل اللذين شعر بهما. احتاجت القوة اليونانية بأكملها إلى قيادة ثابتة في تلك اللحظة. انتشرت الأخبار بالفعل من خلالهما، لذلك كتمَ رد فعله الحقيقي وابتسم، بالرغم من أنه بدا في تلك اللحظة أكبر بعشر سنوات من عمره.

"نعم يا بني، نعم. لقد قمت بعمل جيد اليوم. وهذا هو المهم".

سأل زينوفون: "أحقًا أيها القائد؟" بدا الأسى في صوته، فابتسم له كليرشوس وهو يجيبه عن سؤاله.

"أقصد حتى تعاود القتل في الغد. إنني أعني ما قلته، فليس لدي إلا عدد قليل من الأحصنة". نظر القائد حولهما، ليرى مرة أخرى ظلال الأفواج التي تسير على مسافة بعيدة، مثل قطع تتحرك على لوح لم يعد يفهم قواعده. شعر بمعدته تنكمش عند التفكير. كان اليونانيون بعيدين عن الوطن، يحيط بهم أكبر جيش في العالم ولدى هذا الجيش وقائده أرتحششتا كل الأسباب لتقطيعهم إربًا إربًا.

ضحك كليرشوس.

وقال: "الآلهة تحب اختبارنا، أليس كذلك؟".

نظر زينوفون إليه بحذر، وبدا عليه جليًا أنه يشك بأن كليرشوس قد فقدَ عقله.

تابع كليرشوس كلامه: "امتطوا أحصنتكم، نحن في أرض عدائية ويحيط بنا الأعداء من كل حدب وصوب، ليس لدينا في الوقت الراهن من خيار سوى العودة إلى معسكرنا. الآن، تغرب الشمس مباشرة وراءنا، لذلك فقد استدرنا لمواجهة الشرق مرة أخرى". أمرهم بالالتفاف، والسير بسرعة إلى المعسكر. "إذا اعترض أحد طريقنا، فعليكم قتله". رددت القوات اليونانية، من القادة والرجال الأمرَ، واستداروا في أمكنتهم.

صاح كليرشوس: "إلى الأمام أيها الإسبارطيون".

ردّد مينون شيئًا بغضب، لكنه كان أشبه بطقس خاص بهما بحلول ذلك الوقت. قرر كليرشوس في سره أنه سيصفعه لاحقًا إن قُدر لهما النجاة، صاح رجال مينون عندما جاء الإسبارطيون لتولي زمام القيادة.

في ذلك الوقت، كان اليونانيون متعبين. لقد كان ذلك واضحًا من تعثرهم في أثناء المشي، ومن الطريقة التي جُرّت بها الرماح على الأرض أو انحنوا عليها مستخدمينها كعصي مثل الرعاة. فقط الإسبارطيون هم من تمكنوا من التحمل، حتى إنهم كانوا مستعدين للهجوم إن طلب إليهم كليرشوس ذلك. لهذا السبب وضعهم في المقدمة، رغم أنهم تحملوا العبء الأكبر طوال اليوم. فقد كان يعرف أن لياقتهم البدنية تفوق لياقة الآخرين. وهذا هو الأكثر أهمية في نهاية المعركة.

ساروا عبر ساحة المعركة في تشكيلة صفوف ضيقة، متجهين غربًا. وكان الهواء لا يزال عابقًا بالغبار، مخفيًا العدو عن الأنظار. في بعض الأحيان، بدا أن اليونانيين يسيرون وحدهم في أرض فارغة.

بحث كليرشوس وبيروكسينوس عن الأفواج الفارسية التي وصلت إلى هذا السهل مع سايروس. توقعا مقابلة القائد أريايوس في أية لحظة في أثناء عبورهم المكان الذي وقفوا فيه من قبل في ذلك اليوم. ومع ذلك، لم يريا أحدًا.

حفظ كليرشوس عدد الخطوات في رأسه في طريق العودة، بالرغم من معرفته أن هذه الإحصائيات لا يُعتمد عليها في المعارك. ومع ذلك، لم يعرف السبيل الذي يوصلهم إلى المعسكر. حيث تركوا عشرة آلاف شخص هناك، من دون حماية، ينتظرون عودتهم. كان لدى العديد من رجاله أصدقاء وعاشقات هناك، قرر كليرشوس تحمل المسؤولية، ولم يستطع تركهم يُذبحون، ويُغتصبون، ويُستعبدون.

هذا هو مصير أولئك الذين يخسرون المعارك، ومن المؤكد أن الأمير سايروس خسر المعركة، إذا كانت الأخبار صحيحة. صر كليرشوس أسنانه، رافضًا تفحص انقلاب الأمور من الانتصار إلى الكارثة في حين كانت الأخبار جديدة. لقد شق اليونانيون الذين كانوا يأتمرون بأمرته صفوف العدو. لقد كان لا يُمس، لقد حلم كل قائد قام بتدريب الرجال فيما مضى بتحقيق التفوق في القوى لأنه لا يمكن إيقافه في هذا الميدان. كان انتزاع النصر في تلك اللحظة وحشيًا تمامًا. لم يستطع التفكير في الأمر، لأن كل صوت صغير في داخله أخبره أن مهمته هي القيام بذلك. للمرة الأولى رفض التفكير بشكل شامل، وركّز على شيء واحد، مثل قائد صغير، وهو يسير إلى المعسكر. سينقذ أتباعه في المعسكر وبعد ذلك سوف يفكر في وضعهم السيئ، فهم بعيدون جدًا عن وطنهم، وتحيط بهم قوات العدو.

لم يعترض أحد طريقهم خلال ساعة أو نحو ذلك من المسير. بدأ الغبار يستقر حولهم، ولكن كان لغروب الشمس دور في جعلهم مخفيين عن أنظار العدو. جمع الفارسان الأثينيان فرقة استطلاع، اختفى جميع الحراس الشخصيين للأمير، وبصرف النظر عن قلة الأحصنة، سارت القوة اليونانية بأكملها على الأقدام.

استدعى كليرشوس قواته للقتال تقريبًا عندما لاحظ وجود الدروع في الأمام، كانت تلك النقطة حيث تحطمت أفواج سايروس الفارسية عندما التحمت مع جيش الملك أرتحششتا. لا يمكن تمييز الموتى، بالرغم من أنهم حملوا أعلامًا مختلفة وجاؤوا إلى هذا الميدان لخدمة أخوين متخاصمين. استلقوا معًا، متشابكين للغاية فلا يمكن لأحد تفريقهم.

تأوّه رجل أو اثنان، صوتاهما مبحوحان أو أقرب إلى الهمس. لقد طالبا بالمياه، بالرغم من أنه لم يكن بحوزة اليونانيين ماء، إلا أنه لو كان بحوزتهم فما كانوا ليقدموه، طلب أحد الرجلين أن يقتلوه واستجاب أحد الجنود لطلبه، فقدّ رقبته بسيفه.

لن ينسى أي منهم هذا الجزء الصامت من المسير، بالكاد مسافة ميل واحد، ولكنه مليء بالجثث والأطراف المبتورة

التقط أحد اليونانيين يدًا، لكن رفاقه صرخوا في اشمئزاز، وطلبوا إليه أن يرميها، فلم يتردد في الاستجابة لهم. جمع الآخرون العديد من الخناجر أو الخوذ المتساقطة. كانت الغنائم جزءًا من الحرب، ووجب على كليرشوس أن يهددهم بالإعدام في الحال عندما رأى أن بعضهم يحاول انتزاع الخواتم من أصابع القتلى.

كانت إحدى لحظات الرضى القليلة هي عندما صادفوا مجموعة من الفرس الذين شاركوا في تجريد الأموات. نظر الفرس بحالة من الرعب، لأنهم أدركوا أن القوات التي كانت تسير نحوهم لم تكن تعود لهم، وأدركوا أنهم من اليونانيين الأعداء،

لم يكن على كليرشوس إعطاء أي أمر. هجم الإسبارطيون عليهم، وتركوهم مع الأشخاص الذين حاولوا سرقتهم، ومع ذلك فقد خشي من أن يحدث الشيء نفسه في المعسكر، وطلب إلى الرجال الإسراع في المشي.

لقد رأوا الشفق في الوقت عينه الذي شاهدوا فيه العربات والخيام، لم يكن المعسكر يبعد إلا عدة أميال عن ساحة المعركة. هذه هي النقطة التي انطلق منها مع رجاله.

لم يكن موقعهم غير مميز، بالرغم من عدم وجود تحد جديد. كان لدى الفرس العديد من الأحصنة ورآهم كليرشوس عن كثب يركبون، ويحسبون الأعداد، ويحصون ما تبقى من رجال. لقد اختفوا لفترة من الوقت، بلا شك لإبلاغ سيدهم عن وجود اليونانيين في الميدان، صر كليرشوس أسنانه. لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله حيال ذلك. بعد قليل من الوقت ظهر مزيد من الفرسان. لم يبد أنهم يخشون الرماة أو المقاليع.

أحب كليرشوس مهاجمتهم، ولكن بما أن رجاله كانوا مرهقين، فقد كانت الأولوية هي الوصول إلى المعسكر وحماية أي شخص حيّ وتناول الطعام والشراب.

شعر كليرشوس بغصة في حلقه عندما لاح له معسكرهم من بعيد حيث هناك عشرة آلاف رجل وامرأة وطفل ينتظرون سماع الأخبار، ولكن كانت الأخبار ستقض مضجعهم، وتُسكن الهم والغم في صدورهم.

كان الهواء أكثر صفاءً هناك، فالمعارك دارت بعيدًا، بالرغم من أن الضوء كان يتلاشى. شعر كليرشوس بإحساس كبير بالارتياح في أثناء تقدمهم نحو المعسكر، لم يستطع السماح لنفسه بالتفكير في الأمير، على الأقل في هذه اللحظة. كان الألم حديثًا والخسارة كبيرة للغاية.

صدح فجأة صوت الأبواق. فوق التلال، ظهر أمام قواته خط مظلم من فرسان الفرس، الذين يتشاركون فكرة واحدة، ولكنهم لم يعرفوا أن ذهب الأمير قد تبدد. تخيلوا أن المخيم يحتوي على ثروة. في الحقيقة، ما كان ليحظوا سوى بعبيد من الشبان والفتيات الجميلات.

مدّ الإسبارطي ساقيه المتعبتين وأمسك بسيفه بقوة. كان سيصل فرسان العدو إلى المعسكر قبلهم، ومع ذلك ما كانوا ليسرعوا أو يركضوا لأنهم إن فعلوا ذلك فسيصلون إلى المعسكر منهَكين غير قادرين على القتال.

كل ما يمكنهم فعله هو السير بأقصى سرعة ممكنة، وهم يسمعون الصراخ أمامهم.

رأى كليرشوس الشابين الأثينيين يقودان فرقة الاستطلاع، وسحبا سيفيهما وهما يركضان عبر مجرى ضيق بين خيام المخيم.

تمتم كليرشوس: "شابان جيدان". وشعر بالألم في صدره وساقيه. كان قد سار وقاتل طوال اليوم.

صاح لجنوده الإسبارطيين: "جهّزوا الرماح! جهزوا الدروع!"

سال العرق منه كالنهر، مما جعله يلمع، في حين احترقت رئتاه من الحرارة. رد عليه اليونانيون بصوت هادر عندما وصلوا إلى أطراف المعسكر، وملؤوا كل ممر ضيق بين الخيام ورأوا العدو.

استمتع الفرس بما لم يحلموا به؛ معسكر من دون حماية، وسط أرض قاحلة. لقد اندفعوا كالصيادين وهتفوا إلى بعضهم بعضًا، ثم رأوا عباءات حمراء قادمةً باتجاههم من بين الخيام ووجدوا أنه لا يمكنهم الفرار. أينما التفتوا، كان هناك مزيد من الجنود، يقطعون أرجلهم بالسيوف، ويرمون الرماح على المعتدين. لقد كانت بالفعل مذبحة، لكن لم تكن تلك التي توقعوها.

سمع كليرشوس القادة الفرس يصيحون بأوامر جديدة، طالبين إلى رجالهم التراجع مما ظنوا أنه كمين نُصب لهم.

اقتربت القوتان من المعسكر من جهتين متعاكستين؛ انسحب الفرس من الطريق التي أتوا منها. لم يعثروا على ذهب، لكنهم اقتادوا معهم مجموعات صغيرة من النساء والأطفال في أثناء تراجعهم. اندفع الأسرى هاربين كلما رأوا فجوة ضمن الفوضى. لقد طلبوا النجدة بأعلى أصواتهم، قاد كليرشوس اليونانيين عبر المعسكر، مما أجبرهم على الاستمرار في الحركة. لم تكن لديه فكرة عن عدد الأعداء. كل ما عرفه، أنه يمكن أن يكون هناك مئة ألف فارسي فوق التلال المحيطة بهم.

لقد جعلته الصدمة يشعر بالحماس، هاجم بعنف الفرس الذين يحاولون أخذ الأسرى، وفرّق المجموعات الصغيرة. قُتلت نساء كثيرات على أيدي أولئك الذين أمسكوا بهن، بدلًا من السماح لهن بالفرار ليعدن إلى المنقذين. لقد كان عملًا وحشيًا وابتلعهم الظلام جميعًا وجعل كل لحظة أصعب من الأخرى.

وجد كليرشوس نفسه يسير إلى جانب بيروكسينوس، ربما لأن عمريهما كانا متقاربين، في حين تقدم الشبان إلى الأمام. تبادلا نظرة عبّر جزء منها عن الألم، وجزء آخر عن الاستمتاع. بالكاد أمكنهما الوقوف، لكنهما لم يستطيعا التوقف، لذلك استمرا.

رأى بيروكسينوس امرأتين شابتين جميلتين أمامه يقوم بسحبهما ثلاثة جنود يرتدون ملابس سوداء، زيّن أحد رجال الجيش الإمبراطوري نفسه بالميداليات الذهبية والمجوهرات التي وجدها، وما إن ألقى نظرة واحدة على الرجلين اليونانيين اللذين تقدما نحوه، حتى أطلق ساقيه للريح فارًا.

في الممر التالي، رأيا العديد من فرسان الفرس يفرون، تأوه كليرشوس عندما سمع صراخهم، ما كانوا ليعودوا للاستيلاء على مثل هذه الثروة قبل أن يتمكنوا من جلب التعزيزات. هاجم، وضرب بسيفه الفارسيَّ الذي اندفع نحوه. أُجبر الجندي على إفلات قبضته عن شعر المرأة عندما هجم كليرشوس. بعد ذلك، صرخ الرجل، قبل أن يضمحل الصوت.

هربت المرأة الأخرى إلى الظلام، لكن وقفت صاحبة الشعر الداكن، تلهث بسرعة، أظهرت عيناها البياض وفركت معصميها بتوتر.

قالت: "سيكافئك الأمير سايروس لأنك أنقذتني".

تنهد كليرشوس، وشعر بموجة من الحزن والغضب مرة أخرى، مما يهدد بإحباطه.

أجاب: "لا، لن يفعل ذلك".

رأى عيني المرأة تتسعان عندما أخذت تلهث. ابتعدت عنه خطوة منه فاقترب منها تلقائيًا.

"ما اسمك يا فتاة. أنا اسمي كليرشوس".

أجابته: "بالاكيس". استدارت نصف استدارة لتتحقق إن كانت الطريق خالية. علم أنها ستهرب.

"هناك فُرس يا بالاكيس، لن يعاملوك بشكل جيد إذا ركضت إليهم. أتفهمين؟ لقد عدت من أجل اصطحاب من تُركوا في المعسكر. يمكنك القدوم معنا". شاهدها وهي تكافح الرغبة في الهرب. تذكر أنه رآها من قبل، وهي ترتدي قطعة قماش رقيقة كشفت مفاتنها. بغياب سايروس عن المعسكر، ارتدت بالاكيس فستانًا بسيطًا من اللونين الأبيض والذهبي يوجد فيه شق يمتد حتى الفخذين، مربوطًا عند الخصر، وانتعلت صندلًا ذا رباط ولكنها لم تضع المجوهرات، ولم تُكحّل عينيها.

فضّل كليرشوس مظهرها في يوم عطلتها، ربما لأنها ذكرته بالنساء في الوطن.

استمر رجال بيروكسينوس ومينون في تمزيق كل خيمة، مما أسفر عن مقتل أي فارسي اعتقد أنه قد عثر على ملجأ هناك. لقد كان عملًا وحشيًا، إذ تعالت أصوات الصراخ والكفاح من حولهم.

لاحظ كليرشوس أن الشابة ترتعش وهي تنظر إليه. فجأة حدقت إليه. وسألته: "هل تستطيع إنقاذي يا كليرشوس؟".

علم الإسبارطي جيدًا أنها صادقة، كان طلبًا بسيطًا، ولم تحاول إغراءه ليفعل ذلك. فكّر كليرشوس، ربما كان هذا هو السبب في أنها كانت عشيقة أمير ملكي.

فقال: "سأحاول يا سيدة بالاكيس".

أجابت على الفور: "أنا لست امرأة نبيلة. أنا مرافقة لـ..." ثم صمتت، غير قادرة على إنهاء كلامها.

عاد مينون، وفشل القائد في إخفاء تقديره لجمال المرأة، أو غضبه عندما التفت إلى كليرشوس.

"أنا آسف لمقاطعتك أيها القائد. إننا مشغولون في تأمين المعسكر، إذا كنت تذكر".

قال كليرشوس: "بالاكيس، إنه القائد مينون من سالني، الجزء الشمالي من اليونان. يقال إنهم يفضلون ماعزهم هناك، إذا فهمت ما أعنيه".

أغلق مينون فمه وقد جاء رجلان من رجاله يهرعان للإبلاغ. لاحظا أيضًا المرأة الشابة، ورأى كليرشوس كيف وضعت يديها، كما لو كانت ترغب في تغطية نفسها. كان فستانها الأبيض رقيقًا. رفع عينيه للحظة، وأزال المشبك الذي ربط العباءة التي يرتديها، ولفّ بالاكيس بها. نظرت بالاكيس بشكل مثير للريبة، بالرغم من أنها أمسكت بالعباءة.

وقالت بهدوء: "أعتقد أن الثمن مرتفع للغاية أيها الإسبارطي".

رأى كليرشوس اليأس في عينيها وهي تفكر في مصيرها.

عوملت بلطف نظرًا لأنها مرافقة لسايروس، وأُعطيت أي شيء رغبت فيه، وها هي ذي تخسر كل شيء في لحظة. من جميع الجهات، وقف رجال سيسرون بقضاء ساعة معها. تساءل كليرشوس عما إذا كانت ستختار أحدهم لحمايتها من البقية. فكر في بناته وتنهد، ولاحظ الطريقة التي نظر بها مينون إليها. بدا الرجل وكأنه يشعر باستنكاره.

قال مينون: "لماذا يجب أن تأخذها أنت؟ هل تعتقد أن حقيقة أنك القائد تعطيك الحق في أخذها لنفسك هكذا؟". وجب على كليرشوس أن يقمع غضبه. لقد وجد مرارة مينون إما مسلية وإما

مزعجة، لكن اليوم كان على وشك أن ينتهي وكان منهكًا. في بعض الأحيان، لم يكن يفكر كثيرًا قبل أن يتخذ قراراته.

تقدم كليرشوس نحو مينون بصمت، فاجأ الرجل لأنه كان على وشك التحدث مرة أخرى. بالرغم من أنه لم يقل شيئًا، إلا أن كليرشوس قاد القائد إلى الخلف بخطوة، واصطدم به بصدره.

هدر كليرشوس: "يمكنك أن تتحداني إذا أردت أيها السالييني. حتى ذلك الحين، استمر في عملك. اجمع أتباع المعسكر، وجهّز رجالك للمغادرة. لن أنتظر هنا حتى يكتشفنا العدو. هل أمري واضح أيها القائد؟ هل يمكنك تنفيذه؟ إذا كانت الإجابة لا، فأخبرني بالشخص الذي يليك في سلسلة الرتب وأحضره إلى هنا، أريده أن يرى ما سيحدث لك. لن أضيع درسًا!". قال جملته الأخيرة وبدا غاضبًا، وترك مينون يسمع مجرد همسة من الغضب الذي شعر به كليرشوس في طريقه اليوم.

لحق به مينون دون كلمة أخرى، بالرغم من أنه حدق إلى بالاكيس كما لو أراد قول شيء. شاهدت الإسبارطي وهو يعطي الأوامر لمجموعة أخرى من الرجال، وانتشر الهدوء بينهم. تم طرد الفرسان الفرس، لذا توقف الصراخ على الأقل. وحلّ مكانه أصوات عرفتها جيدًا؛ أصوات معسكر يستعد للمغادرة. امتلأت كل الممرات بين الخيام بالرجال والنساء، فقد أشرف عليهم الجنود اليونانيون. في غضون لحظات، أصبحت الخيام قطعًا من القماش والخشب. حُملت العربات، ولكن بعد وقت أعطى بيروكسينوس الأوامر بترك الجزء الأكبر منها. لم تكن لديهم أية فكرة عن موعد ظهور القوة الفارسية التالية. بدأ النواح عندما حُثّ الرجال والنساء على التحرك، تاركين كنوزهم وراءهم، لم يكن هذا منصفًا، احتفظت بعض العائلات بكل ما لديها، في حين خرجت عائلات أخرى خالية الوفاض.

بدا أن كليرشوس قد نسي وجودها، رغم أنها وقفت إلى جانبه مغطاة بعباءته. صلّت بالاكيس بصمت من أجل روح سايروس، التي فاضت اليوم. لقد كان محترمًا، حب حياتها الثالث. فكّرت في الجواهر التي قدمها لها، وإن كان سيسمح لها بالاحتفاظ بها.

سألته: "هل أنا تحت حمايتك يا كليرشوس؟".

التفت إليها الإسبارطي، ولاحظ الخوف في عينيها.

أجاب من دون تردد: "نعم، أنت كذلك. إذا تسبب لك مينون أو أي شخص آخر بمشكلة، فأخبريه أنك خدمت الأمير، وأنك كنت عشيقته. سأدافع عن شرفه عندما يعجز هو عن ذلك. كان صديقي".

قالت بصوت منخفض: "إذن... هل سأكون... لك؟"

استدار كليرشوس بعد حديثه معها، وتنهد.

"بالاكيس، نحن بالكاد عشرة آلاف رجل. ربما يكون هناك عدد مماثل في المخيم. يوجد في السهل والتلال من حولنا مئات الآلاف، عدد لا يمكنني حسابه. إنهم جميعهم مخلصون للملك

الفارسي الذي هو عدونا المعلن، هل تفهمين؟ رجل يعرف تمام المعرفة الآن أننا قطعنا شوطًا طويلًا من سارديس في سبيل الحصول على رأسه".

سألته: "هل تعتقد أننا سنموت؟".

"أعتقد..." رأى الخوف في عينيها وبدّل كلامه. "لا أظن الملك أحمق. إنه يعلم أننا مرتزقة. ربما سيشتري خدماتنا، ما رأيك؟ لا، أعني... مخاوفك في غير محلها. لدي ابنتان يا بالاكيس، وكلتاهما بعمرك تقريبًا. يمكن لهذا أن يغير الرجل، إذا فهمتني، من شاب أخرق إلى رجل حكيم ومحبوب من قبل الجميع، باستثناء مينون، كما رأيت. هذا الرجل يملؤه الغضب. إنه لا يعجبني".

"هل تسمح لي بالذهاب إلى خيمتي، كليرشوس، لمعرفة ما إذا كانت جواهري لا تزال موجودة؟" استدعى القائد أحد الإسبارطيين المارة بصفرة منخفضة وقال له: "رافق السيدة بالاكيس. احمها بحياتك". لم تعترض على اللقب مرة ثانية، قبلت به كما لو كان مقصودًا.

غادرت وشيّعها بعينيه. فكر في أن الأمير سايروس لطالما أحسن الاختيار.

أمسك بنفسه وهو يزمجر مكافحًا في سبيل التحكم بأفكاره. لقد أُخذ من منزل والديه إلى أرض التدريب في سن السابعة. في عامه الثاني عشر، كان بمثابة الذئب مقارنة بباقي الأولاد. كانوا يعطون عباءة واحدة في السنة فحسب، ليس لشيء إلا لأن العباءة السابقة أصبحت أسمالًا فقد ذهب عاريًا معظم الأحيان وبالكاد كان يستحم كل عدة أشهر. لقد افتقد وزن العباءة حول كتفيه، بالرغم من شعوره بأنه أخف وزنًا، بدا له وكأن العباءة أخذت معها بعض آلام اليوم.

ظهر بيروكسينوس مرة أخرى من مكان بعيد، وأتى إلى حيث وقف كليرشوس مفكرًا. شاهده الإسبارطي وهو يأتي، يقيّم كل منهما القوة التي بقيت في الآخر. لقد جاء الظلام وأنقذهما. سوف يكشف الصباح عدوًا لا يزال عازمًا على قتلهم.

قال بيروكسينوس: "أصبح بعض هؤلاء الفرسان الفرس قريبين".

"لم يعد لدى رماتنا أسهم، وليس هناك وسيلة للحصول على المزيد. لم أستطع إخراج المنجنيق في الوقت المناسب. وبما أن الملك يعرف أننا في المعسكر، سيعثر علينا قبل شروق الشمس، أعتقد أن الملك العظيم يعرف مكاننا يا بيروكسينوس وغدًا يوم آخر".

قال بيروكسينوس: "هل هذا صوت كليرشوس، أو مينون الذي أسمعه؟" ورفع حاجبيه.

ضحك كليرشوس وقال: "اعتقدت أنه لا يمكن كسر الإسبارطيين؟".

"أنت محق، بالطبع. يجب علينا التحرك الليلة".

"سيتوقعون أن نعود من الطريق ذاته، أظن أنهم سينصبون لنا كمينًا على الطريق الغربي. هذا ما كنت لأفعله. حسنًا لنتجه شمالًا".

أجاب بيروكسينوس: "جيد، أوامرك هي تحريك الرجال شمالًا. برفقة أتباع المعسكر، على أن ننقل معنا ما يسهل نقله من ماء وطعام". استرخى قليلًا وتابع. "لا يزال مينون يريد تركها. وقال إنها ستبطئنا".

أجاب كليرشوس: "إنه محق، لا أستطيع أن أرى طريقة للخروج من هذا الأمر".

أمسك بيروكسينوس بكتفه على نحو غير متوقع، وهي لفتة غير اعتيادية بينهما.

"كان اليوم يومًا سيئًا. ستستعيد نشاطك عندما تنام. ستكون المشاكل هي نفسها، لكنك ستكون أكثر قدرة على مواجهتها. سأتحدث إلى القائد كليرشوس غدًا. ستكون لديه الكثير من الأفكار، ليس لديّ شك في ذلك".

ابتسم كليرشوس. وقال: "أنت رجل صالح".

الفصل الحادي والعشرون



لم تمر الليلة دون إنذارات، لمرتين بدا أن أصوات الفرسان الفرس قريبة جدًا وأنهم مستعدون للهجوم قبل أن يبتعد الصوت مرة أخرى. كانت تلك القوى إما ستصطادهم وإما ستطوقهم في الصحراء، ولم يكن من الصعب مع ارتفاع القمر في السماء تخيل أنهم يحيطون بهم ويضيّقون عليهم الخناق ببطء.

بعيدًا عن المعسكر القديم، ذُكر كليرشوس بأن الرجال، والنساء، والأطفال المرافقين للجيش لن يتمكنوا من السير معهم. في النهاية، حاول تركَ مسافة بين المكان الذي علم أنهم شوهدوا فيه ومكان قضائهم الليلة، بدأ ذيل عظيم يمتد خلف صفوف جنوده. لا يزال العديد من أتباع المعسكر مذهولين بسبب تقلب أحوالهم. لقد تعثروا طوال الطريق، وحملت النساء أطفالهن على أوراكهن، وأُثقل الرجال بالأشياء التي أخذوها، لأنه لم تعد هناك عربات لتحميلها. لقد عمّت فوضى، وشعروا بتعب لم يسبق لهم أن شعروا بمثله.

خلال الساعة الأولى، أقنع كليرشوس نفسه بإعادة الرجال إلى الذيل لحث الأتباع على السير بوتيرة أسرع، لم يثمر قراره هذا إلا إتاحة المجال لبروز مزيد من الأصوات الغاضبة، وقد صرخت امرأة على أحد الجنود الإسبارطيين ليحمل ابنها الصغير. في النهاية، أوقف كليرشوس المجموعة بأكملها.

في الظلام، أعطى أوامر جديدة. لقد أدرك الرجال المخاطر التي تحيق بهم، ولم يتذمروا، ولم يترك مينون الفرصة تمر من دون أن يذكر الرجال بنصيحته لهم بعد جلب الكثير معهم، مكررًا أن لا حاجة بهم إلى العبيد، بل هم بحاجة إلى فرصة للنجاة لن تكون متاحة إلا إذا ابتعدوا عن الجيش الفارسي قدر الإمكان.

أرسل كليرشوس ألف إسبارطي وألف كورينثي إلى الخلف. يجب على أتباع المعسكر الإسراع في السير، فحثّهم اليونانيون على ذلك، وكانت لديهم أوامر بإجبارهم. في الخلف، رغب بعضهم في استخدام الرماح كعصي، وضربِ أي شخص أخرق يشتكي، لقد ساروا لساعات، وعندما تعب الأتباع صاحوا بأنهم إما سيرتاحون وإما يفضلون الموت فالأطفال لم يعودوا قادرين على الاستمرار.

أعطى كليرشوس الأمر، فجلسوا في أماكنهم. عضّ شفته مقاومًا التعب، واختار حراسًا من بين الأصغر سنًا. لقد أراد أن يستريح الإسبارطيون لأنهم بذلك سيكونون أكثر فائدة له عندما تشرق الشمس. تثاءب القائد، وتفاجأ عندما وجد بالاكيس بالقرب من كتفه، ممسكة بالعباءة.

قال: "سيدتي؟".

أحنت رأسها.

"إنها لك أيها القائد. لقد وجدت بطانية عندما ذهبت إلى خيمتي". أخذها من يدها، بامتنان خالص. هذا الرجل افتقد عباءته عندما لم تكن معه.

"آمل ألا تكوني قد جلبت معك أكثر من بطانية، لأنني في الغد سأقوم بتجريد المعسكر من سقط المتاع، فنصف الأتباع يسيرون ببطء لأنهم يحملون أشياء، لا أعرف ما الذي يظنون أنهم يستطيعون بلوغه وهم محملون بهذا المتاع على ظهورهم!".

قالت: "لقد تركتَ نصف العربات خلفك يا كليرشوس. لا يمكنك لومهم، فقدَ بعضهم كل ما يملكون، وهم يشعرون بالخوف واليأس".

أجاب: "بلى، يمكنني ذلك، إن كان ما يحملونه سيؤدي إلى موتهم في الصحراء".

تحركت وراءه واستدار إليها، ممسكًا معصمها بيده.

"ماذا تفعلين؟".

"اعتقدت... اعتدت تدليك رقبة سايروس مسبقًا. أنت متعب، ويجب أن تبقى بحالة جيدة أكثر من أي شخص آخر".

نحنح حنجرته محرَجًا لأنه غضب منها.

"صحيح. نعم سيكون ذلك جيدًا. شكرًا لك".

وضع عباءته على الأرض الرملية ورفع مرفقَيه قليلًا. ركعت بالاكيس إلى جانبه، ومسّدت عضلات رقبته وكتفيه. لقد فوجئ بمدى الألم. ظن أن عشيقة سايروس كانت خبيرة في مثل هذه الأمور، أو ربما كانت عضلاته منهَكة تمامًا مثل بقية جسمه. لقد قاتل طوال اليوم وسار لساعات... غط الإسبارطي في النوم، وشخر بصوتٍ منخفض في حين حدقت بالاكيس إليه، لمست بيديها ندوبًا

قديمة على جسده. لقد كان وسيمًا، ولم تتمكن من تقدير عمره بدقة، بالرغم من أنها خمّنت أنه في الخمسين من عمره أو ما يقارب ذلك.

لو كان أصغر بعشرين عامًا لفكرت في إعادة ذلك الرماد إلى الحياة.

عندما عادت إلى بطانيتها، بدأ يشخر بصوت عالٍ. تجمع معظم أتباع المعسكر ضمن مجموعات عائلية، أو تمركزوا حول عربة، لقد كان تجمعهم يخفف عنهم وطأة الخوف، لقد رأت الأعين تلاحقها وهي تعبر المخيم، فهي وحيدة مهيضة الجناح بعد أن فقدت كل امتيازاتها بين ليلة وضحاها. من شدة بؤسها تمددت على الأرض وأجهشت بالبكاء، بعد أن غطت وجهها براحتَي يديها كي لا يرى أحد بكاءها.

في الصباح، استيقظت بالاكيس خائفة على أصوات اليونانيين الذين يحثون الأتباع على العمل، تثاءبت وهي تمطط جسدها البض، ثم وقفت لرؤية مجموعات من الجنود كل واحدة منها مؤلفة من خمسين جنديًا تجري دوريات عند تخوم المخيم، يقود كل منها بنتكوستر. اتجه بعضهم إلى التلال، وانتشر كثيرون منهم بين الرجال والنساء في المخيم، حيث وجهّوهم إلى مكان معين لقضاء حاجاتهم.

رأت بالاكيس كثيرًا من الناس يتبولون في المكان الذي استيقظوا فيه، فعبق الجو برائحة البول. في الحقيقة، احتارت بأمرها بشأن الرائحة أهي رائحة بول أم أن للخوف رائحة تفوق رائحة البول سوءًا، لم يكن من الصعب رؤية ملامح الإجهاد والقلق مرتسمة على وجوه الأشخاص، وكان الأطفال يبكون في كل مكان، فبعضهم فقدوا بالأمس آباء لهم، لكن بكاء أغلب الأطفال كان بمثابة استجابة لا إرادية لملامح القلق المنتشرة على وجوه كل المحيطين بهم.

بما أنه لم تكن لديهم أدوات لحفر خندق لفضلات للبراز، فقد تركوا خلفهم مشهدًا مقززًا من الأكوام كريهة الرائحة لدرجة أن بالاكيس شعرت بالسعادة لأنهم سيغادرون قريبًا. لبعض الوقت، سيكونون أشبه بالرُّحل، إلى أن يعثر الجيش الإمبراطوري عليهم أو يموتوا من العطش. بدت المياه أكثر ندرة من اللحوم، فقد كانوا يقودون معهم قطيعًا من الماعز والأغنام والحمير، التي شووا لحوم بعضها على حطب حصلوا عليه من خلال تحطيم العربات، نظرت بالاكيس إليهم وهم يأكلون، لكنها بالرغم من جوعها لم تجد في نفسها رغبة في الأكل فقد كان فمها جافًا وباطن خديها متقرحًا.

لم يمض وقت طويل قبل أن يصرخ الجنود مطالبين الأتباع بالتحرك وإلا سيتركونهم خلفهم ويمضون، لم تستطع بالاكيس كبتَ ابتسامتها عندما وجدت شابًا يحمل من الأغراض ما ينوء بحملها بغل، أما زوجة الشاب التي لا تحمل شيئًا، فنظرت إليها شزرًا قبل أن تبتسم لأطفالها. في الآونة الأخيرة، كثيرًا ما رأت الناس ينظرون إليها بعد مقتل الأمير، فهم ينظرون باحتقار إلى من أبقت سرير أميرهم القتيل دافئًا. ردًا على ذلك، صرفَت بالاكيس بأسنانها، ولم تُرهم شيئًا من وحدتها.

علم كليرشوس ما عليه فعله، كان ذلك واضحًا. بينما سارت بالاكيس في طريقها، وسط الآلاف من الغرباء، رأت الجنود اليونانيين وهم يقودون صفوفًا بانتظام وراءهم مثل الماشية كما

فعلوا من قبل.

لم يُخبر أحد أهل المعسكر عن الوجهة.

شحذت كل ساعة مرت احتياجاتهم، فتعالت أصوات الشكوى. أشرقت الشمس عديمة الرحمة، وجفّت حناجرهم، حتى أولئك الذين عانوا أكثر من غيرهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أكثر من التذمر مطالبين بالماء.

وصلوا النهر قبل الظهر. لم يكن لدى بالاكيس وعاء أو كأس، لذا ركعت عند الضفة وانحنت، ضمّت يديها وشربت مرارًا وتكرارًا، كما لو أنها لم تكن ترتوي أبدًا. مع ذلك حالما ابتعدت، شعرت بالعطش مجددًا. لمع العرق على جلدها، وتلطخت يداها بالطين. لم تعد قادرة على تمرير أصابعها من خلال شعرها لذلك ربطته إلى الوراء.

لا تزال الشمس فوقهم، لكنهم لم يستمروا. كان هناك نوع من النقاش يدور في إحدى المجموعات.

انتقلت بالاكيس مع مجموعات من الناس، لسماع ما كان يحدث ورؤيته. لم تتفاجأ عندما رأت كليرشوس هناك، مع القادة الآخرين. تطلعوا إلى الإسبارطي لإنقاذهم، واثقين من أسطورته. صلّت إلى الآلهة أن يتمكن من إنقاذهم. بينما كانت تقف هناك تراقب، رأت كليرشوس ينظر إليها مباشرة. رفع يده لتحيتها، حتى إن بعضهم استداروا لمعرفة الشخص الذي لفت انتباهه. لم تلتفت بالاكيس عندما سمعت تعليقات تهمس وراءها، فلم يكن لديها أحد ليحميها في هذا المكان.

وقف أحد الرجال الأصغر سنًا للاستماع إلى كليرشوس ممسكًا باللجام بين ذراعيه. أحنى حصان جميل رأسه فوق كتفه، يبحث عن طعام في قبضته المغلقة. فكرت بالاكيس، لا شك أن الحيوان كان جائعًا مثلهم جميعًا. رأت الشاب ينظر إليها فابتسمت له. كانت تحب الأحصنة. فقد اعتبرتها نوعًا من الحرية، بالتأكيد أكثر حرية من المشي على الأقدام. بادلها الابتسام، فأشاحت بالاكيس بنظرها عنه، مدركة أن عليها أن تكون حذرة.

قال كليرشوس لمن حوله: "لدينا ماء وطعام. لا شك في أننا سنجد قرى ونحن نمضي قُدمًا. صحيح أن هذه الأرض قاسية، لكن يمكننا الخروج منها، لا أرى أية إشارة على قدوم عاصفة، بالرغم من أني أرحب بقدوم واحدة، فقط كي أشعر بالنظافة مجددًا".

قال مينون غير مكترث لمقدرة أحد على سماعه: "لا يمكننا الدفاع عن كثيرين، يمكننا التقدم بسرعة بمفردنا، وبذلك نصبح خارج نطاق سلطة الملك الفارسي خلال أسبوع، ولكن مع عشرة آلاف من أتباع المعسكر، سنموت جميعًا".

اقترب كليرشوس خطوة من مينون وقال: "في زمن الحرب، كيف تريدين أن أجيب على شخص يُضعف الروح المعنوية؟".

فردّ مينون: "لقد اختارك سايروس قائدًا، ولكنه الآن يرقد بلا رأس في السهل خلفنا. هل حددت الآلهة أنك يجب أن تقودنا دائمًا يا كليرشوس؟ هل تفضّلك الآلهة لأنك إسبارطي؟ أعتقد أنه يجب علينا انتخاب قائد جديد الآن. سأرشح نفسي وسوف آخذ معي فقط الأصلح والأسرع من أتباع المعسكر. لا تتجهموا في وجهي!".

قال العبارة الأخيرة بغضب للرجال الذين زمجروا اعتراضًا على ذلك.

"لقد أعطانا كليرشوس خيارًا ما بين ترك بعضهم أو وفاة كل رجل وامرأة وطفل هنا".

أجاب كليرشوس: "أنت تقلل من شأننا. ولكن إذا كنت ترغب في ذلك، فعلينا إجراء تصويت. إذا لم تكن راضيًا عن قيادتي".

ألقى مينون نظرة سريعة حوله، ورأى على الفور أن هذا التصويت سيكون تعبيرًا غاضبًا للقادة.

أجاب: "لا، لست مستعدًا للاستماع، ليس بعد. لن أكون الشخص الذي اشتكى في وقت الحرب، كما تقول. فلتؤدِ دور البطل أيها الإسبارطي، أظهرْ الحكمة، يا له من قدر جعلنا نتبع الأمير المقتول إلى هذه الصحراء، ويحيط بنا الأعداء. أنا سأجيبك، سوف تقتلنا جميعًا".

وضع بيروكسينوس ذراعه على كتف مينون، وهمس شيئًا في أذنه. هزّ مينون رأسه وشتم، ثم ابتعد عن بقية المجموعة، وأخذ قربة ماء ليعيد تعبئتها من النهر.

تفرق الحشد أمامه، وتبادلوا النظرات.

شاهده كليرشوس يبتعد، ثم التفت إلى البقية كما لو أن مينون لم يقل كلمة واحدة.

"وفقًا لآخر خريطة رأيتها، يقع نهر زاباتاس إلى الشمال، سيستغرق الوصول إليه مسير يومين أو ثلاثة. التلال التي ترونها عن بُعد خضراء، يجب أن نعثر فيها على حيوانات وطيور يمكننا اصطيادها عند النهر، سنأكل حيوانات الجر، ونترك آخر العربات خلفنا. أتصور أن أبناءنا يستطيعون اصطياد حيوانات الصحراء بسهولة كافية، ويمكن لعدد من الرماة اصطياد الطيور. سنقيم وليمة!" ابتسم، بالرغم من أن عينيه ظلتا باردتين. "الأهم من ذلك، يقال إن النهر يتدفق بسرعة. أود اجتياز النهر، لا أعتقد أن الملك الفارسي سيسمح لنا بالمغادرة على الأقل من دون قتال".

سأل نيتوس: "في أي مدى نصبح خارج أرضه؟".

لقد كان نيتوس مصابًا ويربط ذراعه، وبدا من بين الجميع الأقل قدرة على المسير. فكّر كليرشوس في الجواب قليلًا.

"إذا تركونا نرحل، فإن المدى يقارب الألفي ميل - سبعمئة باراسانج أو نحو ذلك. قد نحاول الوصول إلى الطريق الملكي".

تمتم نيتوس: "حيث يمكن للملك أرتحششتا أن يلحق بنا بسهولة أكبر". لم يكن على استعداد لمناقشة هذه النقطة.

حدق إليه كليرشوس قبل إكمال حديثه.

"إذا اتجهنا شمالًا، فلا بد أن نكون خارج الأراضي الفارسية في غضون شهر أو نحو ذلك، أنا لا أخشى قبائل التلال والبرابرة، أيها السادة. فهم لا يُقارنون بالجيش الإمبراطوري، لن ترافقنا الصحراء إلى الأبد فهناك أنهار، إذا سمحتم لي بقيادتكم، فسنتوجه شمالًا، بأسرع ما يمكن، سنتعب كثيرًا، لكنني أعتقد أننا سننجح".

قال بيروكسينوس: "قد تكون مدة شهر أو نحو ذلك مناسبة للجنود. لكن معنا نساء ومسنون، ماذا بشأنهم؟".

أجاب كليرشوس بغضب: "هل توافق مينون الرأي؟ هل كنت ستترك الفرس يعتدون ويغتصبون اليونانيين؟ هل سبق لكم أن رأيتم هزيمة جيش يا بيروكسينوس؟ نيتوس؟ هل سبق لأي منكم أن رأى ذلك؟ أنا رأيت. لقد رأيت إحراق مدينة، لقد أعطيت الأمر حينها".

أغلق فمه بإحكام وتوقف، وواجه صعوبة في التنفس. أرخى قبضته اليمنى ببطء مجبرًا نفسه على الابتسام: "حسنًا، لا يمكننا تغيير الماضي، كل ما يمكننا فعله هو حماية هؤلاء الأشخاص الذين وثقوا بنا لإبقائهم على قيد الحياة. يمكننا إرسال عدد قليل من الفرسان لمراقبة العدو، وسنتجنب حصول معركة قدر المستطاع. إذا رأوا أننا عازمون على مغادرة أراضيهم، فقد يتركوننا نرحل".

قال نيتوس بسأم: "هل تصدق ما تقوله؟".

هز كليرشوس رأسه.

"لا، أعتقد أننا سنضطر إلى القتال، على الأقل مرة واحدة، لدى الملك عدد كبير من القادة الشبان، وعدد آخر من القادة السمينين والمسنين وجميعهم يريدون لصق جلودنا على الحائط. مع ذلك، رأيت طبيعة الرجال الذين يقفون معنا، أيها القادة، لم يكن لنا ندّ في المعركة بالأمس، على الأقل في صفوف الجيش الإمبراطوري. اجتاحت تشكيلاتنا صفوفهم التي يتبجحون بها، لقد أحبطناهم، سيكونون حذرين منا الآن. بحق الآلهة، لديهم حق في ذلك".

في الوقت نفسه سمع الجميع الجلبة، لذلك التفتوا نحو الصوت كمجموعة من كلاب الصيد التي تشتم الرائحة. بين الحشود، شعرت بالاكيس بقلبها ينبض بسرعة عندما بدأ كليرشوس في إصدار أوامر بصوت مختلف تمامًا. لم يعد القائد الفظ والطيب مع رجاله. أرسل الرجال إلى مواقعهم، فاستلوا سيوفهم وهم ذاهبون، وقفت بالاكيس على أصابع قدميها لترى ما الذي يحدث، لكن هذا ما فعله كل من حولها، ولم تكن طويلة على وجه التحديد، فلم ترَ أكثر من ظهور الآخرين.

أحست بيد أحد الأزواج تعبث على فخذها، فصفعته بقوة وابتعدت، ولم تنظر إلى الوراء، لم يكن ليجرؤ على لمسها فيما مضى، لقد أظهرت غطرسته أنها فقدَت مركزها وأخافها ذلك. قررت أن عليها حملَ خنجر، ربما سيعيرها كليرشوس نصلًا.

تقدمت بين الحشود، وذُعرت عندما اعتقدت أنهم سيتعرضون لهجوم. لكنها رأت ثلاثة فرسان يقتربون من الصفوف ويقفون أمامهم. كانت بالاكيس بعيدة جدًا، ولم تتمكن من سماع الحديث، لكنها رأت أنهم مدوا أيديهم إلى الأمام، كما لو كانوا يعتزمون إظهار أنهم لا يحملون أسلحة. حسنًا، إنها هدنة. لم تجرؤ على الشعور بالأمل، بعد الرعب الذي شهدته في المعسكر.

يمكن أن يكون الفرس طيبين مع من يحبونهم، لكنهم في غاية القسوة مع أولئك الذين اعتبروهم عبيدًا أو أعداء. لم تعد هناك طبقية في الحرب بين الغرباء، إذ يعتبر أدنى متسول في برسيبوليس نفسَه قائدًا عليها، أو مساويًا لأي من اليونانيين. تساءلت عما إذا كان كليرشوس قد تنبه لذلك.

لا يزال بعضهم ينظرون إليها على أنها ذات مكانة، لذا سمح لها اليونانيون بالمرور إلى الأمام. تجول كليرشوس في ذلك الجزء من الميدان، مبتسمًا للفرسان، وكأنهم ليسوا أعداء.

شعرت بالاكيس بقلبها ينبض بسرعة داخل صدرها عندما رأت ذلك. كيف يمكن أن يموت أميرها؟ كيف لا يمكن لسايروس ألا يكون هناك، بكل شبابه وعظمته، مع رؤيته الجديدة لبلاد فارس؟ كان قد ألهمها عشرات المرات بأحلامه والآن، بطريقة ما، كانت تلك النهاية وشعرت بالوحدة. شعرت بالدموع تتدفق، وتجاهلت نظرات أولئك الذين رأوها وهمس بعضهم لبعض.

نظر كليرشوس إلى تيسافيرنيس؛ الفارسي الجالس على صهوة حصان أبيض ويبتسم بتهكم، كما لو أنهما لم يحاولا قتل بعضهما قبل يوم واحد فقط.

قال تيسافيرنيس: "لن تصدقني أيها الإسبارطي، كم أنا مسرور لأنك لا تزال حيًا. هل شُفيت ندوبك من ضرب السوط؟". أجاب كليرشوس: "أعتقد ذلك. لماذا تسعى لإزعاجي يا تيسافيرنيس؟".

"قد أستمتع بقتلك، مثل بعض الرجال الآخرين في حياتي. أنت لست بأحمق. هل تريد مني أن أضربك؟". توقف تيسافيرنيس عن التمثيل والسخرية منه، سعيدًا بمكانته التي تفوق اليونانيين جميعًا.

"أنت تحدث مبعوث الملك بلهجة فظة أيها الأسبارطي، هل تعلم ذلك؟ إنك تحدثني وكأنني راعٍ أو خادم، لا أستطيع إلا أن أتخيل أنني أصبحت السيد تيسافيرنيس، كافأني الملك أرتحشتا لأننيٍ أخبرته عن خططك. هل أدركت ذلك الآن؟ أنا الذي أقنع الملك العظيم بحشد الجيوش، ليكون مستعدًا في الميدان لهجوم الخونة من الغرب. كان تحذيري هو الذي أنقذ العرش وأبقاه بيد مالكه الشرعي. أتصور أنه سيكافئني بقصر، الآن بعد أن انتصرنا".

فرك الإسبارطي ذقنه، وقال: "تيسافيرنيس، لقد أتيت إلى هنا لتدعو إلى هدنة، ومع ذلك يبدو أنك عازم على السخرية مني لتغضبني. إذا كانت هناك ألاعيب، فأعتقد أنك أنت الذي يلعب. الآن، لماذا لا تقول ببساطة ما طُلب إليك قوله. اترك قرارات الحرب لأولئك الذين يفهمونها".

تغيّر لون تيسافيرنيس، وأدار سرجه: "حسنًا، أيها الإسبارطي. أفضّل رؤية هذا ينتهي اليوم. كان بإمكاني إحضار مئة ألف رجل ليطوقوك، ويغرسوا سهمًا أسفل حلقك..."

قاطعه كليرسوش وقد سئم من حقد الرجل. "هل تحمل رسالة من الملك؟".

سُر عندما رأى تيسافيرنيس يبتلع لسانه ويختنق حتى أوشك على الموت، ولكن إذا كان الرجل مترددًا في الكلام، فربما هناك شيء يستحق السماع.

حدق تيسافيرنيس ببرود وصمت لفترة من الوقت، ثم تحدث كما لو كان يتلو شيئًا ترك مذاقًا مرًا على شفتيه.

"إن الملك أرتحششتا لا يحمل ضغينة تجاه أولئك الذين دفع لهم أخوه، إنه يفهم أن الخطأ يقع على الخائن- الأمير سايروس- شهد الملك شجاعة كبيرة على أرض المعركة من اليونانيين، لذلك هو يدعو القادة لمناقشة أفضل السبل لإرسالهم إلى ديارهم من دون إراقة مزيد من الدماء".

قال كليرشوس بصوت ضعيف والأفكار تدور في رأسه: "حسنًا، هذا أفضل. أين يقع معسكر الملك، سيد تيسافيرنيس؟". استخدم لقب الرجل، لكنه لا يزال يهز رأسه.

"الجيش من حولك أيها الإسبارطي. لكنني لن أقول أين يقيم ملك بلدي، ليس الآن. بلغني جوابك وسأنقله إليه. سأعود هذا المساء لأقودك إلى الملك".

أجابه كليرشوس: "موافق".

قال تيسافيرنيس: "الدعوة موجهة إلى جميع القادة اليونانيين". حدق خلف كليرشوس إلى صفوف الجنود والحشود الذين يحاولون الاستماع.

قال كليرشوس: "لديّ قائد أو اثنان أفضّل تركهما هنا". فكّر في مينون والضرر الذي قد يلحقه إذا وقف أمام الملك الفارسي.

"أيها القائد كليرشوس، هل تعتقد أنني مزارع فارسي؟ أم أننا بعض السذج؟ لقد استجوبنا الرجال الذين جاؤوا معك من سارديس بالنار والحديد، حتى نطقوا بجميع الأسرار. نعلم كيف أضر سايروس بسمعة الملك في بيزنطة، وسحب أموالًا لا يمكنه سدادها. نعرف ما أنفقتم، وبكم أنت مدين، وكم سعيت بحماقة إلى حمايته. لقد طلب الملك العظيم رؤية القادة اليونانيين الذين ألحقوا أضرارًا كبيرة بإمبراطوريته أمس". ابتسم الفارسي، وأشرق وجهه. "إنني أفضل الآن رؤيتك تُذبح في المكان الذي تقف فيه، لكنني أطيع أوامر الملك. لذلك ما لم تكن ترغب في الإساءة إلى جلالة

الملك، فسوف يرافقك نيتوس، ومينون، وبيروكسينوس، كزينيا الأركاديان، سوسيس سيراكيوس، باسيون الميغاريان..." رفع كليرشوس يده.

"حسنًا يا تيسافيرنيس. سوف آتي. أما بالنسبة إلى الآخرين، فسنتناقش في الأمر".

قال تيسافيرنيس: "من يعلم، ربما سترفض. ربما ستقرر الإساءة إلى سيدي مرة أخيرة. وإنني أتطلع إلى سماع إجابتك. سنلتقي الليلة يا كليرشوس".

استدار الفرسان الثلاثة معًا، تاركين كليرشوس يشيعهم بنظراته. تكلم الإسبارطيون بصوت منخفض، فضحك بيروكسينوس عند سماعه ذلك.

سأله بيروكسينوس: "أتعتقد أنه فخ؟".

اعترف كليرشوس: "لا أعرف، ربما. لقد أسقط بيدي، لن أعطي مينون الشعور بالرضى لموافقتي على شيء قد قاله، لكن الحقيقة هي أنني لا أرى كيف يمكننا حماية هؤلاء الأشخاص في هذا المكان. ربما كان عليّ أن أسير مباشرة وأتركهم جميعًا".

قال بيروكسينوس بحزم: "لا، لم أكن لأطيع ذلك الأمر. لن أستمع إلى صرخات هؤلاء الأطفال في لحظاتي الأخيرة. لم تكن لتتركهم".

تمتم كليرشوس: "كان مينون سيفعل ذلك". ونظر إلى الحشد. لقد رأى بالاكيس هناك مرة أخرى، وهو يتنقل بنظراته بين وجوه الغرباء.

أجاب بيروكسينوس: "أنت لست مينون. أنت رجل أفضل. سوف آتي معك الليلة".

قال كليرشوس: "إذا كانوا يتعمدون الغدر بنا، فسأقتل هذا العجوز السمين المغفل".

قال بيروكسينوس: "إنها مخاطرة".

لقد اتخذ قراره وتملكه التوتر الرهيب. "حسنًا يا بيروكسينوس. سوف أقف معك، كيفما جرى الأمر".

"أو يمكننا الهرب. أنا منفتح على هذه الفكرة أيضًا". نظر الرجلان إلى حشد كان يضم أطفالًا صغارًا، رجالًا ونساءً. إذا هربوا، فلن يصمدوا يومًا.

سأل بيروكسينوس: "هل تعتقد أنهم سيقدمون النبيذ في أثناء مناقشة هدنة؟"

ابتهج كليرشوس نوعًا ما.

"أتخيل ذلك".

الفصل الثاني والعشرون



فرك كليرشوس إصبعه أسفل خده، حيث تسبب له العرق بحكة. غاب عن طقوس تحضير المخيم وإجراءاته. مع ظهور الفرسان الفرس من الظلام، بدا من المنطقي التخلي عن كل شيء لا يمكنه الركض بسرعة. والحال وفق ما كان عليه، فإن الثيران الباقية مشت بخطى بطيئة للغاية مما يمكّن لطفل صغير على بغل أن يصطادها، فما بالك بالجيش الإمبراطوري! كان قد أمر بذبحها وجمعها إذا كانت هناك طريقة سهلة لحمل اللحم. مع ذلك، فقد فاته الترتيب البسيط لصفوف الطبخ. استخدم الفرس العبيد بشكل سيئ لذا نادرًا ما عاشوا لفترة طويلة. لقد فضّل كليرشوس الطريقة الإسبارطية في معاملة العبيد. كان لدى كليرشوس أربعة عبيد من الهوبليت بين صفوفه اعتبروه أبًا لهم. شكّ في أنهم لعنوا اسمه عندما جعلهم يمارسون الرياضة أو حين أرسلهم للركض حول التلال، لكن كان عليهم أن يتمتعوا بلياقة بدنية عالية، إذ إن حملَ معداته وحمايته يتطلبان القدرة على التحمل والصبر.

لم يركض كليرشوس في ذلك اليوم، فقد وقع عبء القرار عليه. أحضر بعضٌ ممن غادروا المعسكر القليل من الطعام معهم، وخرج آخرون لصيد النعام والحباري، وعاد ثلاثة منهم مثل الأبطال المنتصرين محملين بالغزلان، كانت المشكلة الأكبر هي العثور على حطب كافٍ لطهو اللحوم. اضطرت إحدى العائلات إلى الوقوف ومشاهدة عربتها تُحطم لتُحرق، نظر كليرشوس إلى الرجل العجوز الذي لا يزال يشتم ويتكلم بوقاحة.

تساءل الإسبارطي عما إذا كان سخط الرجل يقول شيئًا عجيبًا عن اليونانيين، من قبيل أن بمقدورهم أن يرفعوا قبضتهم في وجه القدر وحتى الآلهة، أو كان يصفهم بالحمقى. لم تحسّن الفكرة من حالته المزاجية، بالرغم من أن شريحة سميكة من لحم الغزال تم تحميرها للقادة الذين كانوا سيذهبون للقاء الملك في ذلك المساء. أصدر بطنه أصواتًا عند التفكير في ذلك.

انتشرت الأخبار بسرعة عبر المعسكر، فقد حضر الاثنا عشر رجلًا من كبار المخيم كلهم لمناقشة الأمر أو تقديم المشورة له. لا شك في أن رائحة لحم الغزال أدت دورها في ذلك أيضًا، لكن كليرشوس استقبل كلًا منهم بحرارة.

كان مينون آخر من أتى، وبدا منزعجًا.

قدّر كليرشوس، أن الشمس قد بدأت بالغروب بحلول ذلك الوقت، لم يأكل الرجل شيئًا طوال اليوم. اقترب منه مينون بتردد واضح، وأكد مزاجه الكلماتُ الأولى التي نطقها.

"أعتقد أنك تفترض منا جميعًا أن نسجد لك، أستطيع أن أرى لماذا اتفقت مع الأمير الفارسي أيها الإسبارطي، تتمتع بالغطرسة نفسها. هل ألقي بنفسي على الأرض من أجلك؟ هل هذا يرضي صاحب السمو؟".

أجاب كليرشوس متجاهلًا السخرية: "أعتقد أنه يجب أن تبقى هنا يا مينون". إنه يعتبر مينون تافهًا وسيئ المزاج، لكن رجاله مقاتلون أشداء. لقد عرف مينون كيفية القتال ببراعة.

نظر مينون إلى كليرشوس، ثم إلى وجوه الآخرين.

علم أن بيروكسينوس ونيتوس يدعمان الإسبارطي. لقد وافقه الرأيَ رجل أو رجلان سرًا بشأن تعجرف كليرشوس، لكنهما لا يزالان يقفان في صف الأكثرية، وينظران إليه على أنه دخيل.

قال مينون: "أنا قائد وأتمتع بخبرة عشرين عامًا في الخدمة، كان آخر ما سمعته هو أنك قد نبذت من قبل أفسارك في إسبارطة. ووجدت أميرًا مستعدًا لصب الذهب في حلقك، لكن هذا لا يجعلك القائد هنا، بغض النظر عن رأي هؤلاء الحمقى. أنت قائد، لأن سايروس قرر ذلك؟ حسنًا، ربما يجب أن نسمع من الأمير الآن؟ ارفع يدك أيها الأمير سايروس، إذا كنت تعتقد أن كليرشوس يجب أن يحكمنا، لا؟ لا شيء؟ إذن سأقرر مصيري أيها الإسبارطي ومصير رجالي الذين يتطلعون إليّ".

قال بيروكسينوس: "أنت وغد تافه، أتعلم ذلك؟ يمنحك كليرشوس فرصة للخروج، مينون. في حالة وجود خيانة الليلة".

أجاب مينون: "ألا تفهم؟ صديقك ذكي. ولكن إلى أي مدى سيبلغ ذكاؤه؟ تُرى ما الذي قدمه الفرس له هذا الصباح، عندما أتوا للتحدث نيابة عن الملك العظيم؟ لا يسعني إلا أن أتساءل عما إذا كان القائد كليرشوس قد شارك كل ما قالوه. حافظ على سلامتك يا بيروكسينوس. أنا لا أثق بك البتة".

ردّ كليرشوس بغضب: "حسنًا! تعال معنا إذن. ربما اعتقدت أنني سأجنب نفسي نحيبك يا مينون. بيروكسينوس، عليك البقاء".

أجاب بيروكسينوس على الفور: "لا، ليس أنا. أريد أن أكون إلى جانبك".

خاطبهما مينون:" أيًا يكن ما خططتما له فسأكتشفه، ما هي الخطة؟ هل سينقل بيروكسينوس المخيم بعيدًا في أثناء انشغالنا؟ لا، أود أن أرى بيروكسينوس إلى جانبي أيضًا".

وجد الإسبارطي أنه قد أغلق قبضته اليمنى، وقاس بصمت المسافة والوقت اللازمين ليخطو خطوتين سريعتين ويضرب مينون. كان ذلك احتمالًا مُرضيًا، لكنه كبت الرغبة في فقدان أعصابه كما فعل منذ أن كان في السابعة من عمره. بدلًا من ذلك، ابتسم لـمينون وأحنى رأسه.

"كما تريد. سنسير معًا إلى عرين الأسد. وإن ابتلعنا، فسوف يكون اسمك على شفتي، مينون".

قال مينون بسخرية: "أنت تجيد إلقاء الخطابات. لكنك لن تتركني هنا. أعدك بذلك". بحلول المساء عاد تيسافيرنيس فوجد القادة اليونانيين الاثني عشر في انتظاره، بدوا مستريحين ومنتعشين.

لم يحملوا أية رماح أو دروع، فالهدنة خير حامٍ لهم، لكن كل رجل قرر الاحتفاظ بخنجره، وفي حالة كليرشوس، فقد احتفظ بنصل خلف ظهره.

حضر الآلاف لرؤيتهم يغادرون، ووقفوا صامتين.

نظر تيسافيرنيس إلى الخلف ليرى الكثيرين وشعر بالغضب، لم يبدوا مثل مهزومين، لم يستطع أن يفهم هؤلاء الأشخاص الغريبين الذين لم يبد أنهم يعرفون أنهم هُزموا.

قال الفارسي وهو يستنشق الهواء: "أمر الملك في أن يظل أتباعك هنا في غيابك. سيضمن ملكي أرتحششتا الهدنة في أثناء وجودهم في هذا المكان، شرط ألا يتحركوا إلى الأمام أو الخلف، هل هذا مفهوم؟" صمت كليرشوس لفترة من الوقت. بدت عيناه مشرقتين بشكل غير طبيعي في الظلام.

أخيرًا قال كليرشوس: "أجل، مفهوم. الهدنة إذا بقينا، الحرب إذا تحركنا". لقد تحدث بطريقة جعلت الأمر يبدو تهديدًا بدلًا من الطمأنينة. نظر تيسافيرنيس بعيدًا وقاد حصانه.

حلّ الظلام بعد أن مشوا نحو ثلاثين ستادًا، أو بعد حوالي ساعة.

سأل بيروكسينوس: "أما يزال المكان بعيدًا؟ لقد تصلبت ساقاي".

أجاب كليرشوس: "كيف لي أن أعرف؟ إذا تصلبت ساقاك، فأنا على استعداد للجري لفترة من الوقت".

قال نيتوس: "أين سنركض؟ لا تنسيا أنني مصاب". مشيرًا إلى ذراعه الملفوفة.

أجابه مينون وهو يحدق إليه: "كيف يمكن أن ننسى ذلك؟ فأنت تذكرنا بذلك طوال الوقت".

وأضاف بيروكسينوس: "إنه بالكاد جرح، على أي حال. لقد تلقيت أسوأ من ذلك من زوجتي".

تجاوزه نيتوس فجأة، تتأرجح ذراعه الملفوفة صعودًا وهبوطًا.

دُهش تيسافيرنيس لرؤيته القادة اليونانيين يركضون، يدفع بعضهم بعضًا مثل الأولاد الذين يلعبون. لفترة من الوقت، تقدموا إلى الأمام، قبل أن يتوقفوا. أمكن لـتيسافيرنيس سماع ضحكاتهم وشتائمهم.

رفع الفارسي عينيه إلى السماء، وحثّ فرسانه على الهرولة بسرعة. بدت نيران معسكر الملك واضحة بين التلال، وبطبيعة الحال، نادى اليونانيون بعضهم بعضًا. لم تعد هناك حاجة إلى الاسترشاد بأحد. ازدادت سرعتهم تاركين الفرس وراءهم.

أمكن لـتيسافيرنيس الشعور بأعين مرافقيه تتوجه إليه، وهما شابان جادان لم يعرفا اليونانيين من قبل. نظرا إليه ليفسر لهما ما يجري، لكن لم يكن بوسعه قول شيء.

قال: "إنهم مجانين" وقد صُدم من المنظر. "من يستطيع أن يفهم أمثال هؤلاء الرجال؟" لحق الفرس الثلاثة باليونانيين وسبقوهم قبل أن يصلوا إلى تخوم المخيم. وجد تيسافيرنيس أنه يتعرق مما أثار غضبه. كان القادة اليونانيون يبتسمون عندما جاء الخدم لأخذ الأحصنة. تساءل تيسافيرنيس عما إذا كان عليه تغيير ردائه قبل التوجه لرؤية الملك، لكنه أمرهم بالعودة فورًا. وتساءل عما إذا كان أرتحششتا قد توقع وصوله في مثل هذا الوقت المبكر.

أومأ تيسافيرنيس وقال "في البلاط الفارسي، اتبعوني".

علم أن بعضهم يتحدثون اللغة، ولكن شعوره بالتفوق جعله يعاملهم كالأطفال ذوي التفكير البسيط.

مشى اليونانيون كمجموعة متراصة، واختفت روح الدعابة لديهم عند رؤية الجنود الفرس يحدقون إليهم. وقف الجنود في صفين باستعداد تاركين ممرًا ضيقًا.

ارتبك تيسافيرنيس عندما رأى كليرشوس ينحرف إلى جانب الطريق ليقف بجانب ثور أحد الرجال الذي كان ينظر إلى السماء.

دُهش تيسافيرنيس عندما رأى اليوناني يسوي سترة الرجل ويهمس بضع كلمات في أذنه جلبت الابتسامة لفمه أسفل اللحية سوداء.

سأل مينون: "هل تعتقد أن الشخص السمين يتكلم اللغة؟".

أجابه كليرشوس: "سيكون هناك شخص ما يتحدث بها، لا تقل شيئًا لا تود أن يُسمع".

"أنت رجل حكيم، أيها الإسبارطي. إنك تذكرني بأمي في نواحٍ كثيرة".

فقال كليرشوس: "أعتقد أنني قابلتها مرة من قبل..." أيًا ما كان سيضيفه قد تبدد عندما انطلق صوت الأبواق أمامهم. فُتح الجناح الكبير وانبلج الضوء من حولهم.

كان من الصعب ألا يُدهش اليونانيون بالخيمة الملكية التي أُنشئت على أرض صحراوية خلال يوم واحد فقط.

ارتفع السقف الذي كان متعدد المستويات، وكان الهواء كثيفًا وعابقًا بالروائح. انتقل الراقصون بتأنٍ مع صوت قرع بعض الآلات الوترية، كانت النساء بنُقبة بسيطة، ووضع الشبان أحمر الشفاه ورُسم بالكحل على أجسادهم. وقف هنالك المئات من الجنود الفرس حول جدران الخيمة مثل الخنافس السوداء أو البيضاء، وأشرقت وجوههم بسبب الحرارة وحماوة الدم. كان الهواء كثيفًا، وصعب معرفة السبب أكان بفعل حرارة الصحراء أم الزيت على الجلد العاري.

دخل الاثنا عشر يونانيًا على شكل ثنائيات، كليرشوس ومينون في الصدارة، بيروكسينوس ونيتوس وراءهما. لم يختر مينون الوقوف على يمين الإسبارطي، ولكنه وجد نفسه هناك وقد أنشده ورمش بعينيه أمام ضوء ألسنة اللهب. وُضعت المشاعل على مسامير برونزية ثُبتت في ثقوب في الحجر، أو أمسك بها العبيد. مهمتهم الوحيدة هي توفير الضوء حسب الحاجة.

في وسط الخيمة ظهرت طاولة كبيرة عليها سكاكين وأوعية وتحيط بها المقاعد، وكل ذلك على قطعة قماش حمراء. أضاء مصباح كبير فوق الطاولة، جالبًا لهيب الشموع البيضاء. امتدت الطاولة إلى اليسار واليمين أمام القادة اليونانيين، راقبهم الضباط الفرس من حيث كانوا يقفون وراء الجهة العريضة منها، شعر كليرشوس بمزيج غريب من العاطفة حيث رأى أريايوس بينهم.

ارتاح لرؤيته على قيد الحياة. علاوة على ذلك، كانت ابتسامة الرجل وتعابيره حذرة بما فيه الكفاية.

لا ينبغي أن يتفاجأ كليرشوس برؤية رجل مثل أريايوس بين صفوف الملك. فهو وقبل كل شيء أحد الفرس الناجين.

أومأ كليرشوس إلى أريايوس، لكن الفارسي نظر إلى الأرض. بعد ذلك، نظر كليرشوس إلى الشخص الذي سيطر على المشهد؛ الملك أرتحشتا. لقد كان يشبه أخاه على نحو يمكن معرفته على الفور وإن لم يكن محاطًا بالعبيد ومرتديًا ثيابًا مترفة، كان يشبه السجادة الذهبية. بدا الملك أيضًا أقوى مما وصفه سايروس، محاربًا لا باحثًا. ارتدى أرتحشتا أردية فضفاضة ذات قماش خفيف حتى لا يعرق بالرغم من حرارة الخيمة. كانت لحيته مزيتة ومحددة إلى حد ما. ولاحظ كليرشوس أن الملك يرتدي درع صدر مصريًا من النحاس تحت ملابسه ويضع خنجرًا في زناره. ومع ذلك، ابتسم أرتحشتا ابتسامة حالمة تقريبًا ولم يكن هناك تهديد فوري.

قال رجل: "مساء الخير أيها السادة." وجذب انتباههم إليه. انحنى بعدها واعتقد كليرشوس أنه خادم رفيع المستوى.

لا ينبغي أن يكون سماع اللغة اليونانية مفاجئًا.

مع ذلك، تفاجأ كليرشوس عندما خاطبوه بلغته الأم، بعيدًا عن كل ما كان يعرفه ويحبه.

وصل كليرشوس إلى الطاولة الضخمة، متفاجئًا بحجمها في أثناء اقترابه. ركع على إحدى ركبتيه، أحنى رأسه. وقد تناقش هو والآخرون بشأن أفضل طريقة لتحية الملك، مما عرفوه عن سايروس. لقد اتفقوا جميعهم على أن أرتحششتا يتوقع منهم أن يسجدوا له، ولكن في الوقت نفسه جادل بيروكسينوس بأن ذلك سيُظهرهم ضعفاء وأن رجالًا مثل الملك سوف تتأجج في داخلهم رغبة القتال عند رؤيتهم لمثل هذه التحية. علم كليرشوس أنها مخاطرة، لا سيما أمام أتباع الملك وعاهراته. انحنى نحو الأسفل وسمع أصوات الهسهسة في أرجاء الخيمة، لكنه لم يعرف إن كانت أصوات دهشة أم استمتاع.

همس مينون عند كتفه دون أن يرفع رأسه: "حسنًا، لقد أخبرتك، قتلتنا جميعًا".

أجاب كليرشوس بصوت منخفض: "حسنًا اسجد أنت يا مينون إن كنت تعتقد أن ذلك سينقذك".

"لا، ليس أنا. أنا يوناني جيد مثلك أيها الإسبارطي، بل أفضل منك".

نهض الإسبارطي على قدميه وابتسم للملك. تحدث الفارسية بطلاقة.

"يا صاحب الجلالة، أتينا إلى بلاطك طلبًا للهدنة، أرى أنك قد رحمت القائد أريايوس وأشكر رحمتك. اسمي كليرشوس من إسبارطة. إنه لشرف لي أن أقود هؤلاء الرجال في السلم والحرب".

قدّم الآخرين الذين يقفون وراءه واحدًا تلو الآخر. بقي أولئك الذين لا يتحدثون اللغة راكعين عندما تمت تسميتهم.

لم ينبس الملك ببنت شفة.

لاحظ كليرشوس أن عينيه بدتا جاحظين، كما لو أن أرتحششتا قد أمضى ذلك المساء وهو يشرب الخمر. انتظر القائد أن يؤذَن له بالجلوس. علم من علاقته مع سايروس أن الفرس أخذوا عادات الضيافة بجدية بالغة. إن رُحّب به هو ورفاقه على طاولة الملك، فسيكونون ضيوفه. بعد ذلك، يمكن التغاضي عن أي خرق صغير للقواعد أو العرف. انتظر كليرشوس، بالرغم من أنه شعر بخطوط جديدة من العرق تنحدر من فروة رأسه إلى داخل لباسه.

تجاوز تيسافيرنيس القادة الذين أحضرهم إلى تلك الخيمة، سجد ثم جلس إلى ركن بعيد من الطاولة. رأى كليرشوس أنه لم يجرؤ على الجلوس دون إذن، لكن وصوله كسر التوتر. تحرك أرتحششتا ببطء، كما لو أنه قد عاد من الفضاء اللامتناهي إلى ذلك المكان الحار والجميل.

"أهلًا وسهلًا بكم، كليرشوس من إسبارطة، اطلب إلى مرافقيك الجلوس. أنتم جميعًا ضيوفي هذا المساء". انحسر التوتر، فقد سمع كل جندي من بلاد فارس الكلمات، وعلموا أنه لن

يُطلب إليهم القضاء على اليونانيين الواقفين. تنهد كليرشوس بعمق. لقد شعر بنظرة العديد من الرجال الذين كانوا سيسعدون برؤيته مقتولًا.

كان الإسبارطيون العدو الأكثر شهرة الذي واجهه الفرس، العدو الذي لا يُقهر. أمل كليرشوس أن يكون قد أضاف بضعة أسطر إلى تلك الأسطورة في كوناكسا، عندما أظهر أنه يستطيع الذهاب إلى أي مكان يريده في ساحة المعركة. اعتقد أنه لو لم يسقط سايروس بهذه السرعة، لكانوا قد حطموا الجيش الإمبراطوري، رغم أن الأمر قد يستغرق شهرًا لقتل آخرهم. ومع ذلك، لم يعتقد أنه سيتشارك هذه الآراء على الطاولة في ذلك المساء.

جلس اليونانيون على الكراسي المخصصة لهم عندما أُرشدوا إليها، مخفين عدم ارتياحهم لوجود الكثير من الغرباء والأعداء خلفهم.

نظر كليرشوس إلى عيني الملك. لم يستطع منع نفسه من قياس عرض الطاولة، فوجدها بعيدة للغاية ليتمكن من الانقضاض بنصله. لقد كان ذلك تفصيلًا أحبه سايروس. لا شك أن هناك قصة وراء بناء هذه الطاولة، رغم أن الطريقة التي وصلت بها إلى سهل في وسط الصحراء تخطت حدود تفكيره. تعجب القائد اليوناني من عدد العبيد حول الملك. لقد كان من المنطقي أن يكون المعسكر الملكي أكبر بعشرة أضعاف من معسكراتهم؛ في ساردیس أو أثينا خلال مسيرتهم. طاولات كبيرة، حانات، صائغو جواهر ونساجون، نحاتون على العاج والحجر. في ليلة واحدة، بنوا حضارة في الصحراء، ومع ذلك لا يزال يتساءل عما إذا كان سيرى الشمس تشرق من جديد. تنفس كليرشوس بعمق وابتسم، ووضع يديه على الطاولة أمامه، وكان مسرورًا لرؤيته أنها كانت ثابتة.

سأل أرتحششتا: "هل نشرب نخب الرجل الخاسر أيها اليوناني؟".

أومأ كليرشوس.

"بالتأكيد يا صاحب الجلالة، لمنحه الشرف وتسريع طريقه".

أومأ الملك في الهواء فملأ العبيد الكؤوس أمام كل رجل. نظر مينون إليه بتعبير قاتم، لكنه لم يكن غبيًا ليهين مضيفهم برفضه.

نهض الملك، ونهض القادة الاثنا عشر، ممسكين بكؤوسهم عاليًا. عاد التوتر إلى الغرفة عندما أمسك الجنود الفرس السيوف واستعدوا لاستلالها عند أبسط حركة.

"كان أخي سايروس خائنًا و... أحمق. لكنه كان ابن أبي. آمل أن تجد له الآلهة مكانًا في الأبدية. إنه أخي سايروس، أيها السادة".

قال كليرشوس: "الأمير سايروس".

سُمع صوت أريايوس ينضم للباقين الذين قالوا الكلمات ثم جلسوا، وكلهم يدركون التهديد المفاجئ الذي شعروا به. لا يبدو أن أرتحششتا قد لاحظ. ابتسم عندما جُلبت الأطباق الساخنة الأولى،

موجهًا انتباهه إلى الطريقة التي تم تقديم الطعام بها.

قبل كليرشوس الأطعمة الشهية التي قُدمت أولًا ووُضعت في صحنه ورفض أي شيء آخر. لم تكن لديه شهية وأمكنه رؤية أن بيروكسينوس اختار وعاء من الحساء وشيئًا مقليًا يمكن غمسه، أما مينون فكوّم في صحنه جميع الأنواع المعروضة ولم يتوقف إلا عندما شعر بنظرات الآخرين.

تجشأ الملك في قبضته، وأفرغ كأس نبيذه مرة أخرى.

ظلّ الإسبارطي يعدّ وعلم أن هذه هي المرة الثامنة التي يرى فيها الملك قاع كأسه.

قال أرتحششتا فجأة: "ماذا عليّ أن أفعل بكم أيها اليونانيون؟".

رأى كليرشوس تيسافيرنيس يرفع رأسه عن صحنه فيما كان يمسحه بنوع من الخبز المسطح.

أجابه كليرشوس: "يا صاحب الجلالة، نحن مرتزقة. رجال مستأجَرون. لا نأمل شيئًا أكثر من السماح لنا بالانسحاب مرة أخرى إلى الطريق الملكي".

قال أرتحششتا: "لقد أتيتم إلى بلادي غزاة".

عاد الشعور بالخطر، وكان كليرشوس سعيدًا لأنه لم يأكل كثيرًا حتى لا تكون حركته بطيئة، بعد أن شعر بالتهديد يتصاعد في الحركة الثقيلة للرجال المسلحين الذين ظنوا أن حركتهم لم تُلاحظ. وكلما ازداد الأمر خطورة شعر أن عليه الانسحاب. كانوا محاصَرين، إذا اعتزم الملك إيذاءهم، فليست هناك فرصة لنجاتهم على الإطلاق.

"لقد جئنا من أجل الذهب والفضة يا صاحب الجلالة. دفع لنا أخوك سايروس لنسير معه. نحن مثل السروجين أو النجارين، رغم أن تجارتنا متعلقة بالسيف والحرب. عندما يُقتل من استخدمنا، نأمل فقط في الانسحاب. في النصر أو الهزيمة، لا نبحث عن أية ضغائن".

"قد يخيب أملك هنا. في بلاد فارس، لدينا ذاكرة طويلة الأمد أيها القائد. أتيتم إلى أرضي بحثًا عن رأسي وعرشي. أتيتم لتدمير كل شيء مرسوم لي، ومع ذلك تتوقع أن أدعك تمضي في سبيلك في النهاية، أن تصادقني، أخبرني القائد أريايوس حقيقة الأمر، كيف أجبره أخي على خدمته. بما أنه فارسي استعدته إلى جانبي، ليتسلى به حراسي". نظر كليرشوس إلى أريايوس، ورأى الحزن والإذلال في عينيه. لم يعد الرجل المفضل، على ما يبدو.

هز أريايوس رأسه بانهزام إلى الأمام والخلف، محذرًا إياه. كان هناك شفقة في تعبيره وشعر كليرشوس بتشنج في معدته.

"لكنك..." تابع الملك، "حقًا، كما قال السيد تيسافيرنيس. أنتم أيها اليونانيون، كلكم برابرة... همجيون. الآن، انتهت الوجبة. هل تفهمون؟ هل أكلتم ما يكفي؟ هل بإمكانكم الشكوى إلى الآلهة أنني عاملتكم بازدراء، أو نكثت بوعدي يا ضيوفي؟" ساد الصمت في الخيمة. حتى النساء وقفن كالتماثيل وقد تلاشت آخر نغمات الموسيقى، بدا كل شيء معلقًا في الهواء لفترة من الزمن.

شعر كليرشوس بذراع قوية تلتف حول رقبته من الخلف، فسحب نصله وضربه بمفصل المرفق، مما جعل مهاجمه يصرخ في أذنه. مع ذلك، كان هناك العشرات من الجنود مستعدين لمواجهة اليونانيين الجالسين. كسر بيروكسينوس ذراع أحدهم على حافة الطاولة، مما جعل الرجل يصرخ ويسقط أرضًا. نهض مينون ولكمَ فارسيًا آخر قبل أن يهجم، وهو يلعن ويشتم مع كل نفس. تأرجحت الطاولة، وكادت أن تنقلب، لكن ليست هناك إلا نهاية واحدة وحتمية لما يجري. في ذلك المكان الصغير، طُعن اليونانيون مرارًا وتكرارًا خلال لحظات.

نهض أرتحششتا مرة أخرى، ونظر إلى الأسفل نحو أعدائه الذين سقطوا، كان واحد أو اثنان منهم يتلويان ألمًا في قبضة أولئك الذين يخنقونهم أو يضربونهم بالسكاكين. رأى أن الإسبارطي لا يزال واعيًا، بالرغم من أن وجه الرجل كان أحمر مثل عباءات رجاله.

"كيف سيمضي اليونانيون الآن، أيها القائد؟ من دون قادتهم؟ لن يغادروا أرضي أحياء، خذ هذه المعلومة معك وأنت تموت". اعتقد أن كليرشوس كان يحاول قول شيء ما. عبّر الملك عن دهشته عندما رأى أن الرجل كان يضحك، لكن انهمر دم الإسبارطي إلى صدره بسرعة كبيرة ومات كليرشوس قبل أن يطلب إليه أرتحششتا جوابًا.

الفصل الثالث والعشرون



أوقظ الحراس المخيم بالأبواق عندما سمعوا الفرسان يقتربون. كانت الاستجابة فورية بسبب وجود الملك أرتحشثتا على بعد بضعة أميال، لقد جعلت الأبواق الجنودَ الإسبارطيين والثيساليون يتعثرون ببطانياتهم، ونهضوا شاهرين سيوفهم للرد على التهديد.

أُحضرت المشاعل في ظلمة الليل، ليروا الفرسان. وتشكلت خلفها خطوط من الرجال مسلحين بالرماح والدروع. لم ينزلوا أسلحتهم عندما رأوا بضع عشرات فقط من الرجال يقتربون من المخيم. كان كليرشوس والقادة غائبين ولم يكن هناك أحد ليأمرهم بالعودة إلى بطانياتهم، وهم أيضًا ما كانوا ليمتثلوا لو طلب أحد إليهم ذلك.

وقف ضابطان متقدمان عن الباقين فيما اقترب الفرسان وتوقفوا. كان العبيد يركضون بجانب الفرس، حاملين المشاعل بعيدًا عن أجسادهم كي لا يسيل النفط على الجلد العاري.

وقفت بالاكيس وراء الضوء، ولم تتجرأ على الاقتراب. عرفت تيسافيرنيس مرة أخرى، وكان أريايوس يقف بجانبه ويبدو حزينًا، لم تعرف ما إذا كان القائد الفارسي سجينًا، بالرغم من أن أريايوس بدا أنه يركب من دون قيود. كان تيسافيرنيس هو الذي واجه الضابطَين الواقفين في طريقه، ثم رفع صوته ليصل إلى أي شخص يمكن أن يسمعه في الظلام وراءهما.

"إنني آتٍ إلى هذا المخيم في هدنة. لديّ أخبار خطيرة لكم جميعًا، وعليكم اتخاذ قرار قبل الفجر، قادتكم قُتلوا، لقد أزعجوا الملك أرتحشثتا لذلك أمر بقطع رؤوسهم. أنا آمركم بالاستسلام. إذا قمتم بذلك، يمكن أن تتوقعوا شكلًا من أشكال الرحمة. ستصبحون عبيدًا، لكن سيُسمح لمعظمكم بالبقاء أحياء، إذا لم تتخلوا عن أسلحتكم مع شروق الشمس، فسنطاردكم ونقتلكم واحدًا تلو الآخر مثل الكلاب. لكي تكونوا عبرة لجميع أولئك الذين يختارون الفضة على الشرف، إن الملك العظيم لا يوافق على المرتزقة. يجب أن تقرروا قبل الفجر. هل تفهمون موقفكم؟".

قال ذلك لزوج من الضباط، لم يكونا يعرفان أية كلمة فارسية. لكنهما فهما من نظراته ونغمة كلامه أنه طرح عليهما سؤالًا، فهز الاثنان رأسيهما. رفع تيسافيرنيس عينيه في حالة من الإحباط، ملوحًا بيده إلى أريايوس، الذي دفع حصانه خطوة إلى الأمام، وترجم خطاب زميله الفارسي إلى اليونانية لجميع الذين كانوا يسمعون.

عضّت بالاكيس شفتها، وشعرت بالدموع تتجمع.

لقد ذهب كليرشوس بثقة إلى وكر الأفاعي. خسارته، بعد فترة وجيزة من خسارة سايروس، جعلتها ترغب في التقوقع بوضعية الطفل، وتطويق ركبتيها بيديها. لم تستطع الاستمرار. فكّرت في أنها ستصبح عبدة لبعض الجنود أو الأسياد الفرس وشعرت باليأس. لن ترى اليونان مرة أخرى. بكت، بالرغم من أنها لم تصدر أي صوت. راقبت أريايوس وهو يكرر الرسالة مرة أخرى، وكيف أجفل عندما رفع تيسافيرنيس يده ليشير. ربما لم يكن أريايوس سجينًا، لكنه لم يعد القائد الذهبي الذي عرفته من قبل.

راقبتهم بالاكيس وهم يديرون أحصنتهم، وبقيت أضواء مشاعلهم مرئية في الليل لفترة طويلة. مسحت دموعها، وشعرت بآثارها ساخنة على ظهر يدها. لم يكن لديها شك في أن الكحل قد لطخ عينيها.

كان هواء الليل باردًا، وبالرغم من أنها كانت تعرف أنها ترتجف، إلا أن الظلام ساعد في إخفاء ارتجافها. بدأت ألف محادثة تهمس حولها، ولم تكن جزءًا من أي منها. لكن شيئًا فشيئًا، استعاد المخيم هدوءه مرة أخرى.

عانوا كثيرًا من الصدمات والنكبات خلال فترة زمنية قصيرة للغاية. لقد أذهلتهم الضربة الأخيرة، فقد رأوا قادتهم يخرجون مفعمين بالثقة والأمل، فقط ليختفوا إلى الأبد. كان ذلك أكثر مما يمكن تحمله. دارت النجوم فوق رأسها، وظنت بالاكيس أنها لن تنام. ففي النهاية كانت هذه ليلتها الأخيرة من الحرية. حاولت ألا تفكر في ما سيأتي مع الشمس.

راقب زينوفون مغادرة أريايوس وتيسافيرنيس، كان يقف في الظل على بعد خطوات قليلة من المشاعل، غير مرئي بالنسبة إليهما. لقد ظن أن نصف المخيم قد استداروا لسماع ما كان يحدث؛ فاليونانيون فضوليون لا سيما في أمور أقل أهمية من هذه، فكيف إن كانت حالهم وحياتهم على المحك! كان خبر مقتل كليرشوس مثل الطعنة في الصدر، شتم زينوفون في سره. لم يكن أحد ليتقبل أن باستطاعة إنسان التغلب على كليرشوس، لكن ملامح الانتصار السام على وجه تيسافيرنيس كانت واضحة. كان الرجل كالحية، لكن هؤلاء الرجال غالبًا ما يحققون أطماعهم، كما كان سقراط يقول دائمًا.

مشى زينوفون إلى حيث وضع بطانية على الأرض الرملية، لينام على ظهره ويداه مطويتان على صدره. فكّر في أن ينام، لكن النوم جافى عينيه، كان قد أكل قبل ذلك بقليل بقايا حيوان نحيل مسكين كان فيه من العظام أكثر من اللحم. التقط قطعة منه بأسنانه وهو ينهض محدّقًا إلى السماء الصافية وقد امتدت النجوم فوقه بشكل عصابة كبيرة عبر الضباب.

ارتجف بعنف عندما سأله هيفاستوس عند كتفه. "ماذا ستفعل؟".

"بحق زيوس! هل كان عليك أن تزحف عليّ في الظلام؟".

استهجن هيفاستوس ما قاله، وهو بالكاد يظهر تحت ضوء القمر.

حدق زينوفون إليه. كان قد علّم زعيم العصابة الأثينية كيف يمتطي الحصان، ومنذ ذلك الوقت بدا وأن الرجل ينظر إليه للحصول على إرشادات، كما لو أن لديه إجابة عن كل سؤال.

لفّ زينوفون قطعة من الجلد على إبهامه. صعب عليه الاعتراف بأنه لا يملك فكرة. فهو لا يزال مشوشًا من الأخبار التي أفادت أن كليرشوس وبيروكسينوس ونيتوس ومينون قد قُتلوا مع الآخرين. كان يعرف بعضهم وأُعجب بهم، في حين كان الآخرون غرباء بالنسبة إليه. وغيابهم جميعًا عن الصورة هزه بشدة.

خطرت بباله فكرة واندفع متحركًا.

تردد هيفاستوس للحظة واحدة قبل اللحاق به.

"ما بك؟ هل سمعت شيئًا؟ ماذا نفعل؟ توقف زينوفون". وجد نفسه يتنفس بشدة. التفت إلى الرجل الأصغر سنًا بجانبه، البالغ من العمر تسعة عشر عامًا وقد عانى من الحياة العنيفة والوجبات غير المؤكدة منذ سنواته الأولى. كان سبب اقتراح سقراط عليه مرافقة زينوفون يعدّ لغزًا، فقد كان هيفاستوس يستجيب لمعظم التحديات بقبضتيه، أو في بعض الأحيان بحجر يمسك به في قبضته. لقد أثبت أنه رفيق صعب، بالرغم من أنه كانت لديه طريقة مدهشة مع الأحصنة، وجب على زينوفون الاعتراف بذلك.

"أنا بحاجة إلى التحدث إلى قادة بيروكسينوس. كان هناك اثنان منهم يقفان بالقرب من الفرس".

لم يقل شيئًا آخر، وأغلق فمه قبل أن يفشي بالخطة الجريئة التي قفزت إلى رأسه. لرجل مثل هيفاستوس، كان ذلك يبدو ضربًا من الجنون. مشى زينوفون إلى حيث كان تيسافيرنيس وأريايوس. كان هناك مشعل واحد لا يزال يحترق، وقد غُرست العصا بعمق في الرمال. ورأى ضابطين على مقربة منه، وقد أحنيا رأسيهما مشغولَين بمحادثة قلقة.

اقترب منهما زينوفون، وأبقى صوته ثابتًا، بالرغم من أنه خرج في البداية كالنعيق.

"أيها السادة، لو كنت أتناول الخمر، لكنت سأرفع كأسًا لليلتنا". عبس الرجلان باتجاهه.

"هل تعتقد ذلك؟".

"لقد قتل الملك قادتنا أيها الضابطان، وسوف يفعل الشيء نفسه بنا. إن الليل يمر. وعندما تشرق الشمس، سوف نراهم قادمين، ليس لديّ شك في ذلك. أنا فقط مندهش... لكن لا، لقد فات

الأوان".

"فات الأوان على ماذا؟". سأله الشابان على الفور، متمسكين بأي شيء قد يعطيهما الأمل.

"إذا ذهبنا بخنوع إلى الملك، فسينتهي أمرنا. إن هذا الرجل قطع رأسه أخيه، ماذا يمكن أن نتوقع من مثل هذا الملك؟ سيُقتل معظمنا وسيُستعبد الباقي. لن يرى أحد منا منزله مرة أخرى. ومع ذلك لقد عاد نصف المخيم، وأنا أعتقد أن لديهم رغبة في القتال، ففي النهاية نحن لم نُهزم على أرض المعركة. لا، إننا نتحمل الحرارة والبرد والإرهاق أفضل من أي فارسي، ولكنهم يتوقعون منا أن نسلم سيوفنا ودروعنا ونضع رقابنا تحت حدّ السيف".

أتى مزيد من الرجال لسماع زينوفون يتكلم. وركّز الضابطان بشكل حاد لمعرفة من كان ذلك، كانا يشتبهان بالجميع.

سأل الضابط الأكبر سنًا: "هل تعتقد أننا قادرون على محاربة هذا الفارسي العظيم بمفردنا؟ مع وجود عشرة آلاف شخص في المعسكر لنحميهم؟ وطعام لا يكفي أكثر من بضعة أيام؟".

أدرك زينوفون أن لهجته ليست لهجة ازدراء. كان الرجل يتحدث بهدوء ويستفسر، ولكن كانت هناك حاجة في صوته. لقد أراد حقًا أن تكون لدى زينوفون إجابة وانتظر رده. أجاب زينوفون كما علمه سقراط، أن يفكر في الأمر بصوت عالٍ، فبقي صوته هادئًا ومطمئنًا، وبدأ بالقول: "إنهم لم يهزموا قواتنا في الميدان. إن الأرقام تعني القليل. لدينا فقط ستة أحصنة، وذلك عدد قليل جدًا. لذلك إذا هاجموا، فلن يهم إذا فزنا، فنحن لن نتمكن من ملاحقتهم، وعندها سيصل الضرر. وإذا خسرنا، فسيمكنهم إرسال الفرسان لذبح شعبنا. نعم، سيكون سلاح الفرسان التهديد الأكبر". توقف مؤقتًا لينظر حوله إلى عشرات الضباط الذين جاؤوا للاستماع، أرادهم أن يفهموا ما كان يقوله. وقال: "إنه لا يتحدث فقط لسماع صوته أو لتمضية الوقت". لقد سأل سقراط ذات مرة كيف يجب أن يعيش الرجل، فأجاب الفيلسوف، بشكل مدروس، قائلًا إن هذا هو ما يفصلنا عن الحيوانات الغبية. "لقد رقّاكم بيروكسينوس أو نيتوس لتكون لكم سلطة على الآخرين. عندما نضع خطة، فسأكون على استعداد لاتباع سلطتكم. أعلم أنكم لن تبقوا هنا، مثل الحملان والماعز، في انتظار العدو ليُسكت أصواتنا. نحن يونانيون، إننا نتحدث، ولكن بعد ذلك نتحرك... لذلك". وابتسم لأنهم كانوا ينتبهون لما يقوله، وللطريقة التي بدأت بها ثقته تؤثر عليهم إذ إنهم وقفوا باستقامة.

"قبل أن نسير، يجب علينا أن نبحث عن أولئك الموجودين بيننا ممن يمكنهم الصيد بالمقلاع أو القوس، نحن بحاجة إلى طريقة لابعاد فرسان الفرس، وإلا فسيطوقوننا ويُطلقون السهام طوال اليوم لاختراق ميداننا، لم يستطيعوا اختراقنا في المعركة، ولكن إذا كنا في أرض مفتوحة، فسوف يقضون علينا. أومئوا إذن أيها السادة! دعوني أعرف أنكم توافقون على كلامي، أنكم تفهمون، لم يبقَ لدينا سوى بضع ساعات قبل أن تشرق الشمس، وعلينا أن نتحرك بحلول ذلك الوقت. لماذا نجعل الأمر سهلًا على أولئك الذين قتلوا أفضل من عندنا؟ لماذا نعطيهم أي شيء يريدون؟ لا، نحن بحاجة إلى قاذفي المقاليع على التخوم. بعد ذلك، على حد تعبير كليرشوس، سنحتاج إلى الغذاء والمأوى...".

قال رجل لا يعرفه زينوفون مقاطعًا: "هذا جنون. سوف تتسبب بهلاكنا جميعًا".

تذمر الآخرون من حوله بسبب مقاطعته، وأعطوا زينوفون اسم الرجل. رفع زينوفون يده طلبًا للصمت وكان مسرورًا عندما حل الهدوء.

"أبولونيدس، أليس كذلك؟ لو كنت أنت من سيقودنا غدًا، فماذا تقترح؟". احمر الرجل خجلًا تحت ضوء المشعل، وبدا غير مرتاح.

"أنا لا أطلب القيادة، لكنني سأطلب إلى ملك الفرس أن يرحمنا جميعًا. لا أمل لنا بالنجاة من دون أن يعفو عنا. نحن في صحراء، ومحاطون تقريبًا بمدنه وأفواجه، لن نستطيع الذهاب إلى أي مكان لا يوجد ختمه عليه".

رفع الضابط ذقنه في تحدّ وقد توقف عن الكلام. كان هيفاستوس يراقبهم بذهول، إنهم يريدون شخصًا يقودهم للخروج من حالة مستحيلة. لقد احتاجوا على الأقل إلى رجل واحد يعرف ما عليه القيام به.

شعر زينوفون، كأنه شرب للتو بضع كؤوس من النبيذ في حين كانوا ينتظرون منه ردًا. شعر وكأن سقراط يستمع إليه ويضحك عليه، لكنه هز رأسه لإزالة كل الأصوات القديمة. ربما تحدث الضابط أبولونيدس عن مخاوفهم جميعًا، لكن لم يكن من الممكن السماح له برأيه، كان بإمكان زينوفون رؤية المسار الذي يجب عليهم اتخاذه. في لحظة، أصبح هذا الرجل عقبة. تنفس زينوفون غاضبًا. وتساءل عما إذا كان هذا هو ما شعر به كليرشوس كل يوم.

"لقد كنت هنا عندما اتفقنا على هدنة مع الملك يا أبولونيدس. عندما خرج كليرشوس وبيروكسينوس وجميع الباقين بحسن نية، من دون دروعهم ورماحهم، يثقون بكلمة أرتحششتا. إنني أدعو أن يكونوا قد ماتوا حقًا وألا يكونوا تحت التعذيب والإهانة من قبل أعدائنا. هل تريد منا أن نثق بكلمة شخص أثبت بالفعل أنه كاذب؟ هل يجب علينا أن نركع لتيسافيرنيس، الذي خان الأمير؟".

قرأ زينوفون وجوه مجموعة من الضباط، وأدرك أنهم لا يدعمون الرجل الذي تحدث، حدّقوا إلى أبولونيدس، وجعل ذلك غضبه يتصاعد. خطا زينوفون إلى مقربة منه جاعلًا من نفسه تهديدًا.

"إذا كانت هذه هي أمنيتك، فأنا أقول إنك لست واحدًا منا، يا أبولونيدس، أقول إن ضعفك سيكلفنا حياة كل من أتينا به إلى هذا المكان. هذا يجعلك عدوي، يا أبولونيدس ولن أعتبرك يونانيًا".

عندما همهم الرجل، تحول زينوفون إلى الآخرين.

"الخيار لكم، أيها السادة. من وجهة نظري، يجب تجريد هذا الرجل من منصبه وإجباره على حمل الأمتعة في أثناء انتقالنا إلى الصحراء".

"كيف تجرؤ على التحدث إليّ هكذا". أجاب أبولونيدس. وشرع يسحب خنجره، ولكن رجلًا آخر أمسك معصمه، ففغر فمه وكافح لكنه لم يستطع التحرك.

جاء ضابط إسبارطي يدعى كريسوفوس، وسحبه من شحمة الأذن، فتحرك أبولونيدس بعنف مبتعدًا عنه.

قال كريسوفوس: "إن أذنيه مثقوبتان مثل الليديان، لقد تساءلت بشأنه من قبل".

"ليديان؟ أنا يوناني". أجاب أبولونيدس بحدة. وصارع فيما جُرّد من خنجره، ولكنه لم يستطع القيام بشيء فاستسلم لاهثًا.

قال أحد الضباط: "امضِ إلى الصحراء، أنا لن أنظر خلف ظهري حذرًا من الجواسيس والخونة".

التفت أبولونيدس في نداء صامت للآخرين، ولكن لم يكن هناك سوى غضب شديد على وجوههم. لقد أصبح محط كل اليأس والخيانة في تلك المجموعة، ولم يكن ليحظى برحمة أي منهم، نظر بكره إلى زينوفون، واستدار على عقبه، ومشى بعيدًا في الظلام.

بينما كانوا يرفعون المشاعل لمراقبته وهو يذهب، تم الكشف عن المزيد من الجنود، كانت عيونهم تعكس الضوء. جاء كل ضابط في القوة اليونانية لسماع المحادثة. بحثوا عن قادة، وشعر زينوفون مرة أخرى كما لو أنه تجرع كأسًا من النبيذ. لقد كان في المكان المناسب في اللحظة المناسبة، كان بإمكانه أن يشعر بذلك. كانت هناك أصوات كثيرة تهمس، ولكن عندما رفع صوته، صمتوا ليسمعوه.

"كل ما نعرفه هو أن قادتنا تعرضوا للخيانة. اثنا عشر رجلًا شجاعًا لن يعودوا من قبضة الملك الفارسي، إنه رجل عديم الشرف، ولكن هذه ليست النهاية. مسؤوليتنا الأولى هي تجاه أولئك الذين ينظرون إلينا: الجنود وأتباع المعسكر، مهمتنا هي مواجهة العدو بالضحك والعنف. دعوهم يرون أننا لسنا مكتئبين في النهاية. أنتم ضباط، دعوهم يرون الشجاعة التي جلبت لكم أجرًا أفضل". توقف لحظة مدمدمًا مع ضحكة مكتومة أن الأجر لم يكن كثيرًا. إذا كان هناك شيء واحد يتمتع به الجنود فهو الشكوى من عدم الحصول على رواتب جيدة بما فيه الكفاية.

"لقد أخذ الفرس ضباطَنا لأنهم ظنوا أننا لن نكون قادرين على التصرف من دونهم، إنهم لا يفهمون اليونانيين. أيها السادة، قبل شروق الشمس، يجب أن نختار قادة جددًا من بين أولئك الذين يحظون باحترام الرجال، إنهم متشائمون في الظلام، طريقهم في نهايته، وسوف تكون مهمتنا رفع معنوياتهم مرة أخرى، إذ بدلًا من أن يقولوا: "ماذا سوف يحدث لي؟". يجب أن يسألوا: "ما الذي سأفعله؟" مهمتنا هي استعادة تلك القوة المحركة التي تجعلنا نرعب الأمم".

سرى التذمر حول المجموعة، وانتشر أبعد في الظلام. كان هناك الآلاف خارج حلقة المشاعل، وما زال هناك المزيد يأتون لسماع ما سيقرر مصيرهم. مع ذلك، أدرك زينوفون أنه لا

يستطيع التحدث مباشرة إلى أولئك الرجال والنساء. لقد دفع حجرًا إلى أسفل التل وكان عليه أن يركض بجانبه لفترة.

قال: "لقد رأيت من قبل أن أولئك الذين يسعون إلى إنقاذ حياتهم من المرجح أن يفقدوها، ويُرجّح أن يظل أولئك الذين يسعون فقط إلى القتال بشرف على قيد الحياة عندما تنتهي المعركة. في الواقع، لقد رأيتهم يبلغون عمرًا مديدًا ويقضون سنواتهم وهم يتصرفون بحكمة وأصبح العنف بالنسبة إليهم مجرد ذكرى".

كان يعلم أنه يتكلم بوصفه رجلًا قضى حياته في الخدمة العسكرية، في حين أن الحقيقة هي أنه لم يعرف الحرب إلا في كوناكسا. ومع ذلك، فقد كانت كارثة، واعتقد أن جميع الذين وقفوا هناك في الصحراء كانوا من المحاربين القدامى.

"يجب أن نأخذ هذا في الاعتبار، إذا أردنا البقاء على قيد الحياة في الغد". أشار إلى الشرق، محددًا الاتجاه بالاعتماد على نجم الشمال. "عندما نرى النور مرة أخرى، يجب أن نكون مرة أخرى منظمين في أفواج، مع قادة، وضباط. لا تخطئوا فهمي، سنحتاج إلى انضباط أكبر من ذي قبل، لا يمكن الطعن في الأوامر عندما يقف العالم كله ضدنا. يجب أن نكون عشرة آلاف يوناني، عشرة آلاف من القادة الإسبارطيين، لا يمكن للفرس أن يفهموا شيئًا من هذا القبيل أو ينسخوه، إذا استطعنا فعل ذلك، فسنرى الوطن مرة أخرى، سنسير خارج بلاد فارس، وسنرى اليونان". عندما توقف كان الصمت ضاغطًا مثل الحرارة في الهواء.

كان بإمكان زينوفون سماع الرجال وهم يتنفسون ويتحركون في المكان الذي يقفون فيه، لكن لم يتحدث أي شخص آخر ليطلب إليهم استجداء الرحمة من الملك، يبدو أنه وجد الكلمات المناسبة ليصل إليهم.

لقد ميّزت العباءة الحمراء كريسوفوس عن سائر الضباط، كانت لديه عشرون سنة من الخبرة، ولم يكن شخصًا ينتظر الرسميات أو آداب الحديث. بدلًا من ذلك، سعل بصوت عالٍ ومتعمد.

"حتى هذه اللحظة يا زينوفون، كنت أعرفك فقط فارسًا أثينيًا، كنت أعرف أن الأمير سايروس والقائد كليرشوس يثقان بك. كان رأيك سديدًا، فشكرًا جزيلًا. أعتقد الآن أن الضباط يجب أن ينتخبوا قادة جددًا، لكي نكون مستعدين للزحف الفارسي مع شروق الشمس".

أحنى زينوفون رأسه موافقًا. انتقلوا بعيدًا عنه، وشعر بقلبه يهوي. للحظات رآهم يتطلعون إليه للقيادة. كان يعلم أنه يستطيع ذلك، لكنه لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك شيئًا قد وُلد فيه أم أنه تعلمه من مناقشاته مع سقراط، ومع ذلك فإنهم سيختارون قادة جددًا من بينهم. كان عطشًا ومتعبًا، ويعاني من كدمات لا يتذكر كيف أصيب بها في المعركة. لفترة من الوقت، كان قد تشجع كثيرًا بسبب ثقتهم وإيمانهم، لذلك لم يتخيل أن يتركوه وراءهم وقد ذهب الجنود الحقيقيون لاختيار القادة.

فزع عندما شعر بلمسة على كتفه، التفت زينوفون بحدة، واتسعت عيناه لمرأى الشابة التي وقفت هناك، كانت أطراف أصابعها لا تزال تضغط على جلده.

قالت بالاكيس: "أعتقد أنك أجدت في ما تحدثت".

كان صوتها بالكاد همسًا، كما لو أن بإمكان أحدهم سماعهما. "لقد أعطيتهم الأمل، كان يمكنني أن أرى ذلك في الطريقة التي وقفوا بها".

شد فكه وأحنى رأسه. حركت يدها مبتعدة، لا يزال يشعر بيدها في المكان الذي لمسته فيه.

"شكرًا. يجب أن أعترف، لقد فكرت للحظة..." قطع صوت الخطى المقتربة ما كان سيقوله، التفت مادًا يده بحثًا عن خنجره في حال كان ذلك هو الرجل الذي ساهم في نفيه. بدلًا من ذلك، رأى كريسوفوس يعود، وكان الضباط الآخرون خلفه.

قال كريسوفوس: "لقد ناقشنا الأمر يا زينوفون، لدينا إسبارطي، أركادي، ستيمفاليان وبيوتاني. لقد وجدنا رجالًا على استعداد للقيادة بدلًا من أولئك الذين قُتلوا". توقف الرجل ونظر زينوفون إليه في ارتباك. "لقد انتخبناك قائدًا يا سيدي، ستكون قائد الجيش".

شعر زينوفون لا إراديًا بوجهه يبتسم، بالرغم من أنه شعر أنه يجب أن يكون جادًا وحازمًا. ضحك كريسوفوس على المشهد.

"أنا سعيد أنك قبلت أي القائد زينوفون". أخفض صوته قليلًا، وهو يلقي نظرة عابرة على بالاكيس وهي واقفة فاغرة فمها إلى جانب زينوفون. رأى كريسوفوس أنها امرأة فاتنة.

قال زينوفون: "أنا - أنا...".

"خذ وقتك يا سيدي. يبدو أنك تعرف ما يجب فعله، ولم يعترض أحد عليك. إن ذلك أمر مهم. نحن ننتظر أوامرك. سأتأكد من تنفيذها عندما تكون جاهزًا".

في البعيد، كان يمكن رؤية الوردة الشاحبة (الشمس) في الأفق. رآها زينوفون وشعر أن قلبه ينبض أسرع.

"لقد اقترب النهار، أيها الضابط. أوقظوا أتباع المعسكر. نحن نقف أو نسقط بناء على الطريقة التي نستقبل بها هذا الفجر". ذهب كريسوفوس ليربت على كتفه، لكنه بعد التفكير، انحنى بدلًا من ذلك.

"حاضر أيها القائد".

"كريسوفوس... هل تعتقد أن ذلك الرجل كان حقًا جاسوسًا ليديًا؟".

"أبولونيدس؟ ربما. لكنه كان ليجادل حتى تشرق الشمس. هذا ما أعرفه".

ابتسم الإسبارطي ابتسامة عريضة، وضرب قبضته على درع صدره محييًا قبل أن يركض بعيدًا، ويرفع يديه إلى شفتيه، ويرفع صوته عاليًا ليوقظ المعسكر.

الفصل الرابع والعشرون



"أحرق العربات الباقية. يجب أن نتعلم أن نسير، فالعربات بطيئة". أعطى زينوفون الأمر وسُر لرؤية أن الاحتجاجات لم تكن أكثر من مجرد همهمة بين الحشود، كانت تنهدًا وليست اعتراضًا واضحًا. فالجميع سمعوا بمصير كليرشوس وبيروكسينوس وغيرهما، لقد فهموا أن حياتهم مهددة كما لم يحدث من قبل، وأن الشمس المشرقة يمكن أن تغرب على جثثهم. تنقل الجنود اليونانيون بينهم بحثًا عن أشياء ضخمة حاولوا إخفاءها. ذهب كل شيء إلى النار، وضحوا بآخر الماشية لإعطاء أكبر عدد ممكن وجبة جيدة.

عندما ظهرت الشمس فوق التلال الشرقية، وقفوا بجهوزية وحزم، قلةٌ قليلة منهم كانت تعرف زينوفون قبل ذلك اليوم، لكن الإسبارطيون والضباط قبلوا به، لم يكن هناك غموض في أوامره وكان معظمهم راضين عن الوقوف في الصفوف ومراقبة ممتلكاتهم وهي تحترق، بالرغم من أنهم مسحوا دموعهم في حرارة النيران المشتعلة.

قبل أن يتمكنوا من المغادرة، ظهرت قوة من ثلاثين فارسًا، وكان على رأسها ضابط مجهول.

ذهب زينوفون وكريسوفوس لمقابلته، مستمتعَين بارتباكه الواضح.

"اسمي ميثريدتس، أيها السادة. لقد أرسلني السيد تيسافيرنيس لسماع استسلامكم".

سأله كريسوفوس: "يبدو من لهجتك أنك يوناني؟ أنت واحد منا وتشاركنا الدماء نفسها، والآلهة نفسها، ومع ذلك تقف إلى جانب الفرس وتخدم ملكهم الذي قتل قادتنا، كم هذا غريب ميثريدتس!؟".

تسللت صبغة لون إلى خدَّي الرجل، ولكن بالرغم من النغمة الناعمة لكلماته، رأى الإسبارطي أن جفنًا لم يرف له، بدا عليه السكون مثل ثعبان على وشك أن يضرب.

سأله ميثريدتس: "هل تستسلم، أيها الإسبارطي؟". نظر بعصبية إلى الفرس ذوي الوجوه الخالية من التعابير على جانبيه.

كان تيسافيرنيس رجلًا ذكيًا. لا شك أن القليل منهم يتحدثون اليونانية جيدًا بما يكفي للإبلاغ عن كل كلمة.

قال كريسوفوس: "لقد درسنا عرضك، وقررنا رفضه. بدلًا من ذلك، لدينا عرض مقابل لك. سنترك أراضي الملك، ونُلحق أقل قدر ممكن من الضرر. إذا تعرضنا للهجوم، فسنقاتل. هل تفهمني أيها الخائن؟ يمكنك أن تنقل هذه الكلمات إلى أسيادك فوق التل؟ أنا أتصور أنهم ليسوا بعيدين".

بالرغم من احتقان لونه، إلا أن ميثريدتس بذل جهدًا ليبدو غير مبالٍ، محاولًا أن يكون غير رسمي أكثر مما كان عليه.

قال زينوفون فجأة: "أنت تتحدث معنا، لكنك تتحدث كرجل ميت هيا يا ميثريدتس أمامنا مسير طويل. إنني لن أضيع وقتًا أكثر عليك".

ابتعد هو وكريسوفوس عن اليوناني الذي فغر فمه.

أطلق ميثريدتس شتيمة، وشد اللجام، وعاد في الطريق التي جاء منها. عندها فقط استدار كل من زينوفون وكريسوفوس لمشاهدته وهو يذهب.

قال زينوفون: "يجب أن نتحرك بسرعة، أعطِ الأمر".

فأجابه كريسوفوس: "لم أكن أحد القادة الذين انتخبناهم".

"حسنًا، كان هذا اختيارك، أيها الإسبارطي. أخبر الرجال أن يتحركوا باسمي".

أحنى كريسوفوس رأسه وهرول بعيدًا. كانت النيران لا تزال مشتعلة في جميع أنحاء المخيم، مرسلة دخانًا أسود إلى السماء الصافية. وقفت تشكيلات الهوبليت حول أتباع المعسكر، في حين كان الكل يقفون في صفوف غير متماسكة.

وضع بعضهم أطفالًا صغارًا على ظهورهم وأكتافهم. بدوا كمحاكاة ساخرة للجنود في خطوطهم، لكنهم بدوا حازمين بما فيه الكفاية. أدار زينوفون ظهره إلى كل ما خلفه. رأى هيفاستوس وقد أحضر حصانًا وأومأ برأسه.

قال: "شكرًا لك، هيفاستوس".

في تلك اللحظة، لم يكن الشاب نفسه الذي قاد عشرات عمليات السطو في أسواق أثينا. تعلم هيفاستوس الركوب والمسير والوقوف في طابور فيما اشتعل العالم كالجحيم من حوله. لقد ترك قدرًا كبيرًا من شبابه في ساحة معركة كوناكسا. عندما انحنى، كان جادًا تمامًا.

سأل هيفاستوس مدمدمًا: "هل تستطيع قيادتهم؟ أخبرني أنك تعرف ماذا تفعل يا زينوفون؟ قل لي إنك لا تلهو؟".

فكّر زينوفون. كان يعرف سقراط، وكليرشوس، والأمير الفارسي، لقد تعلم منهم جميعًا. وضع قدمه حيث شبك هيفاستوس يديه واستقر على السرج. كان قد شهد في الليلة السابقة اليأسَ الذي واجهوا به الهزيمة المطلقة، ببساطة كان زينوفون قد تحدث إليهم، لقد طرح الأسئلة التي كشفت عما عرفوه بالفعل وقبلوه، كان يعلم أن عليه أن يبقيهم متحركين، مما لا يتيح لهم فرصة للتفكير في الاحتمالات المعاكسة لبقائهم. في تلك اللحظة، فهمَ أنه لا يستطيع مشاركة مخاوفه مع أي شخص.

أجابه: "أنت تعرفني، يا هيفاستوس، بالطبع، أستطيع قيادتهم".

بدا هيفاستوس ذو العينين البنيتين مقدّرًا للرجل الذي علّمه الكثير، وكان يرغب بشدة في أن يصدقه. نظر زينوفون بثبات إليه. بعد فترة طويلة، ربّت هيفاستوس على كتف الحصان ورجع إلى الخلف.

رأى زينوفون كريسوفوس يراقب التبادل، فرفع زينوفون ذراعه بما يشبه التحية وأنزلها، فتحركوا إلى الأمام.

خلفهم، كان تيسافيرنيس وملك الفرس يسمعان رفض الاستسلام.

استذكر زينوفون جيشًا كان يشبه البحر المظلم. لم يكن يشكّ في أن الرد سيكون وحشيًا، لكنه لا يزال فخورًا بأنهم لن يذهبوا بأقدامهم إلى الأسر، صحيح أنهم كانوا بعيدين عن موطنهم، ولكنهم على الأقل لن يختفوا عن سطح الأرض من دون قتال.

كانوا قد ساروا طيلة الصباح وجزءًا من بعد الظهر عندما عادت فرقة الاستطلاع المؤلفة من أربعة، لتُبلغهم أن هناك قرية على بُعد ثمانية أميال، لقد كانت مجرد مجمع سكني مسوّر بجانب مجرى ماء، فيها بعض حقول الشعير والقمح، وبعض الأشجار، ونصف دزينة من الأبقار النحيلة. تشبثت مثل هذه الأماكن بالأرض بأطراف أصابعها، وبالكاد تستطيع البقاء على قيد الحياة. مع ذلك كانت تعني الطعام الذي كانوا يحتاجون إليه بشدة.

ذكّر زينوفون ضباطه بعدم قتل الأشخاص الذين يقابلونهم أو أخذِهم عبيدًا. فلم يكونوا بحاجة إلا إلى أن يتركهم الجيش الإمبراطوري وحدهم، ولم تكن هناك حاجة إلى استعداء القرويين. كان الطعام أمرًا حيويًا؛ أي ماشية أو أغنامًا ستُدفع جنبًا إلى جنب مع العدد القليل من الحيوانات التي بقيت عندهم.

تابعوا المسير، عازمين على الوصول إلى القرية قبل غروب الشمس، انتشرت الأخبار بأن العدو يقترب خلفهم. استدار زينوفون بحصانه عائدًا إلى الخلف، وانفصل كريسوفوس ليركض بجانبه، حدقا معًا إلى الجنوب، مظللين أعينهما.

قال كريسوفوس: "ليست أعداهم كبيرة بخلاف ما توقعت. كم لديهم هناك، مئتا حصان؟ لا يمكن أن يمتلك أولئك الرجال الذين يسيرون على أقدامهم كثيرًا من الدروع، ليس بتلك السرعة. إن بصري لم يعد حادًا كما كان من قبل. هل يحملون رماحًا؟".

أجابه زينوفون: "أقواس. لقد عاد ميثريدتس مع الرماة والفرسان، لضربِنا من مسافة بعيدة. هناك مئتا فارس... ولا يزيد عدد الرماة على أربعمئة".

قال كريسوفوس: "لا بد أن يكون هناك المزيد الذين يسيرون لاعتراضنا، لا يمكن أن يكون هدف هذه القوة سوى إبطائنا".

أجابه زينوفون: "نحن أصلًا بطيئون".

هز كريسوفوس رأسه موافقًا.

تابع زينوفون: "يجب أن نبلغ القرية التي أمامنا، عمّم الأمر بزيادة سرعة السير. وأحضر دروعنا إلى الخلف. الإسبارطيون أتباعك يا كريسوفوس، لا يمكننا أن نسبق هذا العدد الكبير من الفرسان، ولا يستطيع الرجال الإمساك بذيول الأحصنة والركض بسرعتها. ولكن يمكننا جعل الفرس يعانون الأمرين قبل الوصول إلينا، فهذا سيصعب عليهم الأمر".

ركض كريسوفوس بسرعة، معطيًا أوامر جلبت خطًا من حاملي الدروع إلى الخلف. لقد وصل حاملو الدروع في الوقت المناسب، لأن فرسان الفرس أسرعوا بمجرد أن رأوا الصفوف اليونانية. كان بعضهم في المركز، تاركين الرجال وراءهم. فيما ركض آخرون بمفردهم وألقوا رماحهم بشكل أقواس. لقد ضربوا بقوة كبيرة، ولكن الدروع صمدت.

بقي زينوفون في الخلف، مراقبًا ومفكرًا، وشتم بهدوء عندما أصيب أحد الرجال، وكان على زملائه أن يحملوه إلى الأمام، وهو مدمّى وفاقد للوعي. طارت رماح كثيرة، وخطف اليونانيون بعضها عن الأرض وألقوها بدقة على عدوهم.

لكن الأكثر إزعاجًا كان الرماة الفرس، فلا بد أنهم كانوا يعرفون أنه لم يبق إلا عدد قليل من الرماة الكريتيين بعد المعركة. تقدم الرماة الفرس في صف عريض كما لو أنهم في نزهة، وشدوا أسهمهم على أوتار أقواسهم وأرسلوا الدفعة الأولى. كانوا يتقدمون بنفس سرعة المعسكر المنسحب، وكان من الصعب أن يخطئوا إصابة الوحش المتثاقل الذي حاول أن يسبقهم.

شعر زينوفون بأن هيفاستوس يتخبط إلى جانبه فاستدار إليه بحدة.

"هلّا تتوقف عن ذلك؟ سوف تحرجني أمام الرجال".

قال هيفاستوس: "صحيح، أنا آسف".

احتفظ بنفسه جامدًا في حين كان أربعمئة من الرماة يركضون وراءهم مثل الذئاب، مرسلين سهمًا تلو الآخر في الهواء. كانوا بعيدين عن نطاق الحد الأقصى لأسهمهم، وكان زينوفون ممتنًا لذلك. لو كان هو في قيادة الفرس، لكان سيجعلهم يقتربون حتى مسافة مئة خطوة، قبل اختيار أهدافهم. فمن بعد مئتي خطوة، كان لدى رجاله وقت لرؤية الأسهم القادمة. كان حاملو الدروع في الخلف يستمتعون تقريبًا، فكانوا يرفعون دروعهم لالتقاط الأسهم من الهواء كما لو أنهم يتسلون، كانوا يهتفون ويشجعون بعضهم بعضًا إلى أن أصيب أحدهم في رقبته. لم تكن هناك فرصة للتوقف واستعادة الجثة.

صمت الباقون وهم يرون أنفسهم وقد خلّفوا جثته خلفهم. لقد هتف الرماة الفرس عندما هاجموا الجثة. راقبهم اليونانيون وهم يلتقطون الرجل الميت ويقطعونه إلى أشلاء.

قال زينوفون لهيفاستوس: "عمّم الأمر بأن تهجم الصفوف الثلاثة الأخيرة عند طلبي". كان بحاجة إلى مساعد لتنفيذ تعليماته، ولم يكن لديه إلا هيفاستوس.

لقد جعل من زعيم العصابة الأثينية فارسًا. وتساءل عما إذا كان يمكن أن يجعل منه جنديًا.

فغر هيفاستوس فمه: "أعمم!؟ كيف يمكنني ذلك؟".

"اذهب إلى الضابط، أو إلى كريسوفوس الإسبارطي الذي يقود- لكنه لم يقبل لقبًا- وكرر طلبي. وهم بدورهم ينقلونه إلى الضباط، الذين ينظمون الرجال".

سأله هيفاستوس:" ماذا لو رفضوا؟". شاهد تعبير زينوفون يقسو متفاجئًا.

"نحن في حالة حرب، يا هيفاستوس، نواجه العدو. إذا رفضوا أوامري في مثل هذا الوقت، فإنهم يتخلون عن حياتهم. لكنهم لن يرفضوا. لقد انتخبوني وهم يعرفون أن الانضباط هو مفتاح نجاتنا، قبل كل شيء، نحن بحاجة إلى أن نكون عشرة آلاف إسبارطي، يا هيفاستوس، هل تفهم ذلك؟ وإلا لن نصل إلى موطننا".

"نعم". قال هيفاستوس.

"حسنًا انقل طلبي! واركب بسرعة. لا أظن أن القرية بعيدة". أوقف زينوفون حصانه وحدّق إلى الوراء خلف كتفه لمدة بدت وكأنها دهر، لم يخفِ الألم في رقبته إلا عندما استدار بالحصان دائرة كاملة لإلقاء نظرة سريعة على العدو. لقد بدا أنهم جلبوا كمية جيدة من الأسهم، كان يأمل أن تنفد منهم أسهمهم، لكن الفرسان بدوا وكأنهم يحملون أسهمًا إضافية، لقد كان معدل رميهم يزداد بدل أن يقل.

رأى زينوفون رجال الصفوف الثلاث الأخيرة يراقبونه، مستعدين لقيادته، لقد كانوا جزءًا من فرقة الإسبارطيين، وكان ممتنًا لذلك، إذا كان يعرف أنهم سينفذون أمره دون أية مشاحنات أو

نقاش.

توجه بعض الهوبليت إلى الوراء رافعين دروعهم، في حين أن آخرين ربطوها على أكتافهم، وساروا كما لو أنهم لم يكونوا مستهدَفين من الأعداء.

ارتدى جميع الإسبارطيين خوذات برونزية، حتى يبدوا أطول ويسخروا من التهديد القادم خلفهم. لقد بدوا مفعمين بالنشاط، أمِل زينوفون أن يكون الأمر على هذا النحو. مع ذلك، فقد تجاهل النظرات إلى أن عاد أحد رجال فرقة الاستطلاع لإخباره أن القرية لا تبعد سوى ميل واحد.

أشار زينوفون مرتين إلى رماة العدو، وكانت يده تتحرك بشكل حاد. وتجاوبًا معه، التفت الصفوف الخلفية فجأة وهجمت، انفصل تسعمئة رجل، وغطوا الأرض بسرعة مذهلة، كان الرماة الفرس يبعدون عنهم مئتي ياردة، وكانوا يعلمون أنه ليست لهم فرصة على الإطلاق ضد مقاتلي الهوبليت المدرَّعين في حال التحامهم بهم، فركضوا بعيدًا مثل الأرانب، بمجرد أن رأوا ما كان يحدث.

شاهد زينوفون بغضب متزايد كيف هرب الرماة الذين كانوا يطلقون أسهمهم عليهم من ساعة، ورأى أن المسافة بين صفوفه المهاجمة وبقية المعسكر تزداد من مئة خطوة إلى ثلاثمئة، ثم أربعمئة، فبدوا أصغر للعين، لذا هز رأسه عندما رأى سُحب التراب ترتفع خلفهم.

نادى قائلًا: "الأبواق". فيما كان يلعن في داخله. كان يأمل بمذبحة مفاجئة. "أرجِعوهم". وانتظر مكفهر الوجه أن يوقف الإسبارطيون هجومهم، الذين نفذوا الأمر وقد بدا عليهم التردد بوضوح. توقع زينوفون أنهم قد يكونون قادرين على التغلب على الرجال إن كانت المسافة التي تفصلهم عن الأعداء كافية، لكنه لم يستطع أن يكشف الجزء الخلفي من المعسكر.

لقد عادوا في تنظيم جيد، لكن قبل أن يعودوا للقوة الرئيسة، عادت الأسهم لتنهمر عليهم بسرعة وكثافة، مما أدى إلى إصابة ثلاثة ونقلهم إلى منطقة أكثر أمانًا. هدر زينوفون محبطًا، فقد وجد النقطة الضعيفة التي يجب إرسال الفرسان إليها للقضاء على رماة الفرس، ولكن لم تكن لديه أحصنة.

كان سور القرية الطيني بالكاد أعلى من طول رجل، لكنه ينفع لتوفير المأوى والظل. الأهم من ذلك، أنه يعيق هجوم الرماة والفرسان الفرس. إذا اقتربوا بدرجة كافية ليشكلوا تهديدًا، فسيكونون في نطاق الرماح. على الأرض المغبرة خارج القرية، توقف الفرس بصمت، ونزلوا على ركبة واحدة ليرتاحوا. ظلوا هناك لفترة طويلة، ولكن مع بداية الغروب، أعطى ضباطهم أوامر جديدة، فانطلقوا بعيدًا.

في ساحة القرية، جلس الجنود اليونانيون لاهثين. كانوا سيرحبون بالهجوم المباشر، لكنه لم يأتِ. بدأت الشمس تغرب، وأمكن رؤية ظلال القرويين ظاهرة في الحقول البعيدة.

تم التعامل مع القلة الباقية في القرية برأفة ولطف بناءً على طلب زينوفون، فهم لم يكونوا سوى نصف دزينة من النساء العجائز وفتى فارسي كسيح لم يتمكن من الركض. رأى زينوفون أن

الهجوم أعطاهم الحق في أخذ العبيد والنهب، بغض النظر سواء كانوا يرغبون في ذلك أم لا، بالرغم من أن القرية كانت مكانًا فقيرًا، إلا أنها احتوت على طعام ونبيذ، ومؤونة شعير كافية للأحصنة، لذلك نشروا الحراس واستقروا للراحة.

عندما ظهرت ظلال من اللون الأرجواني والوردي في السماء، أمر زينوفون باستدعاء الضباط والقادة. لم يكن يعرف منهم إلا كريسوفوس. عندما اجتمعوا في ساحة القرية، أدرك أنه يجب أن يعرف نقاط قوة كل منهم ونقاط ضعفه، لكي يُحسن التعامل معهم والاستفادة منهم على أكمل وجه. هز رأسه عندما اجتمعوا، وكان من الواضح أنهم لم يلوموه على الهجوم الذي كان عديم الفائدة اليوم. مع أنه لم يحقق شيئًا، لكنه أظهر ما هي الأولوية إذا ما كانوا سيستمرون. أخذ نفسًا عميقًا، وانحنى إلى الأمام بعض الشيء، وأراد منهم جميعًا أن يسمعوا ويفهموا.

"أيها السادة، مشكلتنا الأساسية هي في الفرسان والرماة. لقد طلبت إلى الرجال أن يهجموا اليوم، لكنهم لم يتمكنوا من إنجاز المهمة لأن عدونا مسلح تسليحًا خفيفًا ويدعمه الفرسان. لقد وجدنا مأوى الليلة، ولكن سيكون هناك كل يوم هجوم، وليس لدينا أي دفاع خلال المسير".

سأله كريسوفوس: "ماذا تقترح؟".

نظر زينوفون إليه، لكن الرجل كان يبتسم. إن الإسبارطي يمكن أن يكون مستفزًا. لقد بدا بجلاء أنه قائد بالفطرة وتساءل لم طلب إليه أن يكون القائد ما دام مؤهلًا أكثر منه، ولكنه عند رأى ابتسامة كريسوفوس، أدرك أنه مستمتع بالدور الذي ارتضاه لنفسه.

"لقد سبق لي أن قلت إننا بحاجة إلى مقاليع، وهذه الحاجة أصبحت ملحّة الآن، لقد رأيت بيننا رجالًا من رودس، إنهم مشهورون بمهارتهم باستخدام المقاليع وعليهم تدريب الآخرين، قبل أن نعاود المسير غدًا، يجب أن نحضّر جلودًا تكفي لصنع مقاليع لأربعمئة رجل وأن يتدربوا عليها لأطول مدة ممكنة. إن للمقاليع فعالية قد تضاهي الأقواس الفارسية، إلا أنها ليست دقيقة، وهذه ليست مشكلة فنحن لن نستخدمها للهجوم، بل يجب أن نستخدمها في التصدي للمهاجمين وجعلِهم يفكرون مرتين قبل أن يحاولوا قتلنا واحدًا تلو الآخر".

كانت هناك شجرة زيتون في تلك الساحة، كانت عريضة الجذع وقديمة، وكان جذعها ملتويًا للغاية وكثير العقد مما يشير إلى أنها ربما كانت منتصبة في مكانها منذ ألف عام. اتكأ رجل لم يكن زينوفون يعرفه على تلك الشجرة بذراعه اليمنى الممدودة. لقد كان شخصًا طويلًا، بدت عليه آثار الشمس والكفاءة أيضًا، وقد أطلق لحية عسلية اللون، وبدا أنه مضى وقت طويل على آخر مرة شذّبها فيها، تقدم متخذًا موقعًا قبالة الآخرين عندها عرف زينوفون أنه أحد الذين اختيروا ليحلوا محل القادة المقتولين. انتظر زينوفون أن يتكلم الرجل.

"أنا فيليسيوس ابن شقيق مينون، وأنا أريد أن أتحدث باسمه". شعر زينوفون بالتوتر يدب في داخله، وبدا أن جلده قد تلطخ. فهو لم يكن ممن وافقوا على اختيار زينوفون قائدًا، فبينما كان العدو يصول ويجول حولهم بكل حرية، كان من غير الممكن مناقشة كل أمر. مثل هذا المسار يعني دمارهم.

"يعرف بعضكم كم كان عمي صعب المراس، وربما قد لا يوافق الجميع على اقتراحاته، ولكني أرى أن اقتراحاته بمعظمها كانت في مكانها، مع ذلك، هناك واحد أو اثنان جاءا إليَّ في الليل ليقولا إنني يجب أن أتولى القيادة، أنا أتحدث اليوم لأنني لن أكون صامتًا. يمكننا أن ننجو من هذا الظرف، إذا ارتكبنا أخطاء أقل من الفرس الذين يرغبون في رؤيتنا جثثًا نتنة. تم اختيار زينوفون أولًا من قبل الضباط، وأنا أقبل به، وإن لم أكن موافقًا عليه، فسأسعى للحفاظ على سلامتي، لأن الشيء الوحيد الذي سيسبب هزيمتنا هو المجادلات التافهة والتشاحن بين الفصائل. نحن دم واحد، ثقافة واحدة. لذلك أقول لأولئك الذين يهمسون ويشكون، إنني لن أستمع إليكم. هذا هو كل ما يجب أن أقوله". تمشى الرجل بتؤدة عائدًا إلى الشجرة، واتكأ عليها مرة أخرى.

تحرّك صدره كما لو كان يتنفس بشدة، ولكن لم تكن هناك أية علامة ضغط. أمال زينوفون رأسه في دهشة وراحة.

"شكرًا لك، فيليسيوس. الـ..." توقف مؤقتًا للحظة كي يجمع أفكاره. "تقول العجائز في القرية إن هناك نهرًا واسعًا، يقع على بُعد مسير نصف نهار من هنا. أظن أنه على بعد ثمانية أميال، ما يقارب الستين أو السبعين ميدانًا. لقد قالت العجائز إن هناك معبرًا ضحلًا بالقرب من مجموعة من أشجار الزيتون القديمة، يجب أن نرسل رجلين للعثور عليه مساء اليوم، ففي الغد لن يكون لدينا وقت لذلك، قد يعيق رماة المقاليع تقدم الفرس، ولكن جهودهم ستذهب هباءً إن لم تكن لدينا طريقة لعبور النهر. في الوقت الراهن، أقول لكم كلوا ملء بطونكم وناموا ملء أجفانكم. نحن بأمان هنا كما في أي مكان آخر. سيخشى أولئك الذين تعقبونا مهاجمتنا في الليل، لقد تراجع الجبناء، ولكن علينا أن نستيقظ قبلهم وننطلق في طريقنا إلى النهر".

"وبعد ذلك؟" سأل أحد الضباط.

بدا أن الضباط يهتمون برأيه، إذ إنهم ساعدوا في ترقيته. مر وقت قصير قبل أن يجيب زينوفون بالرغم من أنه كان يحدق إلى الرجل، ويشاهده يحمر: "بعد ذلك، سأرى ما ينتظرنا، ولن أتوانى عن القيام بكل ما يجب القيام به".

تحرك زينوفون مبتعدًا بدلًا من أن يشجعهم على المناقشة. رأى هيفاستوس وفي تلك اللحظة بدا الأثيني وجهًا ودودًا في تلك الساحة. توجه إليه زينوفون ليُظهر للذين وراءه أن لديه شيئًا يقوم به. وعندما اقترب منه، رأى المرأة التي لاحظها من قبل واقفة خلفه.

قال زينوفون وهو يحني رأسه: "سيدتي".

انحنت بالاكيس على ركبة واحدة ردًا عليه، مُظهرة مؤخر رقبتها، إذ كانت قد عقدت شعرها عاليًا.

قالت: "أيها القائد، كنت أريد أن أطلب..." وأغلقت قبضتها ورفع هو حاجبيه مهتمًا.

كانت حقيقة أنها جميلة جزءًا من السبب، بالطبع. لطالما عرف أن النساء الجميلات هنّ أكثر إثارة لاهتمام الرجال من جميع النواحي. كانت الحقيقة أن الجميلة يمكنها دائمًا أن تطلب

المساعدة وتكون متأكدةً من الإجابة. في لحظة راحة قصيرة، فكّر في مدى لطفِ أن يحكم الرجال على بعضهم بعضًا وفقًا لمعايير مختلفة. يمكن تعلم العنف والمهارة والتكتيك. لكن الجمال كان نادرًا وأصعب.

"كنت أريد أن أطلب... بعض الرجال يرون أنه ليست لديّ أية حماية، إنهم يضغطون عليّ لزيارتهم. أكثر من واحد.. أنا لست عاهرة، أيها القائد. وليست لديّ رغبة في أن أُجبر. إذا كنت مسؤولًا عنا، فأنا أتقدم بشكواي إليك".

نظر زينوفون إلى هيفاستوس، ورأى افتتانه بها.

اقترحت إجابةً سريعة نفسها، كانت لديه مشاكل أكثر أهمية فقال: "أخبريهم أن الأثيني، هيفاستوس، هو حاميك. أنا متأكد من أنه سوف ينزع الأسلحة ويكسر الرؤوس لإرضائك، ولن يطلب شيئًا في المقابل". قال زينوفون ذلك بلهجة تعني التأكيد على هيفاستوس، الذي احمر خجلًا.

ركعت بالاكيس مرة أخرى. اعتقد أن هناك خيبة أمل في تعبيرها، رغم أنه ربما كان يتخيل ذلك.

قالت وهي تغادر: "شكرًا لك أيها القائد".

في الظلام، كانوا على استعداد للتحرك. لقد سُلبت متاجر القرية، ووُزعت اللحوم المجففة والخبز على الأطفال والجرحى. لم يكن الطعام كافيًا، أو قريبًا من الكفاية. كان معظمهم يتضورون جوعًا، لكن الإسبارطيين لم يشتكوا، لذا ظل الباقون صامتين، بالرغم من أن بطونهم كانت تؤلمهم وتُصدر أصواتًا.

قبل أن ينبلج الفجر، انطلقوا في اتجاه النهر، معتمدين على النجوم للحفاظ على الاتجاه الصحيح. أكد رجال الاستطلاع أنه لم تكن هناك أكثر من ساعتين أو ثلاث ساعات من المسير الصعب، وكانت الشمس تشرق خلال تقدمهم.

سُمع صراخ تحذير من الميدان الخارجي خلفهم. شتم زينوفون، ووجه حصانه حول الحافة. رأى كريسوفوس يخرج لمقابلته وأزعجه أن فيليسيوس جاء أيضًا. كان زينوفون قد أُعجب بالموقف الذي اتخذه في اليوم السابق، فقد حال فيليسيوس بخطابه دون حصول تمرد ولأكثر الأسباب نُبلًا. أحنى زينوفون رأسه وحياه بالاسم، بالرغم من أن الجميع كانوا ينظرون إلى القوة التي خرجت خلف مربعهم.

يبدو أن ميثريدتس قد ركب حصانه لمسافة بعيدة وبسرعة في الليلة السابقة. لم يستطع زينوفون استبعاد فكرة أن جيشًا فارسيًا كبيرًا كان يتبعه، وأن عليه تدبر أمر عدد كبير من الجنود، ولكن عزاءه الوحيد أنهم ظلوا يستخفون بالأرقام التي يحتاجون إليها. رأى ألف فارس وأربعة آلاف رامٍ، وافترض أن ذلك كل ما كان الملك الفارسي قادرًا على جمعه في ليلة واحدة. لا شك في أنهم كانوا متعبين للغاية بعد مسير طويل، في حين أن اليونانيين كانوا قد استراحوا جيدًا.

ولكن الأكثر إزعاجًا هو حقيقة أن الفرس قد تعلموا تكتيكًا وقرروا تطبيقه. كانوا يخشون اليونانيين، لكنهم كانوا على استعداد للحاق بهم مثل مجموعة من قنافذ الشوارع، ورمي الحجارة والرماح عليهم.

وهذا ما ذكّر زينوفون بالعصابات التي لاحقته في أثينا فأظهر أسنانه، راغبًا في رؤيتهم مدمرين.

مع ذلك، لم يكن لديه فرسان. لن يستطيع كشافته الستة أن يغلبوا عدوًا من هذا النوع. كان ميدانه عرضة لهذا النوع من الهجوم.

قال فيليسيوس، وهو يحدق بعيدًا: "يجب علينا التعامل مع الوضع".

من دون حاجز من الفرسان، كانوا عرضة لأن تقتنصهم الأسهم واحدًا تلو الآخر، كان بوسع محاربي الهوبليت أن يسبقوا أية قوة مطاردة مشيًا على الأقدام. لكن أتباع المعسكر كانوا يُبطئونهم، فهم لم يعتادوا وتيرة السير هذه، ومع ارتفاع الحرارة كانوا يتعثرون أو ينهارون، صارخين طلبًا للماء، لقد كانوا السبب في خفض سرعة المعسكر اليوناني إلى النصف.

قال زينوفون، مراقبًا فيليسيوس عن قرب: "لقد أراد مينون أن يتخلى عن أتباع المعسكر". كان الرجل بنفس عمره، ولكن لم يبدُ يافعًا، ولا فتى يتظاهر بكونه رجلًا. كان هو أيضًا قد خاض معركة كوناكسا وكان مخضرمًا مثل زينوفون، أو أكثر منه.

بهدوء تكلم فيليسيوس: "لم يكن مصيبًا، ما كنت لأتركهم فريسة للحيوانات، فما بالك بالأعداء الذين يلاحقوننا! إن أعطيت أمرًا بتركهم فلن أمتثل".

هزأ زينوفون كأنه مستاء. ذكّر نفسه بأنه لم يكن بحاجة إلى أصدقاء، بل إلى رجال يتبعونه من دون نقاش. وتابع كما لو أن فيليسيوس لم يتحدث.

"أحضر رماة المقاليع إلى الخلف. سيحميهم الإسبارطيون بالدروع، قد يكسبوننا بعض الوقت".

إن فكرة أن يطلب رماةً بمهارة الفلاحين أن يسيروا إلى الوراء ليلقوا بالمقاليع كانت فكرة بائسة، لكنه كان بحاجة إلى تجربة أي شيء يمكنه أن يعيق تقدم الفرس، كان متأكدًا من أن عليهم أن يتباطؤوا عند المعبر الضحل، وعندها سيكون متاحًا للعدو اصطيادهم كما يحلو له. وضع يده على فكه مفكرًا في مخرج. لقد علّمه سقراط أن يبحث عن جوهر السؤال، أن يستبعد كل الأفكار الكاذبة والمغرورة التي يحاول الرجال إقناع أنفسهم بها. في النهاية، عندما تظهر الحقيقة، يمكن للرجل أن يتصرف وفق ما تعلم، رغم ذلك هناك أشخاص سيموتون، ربما هو منهم. إلا أنهم قد اختاروه ليقود لأنهم صدقوا أنه يستطيع ذلك، ولأنه صدق أنه يستطيع".

فجأة قال زينوفون: "أيها السادة، إليكم أوامري".

الفصل الخامس والعشرون



مع اقترابهم من النهر، أصبح الرماة الفرس قريبين جدًا ليختاروا الأهداف التي سيصوبون أسهمهم عليها. لقد أنقذت الدروع وألواح الصدر العديد من اليونانيين الذين عذبوهم مثل الذباب الذي يعض الحصان. مع ذلك، لم تزل الأسهم تضرب أهدافها في الصفوف، لقد سحب الرجال الأصحاء الجرحى إلى الأمام، حيث وُضعوا على نقالات وحملوا، وصرخ عدد قليل منهم متألمًا، وأولئك الذين أجفلوا من الجروح أحنوا رؤوسهم إلى أسفل وساروا.

بالكاد كان عرض المعبر عشرين خطوة، وهو عبارة عن ألواح خشبية متداعية، ولم تمضِ لحظات على عبور المجموعة الأولى حتى تلونت بالطين البني.

في الخلف بدا الفرس أكثر جرأة.

اندفع رماة العدو إلى الأمام، وشعر زينوفون بأزيز رماحهم. ورأى فيليسيوس يصدر الأمر، فردّ عليهم رماة المقاليع، بكل ما لديهم.

على عكس الفرس، كان هؤلاء الرجال بحاجة إلى حجارة ملساء فقط، والحجارة منتشرة بالآلاف بمحاذاة النهر، وكان اليونانيون يطلقون المقاليع بسرعة، لقد لف كل رجل مقلاعه ثم أطلق الحجر، وبحث فورًا عن حجر آخر.

ذُعر الرماة وتشتت شملهم، لم تُصب الضربة الأولى أكثر من اثني عشر منهم، لكنهم كانوا قد اختبروا القاذفين من قبل، فتفادوا الحجارة وانبطحوا، ومع ذلك استمرت الحجارة تعبر بينهم، ولكن بالرغم من ذعرهم، كانوا يفوقون المهاجمين عددًا، صرخ ضباطهم عليهم لينهضوا ويطلقوا، لكنهم كانوا مترددين. واحدًا تلو الآخر، ارتفع الرماة ورأوا عدد الحجارة الموجودة هناك، التي أصابت عددًا من زملائهم، وقد بدت وجوههم كالحة، ثم تناولوا أقواسهم مرة أخرى.

لقد استغل اليونانيون هذه اللحظات الثمينة في عبور النهر، وعندما عبروا عاد الرماة المتعبون إلى صفوفهم، وأنزل الهوبليت دروعهم واستداروا، وبدؤوا بالركض. نظر المئات بخوف في الوقت الذي رأى فيه الفرسان الفرس عدوهم يهرب. نادى الرجال على بعضهم بصوت عالٍ، مشيرين بسيوفهم ومطلقين الرماح في الهواء، ربما يكون الرماة قد فشلوا، لكن الفرسان رأوا عدوًا هاربًا، كان المعبر من دون حراسة. لن يكون هناك وقت أفضل.

في اللحظة، تدفقوا عبر المعبر، وفجأة توقفت صفوف اليونانيين المنسحبين واستدارت، فأخذ الفرسان الفرس يصيحون عندما واجهوا خطًا ثابتًا من المحاربين الذين يرتدون الأحمر، من دون أي أثر للذعر الذي شعروا به من قبل، هجموا على الإسبارطيين الذين رفعوا دروعهم وأخفضوا خوذاتهم، وأظهروا سيوفهم البرونزية الصلبة الخاصة بجنود النخبة اليونانيين. بدأ الفرسان بالانسحاب، بالرغم من أن الذين كانوا وراءهم كانوا يحثونهم ويصرخون عليهم.

تصدت ثلاثة صفوف من الإسبارطيين لفرسان العدو المتقدمين بسرعة، بعد أن ثبتوا دروعهم ووجّهوا رماحهم عند مستوى الخصر، كان المعبر بمثابة عنق زجاجة مثالية، لقد أحسن زينوفون التعامل معه، لقد طوق أفضل رجاله الفرسانَ الفرس في أثناء عبورهم النهر، وحرموهم من ميدان معركة مناسب، حتى الرماة عجزوا عن مدهم بالدعم المناسب من الضفة الأخرى، فهم لم يستطيعوا إطلاق أسهم على اليونانيين الملتحمين مع فرسان الفرس.

كانت السهام لا تزال تئز وتضرب، ولكن نصف الفرسان هربوا مخلِّفين وراءهم أحصنتهم مدماة في النهر، إضافة إلى مئات الجنود القتلى.

لم يتأخر اليونانيون في الانسحاب، فقد فقدوا بعض الرجال، ولكنهم ألحقوا خسائر فادحة بالقوات المهاجمة. لقد غطت جثث الفرس ميدان المعركة، وقد ذُبح عدد كبير منهم بهدف إظهار الوحشية وبث الرعب في نفوس الآخرين. وقد غنموا أيضًا أحصنة كثيرة، لقد بدا زينوفون سعيدًا وهو يتفقد الأحصنة ويوزعها على كل من ادعى من جنوده أنه قادر على امتطائها.

عيّن هيفاستوس ضابطًا لفرقة الفرسان حديثة التكوين، واستعاد حصانًا كان قد منحه لأثيني أبدى اعتراضًا، ولكنه ما لبث أن أذعن واعتذر.

خاطب زينوفون جنوده قائلًا: "لقد كان هذا نصرًا، وليس فوزًا صغيرًا، هذه المعركة أضعفت معنويات الفرس بعد أن رأوا الموت الذي يمكن أن نذيقهم إياه، وأكسبتنا غنائم جيدة، لن نعود ضعفاء مرة أخرى".

نظر إلى الخلف فرأى جثث القتلى، ثم نظر إلى الأمام صوب التلال البعيدة، كان يعرف أن بلاد الفرس شاسعة، ولكن أقسم إنهم سيغادرونها منتصرين.

لقد أمر زينوفون القوات بمتابعة المسير فورًا، حتى إنه لم يسمح بالتزود بالماء، خصوصًا وأن العدو يقف غاضبًا ومهانًا على الضفة الأخرى للنهر. لقد سار اليونانيون عطشين، عبر أرض بدأت تظهر فيها آثار خضراء بخلاف الصحراء التي خلفوها وراءهم. بعد مسير يوم كامل، بدأت

طلائع الفرس تظهر خلفهم، ولكن هذه المرة كانت بحوزتهم أحصنة ورماح، لقد أعدوا لهم ما استطاعوا من قوة، وهم مستعدون لإزهاق روح أي شخص يريد الاقتراب منهم.

بحلول غروب الشمس، فقدوا الإثارة التي شعروا بها صباحًا. كان الجوع والعطش أكثر ما أزعجهم، ولكن فرقة الاستطلاع أخبرتهم أن هناك مدينة مهجورة في طريقهم، حيث يستطيعون اتخاذها مأوى لهم، لقد رأوا أسوار المدينة ترتفع أمامهم شيئًا فشيئًا، وعندما بلغوها، عبروا ثغرة قديمة فيها.

كانت الشوارع مغبرة، ولم تكن هناك علامة على الحياة. كانت مكانًا أوسع من أن تكون هادئة جدًا، بالرغم من أن السحالي طويلة الذيل كانت تركض عبر كل حائط، إذ قفزت خوفًا من وجود الرجال بعد أن عم الصمت فترة طويلة أرجاء المدينة. خرج كل من يمكنهم الصيد في فرق وجالوا شتى أرجاء المدينة، محاصرين أي شيء على قيد الحياة. صادفت إحدى المجموعات نمرًا ورأت رجلًا مشوَهًا بشكل سيئ قبل أن يرموه برماحهم، وقام آخرون بإسقاط الحمام وعلا صوت قعقعة الحجارة في جميع أنحاء المدينة مع استمرار تدريب الرماة.

عثر زينوفون على هرم كبير في ميدان بالمدينة، بارتفاع نحو ستين درجة. لم يستطع رؤية أي مدخل له، ولم يجد تفسيرًا لوجوده، سلمه أحد الضباط ما بدا أنه عدسة زجاجية، على شكل عين السمكة المستديرة، ملقاة في غبار الطريق، لقد عثروا على عظام في بعض مباني المدينة، ودروع برونزية استخدمها محاربون يرجح أنهم ماتوا منذ فترة طويلة.

بدا جليًا أن جائحة رهيبة حلت بالمدينة.

كان اليونانيون قد أسروا بعض الجنود في النهر، وأبقوا العشرات منهم على قيد الحياة لاستجوابهم، أمر زينوفون بقتل أولهم ليكون عبرة للآخرين، بعدها بدأ استجواب الآخرين. من جهة أخرى سلم الرجال ما اصطادوه للنساء لطهوه، فأُضرمت النيران بالخشب الجاف الذي كانت شرارة واحدة كافيةً لإشعاله، اشتعلت النيران بالخشب القديم بفعل شرارة من الصوان فقط. كانت رائحة شوي اللحوم تستدر لعاب الأفواه، وبالرغم من عدم وجود نبيذ، إلا أنهم عثروا على أباريق طينية احتوت في السابق على نبيذ مر، وبئر من الماء الصافي. خلطُ الاثنين نتج عنه شراب لم يكن غيرَ سار تمامًا، بل كان له طعم شبيه بطعم العنب.

ادّعى أحد الأسرى أن المدينة تدعى لاريسا، في حين قال آخر إنها نمرود، التي كانت ذات يوم عاصمة للميديين. لقد كانت هذه المعلومات تُترجم من قبل اليونانيين الذين يعرفون الفارسية، وهذا استغرق وقتًا، بينما كان الأسرى يتكلمون بشأن قوات الملك، سار زينوفون حول أسوار المدينة. لقد قايض ما يدلون به من معلومات بحياتهم، ولم يشعر بأي ذنب في حال أزهق روح أي منهم أو حررها. قال لهم ذلك بهدوء ووضوح. ومع وجود جثة أحدهم ملقاة على الحجارة المتربة، صدقوه وتحدثوا بطلاقة.

سمع صافرة، ونظر إلى الأعلى لرؤية هيفاستوس وبالاكيس، كان الرجل والمرأة يرتفعان إلى مستوى تاج السور عن طريق درجات حجرية مثبتة في الجانب. تنهد زينوفون، بالرغم من أنه

ابتسم لهما. لم يذكر كليرشوس أن قيادة الناس تعني اضمحلال الوقت الذي يكرسه القائد لنفسه، لكن يبدو أن هذا هو السبيل لذلك. كان زينوفون يعرف أن سقراط يتمتع بصحبة الآخرين، كان الرجل العجوز يبدو أكثر إشراقًا وحيوية عندما يكون مع حشد من الناس. من جهته وجد زينوفون أن محادثة بسيطة أمرٌ مجهد. لقد فضّل أن يكون له هدف جاد، أن يستخدم ذكاءه وقوته لحل أية مشكلة لحظة ظهورها.

لقد رفعت بالاكيس اليوم شعرها الأسود المجعد أعلى رأسها، فبدت شبيهة بميدوسا.

قالت بالاكيس: "لقد طلبت رؤيتك يا زينوفون".

"أحقًا؟"، أجاب زينوفون، ملقيًا نظرة عابرة على هيفاستوس. بدا الشاب الأثيني مفتونًا بها. غبط زينوفون الشابَ عندما رأى أن بالاكيس تلمس ذراعه، لقد ظن أنه لم يُظهر لهما شيئًا، لكن لم يشك في أن بالاكيس كانت جيدة في قراءة الرجال.

تنهد زينوفون: "سيدتي، أحتاج...". إلا أنه ضبط نفسه قبل أن يندم على ما سيقوله، مذكرًا نفسه بالانضباط الذي رآه لدى الإسبارطيين.

إن كانت القيادة تعني نهاية الخصوصية، فسيقبل ثمن القيادة. سألها: "سيدتي، ماذا تريدين مني؟".

قالت: "رأيك عن الوضع أيها القائد، الناس خائفون".

"تمنيت أن تسأليني عن فرص نجاتنا". ضحك زينوفون وهز رأسه. "سأكون قائدًا سيئًا إذا قلت إنها منخفضة، أليس كذلك؟ ومع ذلك، إنني لا أستطيع أن أتنبأ بالمستقبل، ولا مثل أقل العرافين تواضعًا". تلاشت ابتسامته عندما رأى التوتر عليها. وتكلم بجدية أكبر.

"أقسم إنني لن أتوانى عن بذل أي جهد، سأكون مسؤولًا عن كل رجل وامرأة وطفل جاء إلى هذا المكان، إنهم شعبي، يا بالاكيس. لم يكن كليرشوس ليتخلى عنهم في أرض غريبة ليُذبحوا أو يُستعبدوا، وأنا لن أتخلى عنهم ما دامت روحي لم تفارقني". انتظر حتى هزت رأسها، مصدقةً تعهده. "سأطلب إليهم كل ما يمكنهم تقديمه، سأطلب نفس الشيء إلى نفسي. أكثر من ذلك...". نظر زينوفون إلى البعيد وتصلب، فتحول كل من هيفاستوس وبالاكيس إلى المكان الذي حدق إليه مظللًا عينيه.

كان من الممكن رؤية قوة من مشاة الفرس في البعيد. يبدو أن الملك أرتحشستا تخلى عن توقع استسلامهم، أو الاعتماد على قوة صغيرة من الرماة للتغلب عليهم. كان عدد الأفواج الكبير الذي يتقدم يثير غبارًا مثل عاصفة صيفية.

سألت بالاكيس بصوت تشوبه الخشية: "كم عدد الرجال؟".

"من يستطيع أن يجزم؟ ثمانون.. تسعون ألفًا؟ حتى عندها، لن يكون ذلك كل شيء. وهو أمر غريب".

قال هيفاستوس: "ربما يكون الملك قد عاد إلى قصره، لقد ربح المعركة، في النهاية. وسوف يذهب إلى موطنه للاستعراض والاحتفال". فوجئ زينوفون برؤية هيفاستوس يوافقه الرأي.

"آمل ذلك. إذا كان ذلك صحيحًا، فسيكون في مصلحتنا". خطرت فكرة بباله وأجفل. "ما لم يكن يقود جيشًا آخر كبيرًا على الجانب الآخر من المدينة. هل يمكنك أن تركض وترى، يا هيفاستوس، رجاءً؟".

ركض الرجل الذي كان قد استهزأ منه ذات مرة في سوق أثيني إلى الدرجات، واختفى من دون أن يتفوه بكلمة أخرى. ابتسم زينوفون قليلًا برضى. "ما من شيء أكثر من الحرب يصنع الرجال سواء سلبًا أم إيجابًا".

في تلك اللحظة، أدرك أنه كان وحده مع عشيقة الأمير للمرة الأولى، يبدو أنها كانت تعرف أن أفكاره قد تحولت إلى شخصية، حتى في أثناء مشاهدته العدو يسير باتجاه المدينة.

سألته: "هل أنت متزوج، أيها القائد؟".

كح زينوفون واحمر وجهه: "آه، لا، آسف. لا، أنا لست متزوجًا. لقد كرست حياتي للسياسة، لدعم إسبارطة. لم يكن... قرارًا شائعًا في أثينا. بطريقة ما، تجاوزتني كل الفرص خلال ذلك الوقت".

حدّق مجددًا إلى العدو، مطمئنًا نفسه بأنهم لن يصلوا إلى المدينة قبل حلول الظلام. "لقد حاولت... أن أجد أفضل وسيلة للعيش، أفضل طريقة لقضاء هذه السنوات القليلة التي أُعطيت لنا من قبل الآلهة، ولتحقيق هذه الغاية، كرست نفسي للمعلمين الكبار. لقد كنت تلميذًا لسقراط، طيلة أربع سنوات".

قالت: "لم يسبق لي أن سمعت باسمه، ولكن هذه الدراسة ألا تشير إلى وجوب اتخاذ زوجة؟". بدت مندهشة حقًا. احمر خجلًا وكحّ في قبضة يده.

"لا، ولكنني سأفكر في الأمر يا سيدتي". وتخلص من المزاج الغريب وتحدث بمزيد من اليقين.

"في الوقت الحالي، يجب أن نستعد إما للمضي قدمًا وإما للدفاع عن مدينة مهجورة". أخذ يدها وتركته يقودها إلى أعلى الدرجات. كانت بالاكيس تبتسم عندما نظر إليها، كانت مفتونة برجل أكثر إثارة للاهتمام مما توقعت.

لقد قررت تشجيع اهتمامه الواضح بها، باعتباره الشخص الذي يمكنه الحفاظ عليها آمنة وحماية وضعها. لم تكن تتوقع أن تشعر برعشة وهو يأخذ يدها. كان ذلك غريبًا.

كانت قد أعجبت برجال مثل سايروس أو كليرشوس، كان يبدو أنهما يعانيان في فحولتهما، ومع ذلك، فإن الرجال المكافحين هم الذين جعلوها تقع في الحب. عرفت بالاكيس نفسها جيدًا وهي تنزل إلى ميدان المدينة، وحثها صوتها الداخلي على توخي الحذر. كانت ترغب في أن يكون أحد بحاجة إليها. وشعرت أن زينوفون كان وحيدًا بشكل يائس، وكان بأمس الحاجة إليها، لقد جعلها استنتاجها هذا تشعر بالنشوة.

نام زينوفون على السور، تقلصت معدته وضج رأسه، لكنه كان عازمًا على ألا يشتكي في الوقت الذي كان فيه كثيرون يعانون من الجوع. في المساء تقاسم الناس آخر ما بقي مما اصطادوه، كان بإمكانه أن يشم رائحة اللحم الذي شُوي على نيران الأثاث القديم الذي أُضرمت فيه النيران من المكان الذي اختاره للاستراحة، كان بإمكانه أن يرى نيران الفرس مثل الشرر ينتشر في جميع أنحاء السواد.

لقد ضغط بقبضته على بطنه عندما كانت تئن وتتذمر، ولكنه كان يعلم أن الحصة الأولى من اللحم يجب أن تُخصص للجنود، ثم الأطفال الذين ما كانوا يستطيعون الصمود طويلًا على الماء والهواء فقط. من الناحية النظرية، فإن الآخرين سيحصلون على نصيبهم بعد ذلك، الذي لن يكون أكثر من مرق، بالرغم من أنهم بذلوا قصارى جهدهم لجعلها تكفي لملء أكبر عدد ممكن من البطون.

بينما كان يفكر، سمع وقع خطوات، ورأى ضوءًا يتنامى مع صعود شخص ما الدرجات. نهض زينوفون غاضبًا بسبب إزعاجه في هذه الساعة المبكرة.

شعر بخيبة أمل غامضة عندما عرف الإسبارطي، كريسوفوس. كان الرجل يحمل وعاءً فيه شيء يتصاعد منه البخار في يد والقارورة في الأخرى.

قال: "أنت لم تأكل، أيها القائد".

سأله زينوفون: "وأنت هل أكلت؟".

استهجن كريسوفوس وقال: "أنا إسبارطي"، كما لو كان ذلك الجواب كافيًا.

رفع زينوفون حاجبًا وانتظر، متجاهلًا الوعاء والقارورة اللذين قدمهما له. تنهد كريسوفوس وتراجع.

"عندما كنت فتى لم يكن لدينا ما يكفي من الطعام، أذكر أنني لم أشعر بالشبع إلا مرة أو مرتين في حياتي، وكلتاهما كانتا في حفل ملكي. لقد شُجعنا على سرقة الخبز، بالطبع، ولكنني لم أكن أبدًا جيدًا في ذلك. أعتقد...".

سأله زينوفون متفاجئًا: "هل شُجعت على السرقة؟".

"كما قلت، لم نكن نتغذى بشكل جيد. إذا تمكنا من خداع الطهاة وانتزاع بعض الشيء الإضافي، لم نكن نُعاقب على ذلك أبدًا. إلا إذا قُبض علينا، بالرغم من أننا لم نعاقب لأنه لم يُقبض علينا أبدًا، نحن نعتقد أن الجوع يجعل الصبي سريعًا، أما الشبع فيجعله ممتلئًا وبطيئًا وغبيًا. أعتقد أن ذلك صحيح على الأرجح".

"ولكن هل أنت جائع الآن؟".

"بالتأكيد. نحن نقاوم الجسد أيها القائد. إن الجسد هو شيء سمين وأحمق يسعى للسيطرة علينا. إنه حصان بطيء، إذا كنت تفهم ما أعنيه، حصان لا يفهم سبب بطئه. لكن لا تسئ فهمي. يجب أن تأكل، لأنك بحاجة إلى أن تكون يقظًا غدًا. بعد نقطة معينة، الجوع هو الحياة".

"ليست لديّ شهية يا كريسوفوس، ومع ذلك، شارك الوعاء معي وسآكل. هذا أمر".

نظر الإسبارطي إلى الوعاء الذي كان يمسك به. مرر طرف لسانه على شفتيه، ليسمح لنفسه الاستمتاع برائحة أي أثر من الفاصوليا واللحم في المرق الكثيف. أشار بالوعاء فأخذ زينوفون الوعاء والقارورة منه، وجلس مشابكًا قدميه ليأكل.

أخرج كريسوفوس رغيفًا صغيرًا من تحت ذراعه وقسمه إلى قسمين، وسلمه أحدهما. قام كل رجل بتناول المرق بقطعة خبز ماضغًا إياها ببطء، رافضًا الاندفاع أو الكشف عن الرغبة اليائسة في الإسراع. تباطأ زينوفون، مصممًا على ألا يسبق الإسبارطي، بالرغم من صراخ جسده طلبًا للطعام.

أخيرًا قال زينوفون: "لا يمكننا البقاء في هذا المكان، إذا حاصرونا فستكون نهايتنا. انقل الأمر عندما تنزل، هل لك ذلك؟ سننطلق بعد ساعة، ربما ساعتين، على الأكثر".

قال كريسوفوس بهدوء: "نحتاج إلى البقاء أمام متتبعينا، هذا لن يكون سهلًا، لم تبق حيوانات الآن، ليس بعد هذه الليلة. سيتعين على الأطفال المشي أو حملهم".

"اجعلهم يتشاركون العمل، إذن، لتتناوب مجموعة من الرجال والنساء على حمل كل طفل. إذا أبطؤونا، فسوف نُضرب من الخلف. لا يمكننا أن نأمل في حماية أتباع المعسكر ونحارب الفرس".

سأل كريسوفوس: "ألا يمكننا ذلك؟".

قال زينوفون: "لا، أردتني أن أقود أيها الإسبارطي. لا تشكك في أوامري الآن. هدفنا هو ترك الأراضي الواقعة تحت سيطرة الملك أرتحششتا، وعدم تحديه مرة أخرى عندما يكون الأقوى. كل ما علينا فعله هو البقاء أمامهم. لديهم سلاح الفرسان الآن بأعداد كبيرة. أما نحن فلدينا، ماذا، مئتا حصان؟ إن ذلك لا يكفي، على ما أعتقد، إنه يكفي لحماية ظهرنا".

كان زينوفون يعرف أن الإسبارطي كان جنديًا خبيرًا. إنه لم يكن يتمتع بالدفع والحث، كان يفهم أن هناك مغزى من ذلك، تمامًا كما هو عندما يسأله سقراط عشرات المرات أن يقول ما هو الحب.

قال كريسوفوس: "نحن بطيئون"، وهو يعد بإصبع واحد. ولدينا عدد قليل للغاية من الرماة، لذلك نحن عرضة للخطر من المسافة. نحن عازمون على التراجع بوتيرة ثابتة".

اعترف زينوفون: "سوف تصبح سريعة. عندما يرون أنهم لا يستطيعون إيقافنا. سوف يسخروننا ويقرحون كعوبنا. أنا مستعد لإعطاء أي شيء مقابل أن يكون معي حراس الأمير الشخصيون، هؤلاء الفرسان الستمئة يمكن أن يصطادوهم ويعيقوهم لمدة شهر. من دونهم".. وشرد.. محدقًا في نقاط الضوء في البعد.

سأل كريسوفوس: "هؤلاء الفرس يفضلون عدم التخييم قريبًا منا، لا أعرف لماذا، وهم يخشون من هجوم ليلي مع أن عددهم كبير، نحن مشهورون بينهم بحيلنا. إنهم لا يثقون بنا عندما نكون قريبين".

قال زينوفون: "إذا كان هذا صحيحًا، فهذا يعني أننا سنبدأ كل يوم ونحن نسبقهم، وإذا ما خيّموا قريبًا، فقد نخاطر بغارة ونشتت أحصنتهم".

"هذه هي الروح"، أجاب كريسوفوس. ومع ذلك، بدا وجه الإسبارطي مكفهرًا وقد التقط زينوفون مزاجه.

"هل تعتقد أننا يمكن أن نهرب منهم؟". لم يكن هناك جواب لفترة طويلة، حتى ظن زينوفون أن الرجل لن يرد أو أنه قد غفل.

قال كريسوفوس: "لا يهم ما أفكر فيه، يجب أن نستمر بالتقدم، من نهر إلى نهر. أربعمئة أو ستمئة ميل ليست مسافةً بعيدةً جدًا. ومع ذلك فهم سيحاولون التغلب علينا، مثل كلاب يتبعون الغزلان، سواء نجحنا أم متنا، فذلك لا يغير ما يجب أن نفعله. لذلك سوف أنطلق بقلب سعيد. شعبي من حولي وأعدائي متأخرون خلفنا. سيكون يومًا جيدًا".

دهش زينوفون عندما ربّت كريسوفوس على كتفه في حين أنه نهض ومطط ظهره.

قال زينوفون: "حاول أن تنام أيها القائد. سنحتاج إليك باكرًا في الغد سآتي وأوقظك".

ورأى الإسبارطي يبتسم في الظلام وهو يتراجع.

كل الإسبارطيين في الميدان كانوا يعرفون بعضهم في أثناء تجمعهم للمسير مرة أخرى. كانوا يحيوّن الأصدقاء ويهمسون بتعليقات حول اليوم الطويل المقبل عليهم، أو المدينة الغريبة المحيطة بهم. كانت الليلة دافئة بما يكفي للنوم في العراء، بدلًا من المخاطرة مع العقارب الموجودة في المنازل المهجورة. لقد أفرغوا مثاناتهم وشربوا الماء، بالرغم من أنهم جميعًا ظلوا عطاشى.

لا يزال القمر في السماء، ولم تكن هناك علامة من الفجر في الشرق، انطلقت القوة بأكملها، واحتووا أتباع المعسكر في صفوفهم داخل الميدان، مما جعل قلب الميدان مضطربًا والجنود من جميع الجوانب. تركوا المدينة وراءهم وشعروا بالقشعريرة من البرد في أثناء تحركهم.

نظر بعضهم إلى الوراء، خوفًا من صياح عال أو صوت أحصنة تهرول نحوهم، ولكن لم يكن هناك سوى السكون وصمت الليل.

أخيرًا، وبحلول الوقت الذي ارتفعت فيه الشمس، كانوا على بعد أكثر من عشرة أميال عن المدينة، ولا يزالون مستمرين في المشي. أرسل زينوفون أوامره إلى هيفاستوس بأن يُبقي فرق الاستطلاع خلفهم وأمامهم أيضًا. منحتهم الأحصنة عيونًا ومجالًا، بعد أن كانوا عميانًا سابقًا وهم يسيرون على غير هدى. ومع ذلك، لم تكن هناك علامة على الفرس وكان الجوع هو الذي أجبرهم على التوقف في قريتين.

لم يبدِ القرويون أي احتجاج حينما كانوا يشاهدون الأقبية وهي تُفرغ، فقد شعروا بالامتنان لأنهم لم يقتلوهم أو يستعبدوهم. كان على زينوفون إعطاء أوامر بذلك، فبالكاد كان بإمكانهم الاعتناء بأتباع المعسكر لديهم، ولا يمكن التفكير في الإضافة إلى عددهم.

أتت فرق الاستطلاع قبل أن يمضي عليها نصف يوم في القرية، لكنه كان وقتًا كافيًا لإعادة تعبئة كل وعاء وحتى وضع الأطفال الصغار مجددًا على عربتين صغيرتين تسحبهما البغال. نظر أصحاب العربات بتعاسة فيما كان اليونانيون يتحركون.

لقد رأوا الفرسان الفرس قبل حلول المساء. ركب خط منهم لمراقبة المربع السائر، كانوا كلهم من المحاربين الكبار الأقوياء الذين حملوا السيوف، ولم تكن هناك أية إشارة إلى وجود الملك نفسه، ولا أي من أمرائه. شعر زينوفون بالسعادة لأنه لم يرَ أفواجًا من المشاة إلى جانبهم. إن سلاح الفرسان وحده لا يمكنه كسر تشكيلهم، ليس ضد الرماح. تجرأ على أن يأمل أن يكون الملك قد أصدر أوامر لمرافقتهم خارج أراضيه فقط.

في تلك الليلة، استيقظوا على صوت ركوب الفرسان بالقرب من المخيم. لقد عثروا على مجرى صغير وخاضوا من خلاله ليستريحوا على الجانب الآخر، لكن كل فرصة للنوم كانت صعبة مع أصوات الصراخ والعواء في الظلام.

أراد هيفاستوس الركوب وسفك الدم، لكن زينوفون رفض. كانت النجوم تضيء معسكرهم عندما سُمعت أبواق التحذير. وأتت فرقة الاستطلاع بشكل غير متجانس، وحثت على تحضير الأسلحة.

نهض زينوفون، وهو يحك تحت إبطه حيث تحول العرق إلى طفح جلدي. جره الإرهاق إلى نوم أعمق مما اختبره من قبل، لكن تثاؤبه خمد عندما تطلع إلى الأعلى. كان الضوء رماديًا قبل الفجر، لكنه استطاع أن يرى محيطًا من الجنود يقتربون في صفوف صامتة، بالكاد أربعمئة خطوة

من حيث كان. لقد تقدموا في الهزيع الأخير من الليل. ومع بدء انبلاج الضوء رأى زينوفون تيسافيرنيس يجلس على حصانه في مقدمة تلك الكتلة من الرجال، كان الرجل يتألق باللون الأبيض.

شعر زينوفون بالرعب يسري في قلبه، فما كان من الفارسي إلا أن ضرب على صدره في تحية مخادعة. عندها زمجرت صفوف العدو في الوقت نفسه وهجمت.

الفصل السادس والعشرون



عندما كان زينوفون يمسح العرق عن خده، لسعه جرح كان قد تسبب به سهم، فشتم. ففي كل مرة مست أصابعه هذا الجرح أعادت فتحه.

لقد دفع تيسافيرنيس بكامل قوته في الميدان اليوناني، محاولًا وضع حدّ للمطاردة. حاول زينوفون تناسي لحظات الوحشية الأولى عندما داست حوافر أحصنة الفرس امرأة كانت تركض خلف ابنتها، فتناثرت أشلاؤهما تحت السنابك.

شكل اليونانيون مربعًا متحركًا، بقي خارجه مئة جندي، وتقدم تاركًا أحد أضلعه مفتوحة، اندفع الفرسان الفرس مثل الذئاب يقطّعون كبار السن والمرضى، ويأسرون النساء والرجال، وأي شخص أمكنهم الوصول إليه. لكم لم يلبث الهوبليت أن أسرعوا بإغلاق الضلع، وقطّعوا الفرسان الفرس الذين تقدموا بحماسة، كثيرون فاضت أرواحهم على الفور، أما الآخرون فظلوا على قيد الحياة يصرخون ويمدون أيديهم في نداء بائس، وهم ملقون على سروج الرجال الضاحكين.

أُحكم إغلاق أضلع المربع، وتقدم اليونانيون، وهم مذهولون وغاضبون من الهجوم. نظر زينوفون نظرات غاضبة، وأراد أن يلقي المسؤولية على عاتق هيفاستوس الذي أخفق بتحذيرهم مبكرًا.

سأله زينوفون: "أين كنت؟".

أبقى صوته هادئًا نوعًا ما لأن المسؤولية كانت عليه، بغض النظر عن كيفية رؤية هيفاستوس للوضع. لم يستطع إلقاء اللوم على زعيم العصابة عديم الخبرة لأنه لم يقم بمراقبة مناسبة.

قال هيفاستوس: "لقد تركت فريق الاستطلاع على بُعد ساعة من المخيم".

أحنى رأسه للحظة وهو يتحدث، بدا وكأنه سينفجر باكيًا. لكن بدلًا من ذلك، وجد في نفسه الإرادة لتهدئة نفسه، وهذا ما أثار إعجاب زينوفون.

"خرجت معهم، لكن بعد ذلك... عدت مجددًا إلى المخيم".

نظر زينوفون إلى الشاب. لم يكن هيفاستوس يستطيع قراءة اسمه ولا كتابته. لقد تعلم الركوب خلال الرحلة شرقًا إلى بلاد فارس. إذا كان هناك خطأ، فإن الملامة تقع على عاتق الشخص الذي تركه بمفرده.

سأله زينوفون: "قل لي ما الذي حدث؟".

نظر هيفاستوس بعيدًا، غير قادر على مواجهة نظراته.

"لا بد أنه كان لديهم فرسان ينتظرون مع الرماة". أشار بحدة. "لقد نجا بعضهم، لكننا فقدنا كثيرًا من الرجال. لقد هجموا بسرعة، يا زينوفون. كنت في طريق عودتي. بحلول الوقت الذي كنت فيه قادرًا على إطلاق إنذار، كانوا على وشك الوصول إلينا. أنا آسف". صمت، وهو على استعداد لأي حكم ينتظره.

قال زينوفون: "ما كان يجدر بي ترككم من دون ضابط خبير، إن الخطأ هو خطئي، هل تفهم؟ أنا لا ألومك على خطئي".

تكلم بسرعة، كما لو أنه تخطى الموضوع. "منذ الليلة القادمة، ستحتاج إلى وضع رجال الاستطلاع في ثنائيات متقاربة. إذا أُسقط واحد أو اثنان، فسيعود الآخرون إلى المعسكر. أبقهم دائمًا تحت الأنظار، يا هيفاستوس. هذا هو الدرس الذي نتعلمه من هذا".

"أنا آسف". كرر هيفاستوس مرة أخرى.

نظر زينوفون إليه بلا اهتمام.

"لا يجدر بك الأسف. لكن تعلّم من هذا. لقد فازوا بمناوشة بسيطة، ورفعوا معنوياتهم. لكن ذلك لن يغير شيئًا، لقد أنجزنا الكثير حتى الآن، كل ما علينا القيام به هو البقاء أمامهم".

في الوقت الذي تحدث فيه، علت صرخات جديدة، من أولئك الذين كانوا يراقبون الفرس. سُمع أنين من الخوف من المركز المفتوح للمعسكر، وهي المرة الأولى التي يسمع فيها زينوفون مثل هذا الصوت منهم. صرف بأسنانه، غاضبًا من نفسه، وأيضًا من عدو لا يتركهم يرحلون.

بينما كان يتجه إلى الخلف على طول جبهة المربع المتحرك، رأى كتلة من الفرسان وهم يخبون ببطء، كما لو كانوا في موكب استعراضي. كانوا بعيدين عن اليونانيين مسافة ستمئة أو ثمانمئة خطوة، أبعد من مجال الرماح أو السهام. استدار الفرسان اليونانيون لمشاهدة العدو الذي

كانوا يخلفونه وراءهم بطبيعة الحال، ولكن كانوا يسبقون اليونانيين المشاة، مستفيدين من ميزة السرعة وسهولة الحركة.

راقب زينوفون في حين جاء كريسوفوس إلى جانبه. بدا الإسبارطي بصحة جيدة، وبالكاد يلهث، بالرغم من ارتدائه درعه المصنوع من البرونز والجلد.

سأله كريسوفوس: "أية أوامر جديدة، أيها القائد؟".

بدأ زينوفون يعرف الطريقة التي يفكر بها الرجل. كان الإسبارطي أكثر راحة باستخدام المكر والغموض من كليرشوس.

قال زينوفون: "لا شيء حتى الآن، هل لديك أفكار عن هؤلاء الفرسان؟".

أجاب كريسوفوس:" أتصور أنهم ينصبون لنا كمينًا في الأمام".

لقد شق طريقه إلى الجناح للتأكد من أن زينوفون قد فهم تلك النقطة بالضبط. "سيجدون مكانًا يضيق فيه الطريق، ربما في التلال. سوف يُسقطون أشجارًا أو يدحرجون صخورًا، كل ما يمكن أن يجدوه لتطويقنا في مكان واحد، وعندها سيهاجمنا أولئك الذين يقفون وراءنا، هذا ما كنت سأفعله لو كنت مكانهم".

قال زينوفون: "لا يمكنني منعهم من المضي قُدمًا، ولا يمكن أن نفرّق أولئك الذين يتبعوننا. إذا توقفنا وحاربنا، فسيمكنهم الانسحاب بالوتيرة نفسها، وإذا قبلوا التحدي، فسيكون أتباع المعسكر في خطر. هذا هو موقفنا بالضبط". لقد تباطأ في قول ذلك، شاعرًا باليأس فجأة. مدركًا العيون التي تنظر إليه، هز رأسه بعض الشيء، ونحى المخاوف جانبًا، كان على القائد أن يبدو واثقًا، حتى بالنسبة إلى الرجال ذوي الخبرة مثل كريسوفوس، عليه أن يكون قويًا وواثقًا.

"مع ذلك، نحن لا نريد الاشتباك معهم، لقد أظهرنا لهم أنهم ليسوا ندًا لنا في الميدان. لا يوجد مجد في تعذيبهم أكثر. لا، مهمتنا هي الخروج من أراضيهم. أنوي القيام بذلك، كريسوفوس. إذا أخذوا الأرض المرتفعة، فسوف نسير إلى الأمام ودروعنا فوق رؤوسنا. وإذا هاجمنا مشاتهم، فسنقطّعهم إلى أن يتوقفوا، سنقاتل إذا كان علينا ذلك، لكن انتصارنا سيكون عندما نصل إلى البحر الأسود. حيث تقع المدن اليونانية على الساحل الشمالي. عندما نصل إليها، سنكون قريبين من موطننا". أحنى كريسوفوس رأسه وهو يمشي. "تابعوا في انضباط جيد".

"مفهوم أيها القائد". وابتسم ابتسامة عريضة مثل صبي، وشعر زينوفون بانشقاق قِناعه لأنه ابتسم. لقد عبّر بالكلمات عن المشاكل التي تواجههم، ولكن بعد قولها بصوت عالٍ، رأى أن التغلب عليها ليس مستحيلًا. شعر بالبهجة، للمرة الأولى يومها.

قال: "استمر".

ساروا لمسافة اثني عشر ميلًا حتى وصلوا إلى نهر، حيث بُني جسر خشبي، أعطى زينوفون أوامره بالتوقف على جانبي تلك النقطة، والسيطرة على المعبر لفترة للتزود بالماء. وقف الإسبارطيون مجهزين بالدروع والرماح ومستعدين لأي هجوم مفاجئ في الوقت الذي كان فيه أتباع المخيم يملؤون كل قارورة وقربة. بالرغم من أن الصحاري كانت خلفهم، إلا أن الحياة لا تزال موجودة بين الأنهار في ذلك المكان.

طوال ذلك الوقت، أوقف تيسافيرنيس حصانه بعيدًا، ومال على سرجه محدقًا إلى وسط مجموعة المحاربين الفرس الملتحين. كانوا يحدقون إلى أعدائهم، كما لو كانوا ذئابًا، واليونانيون ماشيةً وردت الماء.

ابتسم زينوفون للفكرة. كان رجاله محاربين لا يُشق لهم غبار، كما أثبتوا في كوناكسا، تلك الجرعة المريرة للحساسيات الفارسية كانت كل ما أبقاهم على قيد الحياة.

ترك تيسافيرنيس رجاله يقتربون مهددين أولئك الذين كانوا ينتظرون العبور، لكنهم لم يُظهروا أنهم سيهاجمون، ولم يتقدم الرماحة ولا المشاة من حاملي السيوف، فلم تكن لديهم رغبة في مقاتلة الإسبارطيين اللابسين الأحمر الذين جلسوا يتحدثون أو يحدقون بفتور إلى الخلف. رش بعض اليونانيين أنفسهم بالماء واغتسلوا في المياه الضحلة، قاموا أيضًا برش المياه على بعضهم مروِّحين عن أنفسهم ومظهرين ضحكات معبّرة عن جذلهم، تفرق آخرون في مجموعات صغيرة ليغنوا ويلقوا الشعر. كانوا يعرفون أن مثل هذه المشاهد ستثير غضب العدو الذي يراقبهم، لكن زينوفون وجد أن روحه المعنوية ارتفعت بسبب لا مبالاة الناس. فلم يجد سببًا لأن يخافوا، وإن كانوا بمواجهة قوات تفوقهم عددًا، خصوصًا وأن لديه قواتٍ إسبارطيةً متغطرسةً، وما من شك في أنها تستحق هذه الصفة.

حتى من دون الفرسان، احتوت أفواج الفرس على آلاف الجنود. بدا أن تيسافيرنيس قد شعر بأن اليونانيين قد قاموا بملء آخر القرب والقوارير وكانوا يستعدون. أصبحت الحركة بين الخطوط الفارسية مضطربة، وكان الجنود يحمسون أنفسهم بالهتاف والترغيب، ويشجعون بعضهم بعضًا.

أصبح الفرس أكثر جنونًا، ومن دون سابق إنذار تقدمت مجموعتان منهم راكضتَين. توقف أفراد الأولى قبل مدى الرماح في غابة لم يتمكنوا من عبورها، أحسوا بأن الإسبارطيين لن يكسروا صفوفهم لذا فقد وقفوا خلف تلك النقاط مباشرة، وهم يهتفون ويضربون الهواء بقبضاتهم.

على الجانب الآخر، خرج من بين الأفواج الفارسية، فارسان انطلقا بسرعة بعد أن انحنيا فوق سرجيهما، قبل أن يستقيما مجددًا ويطلقا رمحيهما بسرعة وقوة، صوّبا الرمحين نحو أعتى الرجال في الفراغات بين الدروع، وما لبث الفارسان أن صرخا بأعلى صوتيهما تعبيرًا عن انتصارهما، رافعين ذراعيهما إلى رفاقهما في الخلف.

خرج أحد الكورنثيين من الصف، وبعد أن خطا بسرعة ثلاث خطوات، أطلق رمحًا طويلًا، مر عبر أحد الفارسين، ليستقر في جسد الآخر فسقط عن سرجه واستلقى ميتًا على الأرض.

عندها كان دور اليونانيين للضحك والتهليل، في حين استمر الباقون في عبور الجسر. كل خطوة جديدة، قرّبت الفرس أكثر فأكثر. كان زينوفون مع الخطوط الأخيرة التي عبرت الجسر، موليًا ظهره للرماة والمحاربين المدرعين الذين زمجروا، وأغلقوا الطريق بالكامل. وصل إلى الجانب الآخر، حيث أصبح العبور اندفاعًا بريًا.

خسر الضباط الفرس أية أفضلية كانت لديهم، وانطلقت صفوفهم الأمامية إلى الجسر شاهرة السيوف، في حين تراجع آخر اليونانيين إلى الوراء، ممسكين بالرماح عاليًا وقد رفعوا الدروع فوقهم. كان عليهم أن يتحملوا مئات من الضربات، والسيوف الحديدية التي ندّبت برونز دروعهم، من دون أن يردوا عليها طالما أنهم عبروا بأمان.

رفع زينوفون قبضته عاليًا، في الوقت الذي امتلأ فيه الجسر بالصفوف الفارسية، وعندما أنزلها تصدع الجسر بأكمله ملقيًا بالفرس في المياه سريعة الجريان.

في الساعات التي احتُجزوا فيها عند المعبر، عملوا على زعزعة دعائم الجسر، فلم يعد قادرًا على تحمل وزن كبير، وكان أي ثقل عليه كفيلًا بانهياره، وهذا ما تكفلت به جحافل الفرس.

بعد أن فرغ زينوفون من النظر إلى رعبهم وذعرهم حدّق إلى تيسافيرنيس، الذي كان يراقب من الضفة الأخرى، فرد الفارسي بأن أطلق آلاف الأسهم.

لقد أحضر الرماة في السر، لكن فقدان الجسر حيّد تأثيرهم خصوصًا وأن اليونانيين كانوا قد احتموا أسفل دروعهم واستمعوا لجلبة كبيرة سبّبها تساقط الأسهم على برونز دروعهم.

ظل زينوفون ثابتًا، واثقًا من الحظ الجيد الذي كان يحميه حتى هذه اللحظة.

لم يخاطر تيسافيرنيس بأن يكون بين أول من عبروا، فلو أخطأ، وكان مع المتقدمين، لكان نصر اليونانيين اليوم لا يضاهيه نصر.

حدّق زينوفون إلى الأرض المرتفعة والتلال التي تمتد أمامهم. كانت الأرض إلى الشمال أكثر خضرة، وأقل خطرًا على الحياة، وكان واثقًا من وجود كمين ينتظرهم. لكن تلك كانت مشكلة ترك التفكير فيها إلى يوم آخر.

مرة تلو الأخرى صرخ لليونانيين: "أسرعوا بالتقدم". حتى تأكد من أن الجميع سمعوه "من سيتأخر فسنتركه خلفنا" وأجبر نفسه على الابتسام، مُظهرًا ثقة لم يكن يشعر بها. ورأى كيف كان العديد من أتباع المعسكر يعرجون ويتعثرون خلال سيرهم. كانت نعال العديد منهم قد اهترأت، حتى اضطروا إلى لف أقدامهم بالقماش. كان لديهم ماء، وذلك ما شكر عليه بوسايدون (إله الماء)، ولكن هناك طعام قليل جدًا. نظر إلى الأمام، كما لو كان ينظر إلى احتمال أكثر إشراقًا. لم يتمكنوا من رؤية فزعه، ولا مخاوفه من أي شيء كان تيسافيرنيس قد خطط له في التلال.

مشوا بثبات خلال فترة بعد الظهر عبر المناظر الطبيعية التي أظهرت علامات أكبر على الحياة. إن أفواه عشرين ألفًا لا يمكن إشباعها أبدًا، ولكن الذين يجيدون استخدام القوس أو المقلاع

خرجوا في جميع الاتجاهات واصطادوا أي شيء يمكن أن يؤكل، تجولوا بعيدًا حول المعسكر السائر، ليصبحوا أعين القوة اليونانية في حين بدأت الأرض في الارتفاع. كان زينوفون قد تجاهل حقيقة أنه كان يتضور جوعًا حتى رآهم يحملون أكثر من اثني عشر غزالًا، فقد تمكن رجاله من مفاجأة قطيع صغير من الغزلان ومحاصرته، لقد حاصروا أربعين منها، لكن أكثرها هرب بقفزات هائلة، بعد أن قفزت عاليًا في الهواء متجنبة الكمين، كان هذا يعني أكثر من وجبة واحدة لبعضهم في ذلك المساء، وجلب الأمل أيضًا.

كشفت كل ساعة من المسير عن تلال وأودية جديدة فيما كانت الشمس تلقي بظلالها الطويلة على طريق واسع على المنحدر. أرسل زينوفون هيفاستوس مع الفرسان الباقين للبحث عن طرق أخرى، ولكن كان هناك ألف من الممرات التي انتهت بالصخور وممر واحد كبير فقط عبر الجبال. لم يكن من الصعب تخمين المكان الذي سيكون فيه الكمين، لكن مع ذلك لم يكن من الممكن تجنبه.

لقد كانوا متجهين شمالًا.

خيّم المعسكر في بستان من أشجار التفاح التي تتشبث بالحياة في وادٍ ضحل. امتدت الطريق أمامهم، غارقة في الظلام. لم يرغب أي منهم في الاستمرار قبل أن يروا أشعة الشمس مرة أخرى. كسر أتباع المعسكر أغصانًا من الأشجار الميتة، وجمعوا أكبر قدر ممكن من الخشب الجاف، وسلم الصيادون الغزلان الثمينة إلى النساء اللواتي يعرفن كيفية سلخ الحيوانات وإعدادها. بحث العشرات عن الخضروات الطازجة في التلال المحيطة، وجمعوا الأعشاب والنباتات التي يعرفون أنها تحافظ على الجسد والروح معًا، ولكن الأهم من ذلك، أنهم كانوا يعلمون أن تأدية دور في الإعداد منحتهم فرصة لتذوق الطعام. أضاف الصيادون طيور التدرج والحجل وعنزة مسنة نحيفة ركضت بشكل أعمى منهم حتى صرعها ولد إلى الأرض. بالرغم من أنها كانت تضع طوقًا حول عنقها، إلا أن حاجتهم إليها كانت أكثر من حاجة مالكها. تم تقطيعها إلى قطع وتحميصها على درع فوق نار الطهو في حين راقبها الأطفال ذوو العيون المتضورة جوعًا وهي تئز.

بالرغم من عدم وجود نبيذ، إلا أن المياه التي كانت بحوزتهم كانت صافية وباردة وكان الطقس في المخيم لطيفًا. في اليوم التالي، تحدث زينوفون إلى الضباط، لكنهم لم يضعوا إلا خططًا غامضة حتى يعرفوا الشكل الذي سيتخذه الهجوم التالي. في بعض النواحي، ترك ذلك في قلب زينوفون السكينة وقد استلقى للنوم، كان يحدق إلى النجوم في الأعلى، وأصبح مقتنعًا ببراعة شعبه، لأنهم غير مندفعين، فهم يتناقشون بقدر ما يستطيعون في محاولة منهم للوصول إلى حل للمعضلة، كانوا يستنبطون الحلول بعد أن يتيقنوا منها، وهذا ما جعله فخورًا بهم.

لم يعلم أنه نام، إلا عندما استيقظ مرعوبًا، وشعر بضغط على جانبه. فتح عينيه ليرى بالاكيس على الأرض بجانبه، ملفوفة في بطانيتها. جلس في الظلام، مدركًا أن المخيم من حولهما قد نام، وأن الآلاف من الناس يأتمنونه على حياتهم.

تمتم: "سيدتي، إنك لست بحاجة إلى حامٍ آخر، ألا يجيد هيفاستوس حمايتك؟".

شعر بها تلتفت نحوه في الظلام، كانت قريبة جدًا لدرجة أنه شعر بأنفاسها على وجهه.

قالت: "هناك أشياء كثيرة في الحياة أهم من الأمان".

"نعم. بالطبع، لقد كنت عشيقة الأمير سايروس". وأحس بها تتصلب في الظلام. "ورأيت أنك كنت على الأقل رفيقة لكليرشوس بعد ذلك. والآن أنت هنا، إلى جانبي، بالرغم من أنني كلفت هيفاستوس بمهمة الاعتناء بك".

"ثم أرسلته بعيدًا". قالت وبدا صوتها فجأة غير واثق.

أجفل، شاعرًا بالحرج من اللحظة.

"لأنه قائد الأحصنة، يا بالاكيس. هو يقود فرق الاستطلاع وأنا أرسله بعيدًا كل ليلة تقريبًا... مهلًا، هل تعرضت للتهديد؟". جلست فجأة، وركعت لتطوي بطانيتها.

"لا. هيفاستوس له مكانة بين الرجال. وهم يعرفون أنني تحت حمايته. اعتقدت... أنا آسفة".

شعر زينوفون بوجهه يحترق، لكنه تحدث قبل أن تتلاشى في الليل.

"ابقي الآن، على الأقل، لأنك هنا. لم يعد يفصلنا وقت طويل عن الفجر".

كان جسدها المظلم جامدًا جدًا إلى جانبه وهي لا تزال تحدق إليه.

استلقت مرة أخرى. واستلقى بدوره، في حالة تأهب، وبقي مستيقظًا لبعض الوقت.

في الصباح، فتح زينوفون عينيه ليجد أن بالاكيس قد غادرت. تساءل لفترة وجيزة عما إذا كانت قد جاءت إليه في المنام، لكنه نسي الأمر عندما ظهر هيفاستوس مع حصانه المعتاد، بعد أن فحص اللجام وسقى الحيوان. بدت كل الأحصنة نحيلة، لكن يمكنها تناول العشب في الجبال، وهو ما كانت قد حُرمت منه سابقًا.

على عكس الرجال، لم يكن باستطاعة الأحصنة المشي لمسافة طويلة من دون أن تأكل بشكل جيد، الأمر الذي شغل بال كلٍّ من هيفاستوس وزينوفون. من دون الفرسان وفرق الاستطلاع لن يتمكنوا من النجاة، هذه هي حقيقة الأمر.

بدا هيفاستوس متسخًا في أثناء تسليمه اللجام ومساعدته على امتطاء حصانه. مرر الأثيني سيفًا وضعه في حزامه، وهو يفكر فيما إن كان عليه ذكر زائرته الليلية، إنه لم يعد هيفاستوس بإعطائه بالاكيس، ولم يكن أيضًا من صلاحيته إعطاؤه إياها، ولكنه لاحظ أن الشاب مغرم بها، ولم يكن راغبًا في إثارة أي مشكل بينهما، لذا فضل زينوفون أن يحتفظ بما جرى لنفسه.

لم يكن عليه سوى الإبقاء على مسافة بينه وبين بالاكيس وستُحل المشكلة من تلقاء نفسها.

شاهدوا الفرس خلفهم قبل أن يخرجوا من المخيم، وكانوا مستعدين للتحرك. شعر زينوفون وكأنه يريد أن يشكر تيسافيرنيس على مساعدته في انتظار أتباع المعسكر الكسالى على الانطلاق إلى مواقعهم والاستعداد ليوم آخر من المسير. لم يتمكنوا من تشكيل مربع داخل مربع وهو ما كان يفضله، لأن الممر الجبلي كان ضيقًا للغاية مما لا يمكن لعشرين ألفًا من عبوره مع الحفاظ على تشكيلهم.

بالرغم من مخاوفه، وافق زينوفون مع كريسوفوس على ترتيب الصفوف. استمر الإسبارطي في التصرف كما لو كان هو الثاني في القيادة رسميًا، ولم يطعن أحد في حقه بذلك. بدا القادة الآخرون الذين تم اختيارهم راضين بقيادة فرقهم، وتركِ الاستراتيجية الشاملة له. تساءل زينوفون عن عدد الأخطاء التي يمكن أن يرتكبها قبل أن يتغير ذلك.

أصرت فرقة الإسبارطيين على قيادة الرتل عبر المنحدرات. أمر زينوفون أن يكون كل درع جاهزًا على طول الخط في حالة كان الفرس متمركزين أعلى المنحدر، لقد شعر بالقلق في أثناء تقدمه إلى الأمام، محاولًا التفكير في كل ما قد يحدث وكان خائفًا من أن يكون قد غفل عن أمر حيوي. كانوا يتطلعون إليه، وشعر بوزر ذلك عليه، لقد كان يتمتع بممارسة السلطة التي لم يعرفها من قبل. إن تمتعه بسلطة سياسية بسيطة في أثينا لم يكن ليقارن تمامًا بقيادة جيش عبر الجبال.

أسرع الفرس في الخلف، مقتربين على أحصنتهم في الوقت الذي كان فيه اليونانيون يتقدمون. كانت فرقة السيمفاليين تحتل الصفوف الخلفية في ذلك الصباح، مع عودة الرماة ومعظم الأحصنة إلى حيث سيكونون في وضع أفضل لصد ضربة العدو. سار هؤلاء الرجال مع ألم في رقابهم من كثرة النظر إلى الخلف، لكن ذلك كان أمرًا لا مفر منه.

في الأمام، سمع زينوفون صراخًا وقام بجولة على طول الجناح، مما اضطر الجنود وأتباع المعسكر لإفساح الطريق له. بالكاد كان عرض الطريق ستين خطوة، وهو معبر كبير لأي شيء ما عدا جيشًا. كانت المنحدرات إلى الأمام منقسمة حتى إنها ارتفعت بشكل حاد على جانبي الطريق وكانت على سفوح الجبل الأخضر قوات فارسية تنتظره. عندها فهم لمَ كان تيسافيرنيس يضغط من الخلف. لقد عرف الفرس أن رجالهم كانوا قريبين وكانوا يحاولون إجبار اليونانيين على التوغل أكثر في الطريق.

كان زينوفون الفارس الوحيد في المقدمة. حدق إلى البعيد، ثم ابتسم ببطء لنفسه.

سار الإسبارطيون بقوة، مستعدين لتحمل السيل الذي كان بلا شك قد حُضر لهم. يمكن أن يكون أي شيء من الصخور، مرورًا بالزيت الساخن، وصولًا إلى سهام مغمورة في القذارة. بدأ الإسبارطيون بتحضير دروعهم، ولكن زينوفون هز رأسه.

"كريسوفوس. إن الموقع الفارسي عالٍ. لقد اختاروا تلك البقعة الواسعة والمسطحة، انظر إلى أعلى، هناك أرض فوقهم. أرض يمكننا الوصول إليها".

خالفه كريسوفوس الرأي: "سوف يروننا قادمين".

قال زينوفون: "سيتعين علينا الجري. اختر أفضل ستمئة من رجالك ليأتوا معي. سوف نركض إلى أعلى ذلك التل ونهبط عليهم من فوق، تمامًا كما اعتزموا أن يفعلوا بنا". أدار رأس حصانه عن الطريق إلى الجهة المؤدية إلى أعلى التل. خلفه، نادى كريسوفوس بأوامر سريعة، فانفصل ستمئة رجل وجاؤوا للانضمام إلى القائدين. بدوا سعداء بإعطائهم تحديًا.

خاطبهم زينوفون: "أيها الجنود، تذكروا هذا. أنت تتحملون لأجل أولئك الذين تنقذونهم، ولكن أيضًا حتى تروا اليونان. أنتم تقاتلون من أجل شرفكم، ومن أجل رؤية نسائكم وأطفالكم مرة أخرى. استمروا وسترمون هؤلاء الفرس من الأعلى".

أجاب أحد الرجال: "تبدو الأمور سهلة بالنسبة إليك لأنك على صهوة حصان، أما أنا فمرهق تحت ثقل هذا الدرع".

حدق زينوفون، في الوقت الذي زال فيه مزاجه الجيد، ونزل عن حصانه بعناية ومشى، في حين أحنى الحصان رأسه لانتزاع بعض العشب وأكلِه. وقف زينوفون أمام الشخص الذي كان قد تحدث.

قال زينوفون: "حسنًا، ابقَ هنا". وأخذ درع الرجل، وأسرع راكضًا إلى الأعلى، وانطلق الباقون ليلحقوا به. انطلقوا بأقصى سرعة صاعدين المنحدر. أما في الأسفل، فقد التقط مرافقو الرجل الحجارة، وألقوا بها عليه، مُظهرين استياءهم منه.

ركض زينوفون، وقفز حتى احمر وجهه، وتسارع تنفسه، لكنه بالرغم من ذلك وصل إلى القمة مع الآخرين. حمل الدرع مثل الجائزة، فهتف الذين في الأسفل. كان الفرس الذين أملوا في نصب كمين لهم قد تخلوا عن موقعهم بالفعل، ونزلوا إلى الأسفل عبر طريق آخر، حالما فهموا أن المفاجأة قد ضاعت. تردد صدى هتافات اليونانيين عبر الجبال في كل مكان، ووصل إلى آذان تيسافيرنيس في حين كانت أفواجه تتسلل عبر الوادي. أوقف رجاله، غير راغب في المتابعة في مكان سُرقت فيه فائدة الأرض من الأعداد الكبيرة.

نزل زينوفون وانضم إلى القوة الرئيسة التي استمرت بالتقدم عبر الممر، نحو السهول.

الفصل السابع والعشرون



أظهرت الأراضي المسطحة الواقعة على الجانب الآخر من الجبال أكثر من بضع علامات للحياة. وتلألأ نهر واسع في البعيد، عندما نظر اليونانيون بعيدًا فوق القرى الحجرية والمزارع أمكنهم رؤية دخان الحطب وقطيع من الماعز يرعى. صرخ كثيرون منهم مرتاحين لرؤيتهم منظرًا طبيعيًا سيؤمن لهم الطعام والماء، ولم يبدُ هناك أي أثر للعدو.

دعا زينوفون هيفاستوس لتنظيم فرق الاستطلاع.

وجد الشاب الأثيني صامتًا، بالرغم من أنه ركب بيقظة واضحة عندما فهم الأوامر.

راقبه زينوفون يذهب وقد بدا عليه الغضب، لكن إذا كانت هذه هي الطريقة التي يجب أن تكون عليها الأمور، فيمكنه قبولها، فهُما لم يكونا صديقين في أثينا، وكانت لديه أمور أهم ليقلق بشأنها.

بالكاد غاب هيفاستوس عن الأنظار عندما أتى كريسوفوس وفيليسيوس يمشي إلى جانبه.

"شكرًا لكما على الحضور، أيها السيدان"، قال زينوفون وقد كانا يسيران على السهل. "لقد كنت أفكر في صنع قوة صغيرة من أفضل المحاربين لدينا. فإذا تم تهديدنا في المعابر وعبر الجسور، فسنحتاج إلى حراس في الخلف، مسلحين بأطول الرماح ويرافقهم أفضل القاذفين وبعض الرماة الكريتيين".

قال كريسوفوس: "إنها فكرة جيدة".

"سأختار ست مجموعات من مئة، وأعيّن عليهم رؤساءً للإشراف عليهم. سيكون العمل من دون مكافأة، في الغالب. أشك في أنه سيكون هناك كثير من المتطوعين لمثل هذه المهمة التي لا

شكر فيها".

"هل لي أن أقترح...".

قاطعه زينوفون: "لا تقترح الإسبارطيين، إذا كان هذا ما أنت على وشك اقتراحه، فبالرغم من أنهم مثيرون للإعجاب، إلا أنهم أفضل في الصفوف الأمامية، كما قلت لي أكثر من مرة".

ردّ كريسوفوس وهو يحني رأسه: "حسنًا أيها القائد، بالرغم من أنني أتيت إليك لأن القائد فيليسيوس كان يرغب في أن يكلمك". نظر زينوفون إلى الرجل الآخر وأومأ برأسه، على مضض.

لقد سمع فيليسيوس يخاطب المخيم مرة واحدة، عندما أظهر الدعم له. ومع ذلك، لم يستسغ زينوفون ظهوره المفاجئ.

"حسنًا. بينما نتحدث، ستكون يا كريسوفوس، المسؤول عن فتح هذه القرى. خذ ما تجده من طعام، إلى جانب كل قطعان الحيوانات، والطيور وأية عربات يمكن استخدامها. نحن بحاجة إلى قدور وقُرَب مائية جديدة لتحل محل تلك التي تشققت. وأيضًا، نحن بحاجة إلى أحذية، دع هؤلاء الناس يذهبون حفاة لموسم واحد، فهم ليسوا مضطرين للسير عبر إمبراطورية في الوقت الذي يطاردهم فيه الجيش الفارسي. هل فهمت؟".

ركع كريسوفوس على إحدى ركبتيه، فتركه زينوفون خلفه وتقدم، نظر إلى الوراء إلى الإسبارطي، ولكن كريسوفوس كان قد ركض مبتعدًا، وهو يصرخ إلى الضباط والجنود الذين سيحتاج إليهم.

راقب فيليسيوس الإسبارطي للحظة، ثم سعل منظفًا حلقه. لم يكن سعيدًا لأنه اضطر لمخاطبة زينوفون وهو راكب على حصانه، ولكن لم يكن هناك ما يشير إلى ترجّل الأثيني.

سأله زينوفون: "أتريد التحدث إليّ؟".

"نعم... طبعًا. كنت أرغب في الإشارة إلى أننا عبرنا مجموعة من التلال وليس هناك ما يشير إلى تيسافيرنيس والفرس، أو الملك. صحيح أنه لم يكن لي أن أتدخل سابقًا، ولكن الآن وبما أن الظروف مناسبة أظن أنه يجدر بنا مناقشة أفضل السبل لقيادة الجنود وأتباع المعسكر إلى النجاة".

قال زينوفون بهدوء: "نعم، بالطبع، أتباع المعسكر أيضًا".

"قصدت أن التهديد الفوري قد انخفض، على الأقل الآن. أنت تعرف أن مينون كان عمي. لقد خدمت لمدة أربعة عشر عامًا في ظله، أما أنت حسبَ علمي -صرف بأسنانه، وأبرز عضلاته- فأقل خبرة مني".

أجاب زينوفون: "إلى حدّ كبير، بالرغم من أنني لاحظت أن عمك لم يعينك نائبًا له في القيادة. ومع ذلك، انتهزت الفرصة عندما حان الوقت، وقبلك رجاله. كانت تلك خطوة جريئة، ولم

تتح لي الفرصة لأشكرك على دعمك. أنا ممتن، يا فيليسيوس، من دون رجال مثلك، ما كنا لنصل إلى هذه السهول، ومن دون شجاعتكم وانضباطكم، فإننا لن نرى الوطن. أنا على يقين من ذلك. من دون طاعة مطلقة، *في جميع الأوقات*، سواء من الرجال الذين تقودهم أم أولئك الذين يقودونهم، فإننا سوف *نموت* في إمبراطورية فارس، ولن نتذوق أبدًا نبيذ اليونان وزيتونها مرة أخرى. لن نستمتع بمسرحيات يوريبايدس، أو نستمع إلى محادثات في أجورا بأثينا. الأسوأ من ذلك، إذا فشلنا هنا، فسينسانا شعبنا". لقد تحدث في حالة من الذهول تقريبًا، غازلًا الكلمات في حلم حتى هو تفاجأ بقوة العواطف التي أثارها. أغمض فيليسيوس عينيه فيما كان يجمع أفكاره.

"لقد رأيت مسرحيته *ميديا* في أثينا. كان يوريبايدس نفسه حاضرًا، ووقف الحشد بأكمله احترامًا له. كان... مذهلًا. وبينما كنت أغادر، شعرت كما لو أن وزنًا قد رُفع عن كتفيّ، للمرة الأولى خلال سنوات". فكّر فيليسيوس في أن يجبر عودة المحادثة إلى الأمور العملية، ولكنه تراجع. لم يكن يرغب أبدًا في القيادة من قبل. لقد فهم عمه ذلك، بالرغم من أن ضباطه قد دفعوه إلى الأمام. ابتسم فيليسيوس وأحنى رأسه.

"جيد جدًا، أيها القائد، أصلي لأن توصلنا جميعًا إلى الوطن بأمان".

أجاب زينوفون: "هذا كل ما أطلبه".

دفع حصانه لينطلق. كانت الشمس تغرب وراء التلال، ملقية بظلالها على الحقول. وجد زينوفون نفسه يرتجف في أثناء سيره.

لاحظ أن المحاصيل قد جُمعت، وكان هذا أفضل بالنسبة إلى رجاله، لأنهم كانوا قادرين على جمع الحبوب الثمينة من المخازن، ولكنه يعني أيضًا أن العام يمضي والمواسم تتحول. بدا أن الرياح الباردة تؤكد ما يفكر فيه، فهز رأسه. مهما حدث، أيًا يكن ما سيأتي، فعليهم الاستمرار. إنه مدين بذلك لكليرشوس.

غمغم بصوت عالٍ، في صلاته: "عندما نلتقي مرة أخرى، أيها الإسبارطي، عندما تسألني عما فعلناه بعد موتك، لن أخجل. أعدك بذلك. سأعيدهم".

كان يعلم أن فيليسيوس يرغب في مزيد من السلطة، أو أن يكون له دور أكبر. هز زينوفون رأسه بعض الشيء، كانوا شعبه. لقد كان نبيلًا في أثينا، وقد وجد هدفه الحقيقي. ولن يتخلى عنه لأحد.

في الصباح، أرسل كريسوفوس فرقًا لتجريد بساتين الفاكهة والبحث عن المزارع البعيدة عن القرى. لم يكونوا مستعدين لتدفق آلاف الفرس من طريق آخر عبر الجبال سيرًا على الأقدام وعلى صهوات الأحصنة، جميعهم كانوا يسابقون لقطع الامداد عن بقية القوات اليونانية. وضع الرجال والنساء أغطية كاملة مليئة بالفاكهة على الأرض وانسحبوا بأقصى سرعة، في حين جاء كريسوفوس بأقرب ستين إسبارطيًا في سباق في الاتجاه المعاكس.

لقد وُجدوا في غير مواقعهم، وبدأت معركة كانت مثل شغب شوارع في أثينا، فقد حاول الجانبان تسجيل ضربات على خصوم أضعف منهم.

ضرب الفرس المبتهجون أي شخص أمكنهم الوصول إليه، مسلحًا كان أم لا، كانوا يتسابقون بدلًا من الوقوف للقتال. لقد كانت فوضى، وقُتل العشرات من اليونانيين قبل أن يأتي زينوفون بالقوة الرئيسة للدعم.

في مواجهة القوة الرئيسة، انسحب الفرس مرة أخرى، مستخدمين عددًا كبيرًا من الأحصنة للمراوغة. انجذبت عينا زينوفون إلى شخصية باللون الأبيض تراقب الوضع، بالرغم من أنه كان يستطيع أن يلعن تيسافيرنيس فقط. إن انتقام زينوفون، إذا كان سيستمتع به على الإطلاق، سيكون أن يمشي بوصفه رجلًا حرًا ويترك هذا القائد الفارسي السمين وراءه ليتساءل عمن قد يكون.

سار تجريد القرى بشكل أسرع بكثير، بعد أن عرفوا أنه قد تم تجاهلهم. ألقى زينوفون باللوم على نفسه لعدم تعيين حراس أفضل، لكنه لم يكن وحده الملام.

سار كريسوفوس في المعسكر لساعات، مزمجرًا على كل من تجرأ على الاقتراب منه. لقد تخلوا عن حذرهم في مكان مُعادٍ، مع عدو لا يزال يتجول ويراقب أدنى نقطة ضعف.

لكن الأكثر سوءًا هو أن نهرًا عظيمًا قد سد طريقهم، كان الممر عبر الجبال قد أخذهم إلى الشمال الشرقي، لكنهم لم يتمكنوا من الذهاب إلى أبعد من ذلك دون عبور النهر الذي بدا أكثر عمقًا من الرماح التي غرسوها فيه. استجوب زينوفون أسرى القرى، ولم تكن الأخبار جيدة كما كان يأمل. شعرت القوات اليونانية بالتوتر لأنهم فهموا أنهم محاصَرون من جهة بالجبال ومن جهة أخرى بنهر لن يتمكنوا من عبوره.

اقترح أحد اليونانيين استخدام مثانات الأغنام بمثابة فواشات لعبور النهر، لكن تجربة فكرة كهذه وسط مراقبة تيسافيرنيس وفرسانه بدت مستحيلة.

إن سلكوا طريق الجنوب فسيعودن إلى بابل ووسط بلاد فارس، وإن سلكوا طريق الغرب فسيعودون إلى الجبال، والنهر العظيم يقطع طريق الشرق، أما في الجهة المقابلة فتقع مدينة إكباتانا بحسب ما صرّح القرويون، وهي مقر الإقامة الصيفية للملوك الفرس، وهي محصَّنة أكثر من أية مدينة أخرى.

جمع زينوفون ضباطه في ساحة إحدى القرى، في حين طوقت خطوط الهوبليت المخيم.

"وفقًا للقرويين، توجد مجموعة من الجبال في الشمال يستغرق عبورها أشهرًا، إذا استطعنا المرور، فسيقودنا الطريق إلى أرمينيا. من هناك، يمكننا الاستمرار شمالًا أو غربًا حتى نصل إلى المدن اليونانية على البحر الأسود. لا أعرف كم تمتد تلك الجبال، لكن لا يمكننا الالتفاف حولها، لا بد من عبورها". توقف لبرهة ليختار كلماته. "يقال إن القبائل في تلك الجبال الوعرة بربرية بشكل لا يوصف وكثيرة العدد. يتحدث رئيس هذه القرية عنهم بكونهم أرواحًا شريرة، ويقول إن حاولنا العبور فلن ننجو".

قال كريسوفوس: "هذا الكلام ليس ملهمًا كما تظن، أيها القائد". وترددت ضحكة مكتومة بين الرجال. "إن هذا الرجل يسعى لبثّ الخوف في نفوسنا، ولكن ليس لدينا أي خيار سوى مواجهة قبائل الكاردوشي هذه في الجبال؟ لقد قمنا بعمل جيد للوصول إلى هذا هنا، ولكن ربما... لا يمكننا التحمل إلى الأبد".

رفع زينوفون يده وهدأ كريسوفوس على الفور، شيء واحد كان الإسبارطي يحسنه؛ هو تلقي الأوامر.

"إن النهر عميق وعريض جدًا. ومع وجود الفرسان الفرس الذين يهددوننا، سنُذبح ونحن نحاول عبوره. لا، أنا أوافق على أن أسرع طريق أمامنا للخروج من بلاد فارس لا يزال هو الاتجاه شمالًا".

نظر إليهم وبدا مبتهجًا بعض الشيء. بالرغم من كل اللحى والعضلات الناتئة، إن بعضهم كان أكبر منه سنًا، لكنهم لم يكونوا قطيعه فقط، بل كانوا إخوته وأخواته، وأبناءه وبناتِه.

"يقال إن الفرس يخافون من رجال قبائل الكاردوشي. هناك فرصة بألا يجرؤوا على ملاحقتنا عبر الممرات الجبلية. سنتمكن أخيرًا من تركهم خلفنا". توقف زينوفون مؤقتًا، مدركًا أن العدو الذي أرعب الفرس قد لا يكون بديلًا مرّحبًا به. "إذا كانت لدى أي شخص فكرة أفضل، فليتكلم الآن. وإلا، سوف أقودكم شمالًا عبر السهل ثم نحو القمم. اجمعوا كل ما تجدونه هنا من بطانيات ومعاطف، سنحتاج إليها كلها". جلس بهدوء فيما كانوا يناقشون الأمر، عالمًا أنهم سيصلون إلى نفس استنتاجه. لم يذكر زينوفون الحكاية التي رواها قائد القرية عن الجيش الفارسي الذي مرّ قبل ثماني سنوات.

قيل إن مئة وعشرين ألف رجل قد ذهبوا إلى أراضي الكاردوشي، ولم يرجع منهم رجل واحد. كان زينوفون يأمل أن رئيس القرية العجوز كان يخبره قصصًا من نسج خياله لتخويف الغزاة الأجانب.

كانت لدى الرجل عين بيضاء واحدة وأسنان بنية طويلة في وجهه مثل قشرة الجوز. إذا كان يقول الحقيقة، أو أي جزء من الحقيقة، فمن المحتمل أن زينوفون كان يرتكب أكبر خطأ في حياته، ومع ذلك فهو لم يرَ أي خيار ممكن سواه.

خارج ساحة القرية، اصطف بقية اليونانيين. بدا عشرون ألف رجل وامرأة وطفل عددًا كبيرًا عندما احتشدوا في المكان، ولكن الصفوف بدت كقزم أمام المسافات التي سيضطرون إلى عبورها. كان زينوفون قد رتب صفوفًا تتكون من أربعين رجلًا من ثلاثة جوانب، مع ثمانمئة إسبارطي في المقدمة، وكانوا يحيطون بنفس العدد تقريبًا، بالرغم من أن أتباع المعسكر بدوا على نحو أكبر مثل الحجاج المرهقين الذاهبين في طريقهم إلى عرافة أو ضريح مقدس طلبًا للشفاء.

على الأقل إن تناول الطعام بشكل جيد لمدة يومين حسّن من مزاجهم وصحتهم. كان كريسوفوس قد أشرف على تجريد القرى وكان دقيقًا وشاملًا. في هذا الشتاء سيتضور أولئك الذين

تركوهم خلفهم جوعًا، لكن زينوفون شعر أن سبب المشكلة هو تيسافيرنيس، لو سُمح لشعبه بالمغادرة بسلام بعد كوناكسا، لكان أقل قسوة على القرى التي مروا بها.

توقف عن التفكير، مدركًا أنه قد وصف العشرين ألفًا بأنهم شعبه. إنهم يتطلعون إليه ليبقيهم على قيد الحياة، وكان يعلم في تلك اللحظة أنه سيموت وهو يحاول. لقد بحث عن هدف في أثينا، ولم يعثر عليه قط.

هزّ رأسه وضحك ضحكة خافتة، متسائلًا عمّا إن كانت ستتاح له الفرصة لوصف الأمر لسقراط.

في الوقت الذي انتهى فيه الضباط من مناقشة الطريق الذي سيسلكونه، كان أولئك الذين في الميدان ينتظرون بفارغ الصبر، وكانت الشمس قد ارتفعت إلى كبد السماء. عندما سُمع صوت الأبواق، وجد جميعهم مواقعهم بحكم العادة، من خلال وجوه مَن حولهم. لقد حمل الأقوياء اللحم الملفوف بالقماش، أو شِباك الدجاج وقُرَب ماء على أكتافهم.

وحمل آخرون حزمًا من المعاطف الشتوية والبطانيات الصوفية، كذلك حملوا معهم كل ما أمكنهم العثور عليه. قاد بعض الصبية الصغار قطيعًا من الماعز جنبًا إلى جنب معهم، مصدرين أصواتًا من حناجرهم وهم يجلدونها بعصي طويلة.

عندما انطلق هيفاستوس وفرقة الاستطلاع، امتطى زينوفون حصانه وسار نحو المقدمة، وبينما كان يتقدم، انسكب الجيش الفارسي من الممرات خلفهم، مثلما ينسكب الزيت من وعاء متصدع. راقب حاقدًا، لكنه لم يتحرك للهجوم. كان اليونانيون آمنين بما يكفي في أثناء سيرهم بين القرى، وكانت المنازل والشوارع تحرم المطاردين من ميزة التفوق العددي. عرف زينوفون أن السهل سيكون قصة مختلفة. قال رئيس القرية إنه كان مسيرًا لعدة أيام، مئة باراسانغ أو أكثر. وكان زينوفون يأمل أن الرجل كان يسعى لتقويض معنوياتهم.

"سنتجه شمالًا" نادى زينوفون على أولئك الذين كان يقودهم، شاعرًا بقلبه وقد أُفعم فخرًا بشعبه وعائلته.

ضغطت الأفواج الفارسية مقتربة تاركة القرى خلفها، ولكن الحقيقة كانت أن جميع من في الميدان اليوناني كانوا يزدادون لياقة مع كل رحلة، فقد تصلب الجلد والعضلات من كثرة الاستخدام، حتى إن أولئك الذين في الوسط بدؤوا يأخذون ملامح أولئك الذين ساروا من حولهم. بالتأكيد لم تكن هناك ليونة لدى اليونانيين، فذلك قد تبخر منهم في الصحاري.

أرسل تيسافيرنيس مجموعات أصغر تركض بمحاذاتهم، مدركين ركبَ الميدان السائر ومرسلين الرماح الشائكة على الجمع. مع ذلك، عندما اقتربوا بدرجة كافية للضرب، كانوا يتعرضون بدورهم إلى التهديد من حجارة المقاليع، التي أطلقها رجال كان أداؤهم يتحسن يومًا بعد يوم.

كان الفرسان الفرس يمثلون تهديدًا أكبر، فقد انطلقوا بسرعة في مجموعات كثيرة العدد، ورموا الرماح في حين كافح الحرس الخلفي لرفع الدروع والاستمرار في الحركة. في اليوم الأول، فقدَ اليونانيون كثيرًا من الرجال، وعندما وصلوا إلى المخيم بلغ ما خسروه من الرجال ستين رجلًا، كان من الصعب عدم تخيل النزيف البطيء نفسه على طول الطريق إلى الجبال، فلم يكن عددهم كافيًا للدفاع عن أنفسهم، وكانت مؤخرتهم معرضة للاختراق. عندما توقفوا بدوا في مزاج سيئ، متعَبين ولاهثين.

كان زينوفون يراقب انسحاب أفواج الفرس، في الوقت الذي لامست فيه الشمس خط الأفول.

لا يزال خائفًا من هجوم ليلي، وهذا ما جعلهم يتركون مسافات كبيرة بين المعسكرات. وفقًا لهيفاستوس، الذي تعقب الفرس سيرًا على الأقدام، فقد انسحبوا لأميال قبل أن يشعروا بالأمان الكافي لإيقاف أحصنتهم.

رأى زينوفون أن تيسافيرنيس رفع يده في نصف تحية قبل أن يدير حصانه مبتعدًا. كان الضوء قد بدأ يتلاشى. شكر الآلهة على الحظ الجيد المتمثل في هذا العدو قليل الحماسة، فلو كان أكثر حماسة لكثّف هجماته لمرتين أو ثلاث، وما كان ليتراجع قبل أن يقضي عليهم.

فكّر زينوفون في الرجال الستين الذين فقدَهم اليوم، وصرف بأسنانه من شدة الغضب. لقد كانت الخسارة كبيرة اليوم، عرف أن بعض الرجال يريدونه أن يتوقف ليقاتلوا، فهم يعرفون أن كبرياء تيسافيرنيس سيجبره على التوقف للقتال إن هم أجبروه على ذلك، مع علمه أن اليونانيين سيبيدون نصف جيشه، قبل أن يفر النصف الآخر.

لقد كان هذا التصور مغريًا بالرغم من أنه لم يكن مضمونًا بالنسبة إلى زينوفون، فهو يعلم أنه إذا خسر ربع الهوبليت فلن يكون العدد الباقي كافيًا لحماية الآخرين، وعندها ستكون خسارته غير قابلة للتعويض. عندما عرض وجهة نظره على قادته، قبلوا بها، على مضض، فهو القائد الذي اختاروه، وعليهم اتباع أوامره حتى يثبت فشله.

كل صباح، ولأكثر من عشرة أيام، كانوا ينطلقون عندما يُظهر تحولُ النجوم أن الفجر قريب. لقد ذبحوا الحيوانات، وأكلوا آخر بقايا الطعام التي نهبوها، لم يكن هناك ما يكفي، وعاد الجوع بسرعة ليُحكِم قبضته عليهم. بعد فترة من الزمن، انتهى الطعام، واضطروا للنهوض، والتحرك من جديد من دون أن يُدخلوا إلى أجسادهم سوى الماء البارد.

لقد تركوا وراءهم أكوامًا من البراز، أتاحت للفرس تعقّبهم، وكان ذلك عزاءَهم الوحيد، لأنهم تركوا لهم شيئًا أسود ونتنًا.

أصبحت الأوساخ متأصلة في ذلك المسير، إذا ما أفرغوا مثاناتهم بسلام في الصباح، كان عليهم أن يفعلوا ذلك أيضًا في أثناء سيرهم خلال بقية اليوم. لقد عانت النساء أكثر، ولكن لم يكن

هناك مكان للاحتشام. في البدء، كان الرجال يبتعدون عنهن مما منحهن بعضًا من الخصوصية، ولكن بعد فترة أصبح إفراغ المثانة أمرًا شائعًا لدرجة أنه لم يعد أحد يلحظه.

مع اقترابهم من الجبال، أصبحت الليالي أشد برودة، ولدهشتهم، سقط الثلج ذات ليلة، وعندما استيقظوا وجدوا أنفسهم خدرين ومرتجفين لأن طبقة من الثلج كانت تغطيهم. كان بعضهم يُضرب بسبب كلمة سيئة أو حتى من دون سبب على الإطلاق. لقد جلب الجوع غضبًا مستمرًا إلى المخيم.

شعروا بتشنجات في عضلاتهم كل صباح، وعانوا من كل انطلاقة جديدة لهم. وحدهم الإسبارطيون استمروا في الحركة كما لو أنه يمكنهم فعلُ ذلك إلى الأبد. لقد نمَت لحاهم طويلًا، وتعلقت ضفائر شعورهم أسفل ظهورهم فوق العباءة، ومع ذلك ابتسموا وغسلوا أفواههم برشفة من الماء، مبتسمين بشفاه متشققة.

كل يوم، كان الفرس يلوحون خلفهم في البعيد، ويضغطون بشدة للتعويض عن أية مسافة خسروها. لقد شكّل لهم الصباح فرصة للاقتراب مسافة كافية من العدو لإطلاق السهام ورمي الرماح. انتظر اليونانيون تلك اللحظة وكان الأمر يبعث على الارتياح.

ثم استقروا في المسير عبر السهل، حيث كانت الجبال تزداد ارتفاعًا أمامهم شيئًا فشيئًا ويزداد خلفهم عدد الرجال الذين يموتون. لقد كانوا يلقون القرعة في المساء لاختيار من سيكون له شرف مهمة حراسة مؤخرة الرتل، لكن أولئك الذين كانوا ينجون من تلك المهمة، كان يعودون متعَبين وعاجزين عن الكلام من التعب والخوف والغضب.

في اليوم الثامن عشر، كانوا يسيرون مثل الأشباح في البرية. خرج الصيادون بالمقاليع والرماح، لكن كان لدى معظمهم الماء فقط لإبقائهم على قيد الحياة. كانت عيونهم حمراء من التحديق إلى البعيد، وذلك بعد أن عانوا منذ فترة طويلة، مع الجبال التي بدت لهم وكأنها تطفو في الأفق.

مع ذلك، في هذا الصباح، كانت أقرب بشكل ملحوظ، رغم أنها لم تكن أكثر ترحيبًا مما بدت عليه من قبل. كانت الصخور حادة جدًا، ترتفع من الأرض مثل الخناجر، واستقرت عباءة من الثلج على أعلى القمم التي بدا لهم أن لا نهاية لها.

دعا تيسافيرنيس إلى الهجوم عندما كانوا على السفح، وكانت وجهتهم واضحة. في الصفوف الأمامية، تمكن زينوفون من رؤية الوادي الأول، حيث اكتشف هيفاستوس ممرًا عند أبعد حد تجرأ إلى الوصول إليه. بدا أن الفرس لن يسمحوا لهم بأن يغيبوا عن أنظارهم من دون إراقة مزيد من الدماء. لقد كانت الأفواج التي تقف خلفهم تعبة ومخلخلة أيضًا، مما جعلهم يضطرون للسير أربعمئة ميل خلف عدو لم يتمكنوا من إخضاعه.

عندما تشكل الفرس في خط عريض، كان ضباطهم قريبين بما فيه الكفاية حتى أمكن سماع تحريضهم. أومأ زينوفون إلى كريسوفوس، وجاء الإسبارطيون عبر الميدان لتكوين قوة صدّ خلفية.

لقد فقدوا بعض العضلات المفتولة التي كانوا يتمتعون بها من قبل، وكانت لحاهم شعثاء، وبدوا مثل البرابرة، ولكنهم مع ذلك لا يزالون أفضل تدريبًا من أفضل الأفواج الفارسية، كانت ثقتهم ظاهرة، بالرغم من أن النسيم البارد كان يهب من الجبال جاعلًا أسنانهم تصطك من البرد، التفت العباءات الحمراء فيما هجم الفرس، ومع وجود الجبال في ظهورهم، كان أتباع المعسكر قد دخلوا إلى الممر، ولم يتركوا مقاتلي الهوبليت. كانت أسنانهم البيضاء تلمع وقد سحبوا سيوفهم ورفعوا الرماح.

في ذلك اليوم، لم يحمل كريسوفوس أي درع بل حمل بيسراه سيفًا قصيرًا، لم يكن نصله أطول من ذراعه. وحمل بيمناه سيف كوبيس أقصر. زان كلًا منهما، وابتسم ابتسامة عريضة باستخفاف بالعدو المتقدم.

زمجر: "ليتقدم الإسبارطيون، تقدموا جميعًا، هذه هي الفرصة الوحيدة التي ستحصلون عليها، يا أولاد الزنى. فرصة مجيدة أخيرة للعب، قبل أن ننسحب من هذه الإمبراطورية إلى الأبد. اختاروا الآن ما ستقصّونه لأولادكم" ما إن رأى الفرسُ الإسبارطيين من ذوي العباءات الحمر حتى أخذوا يتعثرون، أمرهم ضباطهم بالاستمرار، وكان بعض الضباط يستخدمون العصي القصيرة لضربهم ودفعِهم بها إلى الأمام عندما يترددون.

رأوا أمامهم أقراصًا برونزية لامعة، إضافة إلى خوذات مشرقة ودروع للساقين من المعدن نفسه. بدا الإسبارطيون وكأنهم رجال صُنعوا من اللونين الأحمر والبرونز، وللمرة الأولى منذ فترة طويلة، لم يتراجعوا بل كانوا يتقدمون بسرعة كبيرة.

التحمت القوتان، واصطدم الإسبارطيون بالعدو الذي قام بلسعهم، وبالرغم من الألم والإرهاق، كانوا مثل الأولاد الذين تمكنوا في النهاية من الدوس على خلية الدبابير. وبغبطة، تحملوا الجروح ليطعنوا ويخترقوا، باستخدام الرمح، ثم الدرع والسيف، وأخيرًا الكوبيس، التي بترت الأصابع وسلبت الحياة في ضربات سريعة قاطعة.

تراجع الفرس، لكن تيسافيرنيس رأى الفرصة سانحة، وأرسل أفواجًا لتتسلل حول جناحي الإسبارطيين، مصطدمة بالرجال الأكثر ضعفًا، كان بعضهم بالكاد قادرًا على الوقوف. صرخوا في تحذير، ووصل الصوت إلى كريسوفوس الذي كان يقاتل في الجبهة. فشتم، واجتهد ليرى. كان يراهن على الإسبارطيين ضد قوة عددها عشرة أضعاف عددهم، ولكن تيسافيرنيس كان قد جلب ثمانين أو تسعين ألفًا عبر الإمبراطورية في أعقابهم. لم يكن من الممكن لليونانيين أن يفوزوا. لكن يمكنهم أن يتركوا الفرس في دمائهم.

"انسحبوا الآن، أيها الإسبارطيون، بانتظام. حافظوا على الأجنحة وانسحبوا. احملوا قتلانا. فكروا كم من عائلاتهم سوف تبكي وتنوح عندما تفكر فينا". وابتسم ابتسامة عريضة على الضحكات الصادرة من الرجال من حوله وهم يبدؤون الانسحاب ويرفعون دروعهم مرة أخرى لتلقّي الرماح حتى أصبحت مثل الفراشي، بحيث لا يمكن أن يلتقطها الفرسان، بالرغم من أن الفرس الغاضبين كانوا يصيحون بالشتائم عليهم ويتوعدون بالانتقام.

خشي تيسافيرنيس من أن ينجرف رجاله بعيدًا في الجبال. كان قد سمع عن القبائل التي تسكن تلك القمم. أخذت إمبراطورية فارس ممالك بأكملها تحت جناحها، من بابل إلى ميديا. ومع ذلك بقي سكان هذه الصخور بعيدين وغير مروضين. راقب انسحاب اليونانيين والجثث الممددة التي خلّفوها وراءهم، مثل الخرق أو قصاصات من اللحم على الأرض. بدا أن الميدان المتراجع يتقيؤهم وهم يدخلون إلى الجبال.

برد فعل، رفع يده مودعًا إياهم. التفت ضابط يوناني على حصان لمشاهدته، لم يكن تيسافيرنيس يعرف الضابط. رفع الغريب يده في الإجابة، ثم غاب بين الصخور. هز تيسافيرنيس رأسه. كان يعتقد أنهم سوف يستسلمون عندما يُقتل القادة في الوليمة. لقد وعد الملك أرتحششتا بأنهم سيكونون عاجزين من دون قادة. بدلًا من ذلك، اختاروا قادة آخرين ونجوا، بطريقة ما. لقد كانوا شعبًا غريبًا. تساءل عما سوف تفعله بهم قبائل الكاردوشي.

التفت إلى الثاني في القيادة، ميثريدتس. وقال له: "هل ترغب في الذهاب معهم؟".

هزّ اليوناني رأسه.

"لا، حتى وإن جعلوني ملكًا عليهم. لن نراهم مرة أخرى. هذا هو رأيي. عندما أعود إلى الملك، سأبلغه عن هلاكهم".

"هل هذا وصف دقيق؟ أتعتقد ذلك؟" أحنى اليوناني رأسه.

"إنه كذلك، يا سيدي تيسافيرنيس، إنهم لا يعرفون ذلك، ولكنهم جميعًا في عداد الأموات. لقد دفعتهم إلى كاردوشي، لقد نجحت. مبارك يا سيدي".

ابتسم تيسافيرنيس ووضع جانبًا السيف الصغير الذي كان يحمله في يده. لقد وصل آخر اليونانيين إلى الممر واختفوا، وكأنهم لم يكونوا موجودين. ستبتلعهم القمم جميعًا.

فكّر فجأة في سعة حيلة اليونانيين. لقد ظن أكثر من مرة أن لا حول لهم ولا قوة، لكنهم نجوا.

سأله: "أما زال لدينا حمام؟".

هز ميثريدتس رأسه. "بالطبع يا سيدي".

الفصل الثامن والعشرون



ازداد البرد مع كل خطوة على عكس الممر الذي كان يضيق كلما تقدموا أكثر إلى الأعلى. سارت خطوط الهوبليت جنبًا إلى جنب ودروعهم جاهزة، مستخدمين الرماح بمثابة عصي، وهو يصعدون على الصخور المتشققة، ارتفعت المنحدرات العالية فوقهم، وحال الضباب دون رؤية القمم. ترك زينوفون هيفاستوس في الخلف ليراقب أية هجمات قد يشنها تيسافيرنيس، ولكن كان هناك شيء نهائي بشأن الطريقة التي رفع بها الفارسي يده قبل أن يختفي عن الأنظار.

لم يمضِ وقت طويل قبل أن تصبح السهول أثرًا بعد عين، ساعدوا بعضهم في السير على الصخور، وكانوا يرتجفون من شدة البرد الذي نخر عظامهم. بسرعة أدرك زينوفون أنه لن يستطيع الوصول إلى جبال كاردوشي على صهوة حصانه فترجّل.

لقد خدمه الحيوان جيدًا، ولم يكن من السهل عليه قتله، لكن حاجتهم إلى اللحوم كانت ماسة، أمسك بلجام حصانه وسلمه لأحد الكورنثيين الذي يعلم أنه عمل جزارًا قبل أن يلتحق بالجيش. نظر بعيدًا عندما ضرب الرجل بمطرقته بقوة فخرّ الحصان على الأرض، مظهرًا لسانه.

تجمّع الرجال والنساء كما لو أن وضعَ أيديهم عليه يتيح لهم الحق بالمطالبة بحصة من لحمه.

صاح زينوفون: "فليتراجع الجميع، الجوع يجعلكم حمقى، سنتوقف هنا ونأكل". نظر حوله، ولكن كان هناك القليل من الحطب في ذلك المكان. بضع شجيرات منبثقة من شقوق الصخور، لم تكن كافية لشوي اللحوم للجموع الجائعة. هز رأسه. "سنحمل اللحم حتى يتوفر لدينا حطب ومكان لندافع عنه. يبدو أن هذا الوعد أرضاهم، بالرغم من أنهم راقبوا كالذئاب في أثناء تقطيع الجزار لشرائح وقطع كبيرة من أضلاع الحيوان.

استمروا في التقدم حتى وصلوا إلى مفترق طرق، لا بد أن أحد الجانبين كان طريقًا للماعز لضيقه، بدا أعرض قليلًا من خط أبيض يختفي حول الانحناء.

أما الآخر فكان عبارة عن صخور متساقطة أكثر من كونه ممرًا. كانت الحجارة الرمادية ملطخة بالطحالب، وبدا أن أحدًا لم يتحرك عليها منذ ألف عام. تقدم زينوفون بالرغم من أن قدرته على تخمين الطريق الصحيح لم تكن تفوق قدرة الطفل الذي سار إلى جانبه منذ فترة. وبما أنهم ينتظرون قراره، قرر سلوك درب الصخور المتساقطة، وما إن حدد المسار، حتى نظر إليه الطفل بعينيه اللتين أخذتا تتسعان.

"ما اسمك يا بني؟".

"آرديوس، يا سيدي".

سأله زينوفون: "هل أنت موافق، يا آرديوس؟".

أومأ الطفل برأسه، مما جعل زينوفون يبتسم ويعبث بشعر الطفل. بعد فترة من الزمن، تعقبته والدته ورفعته على وركها.

"أنا آسفة، أيها القائد. لقد فقدت أثره في المعركة، وهو لا يكف عن البحث عنك بين الرجال، إنه يبتعد دائمًا ويسحب أكمام الرجال ويسألهم إن رأوك، أتمنى ألا يكون قد أزعجك".

"أبدًا، لم يزعجني وقد وافقني الرأي بشأن الطريق التي يجب علينا سلوكها، أليس هذا صحيحًا يا آرديوس؟ إنه طفل جيد". رمشت المرأة متفاجئة لسماعها ذلك.

بعد ذلك مشوا لساعة، وبذلوا مجهودًا، لم يكن مجهودًا طبيعيًا.

تسلق الرجال والنساء، وتشبثوا ببعضهم بعضًا، وهناك آخرون قفزوا من صخرة إلى أخرى مثل الماعز، وتوخوا الحذر طوال الوقت خشية أن يتعرضوا لهجوم، ولكن حقيقة الأمر أنه لم يكن باستطاعة أحد أن يحمل رمحًا ويكون جاهزًا لرميه وهو يتسلق لتتعثر قدماه المرتعشتان فوق الصخور المرتجة.

بينما كان زينوفون يتقدم لمح هيفاستوس يقترب منه، ومن ملامح وجهه تبين له مدى صعوبة تخليه عن أحصنته.

قال هيفاستوس عندما كان قريبًا بما فيه الكفاية: "لقد أعطيت الأمر بقتل الأحصنة؟".

بدا الأمر وكأنه تحدٍ واستجاب زينوفون بسرعة: "نعم. لأنها لا تستطيع التسلق".

كان هيفاستوس بعيدًا عن شوارع المدينة وواقعها. لقد رأى ما يكفي ليعرف أن زينوفون اتخذ الخيار الوحيد الممكن.

قال بمرارة: "إن الإسبارطيين يذبحونها كالأغنام، إن أولئك الرجال لا يملكون أرواحًا، ليست لديهم أية مشاعر".

أجاب زينوفون: "ليس الأمر كذلك".

"كيف عرفت طريقك؟"

"لقد اخترت الطريق الذي يقود إلى الأعلى. سيتعين علينا الصعود عاليًا لتجاوز هذه الجبال، يا هيفاستوس. إذا كان هناك ممر، فسيكون بالقرب من القمم، عند أعلى ارتفاع يمكننا الوصول إليه".

توقف هيفاستوس، لاهثًا، ليحدق أسفل المنحدر.

في كل مرة قاموا فيها بذلك، كان يُدهشهم المدى الذي قطعوه، لقد تعلموا بسرعة أن يرتاحوا مرات عديدة، ولكن لفترة قصيرة من الزمن في كل مرة. وبهذه الطريقة، كان تقدمهم أسرع من تقدمهم المتواصل وإرهاق أنفسهم حد الانهيار.

كان الطريق خلفه مكتظًا بالأشخاص الذين يجتهدون في السير على الصخور المحطمة. لقد كانوا تعبين، لكنهم لم يقتربوا بعد من الاستسلام. نظر زينوفون إليهم بكل فخر ورأى هيفاستوس التعبير.

قال: "لن يشكروك، كما تعلم، إنني أرى الطريقة التي تنظر بها إليهم، كما لو كنت والدهم. أعتقد أنهم سيكسرون قلبك في النهاية".

تفاجأ أن يسمع ذلك من الرجل الذي كان ذات مرة يسرق رواد المسرح.

التفت زينوفون إلى الخلف ليلقي نظرة أفضل على الأثيني، محدقًا إلى وجهه.

"يجب أن تراعي مشاعر الآخرين يا هيفاستوس. في الحقيقة، سنكون محظوظين إن رأينا الوطن مرة أخرى. إذا نجونا، فأنا أشك في أن أي واحد منا سيبقى على حاله، وبما أن لا آمال تعلقها على شعبك، سترى كيف سيفاجئونك، أنا متأكد من ذلك. كما فاجأتني".

لقد رأى هيفاستوس يتورد سعادة، وتابعا المسير.

في الضباب فوقهم، وعلى ارتفاع شاهق، سُمعت صيحات غريبة، بدت شبيهة بصيحات النوارس أو القِردة أكثر من صيحات تصدر عن حناجر الرجال، وتردد صداها عبر الصخور حتى ملأت الهواء، تجمد كل شخص من اليونانيين. وقف الآلاف منهم يحدقون مثل الأطفال إلى المجهول القابع في الأعلى. تبادل هيفاستوس وزينوفون النظرات.

قال زينوفون بهدوء: "إنهم يعلمون أننا هنا".

كان الطريق الأول يقود إلى وادٍ محمي، حيث كان هناك نحو ثلاثين منزلًا مهجورًا، ولكن كان هناك طعام، والأفضل من ذلك، كان هناك نبيذ في أحواض طينية وُضعت في الأرض.

استمرت الصيحات في الظلام، وحالت دون إفراط كثير من الرجال بشرب النبيذ حتى لا يصبحوا عديمي الفائدة. كل ما أرادوه هو اجتياز تلك الجبال، والعودة إلى السهول بأسرع ما يمكن. عندما حل الظلام، أشعلوا المشاعل وتنقلوا في القرية، لكنهم سرعان ما وجدوا أن ضوء المشاعل جذب السهام وحجارة المقاليع من مكان ما أعلاهم، من دون سابق إنذار.

لقد كان الكاردوشي ماهرين جدًا في ذلك، فقد قُتل ثلاثة رجال قبل أن ينتبه اليونانيون أنه يجب عليهم أن لا يحملوا المشاعل كي لا يجعلوا أنفسهم أهدافًا. بقي أولئك الذين في الخارج مستيقظين، وقُتل آخران من الهوبليت قبل أن تشرق الشمس، والأسوأ من ذلك هو النيران التي أُشعلت في البعيد، وعلى ارتفاع كبير، فقد بدت مثل النجوم الصفراء. لم يكن هناك شك لدى زينوفون في أنها كانت لاستدعاء قبائل الكاردوشي وعائلاتهم.

لم يستطع التغلب على الخوف الذي سكن في داخله مثل الجوع أو البرد. في أحد المنازل، أوقف دفء النار من ارتجافه. لقد أكل طعامًا أكثر مما أكل منذ بدء رحلتهم وتلألأت الدموع في عينيه لمرأى الخبز الطازج والزبدة المالحة. كانت وجبة صغيرة فاخرة، ولكن عندما أضاف كأسًا من النبيذ الأحمر تبين أنه جديد الصنع وحامض المذاق.

في الصباح، سار زينوفون إلى نهاية الوادي مع عدد قليل من الرجال. انفتحت الجبال، وكانت باستطاعتهم رؤية أشخاص صغار يتحركون أعلى المنحدرات، رغم أنه كان من الصعب معرفة ما إذا كانوا قادمين للهجوم أم ينتظرون في كمين. صفع زينوفون بيده على قاعدة مستدقة صخرية ترتفع نحو الضباب، متسائلًا عما إن كان أحد يجلس أعلاها في تلك اللحظة، وقلبه مليء بالغضب على الغزاة. عادت أصوات الصفير مجددًا، في جميع أنحاء الوادي، بالرغم من أنه كان من الصعب معرفة بُعدها بسبب الصدى.

قال زينوفون: "يجب أسر أدلّاء بمجرد مواجهتهم. هناك كثير من الطرق المسدودة في هذه الجبال، يمكن أن نسير فيها على غير هدى لمدة عام".

قال كريسوفوس: "جيد جدًا، هل ستتولى أمر الطليعة أم المؤخرة؟ أعتقد أن الإسبارطيين هم الذين يجب أن يقودوا في هذا النوع من التضاريس. إنها لا تختلف عن جبال الوطن".

رمش زينوفون عندما قال كريسوفوس: "أنا أحن إلى ملاعب شبابي". غير متأكد مما إذا كان الرجل يمزح أم لا. ولكنه كان يثق به.

"سأتولى أمر المؤخرة، سأُبقي رجال الاستطلاع يتحركون بيننا، سيلهثون اليوم، بعد أن أمضوا فترة طويلة على صهوات الأحصنة، لا تتوغل كثيرًا حتى لا نفقد أثرك".

أحنى كريسوفوس رأسه مجيبًا، غير منزعج من تلقي مثل هذه النصيحة من رجل أقل خبرة. لقد أصبح معجبًا بالأثيني وعرف أن زينوفون كان قائدًا من النوع الذي يحاول إبقاء الجنود

أحياء. كان كريسوفوس يُعجب بهذه النوعية من الرجال أكثر بكثير من أولئك الذين يتسرعون في كل تحدٍّ دون لحظة من التفكير.

قال زينوفون وهو يمرر يده على الصخرة: "أعتقد أن هذه النقطة الضيقة ستخدم غرضًا آخر هذا الصباح. يمكن أن يمر اثنان أو ثلاثة من هنا دفعة واحدة. أعتقد أنه يجب أن نتحقق من الرجال بحثًا عن أية غنائم يحملونها معهم، يا كريسوفوس، يجب أن نكون سريعين وخفيفي الحركة".

ابتسم الإسبارطي ابتسامة عريضة على الفكرة، وشرع في استدعاء أتباع المعسكر للمرور من خلال مساحة ضيقة واحدة، وقد راقبهم زينوفون، لم يمضِ وقت طويل قبل أن تمر أول دفعة أمام القائد، وبعد لحظات فقط صودرت منهم أولى الغنائم التي شكلت كومة على جانب المسار.

لقد كان ذلك مذهلًا، لم يكن زينوفون يدرك تمامًا عدد الأشياء التي جمعها الجنود وأتباع المعسكر في أثناء سفرهم. إضافة إلى السروج غير العملية والأسلحة الغريبة التي كانت أقدم من أن تكون ذات فائدة. كانت معهم أكياس من الملح والأعشاب، ولفائف من القماش، وجلود مدبوغة. لقد حمل أحد الرجال بابًا، بالرغم من أنه ادعى أنه يمكن استخدامه كدرع، فسمح له زينوفون بالاحتفاظ به. بطريقة ما، تعلق اليونانيون بآلاف الأشياء الثقيلة، بما في ذلك الأدوات وسروج لأحصنة لم تعد لديهم. كان زينوفون عديم الرحمة مع هؤلاء، متجاهلًا الشكاوى والحججَ المضادة.

بدؤوا يشبهون سوقًا في أثينا أكثر من مجرد جيش هزيل يكافح لعبور الجبال. بالرغم من أنه تسبب بكمّ كبير من المشاعر السيئة، إلا أن الكومة استمرت تتسع وترتفع حتى أنها شكّلت اكتشافًا مذهلًا للكاردوشي الذين سيجدونها. لقد فكّر زينوفون في إحراقها، لكنه اعتقد أنها ستكون أكثر فائدة إذا قُدمت قربانًا للآلهة.

لقد سمح أيضًا للجنود بالاحتفاظ بالعبيد الذين تمكنوا بطريقة ما من جمعهم خلال المسير. اتخذ العديد من الرجال عشيقات، ولم يكن من السهل عليهم التخلي عنهن لقبائل الجبال، وبالرغم من ذلك تبين لزينوفون أن لديهم من العبيد أكثر بكثير مما اعتقد، وبناء عليه لم يكن مستغربًا أن يعانوا من نقص الطعام، يبدو أنهم أطعموا نصف بلاد فارس، لقد كان يشتعل غضبًا في الوقت الذي مر فيه آخرهم.

كان هيفاستوس أحد حراس مؤخرة الرّكب، ومشى إلى جانب بالاكيس، ليعلن بطريقة غير مباشرة أنها ملك له. لاحظ زينوفون أنها تنظر إليه فشعر بالسوء، كان يأمل أنها ترغب فيه، لكنها حاولت أن تثبت له عمق علاقتها الحميمية مع هيفاستوس من خلال ملامستها لرقبته، فما كان من زينوفون إلا أن صرف بأسنانه، لم يخطر بباله أن لمسها لرقبته، كانت إشارة إليه.

بحلول الوقت الذي عبر فيه اليونانيون من خلال الممر الضيق، وأصبحوا على منحدر واسع، كانوا حقًا أخف وحركتهم أسهل، نظر عدد قليل منهم إلى الخلف بحنين إلى أشيائهم الثمينة التي خلّفوها وراءهم.

طوال الطريق، رفع الهوبليت الدروع وجهّزوا الرماح، وضغطوا خوذهم فوق رؤوسهم.

فجأة توقف الصياح فوقهم، فنظروا جميعًا باتجاه الضباب، بما أنهم اعتادوا على هذه الصيحات، فقد أثار غيابها الخوف في نفوسهم، عندها شعروا في هذا الصمت بأن التلال بحد ذاتها تحدق إليهم، فارتعدت فرائص زينوفون.

فورًا، تعرضت المقدمة حيث كريسوفوس للهجوم، إذ انهمرت الحجارة على رجاله في حين تسلل الكاردوشي على طول ممرات ضيقة فوق رؤوسهم، وانهمرت رشقات الأسهم عليهم، لقد كان رجال القبائل رماة ماهرين. استجاب كريسوفوس بذكاء، مرسلًا أصغر الإسبارطيين وأكثرهم لياقة إلى التلال المحيطة، فكلما واجهوا طريقًا صاعدًا، كان مئة رجل ينفصلون وينطلقون عبره بأقصى سرعة. لقد اكتشفوا أن التكتيك الأساسي للكاردوشي كان الهرب من الهجوم، والانتشار بخفة على الصخور مثل الماعز الجبلي، تاركين اليونانيين يلهثون ويحدقون إلى الأسفل من مرتفعات شاهقة.

أصبحت لعبة وحشية، وكانت للكاردوشي اليد الطولى فيها. كانت مجموعات من ستة أو اثني عشر منهم تظهر وتطلق السهام ضد الدروع، وإن حالفهم الحظ فسيحدثون جرحًا أو يقتلون رجلًا. عندما شاهدوا الإسبارطيين يطاردونهم هربوا صائحين وقافزين قبل أن تتمكن فرق كريستوفوس من تشكيل تهديد لهم.

كان ذلك مثيرًا للغضب، ولكن الخسائر الفعلية كانت قليلة، طالما أن اليونانيين حافظوا على التكوين، واستخدموا الدروع. كان وجودهم في صف مفيدًا لأن درعًا واحدًا يمكن أن يحمي اثنين أو ثلاثة من أولئك الذين يسيرون على طول الطريق، متداخلين لإحباط العدو. من دون هذه الدروع والانضباط بحملها بثبات، كانت ستحل بهم مذبحة.

في المؤخرة، رأى زينوفون قوة أكبر عندما كان يعبر أمام فتحة تطل على وادٍ إلى الجانب. ربما كانوا مئة من الكاردوشي يتمايلون ويهددون، كانت وجوههم ملطخة بالسخام أو الدم، لقد كانوا قريبين بشكل مقلق ومستعدين للركض والهجوم، لكن مهمته كانت دعم كريسوفوس ولم يتمكن من الانفصال.

أمر زينوفون بضغط الدروع معًا في خط غير منقطع على ذلك الجانب، فتهشمت الحجارة والسهام عليهم. كان فيليسيوس هناك لتحمل العبء الأكبر، مع الثيساليين والستيمفاليين أمامه في الرتل. كانوا جنودًا أقوياء وذوي خبرة ولم يتعثروا. حافظ زينوفون على وتيرة التقدم عندما تغير الإيقاع في الأمام.

من دون سابق إنذار، انفصل كريسوفوس وكامل مقدمة الرتل عن أتباع المعسكر وركضوا، مهاجمين تهديدًا غير مرئي. بقي زينوفون يقود المؤخرة غير عالم بما يحصل في المقدمة أو أين يجب أن يكون. شتم، واستدعى فيليسيوس إليه.

بدا الثيسالي شاحبًا ولكنه عازم. وحيّى بذراع واحدة على صدره.

"نحن بحاجة إلى أسرٍ بعض من هؤلاء"، صرخ زينوفون فوق ضجيج المسير، وتهشمِ الحجارة والأسهم التي كانت تنهمر من يساره. ما إن فتح فيليسيوس فمه للرد، حتى تلقى أحد الهوبليت في الصف الأخير سهمًا في رأسه عندما كان ينظر من فوق درعه. لقد سقط من دون أن يصرخ فحدق إليه كل من زينوفون وفيليسيوس مخلفين جثته وراءهما

قال زينوفون: "لا يمكننا التوقف هنا، أحضر لي دليلًا، يا فيليسيوس، هؤلاء الناس أدرى بشعاب المنطقة، ما لم يكن لدينا دليل، فإننا سنسير في حلقة مفرغة، انصب لهم كمينًا، أغرهم بالنساء أو برجل جريح". ضحك فيليسيوس وهو يستعد لإحضار امرأتين شابتين مترددتين إلى المقدمة. ورافق إحداهما محارب من الهوبليت كان عشيقها، متذمرًا بصوت عال حتى رأى أن زينوفون كان هو الذي قد أمر بذلك. ومع ذلك، راقب الجندي الشاب بعيني العاشق إجبار المرأتين على الركض خارج خط الدروع، كما لو أنهما تهربان.

فورًا توقفت قرقعة السهام. إن النساء اللواتي لا يزلن في سن الإخصاب لا يمكن تجاهلهن، بسرعة ركض ثمانية من الكاردوشي إلى الأمام بأذرع ممدودة للقبض على المرأتين الصارختين قبل أن تتم استعادتهما مجددًا، فطوقهم اليونانيون الذين خرجوا من الرتل.

قُبض على الكاردوشي الثمانية الذين تقدموا وسُحبوا إلى الرتل اليوناني، قُتل أربعة منهم كانوا يصارعون، وأُلقيت جثثهم خلف الرتل. أما الأربعة الباقون فقُيدوا واقتيدوا إلى وسط الرتل حيث لا يمكن إنقاذهم أو قتلهم. عادت الأسهم والحجارة لتنهمر مجددًا، ولكن الرتل تابع السير.

في المقدمة، زاد أتباع المعسكر من وتيرة تقدمهم، محاولين الانضمام مرة أخرى إلى القوة التي كانت بقيادة كريسوفوس وقد اختفت أمامهم باندفاع سريع.

بحدة خاطب زينوفون فيليسيوس: "اطلب إلى شخص يعرف الفارسية أن يتحدث إلى هؤلاء الكاردوشي، كلما أسرعنا في معرفة مكاننا، كان ذلك أفضل. لقد رأى أتباع المعسكر وهم يتقدمون بتثاقل مع تقدم الطريق. أصبحوا واهنين بشكل مثير للشفقة، ولم يشك أبدًا بأن الكاردوشي كانوا يزحفون من جميع الجوانب. من دون أي شخص يحثهم على الحركة، كان اليونانيون سيتوقفون من تلقاء أنفسهم، مرتعبين. لم يستطع زينوفون إلا أن يشتم كريسوفوس الذي قرر مطاردة الأشباح والتخلي عنهم. أخذ قرارًا، بالرغم من أنه شعر أن قلبه سيقفز من صدره.

"تابعوا التقدم، ضاعفوا السرعة، أحيطوا أتباع المخيم قدر الإمكان، نحن في تضاريس معادية، ارفعوا الدروع، وجهّزوا الرماح لصدّ الهجوم. لا يتوقف أحد قبل أن نبلغ طليعتنا".

استطاع أن يرى في الأعلى صفوفًا رفيعة من الرماة عند حواف الجروف التي بالكاد استطاعت أن تحتويهم، وعندما انهمرت الحجارة والأسهم اندفع الجميع للإسراع في التقدم في الوقت الذي وفرت لهم الدروع الحماية، لقد تقدموا متسلقين الحجارة، وعابرين من خلال ممرات ضيقة، وكانوا يسمعون صرخات الألم كلما سقطت أسهم الكاردوشي على لحم اليونانيين بدل دروعهم البرونزية.

أجبرهم زينوفون على السير لمسافة ميل، بالرغم من أن الجميع بالكاد كانوا قادرين على التنفس من شدة اللهاث، فالهواء كان خفيفًا لا يمكن تنفسه، كلما تقدموا، كانوا يتسلقون، ولكنهم مع ذلك لم يبلغوا الارتفاع الذي يقيهم المقذوفات التي تنهمر عليهم.

قبل ذلك، رأوا أمامهم مؤخرة الخمسة آلاف الذين كانوا مع كريسوفوس، كانوا متحدين مثل الخنفساء أو السلحفاة، محتمين بالدروع. شعر زينوفون بأنه أوشك على أن يفقد أعصابه، لكنه سيطر عليها مثل إسبارطي، مذكرًا نفسه بأن كريسوفوس ما كان ليتركه من دون حماية إلا لسبب وجيه.

جاء الرجل لمقابلته عندما انضم النصف الخلفي من اليونانيين مرة أخرى إلى المقدمة. لقد شعروا براحة لا توصف عندما التقى النصفان. فمع أنهما كانا منفصلين، لكنهما كانا يعلمان أنهما قد واجها الدمار.

ركع كريسوفوس على إحدى ركبتيه معتذرًا، وهي لفتة جيدة.

سأله زينوفون: "أين كنت؟" آملًا أنه لم يسئ الحكم على الرجل، أو أنه قد منحه الكثير من السلطة.

"آسف لم يكن لديّ وقت لأخبرك، انظر هناك وسترى ما جعلني أركض". وأشار إلى نقطة ما، إنها النقطة التي بدأ منها كريسوفوس هجومه، رأى الممر الضيق بين التلال، والحشد القبائلي الذي كان ينتظرهم هناك.

لا يزال كريسوفوس راكعًا على إحدى ركبتيه

"رأيتهم ينزلون عبر السفوح، وأدركت أنهم يسعون لبلوغ تلك النقطة قبلنا، لم أعرف أهميتها، لذا، خرجت عن الرتل لأسبقهم، أكرر أسفي أيها القائد".

"انهض، يا كريسوفوس، للحظة ظننت أنك فقدت صوابك، هل قبضت على مرشدين؟ لدي أربعة، لذلك يمكنني مقايضة اثنين منهم. ربما هناك طريق حول هذا الممر، فأنا لا أرغب في العبور من خلال حشد القبائل".

عندما وقف كريسوفوس مد يده، فأمسك زينوفون بها، فلم يكن هناك ما يمكن قوله

قال كريسوفوس: "سوف أستجوب بعضهم بنفسي، أرجح أن هناك ممرًا ضيقًا بين التلال للماعز والرعاة. هكذا تغلب علينا الفرس في ثيرموبيلاي، وسأكون في غاية السرور إن أتيح لي إيجاد هذا الممر".

خاطب زينوفون الضابط فيليسيوس الذي كان قريبًا منه: "أحضر لي أولئك الكاردوشي الملاعين إضافة إلى شخص يجيد التحدث بالفارسية".

كان يأمل أن يفهم رجال القبائل اللغة الملكية، وإلا سيكون أسرُهم عديم الجدوى.

وجد فيليسيوس يونانيًا يعرف ما يكفي من الفارسية ليطرح أسئلة بسيطة، للتشديد على أن الأمر ملحّ، طلب فيليسيوس إلى بعض الثيساليين ضرب اثنين من الكاردوشي باستمرار حتى فقدا وعيهما، قبل أن يلتفت إلى الاثنين الباقيين، ويسأل عما إذا كان هناك طريق آخر.

كان أحد الرجلين في الأربعين من العمر، ذابلًا وشاحبًا، بدا أنه لم تسبق له رؤية الشمس. أقسم إن الممر كان السبيل الوحيد عبر هذا الجزء من الجبال. لقد أقسم بزرادشت وأهورا مازدا إنه لم يقل إلا بالحقيقة. رأى زينوفون عيني الرجل الآخر تتجهان إليه، وكانتا متسعتين من القسَم الرهيب الذي سمعه.

قال زينوفون: "أبعِد الأكبر سنًا بينهما، وأطلق سراحه سالمًا مع الآخرين، فليست لدينا حاجة إليهم". وابتسم للرجل الآخر، الذي كان يراقبه بحذر، لقد كان بعمر زينوفون تقريبًا. وقال للمترجم: "أخبره أننا نعرف أن صديقه يكذب، لكننا لا نفهم السبب. قل له إننا يمكن أن نكون رحماء أو قساة، وهو وحده يحدد الطريقة التي سنعامله بها".

ترجم الجندي اليوناني كلماته إلى أبسط كلمات فارسية كان يعرفها، فعض الشاب شفته السفلى وهو يفكر.

بعد فترة، انطلق سيل مفاجئ من الكلمات، أسرع بكثير من قدرة المترجم على قولها باليونانية.

"إنه يقول... الرجل الآخر لا يريد أن يخبرك عن ممر... فوق التلال، لأن ابنته لديها منزل في ذلك الاتجاه، لكنه... موجود فعلًا، هناك طريق ضيق أمامنا يقود حول الممر. يجب قتل الرجل الأكبر سنًا إذا لم يتم إطلاق سراحه، لأنه سيخبر كبار السن... سيقول إن هذا الشاب قد ساعد العدو وسيقتلونني".

أعطى زينوفون أمرًا سريعًا فقتل الرجل الذي كانوا على وشك إطلاق سراحه. وابتسم الأصغر سنًا عندما رأى ذلك، واسترخى بشكل واضح.

قال إن الأكبر سنًا كان عدوًا لأبيه وهو مسرور... لرؤيته ميتًا. رمش زينوفون لأنه قد تم استخدامه بهذه الطريقة.

وسأله: "أين يبدأ هذا المسار؟".

الفصل التاسع والعشرون



دعا زينوفون لتشكيل قوة من المتطوعين الأكثر لياقة وسرعة. فتطوع أربعة ضباط وألفا رجل، وأوضح لهم طبيعة المهمة، وأهمية السرعة في إنجازها، فابتسموا ابتسامة عريضة عندما سمعوا ما قاله لهم، فهم كان يفضلون تسلق التلال بالرغم من كل المشقات التي ترافقها، على المشي بتؤدة مع الآخرين.

قال زينوفون: "لا بد أن لهذا الممر أهمية بالغة، وإلا ما كانوا ليحشدوا كل هذه الأعداد للدفاع عنه. أيها السادة، لا يمكنكم أن تفشلوا في هذا. اذهبوا الآن".

بينما كان يتحدث، هطلت الأمطار بغزارة، وفي غضون لحظات تبلل الجميع، فأحنى الجميع رؤوسهم لتجنب القطرات التي بدت كبيرة.

شتم زينوفون في سره، فالمطر سيصعّب الأمور، إذ يكفيهم الضباب الكثيف، ولم يعد بإمكانهم رؤية القمم، حتى الممر أصبح معتمًا.

قال زينوفون: "اعتنوا بالدليل. سنكون جاهزين".

راقب هرولة ألفين من أصغر رجاله وأفضلهم وهم يغادرون الوادي برفقة الدليل الكاردوشي، الذي قُيدت يداه خلف ظهره. قادهم الشاب عبر وادٍ إلى حيث اختفت آثار حيوانية داخل غابة سراخس كثيفة، لم يبدُ أنها تؤدي إلى أي مكان، عرف زينوفون أنهم ما كانوا ليجدوا الطريق من دون الدليل. بما أن الأشخاص الذين أسرهم كريسوفوس لم يقترحوا أي شيء مفيد فقد شعر بأهمية ما قدمه أسيره.

لبعض الوقت، لم يستطع فعل شيء. استمر المطر، وكان أفراد شعبه يرتجفون بائسين. كان من الصعب معرفة كم تأخر الوقت من دون رؤية الشمس، ولكنه اعتقد أن المغيب لم يعد بعيدًا،

واتخذ قرارًا سريعًا، وأمر الرتل بالتقدم لمسافة كافية حتى يعرف أولئك المنتظرون عند الممر أنهم يتقدمون، وبعدها أمرهم بالاستراحة.

لقد توقف انهمار الأسهم والحجارة، وتساءل زينوفون عمّا إن كان ذلك بسبب المطر- فهو يعرف أن الرماة يتذمرون عندما يطلب إليهم العمل تحت المطر، أو بسبب هربهم بعد سماعهم لخطوات ألفي جندي يوناني. أيًا يكن السبب فقد حسّن توقف الانهمار من مزاجه ورفع معنوياته، ولم يكن متأكدًا من شيء قدر تأكده من أن الظلام يحل شيئًا فشيئًا، وأن رجاله سيعانون من ليلة شديدة البرودة في الأعلى، وتمنى أن يختفي الضباب

مع طلوع فجر اليوم التالي، حتى يتمكن من رؤية كيف سيتفاجأ بهم الكاردوشي.

امتلأ الوادي بالجداول، ولم يكن هناك مكان جاف. رأى زينوفون أن العديد من أتباع المعسكر يستقرون في أزواج أو مجموعات، ملتصقين ببعضهم حتى يتمكنوا من إبعاد جزء من أنفسهم عن الرطوبة. حتى مع ذلك التعاون، ستكون ليلة بائسة.

مع تلاشي الضوء، أتت بالاكيس لتجلس معه، مسحت يدًا على حجر مسطح عريض، وجثمت عليه، وقاطعت كاحليها، وقاربت ساقيها للحفاظ على بعض الحرارة، وكانت بطانيتها مبللة، كانت أسنانها تصطك، وتمنت لو كان لديه ملجأ من أجلها، فاليونانيون تسوء حالتهم عندما يبردون.

قال لها مبتسمًا: "تبدين مثل طائر نصف مبلل". بدا الشعر الذي كانت تجمعه في ضفائر كثيفة متهدلًا، بسبب المطر.

أجابته: "صحيح، أشعر بذلك، هل سنبقى الليلة هنا؟".

"يجب علينا البقاء هنا، حتى نتمكن من تدبر أمر الطريق".

"وإن لم يحصل ذلك؟".

"سنسلك دربًا أصعب، ولكن أيًا يكن الأمر، سنتحرك في الغد".

في تلك الأثناء، بدا أن الليلة ستكون طويلة جدًا، وأدرك زينوفون أنه هو الآخر يشعر بالبرد، من خلال سماعه لصوت اصطكاك أسنانه، وشحب لون يديه اللتين أخذتا ترتجفان.

قالت بالاكيس: "تكاد أن تتجمد، اقترب مني، صحيح أن بطانيتي مبللة، لكنها أفضل من لا شيء".

سألها زينوفون من دون أن يتحرك: "أين هيفاسيتوس؟".

تصلبت، وظهر خط مزدوج على البشرة الناعمة بين عينيها.

وأجابته: "أنا لست ملكًا له".

فرد عليها من دون تفكير: "أنتِ لست لي". صمت لبرهة وحدقت إليه قبل أن تقول: "أنا... لفترة اعتقدت أنك لا تريدني، ولكن رأيت مدى انهماكك بالحفاظ على حياتنا ففهمت، هل تريد مني الآن أن أدفئ سريرك؟ لا تتلاعب بي، تكلم أو اصمت، اطلب أو دعني أذهب".

ازدرد لعابه، وحدق إلى وجهها. كان عليه أن يتكلم.

ومع ذلك كان ذلك جنونًا. إنهم في جبال معادية مع القليل من الطعام والأعداءُ يحيطون بهم من كل حدب وصوب، أدرك أنه يريد حالة الحب وليس فعل الحب، أراد أن يتبادل نظرات الشوق مع امرأة جميلة، شرط ألا يأخذ منه ذلك وقتًا طويلًا، لم يكن لديه مكان في حياته للمحادثات المتأنية أو الضحك أو الأغاني، كل ما أراده هو الحصول على لحظات معها، وبالرغم من أنه شعر بالشوق إليها، إلا أنه أدرك عدم كفاية ذلك.

لم تكن أيامها مليئة بالأحداث والقرارات مثله، لذا لم يكن يجدر به التلهي بها، لأنه إن فعل فسيموت الجميع. حاول أن يتذكر النقاط حالما تشكلت في أفكاره. كبر الصمت حولهما، وأدرك أنه لم يرد لفترة طويلة جدًا.

قال هيفاستوس، وهو يمشي على طول الحجارة: "ها أنت ذي".

كان الرجل الأصغر سنًا يحمل بطانية، فلفّها حول كتفي بالاكيس من دون أن ينبس ببنت شفة. مرة أخرى، بدا لزينوفون أن هيفاستوس يعتبرها مُلكًا له، من الطريقة التي وضع ذراعه حولها.

عرف زينوفون أن هيفاستوس كان مدركًا تمامًا أنه قاطع شيئًا ما. فقال: "في الخلف هنا بعض الطعام، لحوم مجففة مسلوقة مع بعض الخضار إضافة إلى كوب نبيذ، جميعها سيئة الطعم ولكنها أفضل من الجوع، هل ستأتين قبل أن تنفد؟".

نهضت وتناولت البطانية الجافة متخلية عن الرطبة، نظرت مرة أخرى إلى زينوفون قبل أن تستدير مبتعدة. كان زينوفون ينظر بين قدميه إلى الأرض.

عبّر وجهها عن حنق، قريب من الغضب. أصبحت شفتها السفلية رفيعة، وسحبت هيفاستوس من ذراعه، مفاجئة إياه.

حل الظلام على التلال، فنام اليونانيون مرتعشين تحت البطانيات، واستيقظوا مرارًا وتكرارًا بسبب الماء البارد الذي يسيل على بشرتهم.

توقف المطر عندما خف الضباب فوقهم، مُظهرًا لهم عددًا من الصخور الجبلية أكثر مما سبق لهم أن رأوا. حرض زينوفون الحرس الخلفي في حين جمع كريسوفوس الإسبارطيين في المقدمة كي يكونوا مستعدين لأي شيء.

عانوا جميعًا من الجوع، إلا أنه لم يكن بمتناولهم إلا ماء بارد ونظيف، وبالرغم من أنهم لا يزالون مبللين، إلا أن نَتانتهم كانت أخف بقليل.

في الممر، بدأ الكاردوشي بالتحرك، لم تكن لديهم صفوف، لقد نظر إليهم اليونانيون كما لو أنهم خلية نحل حُثثْ على التحرك، أشرقت السماء وراءهم، عندها بدوا بمثابة رجال سود متقافزين، كان عددهم كبيرًا لدرجة أن الطريق أسفلهم لم يعد ظاهرًا، وقف اليونانيون بتشكيلات لبثّ الرعب في نفوس الأعداء، وبعد أن تجهّز الرتل، طلب إليهم زينوفون التقدم، ثم التوقف مرة أخرى، لم يكن اليونانيون بعيدين أكثر من مئتي خطوة عن الممر الضيق المغلق.

شكر زينوفون الآلهة عندما سُمِعَ صوت الأبواق في الأعلى.

كانت اللحن مكتومًا، لكنه عكسَ فرحًا، قبل سماعه للصوت شعر بالقلق، ظنًا منه أن رجاله الألفين قد ضاعوا في ظلام المرتفعات، بعد أن أمضوا ليلة باردة، ولكن تبين له الآن أنه بالرغم من كل الظروف الصعبة إلا أنهم تسللوا خلف العدو مع ظهور أول ضوء للصباح، لم يكن بوسعه إلا أن يفتخر بهم ويباركهم.

رأى الرعب في عيون الكاردوشي. لقد أتقنوا الحرب في القمم، وكانوا مرعبين عندما يهاجمون من الأعلى، ولكن الأمر اختلف عندما أصبح رجاله في الأعلى، وبدؤوا بالنزول بسرعة تلبية لنداء كريسوفوس.

بدؤوا في ترديد أنشودة الموت، التي يحفظها زينوفون عن ظهر قلب فردها معهم، ورأى كيف نظر إليه اليونانيون مندهشين.

أخلى الكاردوشي مكانهم عند الممر، وهربوا مثل الفئران. شعر زينوفون بفرحة أولئك الذين كانوا ينزلون على الجانبين، لقد قادهم المسار السري إلى الممر مباشرة، وكشف لهم عن وادٍ أخضر خلفه. لم يكن على زينوفون القيام بأي شيء سوى التقدم مع حراس المؤخرة بشكل متزامن مع الرجال الألفين.

مروا بفروع الأشجار التي طُرحت جانبًا. لقد رحل الكاردوشي، ورغم أنه كان يسمع أصوات الصيحات خلفه، إلا أنها كانت أصوات انهزام أكثر من كونها أصوات تحدٍ.

رأى زينوفون مجموعات من المنازل وقطعان الماعز والأغنام، فسال لعابه، وهو يفكر في اللحم المشوي.

ربما كان الوادي ضيقًا، لكنه أرض خضراء، وبدا أنه جزء غني من منطقة المرتفعات، لقد كان السهل بمثابة قلب مخفيّ، وشكّ في أن يكون هناك مكان يضاهيه في سائر أرجاء المنطقة.

بحث عن بالاكيس، ليبتسم لها. كانت بعيدة عن مرمى النظر، في مكان ما إلى الأمام، مع هيفاستوس بوصفه مرافقًا لها.

في ظهيرة اليوم التالي، أتى أحد كبار الكاردوشي إلى المنزل الذي استقر فيه زينوفون. كان الغريب يعاني من كدمات لحقت به بمجرد اقترابه من الحراس اليونانيين، لكنه رفع يديه الفارغتين، وأبقى رأسه منحنيًا، ليتمكن من التحدث إلى القائد.

جاء زينوفون بالمحارب الشاب الذي كان قد كشف الطريق الثاني حول الممر. مشى الشاب نحو كبير الكاردوشي الذي صفعه على وجهه، مستهزئًا به. كان على زينوفون أن يأمر الرجل بالتراجع.

تحدث الكاردوشي المسن بلغتهم، وعندما تم حثه بعقب رمح، ترجم المحارب كلامه بلغة يونانية سيئة.

قال المترجم: "إنه يطلب إليك عدم إحراق المنازل هنا، ويقول إن شعبه يرغب في أن يُترك وشأنه، لكنه يكذب. لقد أرسلوا رجلًا عجوزًا لأن لا قيمة له. اقتله إذا كنت ترغب في ذلك، إن ذلك لا يهم". بدأ الرجل العجوز النحيف في الكفاح والركل ضد الشاب قبل فترة طويلة من ترجمة الكلمات إلى اللغة اليونانية.

سأل زينوفون: "ما الذي تقوله؟".

تجاهله الشاب، متمتمًا بلغته، بالرغم من أن الآخر أهانه.

"نحن نحارب لكي نفوز، ليس هناك مكان للمبادئ، لو كنت مكانك لبحثت بين الموجودين عن أحد ليقطع رقبته".

تكلم الرجل المسن مرة أخرى في حين كان زينوفون يستمع إلى المترجم. لم يكن يجيد اللغة اليونانية، لذا تحدث بصوت عالٍ، عارضًا قضيته.

مدّ زينوفون يده، وقرص الجلد بين عينيه، لقد كان يأكل جيدًا ويتمتع بالمحاصيل التي جمعها هؤلاء الناس لفصل الشتاء الطويل.

"قل له كل ما نريده هو المرور، لن أحرق منازله إذا أعاد لي جثث القتلى لدفنهم وتكريسهم للآلهة. قل له ذلك ولا تضف شيئًا أكثر".

فعل المحارب الكاردوشي ذلك بنزق. بالرغم من أن بعض الأمور استعصت عليه ترجمتها، لكن العجوز ساعده.

في النهاية انحنى العجوز، فطلب زينوفون إبعادهما، وقد بدا عليه أنه سئم منهما. بعدها قرر زينوفون التجول عند تخوم المخيم، والتحقق من أن الحراس كانوا في مكانهم ولا يزالون على قيد الحياة. لم يكن يثق بالكاردوشي.

في تلك الليلة، ظهرت جثث اليونانيين عند تخوم قرية الكاردوشي. أطلق الحراس إنذارًا عندما رأوا ظلالًا تتحرك، لكن أولئك الذين هرعوا بالمشاعل، لم يعثروا إلا على جثث الرجال الذين عرفوهم، ممددين على الأرض. أخذوهم باحترام، كإخوة.

لم ينم أحد في تلك الليلة مقدمين الصلوات لأجل أرواح القتلى.

نظفت نساء المخيم الجثث ودهنتها، ثم ألبسنها مرة أخرى، وخطن الجروح وزيّتن اللحى. لم يتم إرجاع أية أسلحة مع الرجال القتلى، كي يأخذها أصدقاؤهم ذكرى، بعد ذلك دُفنت الجثث في حفرة كبيرة، لقد كانت رؤية ذلك على ضوء المشاعل أمرًا صعبًا.

سمع زينوفون بكاء النساء، وتساءل عما إذا كان الكاردوشي سيفهمون ما كانوا يفعلونه، وهل سينبشون القبر في اللحظة التي يمضي فيها اليونانيون؟ نحّى الفكرة جانبًا، فلم يكن أمامه خيار آخر، لقد دفنوا الجثث بكرامة، مع الصلوات والبكاء، قبل ردم الأرض بلطف.

ارتفعت الشمس على اليونانيين وهم يغادرون الوادي، لقد غادروا المنازل من دون إحراقها، ولم يكن هناك عبيد ليأخذوهم، لكنهم، مرة أخرى، أخذوا كل ما يمكن أكله، بما في ذلك قطعان الماعز والأغنام، لقد تشكّل الرتل في ترتيب جيد، وكانت معنوياتهم أعلى مما كانت عليه من قبل.

بدأت أولى الهجمات قبل أن تظهر الشمس فوق الصخور. تسلل الكاردوشي فوقهم بالآلاف، ومن ذلك الارتفاع كان باستطاعتهم قتل رجل بمجرد إلقاء حجر، ولكن رجال القبائل لم يقوموا بذلك، بل دحرجوا صخورًا كبيرة عوضًا عن ذلك، كان بإمكانها سحق أي كائن يبطئ بالفرار من طريقها. ارتفع الضباب طوال اليوم حتى أمكن رؤية أعلى القمم تلمع في شمس الشتاء. بدا أن درجة الحرارة تنخفض، لكن القتال أبقاهم دافئين.

اتفق زينوفون وكريسوفوس على قاعدة بينهما. إذا ضرب الكاردوشي الجزء الأمامي من الرتل، فإن زينوفون سيرسل رجالًا من الخلف إلى مسارات جانبية، بحثًا عن المرتفعات. كان الكاردوشي يكرهون ذلك أكثر من كل شيء، وكانوا يتخلون عن مواقعهم بمجرد أن يُطوقوا بتلك الطريقة. وإذا تعرض زينوفون للهجوم، فإن كريسوفوس سيفعل الشيء نفسه مع رجاله الإسبارطيين، ويرسل الرجال صعودًا وإلى الخلف للدعم.

لقد كان عملًا شاقًا، حتى إنهم في نهاية اليوم كانوا مرهقين ومحبطين. لقد اختار الكاردوشي الدفاع من قمة واحدة، ربما لأنهم لم يروا أي طريق إلى الأسفل. ولسوء حظهم، تمكنت مجموعة من خمسين إسبارطيًا، من الوصول إليهم فأبادتهم وألقت برؤوسهم على رفاقهم.

عندما جاء الظلام مرة أخرى، كان عدد الجثث قد ازداد.

تساءل زينوفون عن إمكانية عقدِ صفقة أخرى لاستعادة الجثث، ولكن لم يكن يسيطر على منازل ليعدَ بعدم إحراقها. لم يكونوا يريدون منه شيئًا، ولم يعد يراهم عندما صفت السماء وغمر البرد الرهيب المخيم.

تساءل عن الوقت الذي يمكنهم خلاله أن يتحملوا ذلك، وعن عدد الأميال التي قطعها هو ورجاله في ذلك اليوم الطويل.

أغمض عينيه وصلى.

حلِم بسلاسل تتكسر، وقيود حديدية تسقط. في الصباح، بحث عن كريسوفوس ليخبره.

لا بد أن يكون هذا فألًا جيدًا، رسالة من الآلهة. عندما استيقظ وجد زينوفون نفسه في حالة معنوية أفضل مما كان عليه منذ دخوله إلى الجبال. كان الحلم هو السبب.

أخبر الإسبارطي بالحلم، ورأى كيف عادت الابتسامة إلى وجهه، لقد افتقد الصداقة التي نشأت بينهما، لأنهما كانا يقفان عند طرفي الرتل. يحتاج الرجال إلى لحظات من الدفء والضحك، وإلا سيذبلون. بدا أن بالاكيس كانت تتجنبه، وهذا عنى أن هيفاستوس لم يكن بالقرب منه، فلم يبق له إلا كريسوفوس الذي بدا منهكًا ونحيلًا. كانت لحية الإسبارطي ملبّدة وفيها بقعة كبيرة من اللون الأبيض عند الذقن.

قال كريسوفوس: "إنه حلم جميل سأخبر الرجال به، ربما يتعين علينا التضحية بالماعز التي أخذناها". وانتظر للحصول على إذن، لم يتأخر زينوفون بالقول: "سنقدمها قربانًا، لكن سنأخذ اللحم معنا، لن يستمر هذا طويلًا، يا كريسوفوس".

في اليومين التاليين كانت الهجمات متقطعة، وكانت الأسهم تنطلق من الفراغات بين التلال التي تحيط بهم، وغالبًا ما كانت الدروع تتمكن من صدها، ولكن في الصباح أزهق رمح طائر روحَ أحد الإسبارطيين، لقد طُعن من الجانب حتى إنه سعل دمًا وجلس، غير قادر على الوقوف. لم تكن هناك أرض لدفنه، ولا أدوات لحفر الأرض، لذلك كوموا الحجارة فوقه فيما يشبه الضريح.

في الليل، هرب المحارب الكاردوشي الشاب الذي أسره زينوفون، بعد أن قرض الحبال التي كان مربوطًا بها أو فركها. تذكر زينوفون الحلم عن القيود التي تسقط، وأملَ ألا يكون الحلم إشارة إلى هربِ أسيره.

في صباح اليوم الثالث بعد معركة الوادي، وهو السابع منذ دخولهم الجبال، وصلوا إلى ثغرة في طريق يؤدي إلى منحدر صخري يؤدي إلى سهل شاسع وراءه. من هذا الارتفاع، عرفوا أنهم سيسيرون فيه يومًا كاملًا.

على بعد نصف ميل من الصخور كان هناك نهر كبير، وخلفه في السهل، كان هناك جيش ينتظرهم، فقد رأوا أفواج الفرسان تخيّم فيه حيث تصاعد دخان نيرانهم مثل خيوط المطر في الهواء، ولمعت المساحات المخصصة للمشاة على التلال المنخفضة التي لم تكن كثيرة، ومع ذلك فضّل اليونانيون البقاء في أماكنهم، وعندما وصل زينوفون دعاه كريسوفوس إلى المقدمة، وعندما رأيا الأعداء الذين ينتظرونهم تدافعا ضاحكين، فقد أصبحت الجبال خلفهم وكل ما عداها أمره سهل.

قال كريسوفوس وهو يضع يده أعلى عينيه وينظر إلى البعيد: "أتعجب من انتظار المرزبان لنا في هذا الشتاء".

"يجب أن يكون مدينًا بدين كبير للفرس حتى يقف في هذا البرد منتظرًا إيانا". أخفى زينوفون خيبة أمله. لقد انتهى الكاردوشي، وكان يأمل أن يترك المعارك وإراقة الدماء وراءه في الجبال. لقد تحمل ما يكفي، وفكرة القتال مرة أخرى كانت مرهقة. أيًا يكن العدو، ومهما يكن ولاؤه أو وعوده لبلاد فارس، كانوا ينتظرونه ويقفون في طريقه.

قال "نحن بحاجة إلى عبور هذا النهر، للعودة إلى الوطن".

أجاب كريسوفوس "سنجد طريقة". نظر إليه زينوفون، ولكن لم يكن هناك أي تهكم أو فكاهة في تعبيره. "لقد فعلناها من قبل".

الفصل الثلاثون



بصمت، انطلق الرتل اليوناني أسفل المنحدرات. تعثر بعض أتباع المعسكر، لكن الهوبليت انتشروا في انضباط جيد، واضعين كل قدم بعناية. تحرك أولئك الموجودون في الخلف بشكل أبطأ تحسبًا لحصول أي هجوم، حتى شعروا أيضًا بالهذيان يسيطر عليهم. لقد خرجوا. لقد كانوا أحياء. وبدؤوا الركض بخطوات واسعة، أسرع وأسرع. حتى الهواء كان مذاقه أحلى من سديم الجبال الضبابي. ضحكوا وصرخوا لبعضهم عندما وصلوا إلى الأرض الدافئة أدناه. كانت صخور الكاردوشي نصولًا خلفهم، من جميع النواحي.

سار زينوفون متفقدًا رجال الأجنحة، وحثهم على جمع أنفسهم والانتقال إلى تشكيل مناسب.

مرة أخرى، كانت لديهم مساحة لتشكيل مربع داخل مربع. كان من المريح تقريبًا رؤية الصفوف بشكلها القديم، رغم أن الكثير من الوجوه كانت مفقودة. فقد قُتل المئات في الجبال، فضلًا عن خطف أكثر من عشر نساء خلال المعارك.

إن الذين يقفون هنا هم من كُتبت لهم النجاة، إلا أنهم كانوا يمتلكون ذكريات ستظل تطاردهم مدى الحياة.

شعر زينوفون بأنه قد كبر عشر سنوات. نظر بغضب إلى الجيش المخيم عند الضفة الأخرى من النهر، لم يكن يعرف من هو هذا الجيش، وما الذي أتى به إلى هذا السهل، لقد شعر بالغضب لأن هذا الجيش يعترض طريقه، فقد اكتفى من الذين اعترضوا طريقه في الآونة الأخيرة.

وجد كريسوفوس ينتظر الأوامر بصبر، بصحبة الإسبارطيين المتجمعين في كتل غير مرتبة، لم يكن عدم الترتيب يُنسب إلى شعورهم الشعثاء، ولحاهم الطليقة، بل إلى إحساسهم بالإنهاك، فحتى هم بالرغم من كل قوتهم لن يستطيعوا الاستمرار بالقتال إلى الأبد. أدرك زينوفون

أن تلك كانت فكرة مُقلقة. لقد اعتمد على قدرتهم على التحمل قبل كل شيء، إذ إنه كان يستخدمهم أولًا وفي أصعب المهمات. ومع ذلك، كانوا رجالًا فقط.

ارتدى العديد من الإسبارطيين شرائط حمراء على الفخذين أو الذراعين، داكنة بسبب الدم. وقف العبيد بينهم، حاملين الدروع والرماح في صمت. وكانوا معًا نخبويين، وكان زينوفون يعلم أنه لم يكن بإمكانه الوصول إلى هذا المكان من دون دمائهم التي سُفكت ومن دون دماء الأعداء التي سفكوها.

نظروا إليه منتظرين أوامره، فنظر إلى عيونهم التي تحدق إليه بثبات، لقد أدى الجنود دورهم، وهو بدوره أدى مهمته. نظر زينوفون عبر النهر، حيث كانت أفواج جنود المشاة لا تزال تتجمع، وهي تشعر بالحماسة لرؤيتها العدو. كان جيش العدو يفوق الهوبليت بثلاثة أضعاف تقريبًا؛ ثلاثين ألف أو نحو ذلك. قد يبدو ذلك جيشًا عظيمًا لمن لم يشهد معركة كونكاسا. أومأ زينوفون مستهجنًا.

خاطبهم بصوت رنان: "من هم هؤلاء الحمقى، ليقفوا بوجهنا، نحن، الذين اخترقنا الجيش الإمبراطوري، نحن الذين عبرنا جبال الكاردوشي منتصرين؟ يبدو أن السيد تيسافيرنيس يريد التضحية بهؤلاء الذين لم يسبق لهم أن سمعوا باليونانيين أو جربوا قتالهم. ليست لديهم *أية فكرة* عما سيواجهونه معنا". وابتسم ابتسامة عريضة لهم. "تخيلوا وجوههم عندما يدركون!". حتى الإسبارطيين المتجهمين تجاوبوا مع ذلك، تصوروا عدوًا في حالة من الفوضى. لقد سمحوا لأنفسهم بملذات قليلة، لكن هذا كان بالتأكيد إحدى هذه الملذات.

خلف صفوف كريسوفوس، انتظر معسكر اليونانيين الكبير. لقد قضوا فترة طويلة جدًا يقتاتون على القليل من الطعام، وأيامًا كثيرة في القتال من أجل حياتهم.

أصبحت شفرات سيوفهم كليلة، ومضى عليهم من دون استحمام أسبوع على الأقل، ومع ذلك فقد شعر تجاههم بفخر كبير حتى أحس بأن صدره قد ينفجر.

حدق زينوفون إلى النهر. لقد أحضرهم إلى هذا المكان. كان ذلك ثقيلًا عليه، لكنه ما كان ليُنزل هذا الثقل دون أن يُتاح له في النهاية فرصة لتمضية ليلة يشرب فيها في أثينا وينام في سريره.

قال لكريسوفوس: "تقدم معي إلى النهر، واجلب معك أطول حملة دروع وعددًا من الرماة لكي يحمونا، عندما نبلغ ضفة النهر، سنُري خدم الملك الفارسي من نحن".

بالفعل، تقدما برفقة فرقة صغيرة إلى الضفة.

استطاع زينوفون رؤية رايات ترفرف على الضفة الأخرى للنهر، كان الرجال هناك يرتدون دروعًا شبيهة بالتي ارتداها الفرس، بالرغم من أن أعلامهم كانت تحمل رموزًا غريبة، إضافة إلى أنهم بدوا بجلاء أقل قيمة، لن يرى امرؤ هذا العدد الكبير من الجنود إلا وسيشعر باليأس، لكن زينوفون تنزه على الضفة ولم يبدُ أنه يشعر بتهديد من قبلهم على الإطلاق.

لقد كان النهر أعرض مما تصور، ربما كان يصل عرضه إلى مئة خطوة، وكانت المياه تجري فيه بسرعة، في تلك الأثناء التي كان فيها زينوفون يراقب، قرر رماة العدو الوقحين تجربة المدى الذي تبلغه أسهمهم، كانوا قرابة الثلاثين، عندما شدوا أقواسهم، اضطر زينوفون إلى الوقوف خلف درعين برونزيين رفعهما الإسبارطيون، محاولًا عدم التفاعل مع هسهسة السهام الحديدية التي كانت مصوبة لتقتل.

بين رشقات الأسهم، كانت الرماح تسقط في المياه، ولم يكشف سقوط أي منها مناطق ضحلة في المجرى. عندما أُصيب أحد الرجال بسهم أُرجع إلى الخلف وهو يشتم، فتراجع اليونانيون خارج نطاق الأسهم. شعر زينوفون بأن كريسوفوس ينظر إليه وبينما كانوا يبتعدون، رفع حاجبيه متسائلًا وغير متأكد من كيفية الاستمرار. كان يُفترض بقوات العدو أنها تعرف النهر. لكن بدلًا من ذلك بدا الأمر كما لو أنهم قد قطعوا مسافة طويلة للتجاوب مع دعوة أسيادهم الفرس، ولم يكونوا أكثر دراية منه بأماكن العبور. في كلتا الحالتين، من دون مكان للعبور، لم يكن يستطيع الرد على تحديهم.

لقد شعر بقليل من الانقباض وهو يسير إلى اليونانيين الذين ينتظرونه. سيكون عليهم البحث أكثر. لقد رأى من المرتفعات أنه لا توجد جسور، وفق ما ترى العين. كان عليهم أن يجدوا مكانًا يكون فيه النهر ضحلًا، حيث تقاوم بعض الحجارة القديمة أو الحصى الفيضان. الأسوأ من ذلك هو التفكير في قضاء ليلة في مثل هذا السهل العاري. كانت الرياح قد أصبحت أقوى، محركة الأقمشة وعابثة بخصلات الشعر. ولكن الأهم من ذلك، أن اليونانيين كانوا بحاجة إلى تناول الطعام.

قال كريسوفوس عارضًا لبعض الأفكار: "يمكننا إرسال بعض فرق الصيد إلى سفوح التلال، ربما بحثًا عن بيض الطيور".

كان زينوفون ينظر بالفعل إلى ما وراء معسكر شعبه، إلى الصخور الرمادية والخضراء التي تفيّأتهم. لفتت نظره حركة في الممرات العالية وحدق قبل أن يهز رأسه.

وقال: "لا أعتقد أنهم سيسمحون بذلك".

عندما خرج اليونانيون من الجبال، تجمع الكاردوشي بأعداد هائلة، أكثر مما ظن زينوفون أنهم يمكن أن يستدعوا. قذف الآلاف منهم الرماح والأقواس في الهواء وصاحوا، لكن صوتهم كان مكتومًا بسبب البعد والهواء.

فقال كريسوفوس: "حسنًا، لا يمكن التقدم ولا يمكننا التراجع، أعتقد أن علينا أن نستريح اليوم، واستهلاك آخر ما تبقى لدينا من طعام وشراب، فبعض الرجال يعانون من الحمى، ولندع الكاردوشي يعوون في قممهم".

ارتجف الإسبارطي في حين ومضت ذكرى عبر مخيلته.

قال زينوفون: "بينما يعوون سنستريح، وسأطلب إلى أثينا أن ترينا الطريق".

أحنى كريسوفوس رأسه لسماع الاسم.

"نحن نبجلها، إنها الحامية وإله كل من الحكمة والحرب، كيف لا تبجلها وهي إلهة إسبارطية بامتياز؟ ربما هي من أرسلت لك حلم كسر السلاسل". ابتسم زينوفون.

"أعتقد ذلك. لقد أعطاني الحلمُ الأملَ في لحظة كنت فيها قريبًا من اليأس".

توقف كريسوفوس، وعلت وجهَه نظرةُ مفاجأة.

"قريبًا من اليأس؟ إنك لم تُظهر أية علامة على ذلك". نظر زينوفون بعيدًا.

"دعنا نقول إنني مسرور لأنني خرجت من تلك الجبال. أشعر كما لو أننا عبرنا أرض الموتى، وعدنا مرة أخرى إلى العالم. هل تفهم؟".

قال كريسوفوس: "بالطبع، لكننا نجونا".

لم يكن هناك أحد قريب بما فيه الكفاية ليسمعهما وهما يتكلمان في أثناء عودتهما. تقدم الرجال الآخرون في حين كان الزعيمان يتجولان معًا ويستمتعان بلحظة من السلام.

"لقد كان شرفًا لي أن أقود الإسبارطيين في الحرب". قال زينوفون، محرَجًا.

أجاب كريسوفوس: "نعم. إنه كذلك دائمًا". بعد لحظة، كشر وتابع. "لقد رأيت صديقك الشاب، هيفاستوس. كان مهتمًا بعشيقة الأمير سايروس... ماذا كان اسمها؟".

"بالاكيس". قال زينوفون بهدوء. وقد لاحظه كريسوفوس.

"هل تريد أن أطلب إلى اثنين من رجالي تحذيره للابتعاد عنها؟".

هزّ زينوفون رأسه، محملقًا بالأرض في أثناء سيرهما.

"لا. لن أجبرها. سوف تأتي إليّ بمحض إرادتها، أو قد لا تأتي على الإطلاق". وفتح فمه مرة أخرى لبدء جدال مع نفسه، لكنه رأى أن من الأفضل ألا يفعل.

قال كريسوفوس: "لقد بدوَا منسجمَين للغاية".

استدار زينوفون بحدة إلى الإسبارطي، مما جعله يضحك.

"أنا آسف، أنا أداعبك فقط".

أجاب زينوفون: "ظننت أن الإسبارطيين لا يعرفون معنى الدعابة"..

"من قال هذا؟ إذا لم نضحك، على الأقل في الحب والحرب، فسيكون ذلك العالم حزينًا".

في تلك الليلة، نام زينوفون بشكل متقطع، لقد استيقظ ست مرات تقريبًا، حتى إنه ظن أنه لم ينم على الإطلاق عندما رأى الشمس مرة أخرى. بعد سبعة أيام في المناطق الصخرية المرتفعة، جلس للاستمتاع بالفجر على السهل. كان النهر شريطًا ذهبيًا لامعًا وحتى الخدم الذين استدعاهم الفرس لعرقلتهم كانوا مأخوذين بجماله. في مثل هذه اللحظات، يتجلى المعنى الحقيقي للحياة، إنه شعور يفوق الفرح، حاول التقاط الفكرة لمناقشتها مع سقراط، لقد أصبحت لديه أمور كثيرة ليُطلع عليها العجوز ويناقشه فيها، ولكن كان أكثر ما يود قوله للفيلسوف هو كلمة شكر لأنه حمله على المغادرة والمشاركة في الحرب. في الحقيقة، كانت أثينا تكبت تفكيره، ولم يكن يدرك ذلك، ولكن بعد معركة كوناكسا، وبعد رحلة النجاة الطويلة عبر أراضي الإمبراطورية الفارسية، أدرك كم كانت مخاوفه السابقة تافهة، لقد استطاع معرفة معنى السلام مرة أخرى، وكيف ينحي جانبًا الغضب الذي ينهشه.

قال كريسوفوس: "عمت صباحًا أيها القائد، لديّ شابان هنا. أعتقد أنك سوف تريد أن تسمع ما يريدان قوله لك". خنق زينوفون تثاؤبًا، وشعر بأنه وسخ وخشن الشعر في الصباح وهو يفرك عينيه. كان عيد ميلاده قد مرّ قبل أسابيع، دون أن يلاحظ أحد تقريبًا. كان في السابعة والعشرين من عمره، لكنه شعر بأنه أكبر سنًا على مرأى من الإسبارطيين الشابين.

لقد وقفا وهما لا يرتديان شيئًا تقريبًا سوى الصندل. وضع أحدهما عباءته مثل حبل سميك فوق كتفه وشبكها حول رقبته. كان يرتدي حزام السيف مثل إزار، في حين أن الآخر كان عاريًا غير منزعج من ذلك أبدًا وهو يقف هناك. لقد بدا أنهما يتمتعان بصحة جيدة للغاية.

"نعم أيها السيدان. كنت أستمتع بالفجر. أخبراني ما تريدان".

"كنت وأخي نبحث عن حطب، أيها القائد مشينا لمدة ساعة أو ساعتين الليلة الماضية، نحو ثلاثين استادًا على النهر. كانت السماء مظلمة عندما رأينا رجلًا مسنًا وامرأة يخبئان ملابس أو قماشًا بين الصخور على الجانب الآخر من النهر. كان لديهما بعض الخبز والجبن. لقد اعتقدنا أنه قد يكون مكانًا يمكننا السباحة عبره". وقاطعه أخوه بانفعال.

"لذلك وضعنا سكاكيننا بين أسناننا وخضنا في النهر، لكن ارتفاع الماء لم يتجاوز خصورنا أبدًا طوال الوقت. بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الجانب الآخر، كان الزوج والزوجة المسنان قد ذهبا ولذلك عدنا".

"هل رآكما أحد؟ هل عبثتم بالملابس؟". سأل زينوفون، وقد بدا في غاية الانتباه.

رأى كريسوفوس يبتسم على رد فعله، لكنه تجاهله.

هز الأخوان رأسيهما نفيًا. وشد زينوفون قبضته فرحًا.

"لقد استحققتما شكري".

قال كريسوفوس: "أحسنتما صنيعًا، أيها الشابان. لا أعتقد أننا سنستريح اليوم".

ابتسم زينوفون.

"لديّ خطة، يا كريسوفوس".

"بالطبع لديك".

على الجبال كان الكاردوشي مستيقظين أيضًا، واحتشدوا على التلال العالية، يراقبون كل شيء.

ظل زينوفون يراقبهم وهو يسير مع الحراس. كان لديه القليل من الفهم لرجال القبائل أولئك. لم يستطع التخطيط لأمرهم.

بمجرد أن تحرك كريسوفوس، تقدم الكاردوشي إلى أسفل المنحدرات بجرأة لم يعهدها فيهم، كانوا ينزلقون ويقفزون حتى كادوا يصلون إلى السهل. ربما لم يكونوا عازمين على الهجوم، ولكن إذا أُتيحت لهم فرصة، فقد بدا جليًا أنهم سيهاجمون اليونانيين كما تهاجم الذئاب الحملان، فهم لم ينسوا هزيمتهم النكراء في جبالهم، وما زال شرفهم ملطخًا بشدة.

صرخ زينوفون: "تقدموا بثبات أيها الهلينيون (الإسبارطيون)".

عرف الضباط ما كان على وشك فعله ووافقوا عليه. كان المعبر أضيق وأوهن من أن يحاولوا شق طريقهم عبره ضد عدو مسلح بشكل جيد. ومما زاد الوضع صعوبة أن اليونانيين كانوا أضعف مما كانوا عليه من قبل، ولم تعد هناك فائدة في إنكار ذلك.

لقد مر عليهم شهر من التعب وقلة الطعام، وهم بحاجة ماسة إلى الراحة والتغذية، ليستعيدوا لياقتهم القتالية.

على الضفة المقابلة، تطاحن الآلاف من الفرسان.

وبينما كان السعاة يركضون ذهابًا وإيابًا، كان الباقون يندفعون تجاه بعضهم بعضًا، وهم مرتبكون أو خائفون بوضوح من وجود نقطة عبور قريبة. ظلّل زينوفون عينيه، محاولًا رؤية بقية القوات البعيدة في الخلف. ربما اعتقدوا أنها خدعة. ربما حذّرهم تيسافيرنيس من سعة حيلة اليونانيين. صرف بأسنانه.

"حراس المؤخرة، الضباط مع إشارتي... الآن!" علَا صوته فوقهم، فتوغلت الصفوف الأولى مع كريسوفوس في المياه، مرسِلة رشًا عكس أشعة الشمس مثل الأجنحة المتلألئة.

في الخلف، وفي اللحظة نفسها، التف نصف الهوبليت و*ركضوا* عائدين على طول ضفة النهر. لقد اندفعوا كما لو كانوا في سباق، وهم يصرخون ويدفعون بعضهم، وكان تأثير حركتهم هذه مذهلًا، سيلًا من اليونانيين. بقي أتباع المعسكر فقط، كما طُلب إليهم، منتظرين عند ضفة النهر. حمل بعضهم السيوف والرماح، للدفاع عن أنفسهم بوجه أي هجوم محتمل. كان هذا أصعب قرار،

لكن زينوفون أعطى الأمر. لم يكن باستطاعة أي جيش أن يناور في الميدان ويكون عليه حماية عشرة آلاف مدني في الوقت نفسه، صلى زينوفون لأثينا حتى يتمكن من إيصال أتباع المعسكر إلى بر الأمان، في الوقت الذي كان يركض فيه جزلًا من غرابة ذلك.

على الضفة الأخرى، جلب الانسحاب والاندفاع المفاجئان لخمسة آلاف جندي يوناني الفوضى. رأى قادة الفرسان خدعة لا يمكنهم التصدي لها إلا بالسرعة، وهي أكبر ميزة عندهم. أسرع نصف الفرسان الذين تجمعوا لمنع التراجع الأول وسبقوا رجال زينوفون الذين يركضون، وهم يهتفون لأولئك الذين تركوهم وراءهم ليكونوا جاهزين. توقفت أفواج من رماة المشاة الذين كانوا قريبين من ضفة النهر، وعادوا بسرعة وهم يجهزون أسهمهم في أثناء سيرهم.

لقد كان اليونانيون الذين برفقة زينوفون يتجهون نحو معبر آخر، إن أتيح لهم عبور النهر بسهولة فسيتمكون من الهجوم من جبهتين، لقد كانت الفوضى مطلقة في صفوف الفرس الذين يلاحقون زينوفون، لقد واجهت الأفواج المتحركة أشخاصًا أمروا بانتظارهم على طول ضفة النهر، وكانوا يصطادون المهاجمين في الوقت الذي كان فيه قادتهم يصدرون أوامر متضاربة.

تنفس زينوفون بشكل جيد. كانت لياقته عالية بالرغم من نحافته. بطريقة ما، فإن مشاهدة الفوضى الكاملة التي سبّبها أعطته شعورًا بدفق من الطاقة يتيح له الركض طوال النهار، كان يخدعهم. لم يكن هناك معبر ثانٍ.

"أحدثوا صخبًا، ارفعوا السيوف والرماح!". نادى ضباطه.

لقد اكتشف أن خمسة آلاف يوناني يمكنهم الزئير، ويمكنهم أن يهزوا السماوات إذا أرادوا. بينما كان يركض، عرف زينوفون أنه يجب أن يحكم بدقة. كان عليه العودة كما لو كان سيعبر من نقطة أخرى. ومع ذلك لم يجرؤ على استنفاد طاقة رجاله بجعلهم يركضون لمسافة طويلة. عاجلًا أم آجلًا، كان عليه التوقف والعودة إلى المعبر الضحل الذي عثر عليه الشقيقان، لقد كانت مهمته استدراج العدو بعيدًا عن كريسوفوس. ففي هذا الوقت يفترض بالإسبارطيين أن يكونوا قد انتهوا من العبور، كان من الصعب ألا يبتسم لفكرة أن يقابل العدو هؤلاء المحاربين للمرة الأولى.

صرخ لهم زينوفون قائلًا: "لقد أنهينا مرحلة الإحماء، انظروا إلى النتيجة على المياه".

"استعدوا الآن، للعودة إلى مكان العبور مرة أخرى. "كان هناك بعض الضحك في عدة صفوف. كانوا في حالة معنوية عالية، يتمتعون بالفوضى التي تسببوا بها على الجانب الآخر.

التقط زينوفون حركة بزاوية عينه وشتم بهدوء. لقد كانوا بحاجة إلى حيلة لإرباك العدو لفترة كافية حتى يتمكنوا من عبور النهر. كان الجزء الوحيد من الخطة الذي لم يكن من الممكن التنبؤ به هو ما سيفعله الكاردوشي، وهم يراقبون من المرتفعات. كما كان يخشى، فقد رأوا أنه قسّم قواته. لقد رأوا ضعفًا، لذلك هبطوا بحماس كبير، مدفوعين بجنون بحاجتهم إلى الانتقام. أخذ زينوفون نفَسًا عميقًا.

"توقفوا عندما أشير أيها الهيلينيون... قفوا!" وتوقفوا فجأة، وتوقف الضحك عندما شاهدوا الكاردوشي يتدفقون صارخين من الجبال.

"أيها اليونانيون أعيدوا التشكيل الآن، أيها السادة. استمعوا إلى قادتكم، وتذكروا.. لقد سبق لنا أن واجهنا الكاردوشي في تلالهم وهم يواجهوننا الآن على سهل، وهم الذين لم يسبق لهم أن رأوا خطوط قتال مدرعة، برماح وسيوف قصيرة، لندعهم يأتون، بكل صراخهم وعويلهم. سنعاملهم معاملة الكلاب ونقطعهم". وصرخ بصوت عال في النهاية، فهدروا صارخين ومتجاوبين معه. كان من دواعي سروره أن يرى بعض الكاردوشي يتعثرون خلال اندفاعهم للهجوم بعيدًا عن الأمان في تلالهم، شعروا بالفراغ الكبير للسهل المحيط بهم.

في مواجهة هذه الهجمة البرية، رتب اليونانيون أنفسهم في التشكيلات التي حفظوها عن ظهر قلب، وشعروا بالراحة لتواصلهم مع الذين أمامهم وإلى جانبهم بأطراف أصابعهم، لإيجاد المسافة المثالية.

سأل زينوفون: "أين هو درعي؟".

جاء أحد الخدم الإسبارطيين حاملًا درعًا على ظهره، وانحنى بشدة وهو يسلمه إياه، ولم يغادر منتظرًا أية أوامر من القائد، الذي لم يجد أي حرج في شكره بامتنان مثل رجل حر، ثم دفع ذراعه الأيسر من خلال حلقة جلدية وأمسك بقوة بالحلقة الأخرى. شعر كأن الدرع جزء من ذراعه عندها لوّح في الهواء.

صاح فوق رؤوسهم: "اثبتوا، أيها الهيلينيون، ما زال هناك وقت. تقدموا ستين خطوة وتوقفوا، جهّزوا رماحكم لصدّ الهجوم، اثبتوا". يجب أن يرى الكاردوشي كتلة صلبة من خمسة آلاف يوناني، ومعادن أكثر من الجلد، والنهر في ظهورهم. كان زينوفون قد دفعهم إلى الميلان إلى الأمام عندما فكّر في تجمع الرماة على الضفة الأخرى. بدا أن الحركة تسرق جزءًا من وحشية العواء من أولئك الذين ينزلون عليهم.

رأى الكاردوشي وحشًا عظيمًا يتحرك، سلحفاة من البرونز ووعدًا بالموت. لم يكن أتباع المعسكر لينشغلوا بحمايتهم. كان اليونانيون هزيلين وقذرين ومنهكين، لكنهم كانوا يكرهون الكاردوشي.

اصطدم ألفان أو ثلاثة آلاف من رجال القبائل بالتشكيل اليوناني فأحدثوا أصواتًا شبيهة بارتطام حبات البرد على سطح ما، لذا قُطعوا تقطيعًا، لقد كانوا يصرخون ويقفزون إلا أنهم لم يتمكنوا من اختراق صفوف اليونانيين المنيعة.

راقب زينوفون بإعجاب وبهجة تراجعَ الناجين، لقد تباطأ أولئك الذين كانوا وراءهم عندما رأوا مناعة الصفوف اليونانية وسفكها لدماء رفاقهم.

أمرهم زينوفون: "تقدموا الآن ستين خطوة".

تقدمت الصفوف، فاستدار الكاردوشي مبتعدين مثل الكلاب الجرحى، لم تخفّ وحشيتهم، ولكنهم أصبحوا خائفين.

تراجعوا أكثر فأكثر إلى المنحدرات، وللحظة أراد زينوفون الاندفاع وراءهم. ولكنه بدلًا من ذلك راقب توقف المئات منهم على المنحدرات، يستريحون متكئين على رماحهم، مراقبين اليونانيين، لم يكن هناك ما يشير إلى أنهم سيعاودون الهجوم مرة أخرى. هز زينوفون رأسه مسرورًا.

فجأة صاح: "ها قد أصبحوا يعرفوننا بعد أن ذاقوا طعم رماحنا. أيها السادة تراجعوا إلى المعبر". فرد عليه اليونانيون مطلقين صيحات النصر، التي تردد صداها على الجبال.

"لن يهاجموا مرة أخرى، لكن إذا فعلوا ذلك، فسنعيد الكرّة معهم، تراجعوا إذن على طول النهر. أيها السادة تراجعوا إلى المعبر، بأسرع ما يمكن".

أنّ بعضهم وضحك لهم.

"لقد استمتعتم واسترحتم، حان الوقت للركض مرة أخرى، أم سنترك الإسبارطيين يحصدون المجد وحدهم؟".

كانت هناك قعقعة من موافقة الرجال وركضوا مرة أخرى.

خلفهم خيم الصمت على الكاردوشي.

عند الظهيرة تقريبًا، عاد الخمسة آلاف مع زينوفون إلى الضفة، مغبرين ومبتسمين لنجاحهم، واستقبلهم أتباع المعسكر بالبهجة، إذ تشكلت مجموعات من حولهم، وكانت الأيادي تربّت على ظهورهم وخوذاتهم.

كان الارتياح واضحًا في ذلك المكان. فقد شاهد أتباع المعسكر حُماتهم يسرعون بعيدًا في اتجاهين، وتركوهم وحدهم في منطقة معادية للمرة الأولى منذ كوناكسا.

علم زينوفون أن الإسبارطيين عبروا النهر من دون أن يواجهوا مقاومة تذكر، ثم قاموا بتطهير الضفة من أي شخص أحمق بما يكفي للوقوف ضدهم. على الجانب الآخر، تناثرت الرايات على الأرض، وبينما كان زينوفون ينظر عبر المياه، أمكنه رؤية المسار الذي سلكه كريسوفوس من خلال الجثث التي خلّفها وراءه. أطبق فكه، متسائلًا عن المدى الذي بلغه توغل الإسبارطي. كانت الخطة تأمين نقطة العبور، ثم الانتظار حتى يعبر أتباع المعسكر بأمان. فقد كان لدى العدو من الفرسان أكثر مما يمكن له احتواؤهم.

ارتجف زينوفون عندما كان يعبر النهر، ومد يده إلى الأسفل مبللًا وجه بالماء البارد فاركًا به وجهه. لقد شعر بالهلع لأن كريسوفوس لم يعد.

كان عليه أن يذكر نفسه بأنه يثق بالإسبارطي وقد ازدادت ثقته به بعد معارك جبال الكاردوشي. إذا قرر كريسوفوس مغادرة منطقة العبور، فلا بد أن هناك سببًا وجيهًا.

وقف عشرات الهوبليت في النهر ليحددوا مكان العبور. من خلال الإيماءات ونداءات التشجيع، قاموا برعاية أتباع المعسكر حتى يعبروا مراقبين عن كثب أي ظهور مفاجئ للفرسان أو الرماة. كان الخمسة آلاف الذين مع زينوفون قد مروا أولًا بسرعة، ثم أمّنوا المنطقة، أما الباقون فقد تعثروا وحملوا بعضهم بعضًا.

بقي زينوفون في المعبر، بالرغم من أن الخدر أصاب ساقيه. لقد عزمَ على الوقوف هناك لفترة قصيرة، لكنه وجب عليه البقاء لوقت أطول كي يتقبل شكر الأشخاص الذين يعبرون، مباركين على رأسه إلى أن شعر بالترنح تقريبًا بسبب مدحهم له لإيصالهم إلى بر الأمان. لم يكن لديه خيار إلا البقاء واقفًا في مكانه.

عندما أصبح الجميع بأمان، جعل الهوبليت يضربون طوقًا حولهم مرة أخرى، كانت جوانب المربع رفيعة من دون كريسوفوس، لكن زينوفون سار بهم إلى أعلى التل، وشاهد الجانب الآخر من السهل للمرة الأولى في أثناء الوقوف عليه.

وقفت أفواج من أتباع الفرس بلا حراك على قمم التلال المنخفضة، ليس بعيدًا عن المكان الذي استقر فيه زينوفون مع المعسكر. لقد رأى بعض جنود المشاة الذين رآهم من الجانب الآخر، لا يزالون في موقعهم. لقد اتخذوا أرضًا عالية وقرروا الاحتفاظ بها، بغض النظر عن أية حيل أو ألعاب مارسها اليونانيون على الجانب الآخر. راقب توجه مربع صغير من أعلى التل نحوهم، لقد عرف هؤلاء الرجال على الفور وشعر بالفخر ينمو في قلبه.

كما تُظهر الحشرة الزاحفة درعها، لمع الإسبارطيون بلونهم البرونزي فجأة. لقد رفعت القوة بأكملها الدروع، بوجه الأسهم والدروع السوداء التي انهمرت عليهم من الأعلى.

كانت هذه الحرب كما عرفوها، وأمر زينوفون بمسيرة ثابتة نحو هذه النقطة. لن يعرف العدو عدد الرجال والنساء الذين لا يجيدون القتال في معسكره، ولكنه اعتمد على بث الرعب في صفوف الأعداء عندما يرون حشده الذي يسير متراصًا، ابتسم للفكرة، وشعر بالتعب ينزل عن كاهله.

بينما كان يسير، أدرك زينوفون أن السهل كان فارغًا أكثر من ذي قبل. ويبدو أن أعدادًا هائلة من الفرسان قد اختفت. كانت هناك رايات مهجورة على طول ضفة النهر، بالرغم من أن أعدادهم السابقة كانت أكثر مما يستطيع الإسبارطيون التغلب عليه. لقد بدا له الأمر وكأن العدو تخلى عن الميدان، لم يجرؤ على حملِ نفسه على تصديق هذه الفكرة.

أولئك الذين بقوا كانوا في جزر على التلال.

لقد كان وضع اليونانيين جيدًا، ولكن مع فرار الكثيرين بدا وضعهم أفضل.

بينما كان ينظر، شاهد الإسبارطيين يبسطون سيطرتهم على التلال، ويشقون طريقهم عبر العدو كما لو أنهم دودة تقضم ورقة، قضمة تلو الأخرى. رأى زينوفون شخصيات سوداء تبدأ في التدفق على الجانبين في كل اتجاه. كان ذات مرة قد شاهد كتلة من العناكب الصغيرة تفر عندما قام طفل بدوسها. ذكره هذا المشهد بذلك المشهد، كان الجنود يزحفون مهرولين ليهربوا بعيدًا عن الدروع البرونزية والعباءات الحمراء.

بما أن أيام الشتاء قصيرة، لم يمر وقت طويل قبل أن تبلغ الشمس الأفق، عندها عاد كريسوفوس من التلال التي سيطر عليها برفقة رجاله الذين يحملون الغنائم التي حصدوها بعدما عمت الفوضى في صفوف العدو.

عرفوا من الأسرى أن زعيم الذين فروا من الميدان كان المرزبان الأرمني، تيربازوس، وهو صديق الطفولة للملك الفارسي. كانت صداقة قد كلفت الرجل ثروة.

جلب كريسوفوس لزينوفون صندوقًا حمله الأخوان اللذان كانا قد اكتشفا المعبر. كان مليئًا بالعملات الفضية، لقد كان ذلك أجر كل المرتزقة الذين جمعهم تيربازوس.

قال كريسوفوس: "لقد اختفى معظمهم، لكن الذين كانوا على التل ظلوا في أماكنهم".

وأضاف: "لقد اتخذت قرارًا بمعرفة ما الذي يمكن أن يبقيهم هناك، في حين يركض البقية".

أجابه زينوفون: "لقد كان القرار صحيحًا".

أحنى كريسوفوس رأسه، بارتياح. فقد ظن أن زينوفون سيغضب لأنه ترك أتباع المعسكر من دون حماية.

في تلك الليلة، جمع زينوفون الضباط ورفعوا أكوابًا من النبيذ المنهوب. كان مخيم المرزبان تيربازوس ممتلئًا بالطعام والشراب. لقد استمتع اليونانيون بوليمة عظيمة.

الفصل الحادي والثلاثون



خلال اليومين التاليين ابتعدوا عن الجبال ثلاثين ميلًا، ولم يكونوا مسرعين حتى لا يُتعبوا أتباع المعسكر.

ارتاحوا عند منبع نهر دجلة ثم ساروا مسافة ستين ميلًا إلى ضفاف نهر تيليبواس.

لم يروا أي جنود خلال ذلك الوقت، وكانت الأرض التي مروا بها عامرة بالقرى والبلدات، وكان هناك قصر للمرزبان. لم تكن هناك أية علامة على تيربازوس في المنطقة، لذلك اكتفوا بنهب خزنته. أخذ اليونانيون العربات والبغال والعبيد في كل مكان مروا به. كانت العربات محملة إلى أقصى حد، ولم يبذل زينوفون أية محاولة لكبح جماح عمليات السطو. مروا أيضًا بمعابد لآلهة غريبة، حيث ترك الحجاج قرابين تكفي لقرون، فأخذ اليونانيون تلك القرابين معهم.

اشتد الشتاء في أثناء سيرهم شمالًا، واستقروا خلال سيرهم يومًا بعد يوم في الأراضي التي تفاوتت بين الحقول المحروثة الداكنة، والغابات أو بساتين الكروم.

تشكلت الصداقات وفُضت خلال المسير الطويل، واحتُفل بعشرات الزيجات. لقد شك زينوفون بعدد الزيجات التي ستستمر، لكن الذين تبادلوا تلك العهود بدوا سعداء حينها.

بالنسبة إلى الباقين، فقد أنهكهم المسير الطويل، وما يشير إلى طول الفترة التي أمضوها في مسيرهم هو إمكان بعض الرجال أن يضفروا شعر لحاهم، لم يتح لهم الاستحمام دائمًا، ولكن عندما كانوا ينزعون ملابسهم ليستحموا كانوا يلاحظون مقدار نحول أجسادهم، فبالرغم من مصادرتهم لكل الطعام الذي صادفوه في أثناء مسيرهم إلا أنه لم يكن كافيًا على الإطلاق.

طيلة أربعة أيام وستين ميلًا من المشي عبر الكثبان الرملية وجد زينوفون نفسه يسير جنبًا إلى جنب مع بالاكيس وهيفاستوس. كانا يسيران جنبًا إلى جنب، ولم يكن لعين بصيرة أن تخطئ

كونهما عاشقَين. لقد شعر بعينيها تقعان عليه ألف مرة. أرادها أن تنتظره، لتكون جاهزة لليوم الذي لايحمل فيه مسؤولية أرواح آلاف الناس.

كان هو الذي طلب إلى هيفاستوس أن يبقيها آمنة، ولكنه منذ ذلك الحين أصبح أكثر سلطة، وأكثر انشغالًا بالاهتمام بكل من هو بحاجة إليه. بينما كانوا يسيرون على الطريق الآخذ بالارتفاع، لم يستطع إلا أن يسترق النظر إليها، محاولًا إقناع نفسه بأنه لا ينظر إليها أكثر مما ينظر إلى أية أنثى أخرى، وكانت لديه قناعة بأنها تعرف أن عينيه لا تكفان عن النظر إليها، فلطالما عرفت النساء عندما يكون الرجال معجبين بجمالهن، ويحاولون ألا يحدقون إليهن.

هز رأسه، عندما فكّر في أن سقراط سيضحك على ما سيخبره إياه عندما يلتقيان، وسيخبره أن كل الرجال يصبحون حمقى عندما يقعون في فخ الحب، وأن النبيذ لم يوجد إلا لأجل هذا السبب.

كانت هناك ضجة في الأمام سحبت زينوفون بعيدًا عن تأملاته. حدق إلى شمس شتوية ضعيفة، إلى حيث ذهب المستطلعون، متسلقين منحدرًا للبحث عن أفضل طريقة للمضي قُدمًا. على مسافة نحو ألف ومئتي خطوة، كانوا مخلوقات صغيرة، بالرغم من أن منظرهم كان كيد باردة في صدر زينوفون. راقب وهم يقفزون ويلوحون بأذرعهم. هل كان هجومًا؟

نظر حوله، ورأى مجددًا كم أصبح شعبه أشعث ومتعبًا، لقد مضى على مسيرهم فترة طويلة، إلى حد أنهم لم يعودوا يشبهون الجيش الذي يفترض أن يكون إياه، فقد أصبحوا أكثر شبهًا بالبدو الرحل، عندما أصدر الأوامر بالبحث عن كريسوفوس رأى أن بعض مَن هم في المقدمة يركضون إلى الأمام تلبية لدعوة فريق الاستطلاع ليروا شيئًا، وعندما تقدموا أخذوا يصيحون ويلوحون، لقد سمعهم يصرخون *"ثالاسا! ثالاسا"* البحر. البحر.

رمى زينوفون الكيس عن كتفه، وأسرع بالركض نحو قمة التل مع مئات الراكضين، حيث أخذت الصيحات تعلو شيئًا فشيئًا "ثالاسا"، ها هو ذا البحر الذي حلموا به عندما كانوا في الصحراء، وها هي ذي المستوطنات والمدن اليونانية، وقبل كل شيء السفن اليونانية التي يمكنها أن تنقلهم إلى حيث يشاؤون.

رأى زينوفون الرجال والنساء يركعون، ويغطون وجوههم بأيديهم ويجهشون بالبكاء. وقف زينوفون مندهشًا في حين أخذ الرجال والنساء يعانقونه ويشكرونه على كل ما فعله من أجلهم، وعندما شعر بالدموع تترقرق في عينيه مسحها، محاولًا استعادة رباطة جأشه.

سمع زينوفون: "هنا! خذه إلى القائد" فحول رأسه لرؤية راع فتى يُرشد إليه. بدا الولد يونانيًا، لكن عندما تكلم بتلك اللغة، صرخ زينوفون صرخة فرح كبيرة انتشرت عبر كل المحتشدين حول ذلك المكان.

قال الفتى: "أنا يوناني حر، الابن الأكبر لإيكوس، صحيح أنك لن تأسرني؟".

فهز زينوفون رأسه وقال:

"أنت آمن، مع كل ما معك من ماعز، أعدك. ولكن أخبرني يا فتى عن اليونان. ما أخبار أثينا؟ لقد كنا بعيدين لأكثر من عام أما زالت صامدة؟"

حدق الفتى إلى الرجال والنساء الذين بدوا له متوحشين وقد كانوا ينظرون إليه بتعجب.

"إنها تنهض يا سيدي. لقد أُعدم الخطيب بوليميس، وكذلك سقراط. أعاد المجلس بناء سور المدينة الذي هدمه الإسبارطيون، وأصلح المعابد في الأكروبول. ابتسم الفتى لأنه أثبت معرفته، لكن ذلك التعبير تلاشى عندما رأى عينَي زينوفون تجحظان ووجهه يشحب.

"سيدي، هل تفوهت بما يسيء؟".

"لا أيها الفتى، ولكن صحيح ما سمعتك تقوله إن سقراط أُعدم؟".

"أوه، هل كنت تعرفه يا سيدي؟ لقد كانت محاكمة مشهورة. قالوا إنه لا يؤمن بالآلهة وإن شباب أثينا كانوا يفضّلون سماعه وهو يتكلم بدلًا من أن يعملوا. عرضوا عليه النفي أو الصمت، واختار الأحمق المسن الموت بدلًا من ذلك! سُمح له بتناول السم يا سيدي. أما بوليميس فقد كان مسألة مختلفة، ذلك ما قاله والدي. لقد...".

ابتعد زينوفون عن الفتى الثرثار، واندفع من خلال الحشد. شعر لفترة من الوقت بالحزن التام، بدا أن الأفكار قد غادرته، لقد قطع شوطًا طويلًا، وتعلم الكثير من الأشياء، ولكن سقراط لم يعد موجودًا ليستمع إليه... وجد نفسه يبكي، وهذه المرة لم يجد حرجًا في أن يرى الجميع دموعه، جلس وحيدًا بعيدًا عن الحشد المبتهج، لم يكن بعيدًا جسديًا فقط بل بفكره وحواسه أيضًا.

بعد فترة، سمع وقْع خطوات ففتح عينيه، ورفع رأسه من حيث استراح على ذراعيه. ظن أن هذه الخطوات هي خطوات كريسوفوس، ولكنها كانت خطوات بالاكيس. نظر إلى الأعلى إلى عينيها المحمرتين، فشحبت وجنتاه.

قال زينوفون: "يا ليتك عرفته، لقد كان رجلًا عظيمًا، قلّ نظيره، لا أعتقد أنه كتب أفكاره، أتصدقين ذلك؟ سيُنسى خلال قرن من الزمن، لا تمثال له، ولن يعرف الناس أن رجلًا يدعى سقراط مرّ على هذه الأرض".

فقالت: "لماذا لا تكتب ما تتذكره عنه؟ أظن أنه كان يثق بك، ولن يكره أن تدوّن أفكاره، من الواضح مقدار الحب والاحترام اللذين تكنّهما له".

جلست إلى جانبه، وكافح زينوفون لمواجهة الحزن الذي يجتاحه، أراد أن يستدير إليها، ويدفن رأسه في صدرها، ولكنه كبح هذه الرغبة، مذكرًا نفسه بأنها ليست له، ولكن ربما لم تيأس منه بعد كل ما بدر منه.

سألته: "ماذا ستفعل الآن بكل الذهب والفضة؟ أستشاركها مع الرجال؟ أم..."

رمش عندما خطرت بباله فكرة، في لحظة نحّى حزنه جانبًا، كان سيخلد ذكرى سقراط بالخمر وتُدوين كلماته، لقد أقسم على ذلك، ولكن في تلك اللحظة، كانت الفرصة متاحة لشيء أعظم من ذلك.

مسح زينوفون وجهه بيديه والتحق مجددًا بالحشد. بدا على كريسوفوس أنه يشعر بشفقة صادقة.

قال زينوفون: "ليأتِ الضباط إليّ".

"نقباء، ضباط، قادة. هيفاستوس، أنت أيضًا، إذا سمحت". تجمعوا بسرعة كافية وقاد بعضهم بعضًا، حتى وصل إلى شجرة زيتون، ربما تكون قد نمت من بذرة حملتها الرياح من الجهة المقابلة من العالم. ربّت على جذعها، وشرد مفكرًا، قبل أن يقول:

"أيها السادة، جاءت هذه الشجرة من مكان بعيد، ورسّخت جذورها هنا، مثل اليونانيين على شاطئ البحر أمامنا، لدينا بذرة مدينة هنا. انظروا إلى كل هؤلاء الذين جلبناهم إلى هنا لدينا جنود ونساء وأطفال وعبيد. لدينا الذهب والفضة والحرفيون المهرة، لدينا كل ما نحتاج إليه لإنشاء مدينة يونانية على هذه الأرض. هل تحبون أن نتبعثر في بقاع الأرض، بعد كل ما قاسيناه معًا؟ شخصيًا، أشعر برابطة أخوّة متينة تجمعني معكم، لم يسبق لي أن شعرت بها مع أحد من قبل. هل هناك أحد بينكم لا يستطيع قول الشيء نفسه؟ ولكن إذا عدنا، فسنعود إلى حياتنا ومخاوفنا القديمة. لماذا لا تكون بذرة دولة؟ أمةٌ جديدة. قد نورث من هذه الأرض إمبراطورية لأولادنا. لمَ لا؟ كان اهتمامنا الكامل هو البقاء على قيد الحياة والوصول إلى هذا المكان. الآن ها نحن هنا، والآن نحن نعرف أنه يمكن القيام بذلك، لماذا لا نبني؟ لدينا ما يكفي لنبني". نظر إلى كريسوفوس، مراقبًا إياه باهتمام.

"يمكننا أن نكون إسبارطة أخرى، طيبة أخرى. وإن كان هناك نهر يتدفق يمكننا أن نكون أثينا أخرى. ربما سنبحر إلى هناك في السفن التي صنعناها بأنفسنا".

سأله كريسوفوس: "هل ستقودنا، إذا اخترنا البقاء؟".

أعاد زينوفون النظر إليه من دون تردد.

"إن كنتم راغبين في ذلك، وتقبلون بي فلا مانع لديّ، سيكون من الشرف لي قيادتكم، وسيكون بناء هذه الأمة هدف حياتي، كنت أعتقد أن هدفي هو إيصالكم آمنين إلى هنا، ولكن يبدو أن ما ظننته هدفًا، ليس إلا بداية طريق جديد".

أومأ كريسوفوس وقال: "يجب أن نستفتي رأي الآخرين، فأنت أدرى الناس بأن قرارًا مصيريًا كهذا لا يمكن أخذه من دون نقاش".

"نعم... بالتأكيد".

شرد زينوفون، وهو ينظر من فوق الرمال إلى حيث مياه البحر المتلألئة. لقد شعر بألم، لكن في أثينا، من سيكون؟ ليس الرجل الذي أنقذهم. لا، سيكون مرة أخرى نكرة، ولن يكون أكثر شعبية مما كان عليه من قبل. من دون وجود سقراط ليزوره، لم تعد المدينة التي وُلد فيها مسقط الرأس الذي يتوق لأن يوارى الثرى فيها.

"اختر بعناية، يا كريسوفوس، من فضلك. هذه هي الفرصة الوحيدة التي ستتيح لنا القيام بذلك. كلنا يونانيون يا صديقي. يمكننا أن نفكر في ذلك".

بقوا في ذلك المكان، لثلاثة أيام، والبحر يلمع في البعيد. انتظر زينوفون أن يصلوا إلى نتيجة. وأجاب عن أية أسئلة طُرحت عليه بأمانة قدر استطاعته. في النهاية، أرسلوا كريسوفوس نفسه ليبلغه القرار، ولم يعلم زينوفون ما إذا كان ذلك جيدًا أم سيئًا.

شعر بالخواء والعصبية وقد وقف لتحية الإسبارطي. جاء كريسوفوس إليه مباشرة، ووضع يده على كتف النبيل الأثيني الذي أوصلهم آمنين عبر إمبراطورية.

"أنا آسف يا زينوفون. نحن نريد العودة إلى مدننا".

شعر زينوفون بسكين بين أضلاعه، ألم مفاجئ جلبَ الدموع إلى عينيه. أحنى رأسه ونظف حلقه مدركًا أنه يرتجف.

"بالطبع، أنا... جيد جدًا يا صديقي سيكون عليكم تقاسم الذهب والفضة. يجب أن يكون كافيًا ويقيكم من الجوع إلى أن تتمكنوا من العثور على عمل".

سأله كريسوفوس: "ألن تغادر معنا؟".

بدا الحزن في عينيه، وعلم زينوفون أن هذا آخر العهد بينهما. فهز رأسه.

"لا، لا أعتقد ذلك. لقد ورثت القليل من الأرض في بيلوبونيسوس، ليست بعيدة عن إسبارطة. هناك مدير عقارات يقوم باستيلاد الأحصنة لي. أنا متأكد من أنه يعتقد أنه يملك المكان، بعد كل هذه الفترة الطويلة. لا، كريسوفوس، لن أبقى. أنا لا أحسن الوداع، يا صديقي. سأشق طريقي إلى هناك. ربما سوف تزورني ذات يوم، وتحضر قارورة من النبيذ معك. سأحب... ذلك".

أخذ كريسوفوس يده وأمسك بها.

قال له: "أنا أعطيك كلمتي، أيها القائد، وشكري، سأراك مرة أخرى، أعدك. سنرفع عندها نخبًا، لكل ما فعلناه هنا - ومع الأصدقاء الغائبين".

قال زينوفون مبتسمًا من خلال عينين تتلألأان بالدمع: "لقد فعلناها، أيها الإسبارطي".

من دون كلمة أخرى، ربّت على كتف كريسوفوس وانطلق إلى أسفل التل بخطوات وئيدة، متجهًا نحو البحر.

معلومات تاريخية



ترجم كتاب زينوفون أناباسيس، الذي نُشر تحت عنوان "الحملة الفارسية في كتابات البطريق الكلاسيكية"، إلى "طريق إلى الأعلى". إنها قصة تمرد الأمير سايروس على أخيه، والجيش الذي بناه، ومعركة كوناكسا التي خاضها وخسرها، ثم الوضع المريع الذي وجد فيه المرتزقة اليونانيون أنفسهم. لقد كانوا بعيدًا عن الوطن، محاطين بالأعداء، لكنهم كانوا قوة قتالية من النخبة التي لا يمكن تدميرها بسهولة. حدث ذلك بعد ثمانين عامًا من ثيرموبيلاي وقبل سبعين عامًا من الإسكندر الأكبر.

السياق التاريخي الفارسي: غزا الملك الفارسي داريوس اليونان في العام 490 قبل الميلاد، وخسر في ماراثون. وجمع جيشًا آخر ليحاول مرة أخرى لكنه توفي، كان زيركسيس هو الملك الذي قاتل الإسبارطيين في ثيرموبيلاي. ووصل إلى أثينا وأحرقها بالفعل، لكن البحرية الأثينية فازت في معركة غير عادية ضد أسطوله، مما قلل من قدرته على المناورة.

عاد زيركسيس إلى موطنه، وترك القائد ماردونيوس لمواجهة جيش بقيادة الإسبارطيين على الأرض. بالرغم من أنهم كانوا أقل عددًا بكثير، ذبح الإغريق العدو، وقُتل زيركسيس على يد حارسه الشخصي في عام 465 قبل الميلاد. أصبح ابنه أرتحششتا ملكًا، وكانت لديه البصيرة لترك اليونانيين وحدهم، يتمتعون بعهد سلمي حتى وفاته تقريبًا في عام 424 قبل الميلاد.

كان للملك أرتحششتا ثلاثة أبناء. وأصبح أكبرهم ملكًا لبضعة أسابيع قبل اغتياله على يد الثاني، الذي قُتل بدوره بعد ذلك على يد الثالث، داريوس الثاني.

كان لداريوس الثاني ولدان، أرتحششتا وسايروس. من هنا تبدأ هذه القصة.

في اليونان، سيطرت إسبارطة على المدن الألف، وهزمت أثينا، وفرضت مجلسًا اسبارطيًا للحكم هناك عُرف باسم مجلس الثلاثين. كان الشاب زينوفون نبيلًا أثينيًا معجبًا بالإسبارطيين أكثر

من شعبه الأثيني المثير للجدل، الذي يمكن أن يكون لأفراده عشرات وجهات النظر المتعارضة في قرار لتناول وجبة العشاء أو مشاهدة مسرحية.

زينوفون أحد تلامذة سقراط، هذه حقيقة، ولكن على عكس الطالب الأكثر شهرة، أفلاطون، كان اهتمامه بالمفاهيم الوجودية، أو المجتمع المثالي، أقل من اهتمامه بالتطبيق العملي للفلسفة. كان زينوفون أحد هؤلاء الأثينيين الذين حاولوا خلق حياة سعيدة من خلال الإرادة، الذين أرادوا معرفة كيف يعيشون. كان يجد أن انضباط الإسبارطيين وتضحيتهم بالذات هو أمر مثير للإعجاب، لذا فهو كان دائمًا رجلًا ممزقًا بين ثقافتين.

ملاحظة حول المسافة: كان الفرس في تلك الفترة يميلون إلى استخدام "بارسانغ" بوصفها وحدة زمنية وقد كانت تُستخدم في كثير من الأحيان بشكل مربك على أنها مقياس للمسافة أيضًا، في النصوص اليونانية. ما يعادل ذلك هو "إنه على بعد ساعة". قدّر هيرودوتوس الباراسانغ بما يقارب ثلاثين "ستادًا" أو 3.5-3.75 ميل. لقد تركت بعض الإشارات إلى الأميال في النص، لإعطاء القراء الذين لا يفكرون في البارسانغ والستاد فكرة أوضح عن المسافات المعنية. خلال طريقه شرقًا، سجّل سايروس سير رجاله بين اثنين وعشرين إلى أربعة وعشرين ميلًا يوميًا - حوالى سبع ساعات على الطريق، بما في ذلك التوقفات. وهذا ما يعادل سرعة الجحافل الرومانية في وقت لاحق. من المثير للاهتمام مقارنة المسافات التي سجلها زينوفون في وقت لاحق، عندما كان معه أتباع المعسكر. كانت مسافة خمسة عشر ميلًا في اليوم هي المعتادة. فقد كان تأثير الحاجة إلى التوقف عند كل نهر لتجديد المياه واضحًا.

إن الأحداث التي وقعت في كليكيا مع الملكة إبيكسا - حيث أحضرت أموالًا إلى سايروس بعد أن تم عزله، ثم بقيت الليلة معه - هي حادثة آسرة. أتمنى لو كنا نعرف عنها أكثر، لكن زينوفون هو المصدر الوحيد. لقد وصف هجومًا وهميًا وُضع لإقناع الملكة، وهو الهجوم الذي وجه بطريق الخطأ جزءًا من القوات الخاصة لسايروس، عندما رأوا أنها قادمة. وهو يصف أيضًا اجتماعًا أطول، شارك فيه زوجها الملك سينيسيس في طرسوس، المعروفة بأنها مسقط رأس شاول الطرسوسي في قرن لاحق، الذي سيصبح القديس بولس.

تكمن الصعوبة في مثل هذه الأحداث التاريخية المفصلة باستحالة احتوائها في رواية. قد يصف زينوفون مناوشة على تل في ثلاثة أسطر، ولكنني لم أستطع القيام بذلك في أقل من فصل. للحصول على التفاصيل التي لم أتمكن من ملاءمتها هنا، أوصي بقراءة كتاب الحملة الفارسية، خاصة لأي قارئ مهتم بمعرفة الكيفية التي يفكر وفقها اليونانيون ويتصرفون.

يذكر زينوفون أن جيش سايروس كان مئة ألف، وأن جيش أرتحشَشتا بلغ 1.2 مليون، مع مئتي مركبة وستة آلاف فارس. من المستحيل معرفة ما إذا كانت تلك الأرقام حقيقية، بالرغم من أنني اخترت تقديرًا أقل وهو نحو ستمئة ألف رجل، وهو رقم كبير جعل جحافل جنكيزخان تبدو صغيرة.

قاد الجيش الفارسي أربعة قادة: أبروكومس، وتيسافيرنيس، وغوبرياس، وأرباسيس. فيما عدا تيسافيرنيس، لم أستخدم كثيرًا هذه الأسماء، خوفًا من تضييع القارئ بأسماء كثيرة غير مألوفة.

كان هدفي هو سرد القصة.

كما قال إي. إل. دوكتورو: "سيخبرك المؤرخ بما حدث، والروائي كيف تشعر بالحدث، وشخصيًا سعيت في هذا العمل لتحقيق الأمرين".

لقد وصف زينوفون التمرد الذي عالجه القائد كليرشوس بشيء من التفصيل. كان ذلك تقريبًا في الوقت الذي اكتشف فيه الجنود من سيحاربون حقيقة؛ وهو أمر ربما كان كبار القادة يعرفون، بخلاف الجنود العاديين، إن بكاء كليرشوس أمام الجنود لم يكن أكثر من تمثيل مسرحي، وذلك عندما خيّروه بشأن خيانة الأمير إذ قال إنه لن يخون بل سيختار بدلًا من ذلك قائدًا لهم ويتنحى جانبًا.

كل ما ورد عن معركة كونكاسا يستند إلى مصدر واحد وهو ما وصفه زينوفون بصفته شاهد عيان، ولا يذكر نفسه فيما ذكر إلا مرة واحدة حين تبادل بضع كلمات مع الأمير سايروس قبل الانضمام إلى المعركة. لا يمكننا التأكد من أن هذه المحادثة جرت حقًا، أم أنها وسيلة استخدمها زينوفون ليدخل مجرى الأحداث

أرسل الأمير سايروس اليونانيين، لكنهم أُحبطوا من العدد الهائل للجيش الإمبراطوري. لقد أقنع تيسافيرنيس الملك أرتحششتا بجمع جيش كبير، لذا ربما كان المشروع بأكمله مقدرًا له الفشل دائمًا. من الصعب معرفة ذلك. من الممكن دائمًا للأمير أو الملك إيقاف سهم، بالطبع. ولعل معجزة القادة الذين شاركوا في المعارك، مثل قيصر وجنكيز، هو أنهم نجوا من العديد من المواجهات مع الموت.

رأى سايروس أن المعركة يمكن الفوز بها بضربة واحدة. وذلك بعد أن تقدم ومرافقه الشخصي إلى قلب جيش أخيه- وهي مغامرة خطرة جدًا- وضربه وكاد يقتله، قبل أن يصيبه رمح ويرديه أرضًا. من المغري الاعتقاد بأن حياته كانت حياة عظيمة لم تُعش، وأن هذه اللحظة كانت إحدى اللحظات في التاريخ التي ربما حاول فيها أمير بلوغ المجد لكن حِيل بينه وبين ذلك. لن تمر سنوات كثيرة قبل أن ينهب جيش الإسكندر الأكبر تلك المقابر الأخمينية. ربما كان باستطاعة الملك اليوناني معاملة أرض سايروس بطريقة أفضل.

وصف زينوفون الأمير الذي رُفع رأسه على رمح في استعراض كدليل على أنه مات. يتضح الحجم الكبير لساحة المعركة في ما يلي: تجول الملك أرتحششتا مع جائزته المريعة. في هذه الأثناء، لم تكن لدى كليرشوس واليونانيين أية فكرة عن سقوط سايروس.

استمروا في اختراق صفوف العدو معتقدين أنهم انتصروا. وجاءت أخبار الوضع الحقيقي ببطء إلى كلا الجانبين، وأدرك اليونانيون فجأة أنهم أصبحوا أمام متاعب جمة. تم سحب الجيش الأصلي الذي أحضره الأمير سايروس إلى كوناكسا بواسطة القائد أريايوس. كان ذلك يبدو محاولة معقولة للبقاء على قيد الحياة، بالرغم من أنها تركت عشرة آلاف من الحلفاء اليونانيين مكشوفين تمامًا. لم يبق هؤلاء الجنود على قيد الحياة إلا بسبب تفوقهم الاستثنائي. في المشاهد التي تذكرنا بليونيداس في ثيرموبيلاي، كان يمكن أن يسيروا ببساطة عبر تشكيلات العدو ويخرجوا سالمين. لم

يكن الفرس أندادًا لهم، من ناحيتي الانضباط والدروع. فبالرغم من العدد الهائل للفرس إلا أنه كانت لليونانيين صولات وجولات في أرض المعركة.

يبدأ القسم الثاني بوضع غير عادي. تجمع اليونانيون في معسكرهم، وبلغ إجمالي عدد المحاربين عشرة آلاف جندي مع عدد أكبر من أتباع المعسكر. لقد كانوا على بعد أكثر من ألف ميل من اليونان، ومن دون دعم أو طعام أو ماء.

لم أذكر المناقشات التي دارت بين الفرس واليونانيين فيما يتعلق بتسليم أسلحتهم، فقد أشار اليونانيون إلى أنهم إما حلفاء، وفي هذه الحالة كانوا أكثر قيمة مع أسلحتهم، وإما أعداء وفي هذه الحالة هم بأمس الحاجة إلى أسلحتهم، وفي كلتا الحالتين، فإنهم لن يتخلوا عنها. إنه مجرد مثال واحد على المنطق اليوناني وعناده الذي يعد سمة مميزة للمجتمع في ذلك الوقت.

لقد ضمّنت الحوار الذي حصل عندما قيل لليونانيين إنها ستكون الحرب إذا انتقلوا، والهدنة إذا بقوا في مكان واحد.

ردًا على ذلك، قالوا إنهم فهموا، لكنهم كرروا الشروط بطريقة بدوا فيها أنهم يشكلون تهديدًا: "الهدنة إذا بقينا، الحرب إذا ما تحركنا إلى الأمام أو الخلف". كانت ثقة جنود النخبة تشرق عبر خمسة وعشرين قرنًا. لقد ضغطت شهر كليرشوس الأخير قبل وفاته، عن عمر يناهز الخمسين. تضمنت الهدنة التي تفاوض عليها مع تيسافيرنيس أيامًا لن يحدث فيها أي شيء على الإطلاق. وحث يونانيون آخرون كليرشوس على الهرب، لكنه رفض.

لقد كان مدركًا تمامًا لأنه لم يكن لديه سلاح فرسان يُذكر، وأن الملك الفارسي كانت لديه أعداد هائلة من الفرسان والعربات تتيح له سحقهم.

بدلًا من خيانة فورية، كما كتبت هنا، رافق تيسافيرنيس اليونانيين بعيدًا عن كوناكسا لأيام عديدة، مما سمح لهم بأخذ الطعام ولكن ليس العبيد من القرى التي وجدوها. لقد مر اليونانيون بجيش فارسي حتى لا يزال في طريقه إلى المعركة، بعد أن فاتهم كل ذلك. نمت الشكوك بين الجانبين، ولكن تم الكشف عن أن كليرشوس كان قائدًا رائعًا للرجال في هذه المرحلة الأخيرة. لم أستطع إعطاء أكثر من لمحة من ذلك هنا.

أقنع تيسافيرنيس كليرشوس بحضور عشاء مع خمسة قادة ونحو عشرين ضابطًا إضافة إلى مئات الجنود الآخرين لجمع المخصصات. داخل الخيمة، قُبض على الجميع وقُتلوا. عاد أحد الرجال إلى المعسكر وهو على شفير الموت وتحدث عن الغدر الذي حصل.

ركض اليونانيون إلى السلاح، واقترب أريايوس وآخرين لإبلاغهم بالأخبار وطلب الاستسلام. تلاشى الخطر المباشر لسفك الدماء مع مرور الليل. بعد كل شيء، لقد أصبح اليونانيون بلا قيادة. غيّرت اسم الإسبارطي الذي ساعد زينوفون في وقت حرج، وتم تسجيله باسم كريسيوفوس، ولكن بدا كريسوفوس أفضل بالنسبة إلى عيني. هذا أمر تافه، ولكنه اختيار أكثر من كونه خطأ. لا بد أنه كان رجلًا مثيرًا للاهتمام، فلقد قاد كريسوفوس الحشد في قبولهم لزينوفون.

ربما كان كريسوفوس سيتولى القيادة بنفسه، لكن زينوفون تكلم أولًا. كانت فكرة زينوفون إقامة مربع داخل مربع، رأى زينوفون أن نقص سلاح الفرسان كان أكبر مشكلة تكتيكية. باختصار، كان زينوفون هو الذي عرف كيف يقود في أزمة. إنها شهادة لهم جميعًا بأن قتل القادة اليونانيين لم يدمر الروح المعنوية. انتخبوا قادةً جددًا بمجرد سماعهم الخبر، ولم يثقوا بالفرس مرة أخرى.

إن قصة جيش فارسي شاسع يدخل تلك الجبال ويُذبح هي من رواية زينوفون، رغم أنه لا توجد وسيلة لتأكيدها. هذا هو أول ذكر للكاردوشي في أي مكان. من الممكن أن يكونوا أجداد الأكراد الحديثين في شمال العراق وإيران وسوريا.

وصف زينوفون القرى وتربية الحيوانات والزراعة، وكذلك عدوًا لا يرحم كان سيد التضاريس الصعبة. استغرق الأمر سبعة أيام لعبور تلك الجبال. رواية زينوفون حول القتال من تلة إلى تلة وكيف واجه اليونانيون مزايا الكاردوشي هي أمر استثنائي.

بعد القتال لعبور النهر، كانت الرحلة عبر غرب أرمينيا في فصل الشتاء قاسية.

ساروا خمسة عشر ميلًا في اليوم لنحو مئتي ميل أخرى. عندها يحدث المشهد الأكثر شهرة في رواية زينوفون، عندما يكتشف فريق الاستطلاع ساحلًا يعرفونه يحتوي على مستوطنات يونانية ويصرخون "ثالاتا، ثالاتا" (البحر، البحر). التركيز على المقطع الأول وبالرغم من أن زينوفون قد سجله باليونانية الأثينية كـ "ثالاتا"، لكنني أفضل استخدام لهجة بديلة كـ "ثالاسا". احتضن اليونانيون بعضهم بعضًا والدموع في عيونهم. أخيرًا، لقد وجدوا الطريق إلى الديار".

في رواية زينوفون، لا تنتهي الرحلة فعليًا في تلك المرحلة، ولكنها تستمر في رحلة السفر عبر بلد الماكرونيين، حيث يودعون بعض المحاربين المحليين.

بعد ذلك، مشوا إلى مدينة ترابيزوس المدينة اليونانية حيث استراحوا لمدة ثلاثين يومًا وأقاموا الأحداث الرياضية: المصارعة والملاكمة، والمشي السريع والركض لمسافات طويلة. ربما هناك سمع بإعدام سقراط، وهو رجل اختار الموت بدلًا من النفي، قائلًا: "إن الحياة غير المجربة لا تستحق المعرفة". لا بد من الإشارة إلى أن سقراط لم يكتب أي شيء، وكل ما نعرفه عنه بلغنا عن طريق زينوفون وأفلاطون وطلابه.

استقل اليونانيون سفنًا حربية في ترابيزوس، وذهبوا في بعثات نهب، عاقدين العزم على مغادرة الساحل مع كل ما أمكنهم حمله. سمحت حصة زينوفون له بشراء عقار على الطريق بين إسبارطة وأولمبيا، حيث كتب معظم هذه القصة.

لقد حذفت الأحداث التي تمت بعد رؤية البحر، لأنها كانت أساسًا معاكسة للذروة.

مع ذلك، كان عليّ أن أُدرج فكرة زينوفون حول تأسيس مدينة، وحقيقة أنه بعد كل ما مروا به، رفض اليونانيون عرضه. تلك بدت النهاية الطبيعية لهذا الحدث الاستثنائي؛ مسيرة عشرة آلاف خروجًا من بلاد فارس.

Notes

[1←]
هاديس هو ابن كرونوس وريا والأخ الأكبر لزيوس ملك العالم السفلي.

[2←]
هيرميس هو رسول الآلهة الإغريقة، وثاني أصغر آلهة الأوليمب، وإله البحارة. هو ابن زيوس ومايا بنت الجبار أطلس، وهو الخادم والمبعوث الخاص لزيوس. لهيرميس صندل وقبة مجنحان وعصا سحرية ذهبية تلتف حولها الأفاعي ويترأس العصا جناحان، وتسمى العصى القادوسيوس.